مصطفى جحا

رسالتي إلى المسيحيين

- الطبعة الثانية -



الطبعة الثانية

مصطفى مصطفى جحا
هاتف 03/059543
تلفاكس: 05/602798

مصطفى جحا

رسالتي
إلى المسيحيين

الإهداء

إلى كلِّ المسيحيين في هذا الشَّرق

لأن لا معنى لهذا الشَّرق بدون المسيحية

مقدمة

نافذة صغيرة على المعرفة فتحتُها لتكون بين النَّاس والنَّاس، وبين العقل والقلب؛ فلا هي غربية الهوى ولا هي شرقيّته، ولكنها مشرقية بكل تأكيد.

لقد غرق البيت اللُّبناني في الظّلمةِ وذهب نوره، فراح الأبناء يذبح بعضُهم بعضًا، ويهجّر بعضُهم بعضًا.

واستمرت هكذا النزاعات بينهم وتفاقمت وتعاظمت ولم تجر على استواء؛ فإذا البيت الجميل ـ لبنان ـ الذي بنوه معًا، تعصف فيه الريح من كل مكان، فكأن أهله قد انكسروا من مصيبة فتركوه خرابًا!

ماذا تفعل نافذة صغيرة؟

ربما لاشيء على الإطلاق...

وربما لن يراها أحد...

فلا أنا مما يدعون إلى دين أو مذهب، ولا الوقت يسمح بالتبشير، ولا العيشة راضيةٌ، ولا الأقوام أو الشعوب أو الدّول مجتمعة على الأُلفة والمودة.

ومهما تقدمت الاختراعات وتطورت المنشآت، فلن تأتينا ـ كما يبدو ـ بما سيردّ إلى الإنسان سعادته وراحة باله وفرحه ما دام وعدُ هذه «الحضارة» إعصارًا ليس بعده إعصارٌ.

فمن الفتوحات إلى الحروب الصليبية إلى دخول الاستعمار بلادنا،

والغاية - كما أراها - واحدة، هي: التوسع والسيطرة والاستثمار والاستغلال والتفرقة والتفتيت.

ما أبغض الحروب الديّنية إليَّ!

لقد كان من الطبيعي جدًا أن تنشأ في بلادنا حركات تحررية تدعو إلى فصل الدين عن الدولة، وترسخ المشاعر القومية والإنسانية مما يحقق التعايش بين أبناء المذاهب والطوائف ممن لديهم التاريخ المشترك واللغة الواحدة والأرض الواحدة والمصير الواحد.

فليس مصادفة إذن أن يكون رواد هذه الحركات «الجديدة» من المسيحيين، إذ خافوا على أعناقهم من الذبح الطائفي، فنشروا المبادئ الإنسانية بلغة حية نابضة، وحملوا لواء الحرية والعدالة الاجتماعية، ورجاؤهم أن يجدوا إخوانًا لهم من المسلمين يقفون إلى جانبهم ليشدوا أزرهم، ويردوا عنهم القبضات الفولاذية والسّيوف اليمانية أو المهندة.

أي معنى لهذا الشرق بدون المسيحية، وأية مسيحية ستتخلى عن الشرق؟!

إن ما يرمي إليه كتابي هذا، الموجه بصورة رئيسة إلى المسيحيين، هو التأكيد على حبي لهم وحرصي عليهم وتمسكي بضرورة بقائهم كرامًا وأحرارًا، وأصحاب كنيسة جامعة ومسيحية موحدة.

يمكنني القول إن (رسالتي إلى المسيحيين) ليست مثلها ولا واحدة من رسائل المسيحيين - على كثرتها - إلى أصحاب موسى وأصحاب محمد.

أقلام هؤلاء الأساتذة والكتّاب قلقة وخائفة ممن كتبوا إليهم وخاطبوهم، في حين أن قلمي يغالبهم الخوفَ، أو هو أخوَف منهم على وجودهم، لا من الأديان الأخرى فحسب، بل من كل التيارات والعقائد

والاضطرابات المعادية للمسيحية، ومنها الانشقاقات والنِّزاعات التي ضربت الكيان المسيحي ومزقته وبعثرته فيما كان ينبغي له واحدًا موحدًا.

منذ أمد بعيد والمسيحيون هم الذي يكتبون ويخاطِبون، سائلين التفاهم والتعايش والحوار والأمن والسلام. أما معي الآن، فهم المخاطَبون والمطالَبون، وليست الأسئلة واحدة، لأنني غير خائف منهم، بل خائفٌ عليهم ومعهم.

لا تبحث (رسالتي إلى المسيحيين) في الله والخليقة وخلقة انسان والمخلّص، ولا شأن لها بـ «فعل الخطيئة» والشيطان ومقتل هابيل والطوفان وإبراهيم وإسحق ويعقوب، ولا هي أُعدّت لتقارن بين الإنجيل والقرآن، أو التثليث والتوحيد، أو اللاَّهوت والفقه، أو القداسة والنبوة، ولا بين الجنة والنار أو الإيمان والإلحاد.

إن (رسالتي إلى المسيحيين) هي إلى كل مسيحي شرقي: إلى الموارنة والأورثوذكس والكاثوليك، إلى الأقباط والأرمن والإنجيليين، إلى السريان والكلدان والآشوريين، وإلى سائر الأضلاع المسيحية السائبة.

أتراهم يفكرون في مسيحية بلا مذاهب؟

لست أدري.

من بعض الأديار والكنائس انطلقت (رسالتي إلى المسيحيين) لتنتهي إلى الأديار والكنائس.

هي - إذن - في الأعمال لا في الأفكار. بل هي مشاهدات وتحقيقات قدر لي أن أقوم بها شملت: السريان وكيف حصل الانشقاق بينهم، ومقر البطريركية للسريان الكاثوليك قرب المتحف على طريق الشام، ودير الشرفة في درعون. وشملت أيضًا الأب يوسف الشدياق، مؤسس المعهد الأنطوني ومجلة «كوكب البرية»، والمطران يوحنا حبيب

مؤسس «دير الكريم»، و«جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة»، والأسقفين: عبد الله قرآلي (قرعلي)، وجبرائل حوّا، ومعهما الراهب يوسف البتن، مؤسسي الرهبانية اللبنانية المارونية، ودير «سيدة اللويزة» ومدرسته ومركزه العالي.

وتتضمن (رسالتي إلى المسيحيين) حكاية الراهبة الأم كاترينا كركبي، وكيف أسست دير سيدة الدخول للروم الأورثوذكس في «كرم الزيتون» ـ الأشرفية. وكذلك قصة «جمعية زهرة الإحسان» التي بعثتها الأم الحاجة مريم جهشان بمساعدة المحسنة الكبيرة المرحومة السيدة إميلي سرسق.

وفي (رسالتي إلى المسيحيين) دراسة مختصرة في البطريرك الرّاحل مار أغناطيوس يعقوب الثَّالث الرئيس الأعلى السابق للكنيسة السّريانية الأرثوذكسية، ومقالة في القديس شربل مخلوف كتبت بمناسبة إعلانه قديسًا، ومقالة في الأب يعقوب الكبوشي بمناسبة تطويبه، ومقالة في المطران الراحل كيريوس نقولاوس نعمان، ومقالة في أيقونات الأخت بلاجيا تبشراني، و«بيان الزيارة»، تلك الخطبة العزيزة على قلبي التي ألقيتها ظهر الثلاثاء 23 تشرين الأول 1984 في كنيسة مار يعقوب السروجي ـ السبتية المتن بمناسبة الزّيارة الرّسولية للبنان التي قام بها صاحب الغبطة مار أغناطيوس زكّا الأول عيواص.

كذلك في (رسالتي إلى المسيحيين) دراسة عن الروم الكاثوليك: ملّةٌ وكنيسة بطريركية، وفيه دراسةٌ مستفيضة أيضًا عن الأرمن وقضاياهم وأوجاعهم.

تلك هي موضوعات (رسالتي إلى المسيحيين) التي لا يبرر جمعها في كتاب واحد سوى حبي للمسيحيين وخوفي عليهم وتحسسي حاجتَهم إلى كنيسة جامعة ومسيحية موحدة.

إنني لا أدَّعي الكمال في أي من التَّحقيقات أو الدِّراسات أو المقالات التي ضمها كتابي (رسالتي إلى المسيحيين)، ولكنني أشكر الذين أمدّوني بالمصادر والمراجع الصالحة المختصة التي مكنتني من إنجاز هذا العمل المتواضع، ومساعدتهم لي وتعاونهم معي، لا سيما المطران ثاوفيلوس جورج صليبا، والمؤرخ الأبّاتي بطرس فهد الرئيس العام السابق للرهبانية اللبنانية المريمية، والمونسنيور ميخائيل جميل سكرتير غبطة البطريرك أنطون الثاني حائك، والأب جورج مصري السِّرياني الكاثوليكي الرئيس السابق لدير الشّرفة، والأب يوحنا العنداري الرسولي، والقس عبد المسيح توما الخوري السرياني الأرثوذكسي، والأب الدكتور أغناطيوس سعادة الرّسولي، والأب يوسف ملكي، والحاجة بربارة أبو إبراهيم من «راهبات جمعية زهرة الإحسان»، والأم الحاجة مارغو تبشراني رئيسة دير سيدة الدّخول للروم الأرثوذكس، والأب الدكتور توما مهنا، والأب حارس مطر مدير مكتبة جامعة الروح القدس، والأب ميخائيل معوض، والأب سليم رزق الله الكبوشي، والأستاذ إلياس المر، والأستاذ متري نعمان.

على أنني سأبقى محتفظًا بالشّكر العميق للجميل الذي جاد به علي الأصدقاء ـ وهم كثيرون على كل حال ـ ومتواضعون وذوو صفات حميدة وأخلاق كريمة.

مصطفى جحا

حديث مع المسيح

يحمِلُني إلى حيث أنتَ الشَّوق والحبُّ لأعفّر جبيني بترابك.

الجراحُ تذكّرني بيوم مولدك.

الجراحُ تذكّرني بيوم موتك.

يرتسم الصَّليب للإنسان مكبّرًا وداعيًا.

على حدوده، يتبادل العالمُ النّظريات.

ويحتدم الصّراعُ لحظةً ثم لحظة.

لا أحد يعرف مَن أنت

وتبقى على الصّليب «مسمَّرًا» من أجل هذا العالم المضطرب أبدًا.

نميلُ بسمْعِنا إلى الجلادين كلّما سئِمنا النَّحيب والبكاء

اختلفَتْ عليك الأحزاب

أُوافقُ مَن؟



إذا كنتَ إلهًا فأنتَ النبيّ والإنسان

وحده الإنسان يستطيع أن يكون هو الله والنّبي وذاته.

مَن الذي يحفظ «سرَّ التجسّد»؟

أحزاب بلا عقول... وأحزاب بلا قلوب

صليبك ملأ عليهم الأرض، فأَخْلَفَت المشانقُ التي كانت حُطامًا.

جعلوا الدّينَ إرْثًا وهوية ولحْمًا وعظامًا.

أيّنا له الحق أن يرفِض أو يقْبَل؟

الاعتراف بألوهتك «طريق إلى جهنم»، والاعتراف بموتك على الصّليب «خطيئة فاحشة».

كما الأغنام نولد ونحيا ونموت.

ماذا نفعل إذًا؟

اختلفت عليك الأحزاب.

ماذا أقول لأمّتي؟

ماذا أقول للدّين ـ الإرث؟

القيامةُ مجدُك؟

أين هي سعادتي؟

أين حريّتي؟

من قيّد بالأصفاد يديّ؟

أنا مثلك لا مجد لي بدون القيامة

ولكن القبر لن يتفجّر!

إنسانّيتي تموت، تنحلّ، تصبح ترابًا، تصبح لا شيء

لا أريد هذا المؤلد، لا أريد هذا الموت!

بدونك تتساقط الأرقام أصفارًا

بدونك تنتصرُ القبور

قيامتُك تُنقِذُ النَّاس من الموت والوَهْم

أيتها الحرية أعطني يدَكِ!

لا أحب الوقوف على القبور

يُكرهونني على الاعتراف...

ويُكرهونني على الكذب...

كيف نكذّب حدثًا غير عادي؟!

أيتها الحرية،

نريد أن نولَد مخيَّرين

نريد القيامة

زمنُ الموت طال

زمنُ القبر طال

متى القيامة؟

متى الحق؟

متى الحرية؟

أيتها الأرض ـ الصَّمت

تكلّمي!

يُكرهونني على الاعتراف...

ويُكرهونني على الكذب...

بيد أني وُلدتُ «إنسانًا»!

أيها المسيح،

ماذا أدعوك؟

أإله أنت أم نبيٌّ؟

إن هذه ما عادت مشكلتي

لقد ثبت لي أنك وُلدتَ إنسانًا

وثبت لي أيضًا أن الإنسان وحده يستطيع أن يكون

هو النبي أو الإله أو الشّيطان أو ذاته

ووحده الإنسان أيضًا يستطيع أن يكون هؤلاء جميعًا.

لِيبقَ صليبُك، أيها المسيح، هو الطَّريقُ إليك

إليك أنت،

يا أيها الحقّ والطَّريقُ والحياة!

الفصل الأول

كاهِن وَرسَالة

الأب يُوسف الشدياق

مؤسّس مجَلّة كَوكَب البريّة والمعهَد الأنطونيْ

«إن الأنطوني، وكل أنطوني، لايعمل لذاته بل لربّه بل لربّه ورهبانيّته. والرهبانية لا تعمل في بَعبَدا وسوّاها ليَعبدها الناس بل ليَرُوا الأعمال الحسنة ويمجّدوا الأب الذي في السماء».

الأب رُوفائيل لطيف الأنطوني مجلة صدى المعهد آذار 1960

الأب يُوسف الشدياق

في دير مار يوحنا ـ القلعة ببيت مري، كان الرّئيس العام للرّهبانية الأنطونية، الأبّاتي ميخائيل أبو فاضل[1] يتحدث إلى زواره الذين جاءوا من بيروت وبعض قرى المتن، ومما قاله: «نحن تعلمنا أن نبني بيْتنا منفتحًا على النَّاس والشَّمس والهواء، لا كهفًا أو دهاليز، فللمرء أن يرى ما عندنا بوضوح. نوافذنا كبيرة وهي من الزجاج الشفّاف».

عندها تكشَّف لي سرّ لازمني مذ عرفتُ بعض الأديار المسيحية المنتشرة على التلال وفي بطون الجبال والمدن انتشارَ الكواكب في السماء. وعلمت أن الذي يسوق الجماهير المسيحية ـ كبارًا وصغارًا ـ إلى هذه القلاع والصُّروح، إنما هو انفتاحها على الناس، كل الناس، بلا ريب ولا وجل.

من خلف زجاج شفيف نظيف في ديرين أنطونيين هما: مار إشعيا ومار أنطونيوس، نقرأ أو نحاول تراثًا عظيمًا تركه لنا كاهن لبناني أنطوني ملأ اسمه البلاد، كما ملأ دواوين أربعة متصرفين هم: نعوّم باشا الحلبي (1892 ـ 1902)، ومظفّر باشا البولوني (1902 ـ 1907)، ويوسف نصري فرنكو باشا الحلبي (1907 ـ 1912)، وأوهانس باشا الأرمني

---

(1) توفي في 3 تموز 1983، ودفن في مدفن الكهنة التابع لدير مار اشعيا. خلفه الأب الياس عطا الله يوم 13 آب 1981. وفي 3 أيلول 1984 عُيِّن الأب نعمان دكاش أمينًا عامًّا للرهبانية الأنطونية ورئيسًا على دير مار روكز ودير مار يوحنا ـ القلعة.

(1912 ـ 1915)، ثم وصل إلى روما وعواصم أخرى هو «المحرم» و«المُدَبِّر» الأب يوسف الشدياق، مؤسس مدرسة القديس يوسف الأنطونية ـ في بعبدا ـ التي قاومت الأعاصير وتصدت للنّكبات فصارت معهدًا واسع الأرجاء والشهرة، اسْتحدث ـ منذ 5 تشرين الثاني 1979 ـ فرعي الطب والهندسة التابعين لجامعة لوفان (Louvain) الكاثوليكية البلجيكة التي ترقى إلى 1426م. وكما قال الأبّاتي أبو فاضل الذي دعا إلى قداس احتفالي في يوم الافتتاح، فإن «الغاية المتوخاة من استحداث فرعي الطّب والهندسة تحقيق المزيد من ديمقراطية التعليم العالي في لبنان. إذ إنَّ هذه الخطوة ستساعد حتمًا على الإفساح لعدد كبير من الطلاب اللبنانيين الذين لا يتمكنون من السفر إلى الخارج للتحصيل، وعلى تنمية روح الإيمان عند هؤلاء الطلاب إلى جانب روح العلم، لأن روح العلم وروح الإيمان لا يتناقضان مهما بلغت ذروة العلم وتطوره في هذا العصر[1]»[2].

---

(1) الأبّاتي ميخائيل أبو فاضل، من كلمة ألقاها في القداس الاحتفالي الذي أقامه في قاعة المعهد، يوم الاثنين 29 تشرين الأول 1979. وقد أعلن، من هناك، بحضور السفير البلجيكي، في لبنان، السيد هنري ساجستير افتتاح هذين الفرعين.

(2) إثر لقاء مع الأب لويس رهبان، الرئيس الحالي للمعهد الأنطوني ـ تم يوم 7/ 3/ 1985 ـ علمت أن المعهد تعاقد أيضًا مع جامعتي بروكسل (Bruxelles) وليي (Liège) البلجيكيتين. غير أن الدولة اللبنانية لم تمنح المعهد، حتى الآن، إجازة بإنشاء الجامعة الأنطونية، برغم وفر الشروط المطلوبة (...) وقد جدد طلبه هذا سنة 1984. لكن الجامعة الأنطونية استمرت تحضِّر طلابها لطب الأسنان والطب العام والهندسة، حتى نهاية عام 1983/ 1984، وذلك بنجاح أدهش الجامعات التي تمثلها، كما أدهش الجامعة اللبنانية، مما جعل الأخيرة تعترف بها وتتعاون معها. نزلت الجامعة اللبنانية، قسم الطب العام وطب الأسنان «ضيفًا» على المعهد الأنطوني، وهي الآن تمارس أعمالها الأكاديمية في البناء المخصص للجامعة الأنطونية المجهز بأحدث الوسائل، ريثما تستجيب الدولة لطلب المعهد، الذي مضى عليه حوالى سبع سنوات. =

لقد أتت هذه الخطوة الجريئة إثر حرب دامت ـ حتى تاريخه ـ خمس سنوات ألحقت بالمعهد الأنطوني خسائر فادحة ذكّرتنا بمصيبة كبيرة ألمت بالمعهد نفسه وبرهبانه عام 1915، لتشهد على أن صلة روحية عميقة الغور تمتد بين الأبّاتي أبو فاضل وأخيه الأنطوني المرحوم الأبّاتي عمانوئيل بعبداتي[1]، الذي في عهده «بلغت الرّهبانية (الأنطونية) أوسع مجدها، ونما عدد الرّهبان فتثقفوا أو تضلعوا بالعلوم اللاهوتية والأدبية والموسيقية، وحفظوا القانون روحًا ونصًّا، ثم انصرفوا إلى الصلاة العقلية والتبشير والتعليم، وتحولت أديار الرهبانية إلى مدارس كانت في طليعة مدارس العصر»[2].

فمَن هو مؤسس المعهد الأنطوني هذا وكيف تم له ذلك؟

إنه الأب يوسف الشّدياق الذي سنحاول هنا، بقدر ما سمحت لنا الإمكانات، التعرف إليه، وعسى أن نوفق إلى ما نحن طامحون.

يوسف و«حارة البطم»

في عام 1868م، قدّم داود باشا ـ الأرمني الأصل، المتصرف المثقف ـ استقالته، فقبلها العثمانيون على الفور، فغاب عن بعبدا ـ

= ولقد رفع الأب لويس رهبان بالثناء على نائبه الأب سمعان عطا الله والآباء: بطرس عازار (مدير المعهد)، لوقا فيسرس، إيلي عبد المسيح، إميل أبو حبيب، انطوان صعب، جورج معتوق، يوسف واكد (مدير المعهد الموسيقي)، وشربل غانم. وأشاد أيضًا بالراهبات: لميا اسكندر، ليلى اسكندر، نورا ساسين، وتريز فغالي، وذلك لأنهم قدَّموا ويقدمون للمعهد والجامعة أعظم الأعمال والتضحيات.

(1) الأبّاتي عمانوئيل بعبداتي (1842 ـ 1932) انتُخب رئيسًا عامًّا للرهبانية الأنطونية عام 1901.

(2) من مقالة للأخ أنطوان ضو (صار كاهنًا ومؤرخًا) في مجلة «صدى المعهد»، السنة الأولى، العدد الثاني 29 أيار 1960 ، ص:20.

عاصمة الحكومة الشتوية ـ وجه كريم بذل جهدًا كبيرًا من أجل أن يلملم البلاد التي مزقتها الفتن الطائفية والأطماع الأجنبية ويعيد إلى لبنان ما سلخ عنه.

وبينما يأخذ محل داود هذا المتصرفُ الثّاني الحلبي نصري فرنكو باشا ـ وُلد في «حارة البطم» ـ حدث بيروت، يوسف منصور عباس أبي مروة الشدياق، أمه فتنة ابنة شبل سليمان أبي مروة، وهي ابنة عم زوجها.

جاء يوسف ولمّا يمض على وفاة المؤرخ طنوس يوسف الشّدياق[1] أكثر من سبع سنوات.

كانت «حارة البطم» آنذاك ممرًا للخيول الذَّاهبة إلى عاصمة الحكومة والعائدة منها، فكان الفتى يوسف يجمع صبيان الحي لينظِّموا لعبة «الخيّالة»، فإذا ما عبَرَ «الحارة» حصانٌ جميلٌ انفرجت أسارير يوسف ورسم إشارة الصّليب لئلا يصاب هذا الحصان أو فارسه بأذى، فهو يعرف لا شك أن الحسّاد كثر وأنّهم لا يخافون الله.

قبل أن ينجز يوسف عامه السابع، توفي والده منصور بالتيفوس (Typhus)، فتولى أمره عمه داود الشدياق، أحد وجهاء الحدث، وكان منزله مقصدًا كَكرْم على درب. وفي بيت عمه تعرف يوسف إلى وجوه كثيرة حفظ عنها الحكايات والأمثال وأخبار الحكام والأمراء وما قيل عن المذابح والمجازر التي حدثت في الشّوف بين المسيحيين والدّروز خلال فتنتي 1840 و1860.

وفي بيت عمه أيضًا سمع يوسف ـ بكل تأكيد ـ أخبار أحمد فارس

(1) طنّوس يوسف الشدياق (ت1861): مؤرخ لبناني، شقيق أحمد فارس. وُلد في الحدث (بعبدا)، تلميذ مدرسة عين ورقة. عميل الأمراء الشهابيين في لبنان. له: «أخبار الأعيان في جبل لبنان».

الشدياق[1]، شقيق طنوس، وكيف انتقل إلى المذهب البروتستانتي ثم إلى الإسلام. وقرأ يوسف في العيون وعلى الوجوه التململ من «أحمد» والغضب عليه، فأدرك أن الذي يتخلى عن معتقده هو مثل الذي يغدر بعِرْضه أو كرامته، و«من لا دين له لا كرامة له» كما يقول المثل.

تعلم يوسف، في مدرسة «حارة البطم» العربية والخط «على يد الأستاذ شاهين بلان، والد سليم بك بلان»[2]، وفيها «تميز يوسف عن سواه بالهدوء والإصغاء التام، مما سهّل عليه الاستيعاب»، فحدا العم داود أن يرسله إلى مدرسة «مار لويس ـ المزار» في بلدة غزير حيث بقي ثلاث سنوات ليخرج متأثرًا بالقديس الإيطالي اليسوعي لويس غونزاغا[3] ـ شفيع الشبيبة ـ فكان أن صمّم على دخول الرهبانية، لكي يعود ـ فيما بعد ـ إلى مسقط رأسه كاهنًا يخدم بلدته والمنطقة التي كانت تفتقر حتى ذلك الوقت إلى مدرسة حديثة.

(1) أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق (1219 – 1304 هـ، / 1804 – 1887 م): أديب لبناني من رواد الصحافة العربية الأوائل. وُلد في قرية عشقوت (كسروان) وتوفي في استانبول. علم في مدرسة عين ورقة، وسافر إلى مصر ومالطة، وفيها انتقل إلى المذهب البروتستانتي، وتونس وفيها انتقل إلى الإسلام وسمَّى نفسه أحمد فارس. فدعي إلى الآستانة فأقام بضع سنوات، ثم أصدر بها جريدة (الجوائب) سنة 1277 هـ فعاشت 23 سنة، وتوفي بالأستانة، ونقل جثمانه إلى لبنان. من مؤلفاته: (كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب- ط) سبع مجلدات، اختارها ابنه سليم من مقالاته في الجوائب، و(سرّ الليال فى القلب والإبدال) في اللغة، و(الواسطة فى أحوال مالطة- ط)، و(كشف المخبا عن فنون أوروبا- ط)، و(الجاسوس على القاموس)، و(الساق على الساق فيما هو الفارياق)، و(ديوان شعره) يشتمل على اثنين وعشرين ألف بيت، وفي شعره رقة وحسن انسجام، وله عدة كتب لم تزل مخطوطة.

(2) «صدى المعهد»، المذكورة سابقًا، السنة الثالثة، آذار 1961.

(3) Gonzaga, Saint Aloysius (1568 - 1591), Italian Jesuit Cleric.

يوسف الراهب

عندما قرّر يوسف الشّدياق السير على طريق القديسين، اتخذ من القديس أنطونيوس الكبير ـ كوكب البرية[1] ـ مثله الأعلى، فالتحق بالرهبانية الأنطونية المعروفة أيضًا برهبانية مار إشعيا.

«توشح (يوسف) بثوب الابتداء في دير القلعة»[2] إذ إن «مدة الابتداء في هاتيك الأيام (كانت) سنة واحدة لا غير، وكان معلمه الأب طوبيا أبو زيد. ثم لبس الاسكيم الرّهباني في 6 تشرين الأول 1884، أحد تذكار الوردية المقدسة». ومن هناك «أرسلته الرهبانية إلى مدرسة قرنة شهوان الشهيرة في عصرها والتي تخرَّج فيها نخبة من الكهنة الموارنة الذين خدموا

---

(1) انطونيوس الكبير (القديس .) (250 ؟ ـ 356): وُلد في مصر. أبو الرهبان وتلميذ باولا (أول الحبساء). تنسك في الصعيد فجذب الكثيرين إلى الحياة النسكية فانتسبوا إليه في قوانينهم، وصاروا يُدعون «الانطونيون» وهم: (1) الأرمن: أسسهم إبراهيم عطار مراديان في أوائل القرن الثامن عشر في دير الكريم ـ لبنان (2) الحبش والأقباط: لهم دير في روما أقاموا فيه منذالقرن الخامس عشر (3) السريان: جدد تأسيسهم البطريرك شلحت في ما بين النهرين وفي دير «الشرفة» لبنان حوالى 1888(4) الكلدان: أسسهم جبرائيل دَبنو في بدء القرن التاسع عشر في بلاد الموصل (5) الموارنة: تأسست رهبانية أولى 1695 ثبتها الكرسي الرسولي 1732. انقسمت فيما بعد إلى رهبانيتين: اللبنانية البلدية والحلبية 1770. للرهبانية اللبنانية البلدية المدارس الثانوية في لبنان منها (مشموشة، ميفوق، بيت شباب، جونية، الجية) وجامعة الروح القدس في الكسليك. وللحلبية قسم من رعايا الموارنة في القطر المصري ـ والسودان والمدارس في لبنان (دير القمر، اللويزة) (كما سنرى في الفصل الرابع). وفي 1700 تأسست في لبنان الرهبانية الأنطونية المعروفة أيضًا برهبانية مار اشعيا. ثُبِّتت قوانينها في 17 كانون الثاني 1740. وظهرت كذلك الراهبات الحبيسات 1816 ثم جمعية الراهبات المتعهدات تعليم البنات والتمريض 1932.

(2) «صدى المعهد»، المصدر السابق.

الطّائفة خدمات جلى» وكان أستاذه في اللغة العربية: الخوري نعمة الله داغر من بكفيا، وأستاذ الفرنسية: نجيب الداي»[1].

ولما أتم يوسف دروسه في قرنة شهوان بنجاح لفت نظر رؤسائه وأساتذته، «أدخلته الرّهبانية مدرسة الحكمة أشهر المدارس اللبنانية آنذاك، فتعمق الشدياق في الآداب العربية وفي المنطق على يد الشيخ عبد الله البستاني الكبير وفي الفرنسية على يد الأمير ملحم شهاب من كفرشيما»[2].

بعد مرور خمس سنوات على دخوله الرّهبانية «استحق يوسف بركة سيادة المطران يوسف مسعد ابن شقيق البطريرك بولس مسعد»[3]. و«في 3 أيار 1889 سيم كاهنًا في كنيسة بكركي وكان عمره 20 عامًا فقط»[4].

يوسف الكاهن

بدأ يوسف الشّدياق حياته الكهنوتية في ميتم مار يوسف[5] ببيروت، حيث خدم «راهبات المحبة»[6] مدة سنة واحدة. ولما طُلب إلى

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) بولس مسعد (1806 ـ 1890): وُلد في عشقوت (كسروان) وتعلّم في روما. بطريرك الموارنة (1854 ـ 1890). عالج بالفطنة الأحداث التاريخية التي مرت عليه. أنشأ مكتبة بكركي.

(4) «صدى المعهد»، المصدر السابق.

(5) يوسف القديس: خطيب مريم العذراء ومربي يسوع المسيح. كان نجارًا يسكن الناصرة (الإنجيل). تحمل اسمه عدة جميعات لها المدارس والمستشفيات والمياتم.

(6) هنالك ثلاث مؤسسات لراهبات المحبة وهي: (1) المحبة بيزانسون: تأسسن للتعليم خاصة سنة 1799. لهن المدارس في لبنان وسورية ومصر (2) المحبة الدومينيكيات: تأسسن للاهتمام بالمدارس والمستشفيات سنة 1696، =

القدس ليكون مديرًا لمدارس الفرنسيسكان، رفضت الرّهبانية أن ترسله إلى هناك ورفض هو أيضًا ذلك لأنه كان يطمح في أن يرجع إلى بعبدا حيث الحاجة إلى كاهن نشيط كانت ماسة. وبطلب من المطران يوسف الدبس[1]، عيّنه الرئيس العام للرهبانية الأنطونية الأبّاتي سمعان البلوني مديرًا لمدرسة بعبدا فبقي فيها من 1891 إلى 1893، وأظهر براعة في الإدارة وأمانة لرسالته وإخلاصًا لتلامذته ومودة للأساتذة الذين عاونوه. إلا أن المدبّر عمانوئيل البعبداتي ارتأى أن يتسلم الأب الشّدياق إدارة مدرسة الرهبانية في مار اشعيا[2]، فكان له ما أراد. وتولى يوسف إدارة هذه المدرسة من سنة 1893 إلى سنة 1901 نال خلالها إعجاب رؤسائه وزملائه المعلمين، ومحبة طلابه الذين تعلقوا به، وبقيت «حارة البطم» وبعبدا هدفه المنشود ورجاءه الكبير.

وعندما انتُخب المدبر عمانوئيل بعبداتي رئيسًا عامًّا (1901)، عُيِّن يوسف أمينًا للسر العام، فاضطر أن يبقى في الوظيفة يدير مدرسة مار اشعيا، إلى أن انتهت السنة الدراسية، ليذهب رئيسًا على دير مار بطرس

= ولهن الأديرة في الأقطار العربية (3) المحبة اللعازاريات: أنشأها القديس منصور دي بول ولويز دي مارياك للاهتمام بالمياتم والمستشفيات سنة 1633، ولهن المؤسسات العديدة في العالم العربي وإيران وإفريقيا.

(1) يوسف الدبس (1822 ـ 1907) مطران بيروت الماروني. عالِم ومؤرخ. أسس مدرسة الحكمة وشيَّد كاتدرائية القديس جرجس في بيروت. له «تاريخ سورية».

(2) اشعيا (القرن 8ق.م): أحد كبار أنبياء إسرائيل الأربعة. قاوم آحاز ملك إسرائيل وكان من مستشاري حزقيًا ينشِّط عزيمته عندما حاصر سنحاريب أورشليم 701ق.م. قيل إنه مات شهيدًا في عهد منسَّى. له نبوءة امتازت بشدة لهجتها وقوة شاعريتها، تنبأ عن مولد السيد المسيح من عذراء. ويذكر لنا «اللؤلؤ المنثور» أن هنالك خمسة أشخاص حملوا اسم اشعيا هم: اشعيا بن حدابو، اشعيا ناسك الاسقيط، اشعيا الثاني الناسك، اشعيا السبيريني، واشعيا النحلي.

في قطّين ـ الجنوب ـ قضاء جزين، حيث مكث حتى آخر عام 1902[1].

يوسف المدبّر

كان يوسف الشدياق في العقد الرابع، وكان ممتلئًا حيوية ونشاطًا، وكان حرصه لا يوصف، وهمته عليّة. فهو مقدام وجريء ومخطط، وفي رأسه تتزاحم مشاريع تربوية وعمرانية كثيرة. فانتُخب مدبّرًا عام 1904، وسكن في دير ما اشعيا الذي عرفتُه في ربيع 1976 إذ عرفتُ فيه آباء أفاضل منهم: الأبّاتي الياس عطا الله (الرئيس العام الحالي)، والأب بولس دحدح، والأب فرنسيس يواكيم (رئيس الدير الحالي)، والأبّاتي روفائيل لطيف ـ يخطط ويدرس كيف سينفّذ هذه المشاريع، فاقتربت المسافة بين برمانا وبيت مري وبعبدا. فكان إذا ما غاب المدبّر يوسف عن مار اشعيا وُجد إما في مار أنطونيوس وإما في دير مار يوحنا ـ القلعة.

ست سنوات (1904 ـ 1910) من العمل المتواصل والسَّعي الكريم والجهد الجهيد قطعها المدبّر كما لو أنها يوم واحد. فالعطاء الذي قدّمه هذا الراهب الكبير، بإشراف الرئيسين العامّين: الأبّاتي عمانوئيل بعبداتي، رائد النهضة الكبرى ـ في الرهبانية الأنطونية ـ علمًا وثقافة واقتصادًا وتربية، والأبّاتي لويس عبيد، الذي عيّنه المجتمع الشرقي أسقفًا لكنه توفي في يوم اختياره مطرانًا بالذات، وبمساعدة إخوانه في الرهبانية وبعض المحسنين، هو صفحات خالدة ومشرقة في تاريخ الرهبانية الأنطونية الحافل بالأمجاد والتضحيات.

أسّس الأب الشدياق مدرسة، وأصدر مجلة، وبنى قرب دير مار أنطونيوس، في بعبدا، جناحين كبيرين، واشترى مطبعة، وجرّ المياه من «عين الدلبة» إلى بعبدا، فروى عطش السَّاحل المزمن.

(1) عن «صدى المعهد» المصدر نفسه بتصرف.

عرفه المرحوم يوسف إبراهيم يزبك عن كثب فقال فيه: «احترمه الوجهاء والضّعفاء، وآمن به المحتاجون مصلحًا ورائدًا. فكاد احترام عارفيه له يغطي على اسمه، إذ بات يُعرف بـ «المحترم»[1] في بعبدا كما في الجنوب وبيروت.

وهو ـ عند رؤسائه وإخوانه الرهبان ـ الكريم العقل والقلب واليد الأب يوسف الشدياق. فمتى قيل: «ذهب المحترم» أو قيل «أمر المحترم»، عرَف السّامع أن الذّاهب والآمِر إنما هو الأب الشدياق. وكان يتبادر هو إلى الذِّهن مع هذا النعت في حين أن معه في الدير محترمين آخرين. ولعل وقاره ورجولته وطيبته وأريحيته ووطنيته هي السجايا الفذّة التي فرضت أن يكون «المحترم» بين المحترمين، وأن يُحصَر النعت به»[2].

أثره الأدبي

شاء يوسف أن يترك لنا ـ إلى جانب المدرسة والمجلّة اللتين سيأتي الكلام عليهما ـ أثرًا أدبيًّا غلب عليه الطابع السياسي الوطني، فلم تشغله المشاريع الكثيرة عن الأدب والمطالعة والبحث. ففي دير مار اشعيا كتب: «الشّاب التائه» و«مار اشعيا». ومن بعبدا سطّر «المدبّر» مقالات سياسية وأدبية نشرها في مجلة «الراصد» ـ خلال الأعوام 1930/ 31/ 32/ 33 ـ حكى في قسم منها عن منشئ «الراصد» المغفور له الشاعر والأديب والصحافي وديع عقل[3]، وفي جريدة «العاصفة» كان

(1) «المحترم» لقب المؤسس العميد للمعهد الأنطوني.

(2) يوسف إبراهيم يزبك: «من ذكريات تلبيس» ـ «صدى المعهد»، المصدر نفسه، ص: 4.

(3) وديع عقل 1299 – 1352 هـ / 1882 – 1933 م. هو وديع بن شديد بن بشارة فاضل عقل. صحفي لبناني، له نظم حسن. ولد في معلّقة =

يكتب باسم «شاهد عيان». ثم إنه عرّب عن الإفرنسية حياة مؤسسة راهبات الراعي الصالح[1]، ونقّح بعض الكتب خصوصًا كتاب «الصادق في خدمة الحقائق» للأبّاتي القديس عمانوئيل البعبداتي الأنطوني[2].

بعد وفاته[3] عُثر في مكتبته التي بيع بعضها إلى أحد الكتّاب (؟)، على مخطوطات له في تاريخ العائلات اللبنانية وموضوعات مختلفة.

عاش الأب يوسف الشّدياق رهبانيته تقيًّا وأمينًا ومخلصًا وشجاعًا وصبورًا، وحمل الرسالة الأنطونية في قلبه وعقله. ومن وحيها عمل «المحترم» في جو رهباني أنطوني، حوالى نصف قرن وجاهد أيما جهاد.

مَجلّة «كوكب البرّية»

من دير مار اشعيا انطلقت مجلة جلاتينية كاثوليكية شاملة صدر العدد الأول منها في أول تشرين الأول من عام 1905، أضاءت الدير بكلماتها وأقلامها، ثم أخذت تجوب المؤسسات الدينية بأدب ورفق وتواضع، فأحبها كل من قرأها وصار يواظب على مطالعتها بانتظام أهلُ العلم والفلسفة والأدب والتاريخ.

= الدامور، وأكمل دروسه العربية والفرنسية في مدرسة الحكمة ببيروت واستقر بها، ومارس التعليم سبع سنين، وشارك في إصدار جريدة (الوطن) ثم (الراصد)، وانتخب نقيبًا للصحافة مرتين، ورئيسًا للمجمع العلمي اللبناني مدة قصيرة فُضّ المجمع على أثرها (سنة 1930)، وكان من أعضاء مجلس النواب اللبناني، مدة وجيزة. توفي ببيروت، وله (ديوان شعر – ط)، وله: أربع روايات تمثيلية مطبوعة، و(شرح لرسالة الغفران) لم يطبع.

(1) راهبات الراعي الصالح: تأسسن في فرنسا 1836. ينصرفن إلى تربية الفتيات التائبات وإصلاحهن. لهن مدارس وملاجئ في مصر ولبنان.

(2) عن «صدى المعهد» المذكورة سابقًا بتصرف.

(3) توفي الأب يوسف الشدياق فجر الخميس 9/ 5/ 941.

لوْنُ حبرها البنفسجي - برغم تراكم السنين - ما زال يشدك إليها بفرح وثقة. فالخط الجميل من وضع الأب سمعان عاقلي من زغرتا - إهدن، والورق الأملس مثل خد الطفل. كذلك مضمونها بل قل إنه أروع من خطها وحبرها وورقها.

سُمّيت «كوكب البرية» على اسم شفيع الرهبان الأنطونيين: القديس أنطونيوس، تبرّكًا وتيمّنًا وتقديسًا. ففي العدد الأول يقول القس مبارك صقر الأنطوني:

«أيها القدّيس العظيم كوكب البرية الذي أنرْتَ العالم بساطع فضائلك وقاطع حججك وشريف مقاصدك، فغدوت مشكاة فضيلة وتقى، ومثال رشد وهدى. يتهافت إليك عاشقو الفضيلة ولا تهافت الإبل إلى المياه النّمِرة[1] ويتألب حوالى فلاتك الميمون فسراط الكمال كالفراشات حوالى النور استنارة بقلمك واسترشادًا بأوامرك وزواجرك بلوغًا إلى الطريق المثلى طريق السعادة العليا».

أضاف:

«وكما كنت أنا قاصدًا تكريس هذه المجلة لك أيها العظيم بين القديسين، كانت بغيتي الوحيدة أن تتهافت العقول الحاذقة إلى مطالعة هذه المجلة فتقطف منها ما يلذ لها ويجديها نفعًا، وما يضرم فيها نار خبرة وإكباب، فتشمر عن ساعد المطالعة فترقم ما يدور في الخلد من أفكار سامية بمقالات مفيدة بعد غوصها في لجج التمعن والتنقيب التقاطًا لدرر المعاني وتنظيمًا لها بعقود التراكيب. وهذه الملة تغني ساعتئذٍ في إذاعتها فتعم الفائدة وتكبر الأمنية بينما إذا توكل على الله مثلك من يكتب ما يكتب مستردًا منه عزّ وعلا إسفافًا (تقاربًا) باطنيًّا ونعمة دائمة إعانة له في كل موضوع يلجه. ولأنك القدير بالشّفاعة لذي العزة القادرة

(1) النَّمِير: جمع أنمار: الزاكي من الماء أو الأحساب.

نستشفعك في كل حال ومآل، وبالأخص لندرأ كل مضرة عن ثمين حياة سيادة مخدومنا الجليل الأب عمانوئيل البعبداتي الكلي شرفه واحترامه، فيظل راتعًا في حدائق الرغد والهناء فخرًا وذخرًا للأنطونية»[1].

غاية المجلة

أما عن غاية هذه المجلة فقد كتب القس مبارك نفسه يقول:

«حمدًا لمن لا يُحمد سواه. الذي أشرق عقول الأنام بضياء نعماه. مَن خلق الإنسان على صورته وعلى مثاله يراه، وزينه بالعقل وبالإدارة حلاّه. فيشنن[2] قامته ليتمعن من المعارف دَكًّا لأسوار الجهل مناه. وبعد:

فلما كان سيادة الأب العام الكلي الشّرف والاحترام باذلاً الهمة والسعي في تقدم طلبة المدرسة الأنطونية دينًا ودنيا، أي فضيلة وأدبًا ويودوا أن يحبروا الخطب النفيسة الآخذة بمجامع القلوب والمقالات المنسقة الجميلة والعظات الرادعة كل غرور فيهتدي وكل مزعزع فيثبت، رأيت أن تكون الوسيلة الدائمة لاجتهادهم وتنشيطهم مجلة يبدون فيها نجاحهم وخلاصهم تصدر ما توفرت موادها، فتَقرُّ بهم عين سيادة المحترم السامي احترامه ويقوون بعد مغادرتهم المدرسة واستلام ما يسمعونه من رعاية التقوى أو إلقاء الدروس إلخ على إيضاح أفكارهم بخطب رنانة دون الخوف من عدم المقدرة والكلفة الشاقة وبذلك يأتون الإنسان بخِدَم شريفة عز نظيرها»[3].

(1) «كوكب البرية»، العدد الأول، ص: 1، 2.

(2) شن: خلق ويبس. تشنن الجلد: يبس وتشنج. تشنن جلد الإنسان: تغضن عند الهرم. يقال: «قرب أشنان» أي خَلَق كأنهم جعلوا كل جزء منها شننًا ثم جمعوا على أشنان. والمقصود هنا تهزل قامته من كثرة المطالعة والدرس والكتابة.

(3) «كوكب البرية»، العدد نفسه، ص: 2.

على هذا سارت «كوكب البرية» تنشر المقالات التاريخية والانتقادات الأدبية إلى جانب أخبار الرهبانية الأنطونية والمجامع والكنيسة وتذيع الأبحاث الدينية. وكانت «كوكب البرية» ترصد مجلات عصرها وجرائده، فإذا ما وجدت مقالاً أو بحثًا مفيدًا في إحدى الصحف أو المجلات، نقلته إلى قرائها مسبوقًا - مثلما تقتضي الأصول - بكلمة منها مختصرةً تعلل بموجبها الأسباب التي جعلتها تختار هذه المقالة أو القصيدة أو الأقصوصة أو الدراسة.

ما أقبح التعصب!

عن جريدة «الأهرام» المصرية[1] أخذت «كوكب البرية»[2] ثلاث مقالات هي ردود من علماء وكتّاب مسلمين - في مصر وسوريا - على الشيخ يوسف النبهاني الذي كان آنذاك رئيس محكمة الحقوق في بيروت، في كتابه «إرشاد المبادي في تحذير المسلمين من مدارس النصارى»، استنكروا هذا العمل الذي يسيء إلى النشء ويفرّق بين أبناء الوطن الواحد، ويحرّك الأحقاد والضغائن، ويسهّل انتشار الفتن الطائفية في صفوف المواطنين.

فمن مصر كتب الأستاذان محيي الدين سعيد وحسن الحليوني مقالتين مطوّلتين، مقالة الأول عنوانها: «ما أقبح التعصب»! ومقالة الثاني عنوانها: «فليحيَ الوئام»، ولقد اخترنا من مقالة الأستاذ محيي الدين سعيد ما يلي:

«قرأتُ في جريدتكم (الكلام موجّه إلى «الأهرام») إعلامًا لأحد أفاضل مسلمي بيروت يذكر فيه أن أحد المشايخ هناك ألّف كتابًا صغيرًا

(1) العدد 1969، الصادر في 24 تشرين الثاني 1905.
(2) العدد العاشر، تموز 1906.

سماه: «إرشاد المبادي في التحذير من مدارس النصارى»، وأنه أفرغ فيه كل ما عنده من بواعث العداوة وإلقاء البغضاء بين المسلمين والنصارى، فلم يكن لكتابه وقع في نفوس العقلاء، ولكن كان له تأثير عند الرعاع الذين لا يعرفون أن الدين هو حسن المعاملة.

«وبما أني من الذين يستنكرون أمثال هذه الخطة، فافحسوا لي أن أنشر على صفحات جريدتكم ما يدفع تلك الأوهام الراسخة في نفوس كثير من المسلمين والنصارى فأقول:

«إنه لا يوجد في العالم الإنساني شرعة تأمر أهلها ببسط كف الغدر والأذى إلى عباد الله. وقد قيل لرسول الله إن فلانة تصوم النّهار وتقوم الليل وهي سيئة الخلق تؤذي جيرانها بلسانها، فقال: لا خير فيها هي من أهل النار. إن معنى حب الوطن من الإيمان ليس الغرض منه سماء الوطن وأرضه وشوارعه، بل الغرض أهل الوطن مهما اختلفت مللهم ومناهجهم.

«والتعصب خلة ذميمة تنطبع في النفوس الجاهلة التي لم يكمل تهذيبها فتحملها على ارتكاب كثير من الدّنايا كالاستخفاف بعباد الله والتكبر على مخلوقاته. وكثيرًا ما يهيج التعصب بصاحبه فيدفعه إلى الحدة والمجادلة والمشاجرة التي لا تحمد عواقبها».

وتابع الأستاذ محيي الدين سعيد يقول:

«وبالجملة ،فإن الشيخ المؤلف لو تدبر مليًّا في الحوادث الفظيعة التي تحدث دائما في بلده بين مسلميها ومسيحييها كلها يراها ناشئة عن تعصب الأوباش من الفريقين. فإن كان الشيخ راضيًا بتلك الحوادث الفظيعة، فليتفضل ويوقف نفسه على تأليف وطبع كتب جديدة على نسق كتابه خدمة لأبناء وطنه. أما إذا كان ممن يهمه الأمن والراحة بين أهالي وطنه فليبادر إلى كتابه ويحرقه حرقًا ويندم على فعلته التي تسخط الله

والناس لكي يكون قدوة لغيره في اقتضاء الأسباب العائدة على الوطن بالنفع والإصلاح والله الموفق».

ومن دمشق رد أحد العلماء المسلمين على النّبهاني يقول:

«وكيف يجرؤ لبناني يجاهر بعداوة النّصارى وقد قال رسول الله ﷺ: وأنا أحفظ ذمتهم أينما كانوا في بر أو بحر في الشرق أو في الغرب والجنوب والشمال وهم في ذمتي وميثاقي وأمانتي من كل مكروه ولا يكلف أحدًا منهم شططًا ولا يجادلون إلا بالتي هي أحسن؟».

هل سألنا أنفسنا ـ نحن اللبنانيين شعبًا وحكامًا ـ لماذا لم تثمر عندنا مثل هذه الكتابات؟

لقد علم هؤلاء العلماء والكتّاب واقعنا وعرفوا حقيقة مآسينا وأهم أسبابها، فاستكبروا أن يكون بيننا من يذكي نار الطائفية، وأسدوا لنا النصائح وأحسن القول، ودعونا إلى الوحدة والوئام لعلم منهم أنّ اعتماد الأوطان ـ في الأساس ـ على وحدة أبنائه وتعاونهم وإخلاص بعضهم لبعض، ولكن عبثًا حاول ويحاول المخلصون. فنحن ـ منذ قرون وقرون ـ بحاجة إلى مسؤولين شرفاء يعلّمون شعبهم أو شعوبهم حبَّ الوطن والحرية وليس التفرقة والنزاعات الطائفية الهمجية.

استمرت مجلتنا «كوكب البرية» تصدر حتى أواخر عام 1908 محافظةً على نهجها الذي اختطته لنفسها، متحدّية الصعاب والفتن، داعية إلى التفاهم والحوار، فحققت ثقة قرائها وأصدقائها جميعًا.

ولما توقفتْ أحدثتْ عند أولئك الذين تعودوا ملاقاتها في مطلع كل شهر فراغًا وحزنًا، مما حدا «المحترم» و«المدبّر» الأب يوسف الشّدياق أن يفكّر في مشروع شراء مطبعة وامتياز للمجلة يعيد «كوكب البرية» إلى الساحة مطبوعة ويوسّع انتشارها، فكان له ذلك سنة 1911 بمساعدة الأبّاتي لويس عبيد.

واستأنفت الصدور

مع إطلالة سنة 1911، استأنفت «كوكب البرية» الصدور بحلة جديدة ولكن، هذه المرة، من بعبدا وتحديدًا من دير مار أنطونيوس، حيث ركز الأب الشدياق مطبعته (المطبعة الأنطونية) فأصبح الحلم الجميل الذي طالما راوده حقيقة وأية حقيقة!

وفي العدد الصادر بتاريخ أول كانون الثاني 1911، أعلن صاحبها ورئيس تحريرها، الأب الشدياق، فرحته التي كانت يوم افتتح مدرسة مار يوسف الأنطونية في الدير نفسه، وقال معرّفًا بالمجلة المطبعية:

«هي المنية التي حملها الخاطر منذ عهد طويل وما زالت الحاجة الماسة إليها تبعث يد العمل على استخراجها من خيال الخاطر إلى حقيقة الوجود حتى برزت اليوم والحمد لله إلى عالم الصحافة كما تمنتها هذه الرهبانية خدمة (للدين)، (للوطن)، (للطائفة)، (للأدب)»[1].

وعلى مدى أربع سنوات متواصلة، ظلت «كوكب البرية» تبشر بالمحبة وتحارب التعصب وتنشر العلم وتنتقد الحاكم ومساعديه وتعترض على «البروتوكولات» والنظام وسوء التصرف من قبل المسؤولين في الدوائر والمراكز الحكومية.

فلقد جاء في مقالة تندد بالغموض الذي يلف «البروتوكولات» وتدعو إلى الإيضاح والمصارحة ما يلي:

«إبهام في النظام، وإبهام في البروتوكولات، وإبهام في أوامر أستانة تلك هي مصيبتنا في لبنان.

«كلما احتكمْنا إلى هذه النصوص القليلة عازنا الإيضاح وفاتتنا

(1) «كوكب البرية»، 1 كانون الثاني 1911، ص: 1.

صراحة النص، والمثال على ذلك ما ورد مكررًا في قراريْ تعيين نعوم باشا ومظفّر باشا حيث جاء:

«أولاً: يجب أن تجري انتخابات المجلس الإداري بكل ضمانات الاستقلال وأن تحترم حقوق هذا المجلس».

«ثانيًا: إن الضَّمانات المعطاة للقضاة بموجب المادة الحادية عشرة في النظام يجب احترامها بحيث إن نقل الموظفين أو عزلهم لا يجوز أن يجري إلا بعد تحقيق المجلس»[1].

وحمَلت «كوكب البرية» بعنف على الانتخابات التي جرت سنة 1913 إذ قالت:

«إن طريقة الانتخابات التي وضعها المجلس ليست بعادلة ولا توافق حالة البلاد ولا هي من معنى البروتوكول»[2].

إنها الرّشوة التزوير والضغوط المختلفة التي رافقت وترافق كل عهد. ولا يُعدّ وضعنا الحاضر إلا أسوأ كثيرًا مما كان عليه في الماضي.

عندنا اليوم ـ كما في الماضي ـ غير «كوكب البرية» ولكن لا حياة لمن تنادي. مشكلاتنا ورثناها عمَّن جاؤوا قبلنا ونورّثها الذين سيأتون بعدنا. إنها المصيبة الكبرى، والتبعيّة هي أخطر الآفات التي تتآكلنا في هذا الوطن.

حبذا لو نصحو يومًا ونحرر نفوسنا من شوائب الماضي وعفونته ونكتب لأجيالنا القادمة مستقبلاً سعيدًا ومجيدًا!

وراحت «كوكب البرية» تستعرض هموم ومعانيات البلاد وشعبها فقالت:

---

(1) «كوكب البرية»، العدد 12، كانون الأول 1912.

(2) «كوكب البرية»، العدد الحادي عشر 1913.

«شكونا إلى دول الأرض حالة لبنان الفادحة فنالنا الإرهاق لأننا شكونا. يريدون أن نتألم ونقول إننا نتنعم، يريدون أن نشقى ونقول إننا سعداء، وأن نُعدِم ونقول إننا أغنياء. يريدون الجمرة في قلبنا والابتسامة على ثغرنا. لعمر بني الإنسان لا طاقة لنا بما يريدون. فنحن بشر لنا في الحياة حق مهضوم لا نبغيه بالسيف كما توهّم المتوهمون ولكن لا نمسك عنه لسانًا خاطبًا وقلمًا كاتبًا وهل أذنَبَ المظلومُ إذا شكا والمرهَق إذا بكى!

«شكونا إلى دول الأرض ولكن نظر الدول العظمى لا يلم بهذا الوادي التاعس إلا متى استلقفته مصلحتها الاقتصادية التي لها في هذا البلد الفقير المنحوس.

«لقد كدنا ندرك المقصلة، أفلا يسمح لنا على الموقف الأخير بآخر كلمة نقولها أن نقول ما نفتكر ونعتقد!

«مسكين أنت يا لبنان تشقى في الحقيقة وتسعد في الأوهام والأحلام. تظن لاحظةَ الغرب عليك وهي عنك مشغولة لاهية وقد ضاق بك الدهر، فبنوك يهجرونك ألوفًا حتى أصبحتَ مأوى عجائز النساء وزغب الأطفال.

«ومع ذلك فكل كلمة عنك مأسدة مخيفة كأني بهم يخافون العجائز أن تتحول جحافل والصبيان أن يثوروا فرسانًا.

أي حاكم لبنان!

إليك نرفع شكوانا[1]».

أهو التاريخ يعيد نفسه، أم أن لبنان هو أرض للبراكين السياسية والطائفية والاجتماعية والاقتصادية؟

---

(1) المصدر نفسه.

تلك كانت افتتاحية بل صيحة العدد الحادي عشر (1913) من «كوكب البرية» بإمضاء «وديع» - المغفور له الشاعر وديع عقل - فما أقربها إلى صيحاتنا اليوم!

منذ خمس سنوات (صار لنا عشر سنين حتى الآن) ونحن نشكو إلى دول الأرض، فلم يسمعنا أحد من هذا الفريق أو ذاك. المجازر على أرضنا تتوالى، والحرية تُهتك (هُتكت)، والتفسخ يتآكلنا (أكلَنا)، والغلاء آخذ في التَّصاعد (هو الآن ينذر بالجوع الرهيب)، فإلى أين المصير يا دول العالم!

قولوا لنا ماذا تريدون من لبنان؟

أعلنوها صراحة!

ولكن ثقوا جيدًا أننا هنا باقون، ولن يزيدنا استهتاركم بنا إلا تمسكًا بأرضنا وحريتنا وحقنا.

نحن، يا هؤلاء، نرفض أن نعيش عبيدًا ولو جعلتم العالم كله سجنًا.

فمن الأفضل أن ترفعوا أيديكم عنا.

أسألك المغفرة عزيزي القارئ. لقد استعرتُ من وديع عقل قلمه، ومن «المحترم» و«المدبّر» شجاعته، أليس لبناننا اليوم هو مثل لبنانهم؟!

تبًّا للحروب!

لقد هجّرتْ الحربُ الكبرى الأولى «كوكب البرية» من على الأرض إلى السماء، فخسر لبنان منبرًا حرًّا ومجلة ملتزمة. وكذلك في الأمس القريب، إذ خسرنا «لسان الحال» و«الجريدة» و«الزمان» و«الحياة»، وفقدنا أقلامًا جبابرة وعقولاً كم أبدعت!

المعهد الأنطوني منارة على جبل

جاء في كتاب «تاريخ الرهبانية الأنطونية»[1] للأبّاتي عمانوئيل البعبداتي ما يفيدنا عن دير مار أنطونيوس البادواني[2] في بعبدا، وبالتحديد عن إنشائه قبل تسليمه إلى الرّهبان، ما يلي:

«كل ما علِمْتُه هو أن نشأة الدير المرقوم لم تكن إلا في سنة 1745م. باعتناء أهل الفضل والغيرة آل ياغي من قرية بعبدا وغاية بنائه لأجل سكن بناتهم اللائي يرغبن الدخول في الرهبانية اقتداء ببعض العيل في جبل لبنان كعائلة آل آصاف في عرمون - كسروان وآل خازن واسطفان وصفير وغيرهم كثيرين.

فأعيان عائلة آل ياغي عمدوا إلى إقامة الدير المرقوم وكل منهم أخذ يتنافس بعمله الخيري فوقفوا له الأوقاف من أرزاقهم الخاصة ومن ثم باشروا في العمار في المكان المبني فيه الدير واقتصروا على ذلك البناء ببعض البيوت الخشبية وكابلاّ صغير»[3].

ومضت السنوات على هذا الدير بصمت كانت تخرقه رائحة البخور ونوّاسة قاومت الظلام الذي كان ينزل على الدير والمنطقة باكرًا ولا سيما في ليالي الشتاء. وبصمت أيضًا كانت غرف الدير تتكاثر الواحدة تلو الأخرى؛ فالحجارة الرملية حمَلَتْها الجمال والدوابُّ من

---

(1) (599) صفحة من القياس الوسط، طبع سنة 1896 بأمر من المطران نعمة الله سلوان، مطران قبرص آنذاك، والرئيس العام للرهبانية الأنطونية، في حينه، الأبّاتي سمعان بلثوني الأنطوني.

(2) انطونيوس البادواني (القديس .Antoine de Padoue (1195 - 1231) وُلد في ليشبونة (البرتغال). راهب فرنسيسي، اشتهر بفضائله وعجائبه. علّم في فرنسا وإيطاليا.

(3) «تاريخ الرهبانية الأنطونية»، ص: 356، 357.

«كرم الزيتون» في الحدَث إلى الدير. وهناك كان يشقعها البنّاء كما تجود القريحة فحسب. وشيئًا فشيئًا، أزيلت البيوت الخشبية المحاصرة، وأصبح دير مار أنطونيوس بيتًا للطائفة المارونية في منطقتي الحدَث وبعبدا.

لا بد أن يكون ليوسف الشدياق ـ الطفل والفتى ـ مثلما لغيره من الحدَثيين والبَعْبْديين، حكاية مع هذا الدير. إلا أن يوسف هذا، مذ ضمته الرهبانية الأنطونية إلى صدرها، صار غير كل أبناء المنطقة. وما إن سيم كاهنًا حتى أخذت حكايته مع الدير تتحول تاريخًا حبّره يوسف بعرق جبينه ودموع عينيه، فأشرق وجهه الأنطوني على الساحل الجنوبي يوم لم يكن في القصور سوى القناديل التي كانت تنطفئ كلما هبت الريح.

مدرسة الدير

و«في عام 1906 شَرَع المدبِّر يوسف الشدياق، بعد أن اتكل على الله واستأذن قدس الأبّاتي عمانوئيل البعبداتي الأنطوني، ببناء مدرسة قرب دير مار أنطونيوس غايتها تعليم الأولاد العلمانيين في تلك البقعة الزاهرة بقعة ساحل بيروت»[1] وكانت هذه الفكرة تراود الرهبانية «إلا أن ظروفها أخّرتها عن ذلك. ولما أخذ «المدبّر» على عاتقه مسؤولية إنشاء مدرسة، أجّل الأبّاتي تنفيذ فكرته، وراح يمد «المدبّر» بالتوجيهات والمساعدات. وقبل أن يمضي عامان، دعا «المدبِّر» يوسف الرؤساء العامين للرهبانيات المارونيات الثلاث في شهر آذار 1908 إلى زيارة المدرسة التي تمّ إنشاؤها ـ سماها مدرسة القديس يوسف الأنطونية ـ فسُرَّ الزوار الأفاضل بما رأوا وأجازوا له خطيًّا بأن يبني القسم الثاني الذي كان ينوي تنفيذه. وبنى «المدبّر» في السنة التالية الجناح الثاني،

(1) «كوكب البرية»، أيار 1909.

فإذا هي ترتفع على تلك التلة منارة توزع العلم والنور»[1].

هرع إلى هذه المدرسة أبناء ساحل بيروت ممن كانوا ينتظرون قيام مدرسة بجوارهم تريحهم من عناء الانتقال إلى خارج منطقتهم. فجمعت مدرسة القديس يوسف الأنطونية المنارة نخبة من الأساتذة، وطارت شهرتها في المتن الجنوبي والشوف، فأقبل عليها أبناء الذوات والعائلات الكبيرة، يقودها الإعجاب بمؤسسها الذي أحسن إدارتها حتى رفعها إلى صف أشهر المدارس آنذاك.

«ومن أبرز الذين علّموا فيها: المدبّر الشدياق (الرئيس): درّس الخطابة والبيان، الأب أنطوان الحاج: كان مدير المدرسة وأشهر من علّم القواعد الإفرنسية، الشاعر وديع عقل، وكان ضمانة لحسن سمعة المدرسة، الصحافي زيدان ضاهر زيدان، القس بولس غصوب، القس عمانوئيل عطا الله، القس عمانوئيل سجعان، القس واصاف أبو جودة، القس بولس الأشقر: كان مدير الجوقة وأستاذ العربي والإفرنسي، وفرج الله معوّض: كان أستاذ اللغة الفرنسية»[2].

وبينما كانت المدرسة آخذة في الارتقاء، حلّت النكبة العالمية ـ الحرب الكبرى الأولى، لتقطع الطريق على هذه المؤسسة الوطنية الجليلة. وأقفلت المدرسة عام 1915 على مقاعد وطبقات عليها «حفرت أيادٍ كلماتٍ بعضها بالعربية وبعضها بالفرنسية: جنبلاط... حلو... يزبك... شهاب... تامر... شمعون... معوشي... شدياق... صهيون... ملاط... كرم... عطا الله... وغيرها كثير»[3]، لتعود منطقة ساحل بيروت إلى ما كانت عليه قبل سنة 1906.

(1) «صدى المعهد»، المذكورة سابقًا.
(2) المصدر نفسه.
(3) الأب ميخائيل معوض، «صدى المعهد»، آذار 1961.

المدرسة تُبعث معهدًا

بعد مضي ثلث قرن، انطلقت عام 1946، ومن دير مار أشعيا أيضًا، فكرة تدعو إلى خلْع الأقفال التي علّقها العثمانيون على أبواب مدرسة الشدياق. يومذاك، كان الكاهن ميخائيل معوّض يدرّس الأدب العربي لصف البكالوريا، في حين كان معلمًا «للابتداء» في مدرسة مار أشعيا، فالتفت إلى ضرورة نقل المدرسة الرهبانية من مار أشعيا ـ برمانا، إلى مار أنطونيوس ـ بعبدا، فتقدم باقتراحه هذا إلى مجمع المدبّرين، الذي أقرّه بعد أن عرضه على الرئيس العام الأبّاتي بطرس لطيف[1] الذي بارك هذه الدعوة وأمر بتنفيذها. ومما قاله الأب ميخائيل معوّض عن هذه المرحلة:

«منذ 1941، حين كنا في صف البكالوريا تلاميذ وبعدها في الفلسفة واللاهوت، يوم كانت نزهتنا إلى «الأرزة» أو إلى «الوروار» أو إلى دير مار أنطونيوس، وكنا في كل مرة نمر أمام الدير أو نعرّج عليه نتساءل عنه وعن تاريخه، فنعرف أنه كان محط رجالات ومتصرفية لبنان

(1) توفي يوم 16 شباط 1981، ودفن في مدفن الكهنة التابع لدير مار اشعيا. رحم الله هذا الراهب الجليل. لقد كان كريم الخلق وعزيز النفس وصديقًا أمينًا. عرفتُه شتاء 1976، في دير مار يوحنا ـ عجلتون، يقيم فيه حاليًّا الأب اقليمس حكيم، إذ أخذني إلى هناك الصديقان: معالي الوزير السابق الأستاذ جورج سكاف، صاحب «الجريدة» والصحافي والمؤرخ الأستاذ طوني مفرّج، فكان لي الأبّاتي لطيف الأب والأخ والصديق. وفي ذلك الدير الكريم عرفت أيضًا الأب الدكتور جورج رحمة، الذي غمرني هو أيضًا بمحبته وعاطفته النبيلتين، ثم الأب سمعان غصين، رئيس دير مار يوسف بحرصاف، والأب سمعان خوري رئيس دير مار عبدا المشمّر، وشقيقه الأب مارون، والأب اقليمس حكيم نفسه، والأب يوسف بارود، والأب طانيوس عون، والمرحوم الأب نعمة الله سادة، والمرحوم الأب يوسف نصار، وجميعهم من أهل الفضل والعلم والتقوى.

وملتقى سياسييه وإنه منذ ما يقرب من الأربعين سنة بنى مدرسة كانت في طليعة المعاهد اللبنانية فأعطت الوطن رجالاً كانوا وما زالوا أقطاب العلم والسياسة والقانون. وكانت هذه المدرسة أمامنا بجناحيها موصدة الأبواب والنوافذ، حزينة كالأم الثّكلى ترقب الناس وتسمع لهم دون أن تقول كلمة أو أن تبدي حراكًا»[1].

أضاف الأب معوّض قائلاً:

«وكأني في كل مرة من المرات سمعتها تهمس في أذني تحت ذلك الصّمت الثقيل في ذلك الجو المزعج الصدى البعيد: «أما حان لي أن أقوم! أما حان لكم أن تبعثوني»[2].

واستجاب الرئيس العام للرهبانية الأنطونية، الأبّاتي بطرس لطيف والمدبّرون لذلك الصوت المخنوق الذي انبعث من تحت الركام، فتحقق حلم الأب معوّض، فإذا سنة 1949 هي سنة خير وبركة على بعبدا وكل الساحل، إذ عادت الحياة تدب في مدرستها، وعُيّن الأب ميخائيل معوّض نفسه رئيسًا للمعهد الأنطوني، فبدأ الدم الجديد يسري في عروق المدرسة التي سرعان ما استردّت عافيتها وبريقها فاستقطبت التلامذة من كل مكان والأساتذة الكبار، وهي تنظر إلى وطن عظيم وأجيال قوية بنّاءة.

النهضة الكبرى

تعاقب على رئاسة المعهد الأنطوني الآباء: ميخائيل معوّض (مرتين)، روفائيل لطيف، نعمة الله سعادة، سمعان غصين، يوحنا دحدح، الياس عطا الله (الرئيس العام الحالي) وحنّا سليم[3].

(1) «صدى المعهد»، المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) انتقل الأب حنا سليم، منذ سنتين، إلى دير مار روكز، ثم إلى دير مار اشعيا. أما رئاسة المعهد فقد أعطيت للأب لويس رهبان، كما ذكرنا سابقًا.

وبمقتضى الرسالة الأنطونية، التي تنص على أن «الأنطوني وكل أنطوني، لا يعمل لذاته بل لربه ورهبانيته، والرهبانية لا تعمل في بعبدا وسواها ليعبدها الناس بل ليروا الأعمال الحسنة ويمجّدوا الأب الذي في السماء» كما يقول الأبّاتي روفائيل لطيف، قطع المعهد الأنطوني أشواطاً على طريق التقدم، فإذا هو الرزق الحلال الذي يتكاثر ويتكاثر خيرًا وبركة.

ها قد أصبح المعهد الأنطوني ـ اليوم ـ مدينة صغيرة للعلم والروح، أبوابه مشرّعة في وجه الراغبين من كل الطوائف.

وعاد المعهد يمر بأزمات، لكنه استطاع أن يتخطاها. فلما اشتعلت نيران الحرب الأخيرة، فتح المعهد الأنطوني أبوابه للمهَجرين اللاجئين من «المريجة» وسواها، مادًّا لهم يد العون، إذ تولى رئيس المعهد ـ آنذاك ـ الأب (الأبّاتي) الياس عطا الله ورهبانه والطلاب المبتدئون الإشراف على سد حاجات الذين شردتهم القذائف الهمجية الحاقدة. وأسس رئيس المعهد وإخوانه الرهبان، لا سيما الأب إيلي عبد المسيح والأب إتيان بركات والأب ألبير شرفان[1] والأب نعمان دكاش والأب لويس الهاشم، لجنة من أهالي المنطقة غايتها تخفيف معانيات من نكَبَتْهم هذه الحرب فنجحوا في مسعاهم نجاحًا كبيرًا.

يحتل المعهد الأنطوني ودير مار أنطونيوس، في ساحل المتن الجنوبي، مركزًا مرموقًا على صعيد العلم والثقافة والمجتمع. كذلك يهتم جمهور الدير والمعهد ببعض الرعايا التي هي في جوارهما.

لقد حاولت الحرب الأخيرة صيف (1978)[2] أن تحفر الخنادق

(1) رئيس دير مار عوكر الحالي.

(2) كذلك في أحداث 1981 وإثر الاجتياح الإسرائيلي (1982) وخلال حرب الجبل 1983/ 1984.

على طريق المعهد الأنطوني، فقصفته بعشرات القذائف الحارقة التي خرّبت فيه ما خرّبت. إلا أنه تحدّى مشيئة هذه الحرب القذرة، وتابع مسيرته فوق «الأسلاك الشائكة» و«الألغام النارية» والخنادق العريضة ـ الطويلة، ورفع علم الوطن على بوابته معلنًا لأبناء الجوار متابعة مسيرته، فهبوا يعانقون الجدران والأشجار بمحبة وعاطفة عظيمتين.

نشاطات المعهد

في المعهد قسم موسيقي أُنشئ سنة 1979 بإدارة الأب المايسترو يوسف واكد، وناد رياضي يُعتبر من أنشط نوادي لبنان الرياضية[1]، ورابطة قدامى المعهد الأنطوني، ورابطة الهيئة التعليمية، وهيئة أولياء الطلاب في المعهد الأنطوني[2] أما عدد الطلاب للسنة الحالية (1979/ 1980) فقد بلغ نحو ألف وخمسمائة، موزّعين بين أربع فئات: حضانة، ابتدائي، تكميلي، ثانوي، عدا الفرعين الجامعيين اللذين استُحدِثا مؤخرًا مثلما تقدم.

(1) تألفت هذه الجمعية في 24 شباط 1975، من السادة: انطوان منصور بدر، مارون الخوري، بطرس الخوري، كليم يوسف كرم، نعمان يوسف دكاش، الياس طانويس عبد المسيح، وليم حنا بركات دياب، فياض الخوري يوسف عطا الله. وتشكلت الهيئة الإدارية الجديدة لسنة 1980/ 1981 كما يلي: (1) الرئيس الفخري والإداري: الأب حنا سليم، الذي حل محله الأب لويس رهبان (2) نائب الرئيس: الأمير عبد الله شهاب (3) أمين السر العام: الأب إيلي عبد المسيح (4) أمين الصندوق: ألفونس عطا لله (5) محاسب: انطوان صهيون (6) مدير علاقات عامة: جوزف حردان (7) مدير رياضي: سعد شليطا (8) مراقب عام: الدكتور ميشال نفاع.كما في الكتيب «المعهد الأنطوني الرياضي» الصادر عن المعهد في 22/ 11/ 1980، والكتيب «حفلة أسرة رابطات المعهد الأنطوني» الصادر سنة 1982.

(2) المصدران المذكوران.

وبالنسبة إلى طلاب الرهبانية الذين يتابعون دروسهم التكميلية والثانوية، فعددهم يربو على المائة، وهم يسكنون المعهد.

وتتألف الهيئة التعليمية فيه من حوالى ثمانين معلمًا ومعلمة، بينما يعمل في الهيئة الإدارية عشرون عضوًا.

إذا زرتَ المعهد الأنطوني تلقَ عالمًا من الرهبان والعلمانيين والطلاب في حركة دائمة يسودها النظام، فيأخذك العجب عندما تعلم أن هذا المعهد كان لسنة خلت (1978) مرمى للقذائف والرصاص. وإن رُمْت أكثر، فقل إنه كان (وما زال) هدفًا للمدافع التي ما انفكت تهدّم معالمنا وحضارتنا.

ونحن إذ نتذكّر أن هذا المعهد كان سنة 1915 ثكنة للجيش العثماني، فإنما لننظر كيف تُحقّق المعجزات والخوارق.

ألا أكرِمْ أولئك العاملين بإخلاص!

إنهم أبطال حقًّا!

الفصل الثاني

أسقُف ورسَالة
المطران يُوحَنّا حَبيب
مؤسّس جَمعيَّة المُرسَلين اللبنانيّين الموارنة

«وكان الأب اسطفان قزاح يردّد: نحن بحاجة إلى مشروع رسالة، وإنشاء جماعة قوامها كهنة ذوو علم وتفانٍ في محبّة الخير».

الأب الدكتور أغناطيوس سَعادة م.ل. مَجَلة «المسيرة» العَدد 705/706 أيلول، تشرين الأول 1984 ص603

في مَعَهد الرّسُل

كنت أدخل على رئيس معهد الرسل في جونية الأب يوسف العنداري[1] في مكتبه، فإذا تمثال نصفي من «البرونز» على قاعدة من «الغرانيت» يشدّني نحوه.

وقفتُ أمامه لأتعرف إلى ذلك الذي يتصدر، ليلاً نهارًا، تلك القاعة التي تتسع لأكثر من خمسين زائرًا، فقرأت ما يلي:

(المطران يوحنا حبيب. مؤسس الرسالة اللبنانية، وُلد في بيت الدين 1816. توفي في دير الكرَيْم 1894).

ورحتُ أبحث عمّن يكون هذا الفنان الذي أبدَع وحلّق، فإذا هو جوزف غصوب، من بيت شباب، وقد وضع تحت توقيعه (السنة 1958) فتساءلت:

- لماذا لا ينطق «سيّدنا» إذًا؟
- ما به؟
- أتُراه سعيدًا هكذا؟ أمْ يكفيه أن يحدّق بالناس ممّن يأتون ويذهبون؟
- لماذا أعصابُه لا تتوتّر؟
- لماذا لا يضجر؟
- ما عساه يفعل في الليل؟

---

(1) الأب يوسف العنداري من قرية الكفور، قضاء البترون، كان رئيسًا عامًّا لجمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة (1951 - 1959).

ـ أينظر إلى «قدموس ـ حامل الأبجدية» المعلّق قبالته على الجدار وحسب؟

لا. لا. هو في الليل، يصلّي، يقرأ الأناجيل والمزاميرَ والأناشيدَ وكتب التاريخ والفقه والأحكام والميامر، يراجع الحسابات، يكتب المذكرات.

على وجه المطران، وقلْ بينَ تجاعيد جبهته العالية المنشرحة وفي حاجبيه الكثيفين وعينيه الواسعتين الحادتين، كما على أنفه الكبير المستقيم وشاربيه المتربّعين باعتزاز وإباء، المجدولين بثقة وشجاعة، الممتدّين من وسط الخد الأيسر إلى الخد الأيمن، وفوق لحيته البيضاء الغزيرة الجليلة التي تغطي مساحة كبيرة من صدره العامر، سِفْرٌ نفيسٌ، بل أسفارٌ تجذبك إلى مطالعتها والغوص في صفحاتها المشرقة المنيرة.

فالطربوش الذي يعتمر هامة المطران «المؤسس»، والجبّة الواسعة، والصليب الذي يبدو كأنه تعلق واسترسل من شَعر ذقنه، ومنكباه اللذان كأنهما الجبلان، ويده اليمنى تقبض على «الكتاب المقدس»، والخاتم في بنصره، والحزام (الزنّار يلُفّ وسطه)، كلها علاماتٌ وشواهد تأخذ بك إلى الهيكل خاشعًا لتتلو عليك من آيات لمجد والعطاء والنضال التي حفرها «المؤسس» على الجدران وفي السقوف والمداميك وما تحت المداميك لتعيدك إلى الخارج ثابت الخطى عزيز النّفس والوجدان.

هي لحظات مرّت لأستيقظَ على صوت الرئيس الأب العنداري الهادئ يودع ضيوفه، فعلمت إذ ذاك أن الوقفة قد طالت أو انتهت، فتركت التمثال ودخلت أنا والأب العنداري المكتب الأنيق جامعِ الإدارة إلى العلم والكفاءة والتواضع.

تاريخ حافل

كدت أنسى الغاية التي حملتني إلى معهد الرسل. قال الأب الرئيس:

ـ يبدو عليك الانسجام مع التمثال. أليس كذلك؟

ـ بل كنت في رحلة معه يا سيدي.

ضحك ثم صَمتَ ثم قال:

ـ حياة المؤسس، المطران يوحنا حبيب، تاريخ حافل بالمفاجآت. ولا بدّ أنه سيستأثر باهتمامك عندما تعرف هذه الشخصية الفذة.

ـ لقد أدركتُ ذلك. فكيف الوصول إلى هذه السيرة؟

ـ إن شقيقي الأب يوحنا (العنداري) عاكف على وضع كتاب في هذا الموضوع، فبإمكانه، حسب اعتقادي، أن يطلعك عليه إذا ما شئت.

ـ حسنًا. أين هو الأب يوحنا؟

سأل الأب الرئيس عن شقيقه، فقيل له: «إنه خارج المعهد».

في هذه الآونة كرّت الأسئلة عن: «جمعية الرسالة اللبنانية»، والمعهد، والدير الأم الذي انطلقت منه هذه الجمعية تبشر بالمسيح وتثقف الناشئة في الوطن والمهاجر.

ولكن الأب الرئيس المنهمك في أمور إدارية كثيرة مُلِحّة اعتذر تاركًا الجواب لشقيقه بعد أن أرشدني إلى دير الكرَيْم في غوسطا ـ كسروان، ما جعلني أغادر المعهد[1] وهو يعج بالطلاب الذين تجاوزوا الألفين والمعلمين[2] إلى غوسطا بلد الكنائس والأديار.

(1) في هذا المعهد أقام سيادة المطران يوسف الخوري بعدما هُجِّر عن أبرشيته المارونية في صور مع مطلع الأحداث. وإلى المعهد نفسه هَجِّر أيضًا فرع طب الأسنان الجامعة اليسوعية.

(2) كان عدد المعلمين، في تلك السنة، 95 معلمًا.

الدليل إلى دير الكرَيْم

جاء في «بزُمّار عبر التاريخ»[1] ما يلي:

«ثلاثة أديرة، أرمنية كاثوليكية كانت تؤلف سابقًا مثلثًا على سفح الجبل المقدس. في قمة هذا المثلث كان دير بزمّار الحالي، وفي زاويتي قاعدة هذا المثلث دير الكرَيْم ودير بيت خشباو.

«دير الكرَيْم هو الأقدم عهدًا بين الأديرة الثلاثة. الإخوان مورادیان من حلب هربوا من الاضطهادات الدينية ولجأوا إلى كسروان لتأسيس دير. مشايخ آل الخازن عرضوا عليهم في عام 1716 بستانًا كبيرًا مع عريشة ومنزلين وضيعين في منطقة الكرَيْم غوسطا، هذه الأرض تَمَّ تملّكها في عام 1720. بعد سنتين لجأ إليها المطران ارزيفيان فباشر بتشييد الدير (1732) ومن ثم الكنيسة (1726)».

ويختصر هذا الكتيّب «بزمّار عبر التاريخ» المراحل التي مرّ بها دير الكرَيْم حتى تملّكه الأب (المطران) يوحنا حبيب فيقول:

«استُخدم هذا الدير كمركز مؤقت للمطران ارزيفيان، وبذات الوقت كمركز رئيسي لرهبانية الأنطونيين الأرمن المؤسّسة من قبل الإخوة موراديان والمطران ارزيفيان، وفي الأيام الأولى لتأسيسه كان هذا الدير أيضًا ملجأ للمضطهدين من أجل دينهم، ونقطة استراحة للحجاج الأرمن الذاهبين إلى القدس».

أضاف:

«في هذا الدير تمّ دفن البطريركين الأوّلين للأرمن الكاثوليك لأن كنيسة دير بزمّار لم تكن مبنيّة في حينه. ولذات السبب الخلفان

---

(1) كتيّب، صدر في يوم الاحتفال باليوبيل المئوي الثالث (1679 ـ 1979) لميلاد المثلث الرحمة أبراهام بطرس الأول ارزيفيان، بطريرك الأرمن الكاثوليك.

الأولان للبطريرك أرزيفيان تمت رسامتُهما في هذا الكرسي البطريركي».

و«تمَّ بيعُ دير الكرَيْم، بعد إذْن من بطاركة الموارنة والأرمن، للأب (المطران) حنا حبيب في عام 1865 وقد نقل الرهبان الأرمن إلى دير بيت خشباو في ذلك الوقت»[1].

كيف جاء الأرمن إلى كسروان

من أين جاء الأرمن الكاثوليك إلى قلب كسروان؛ معقل الموارنة؟

إن هذه مسألة تستدعي منا الوقوف عندها ولو لبعض الوقت. إلا أننا لا نستطيع الإجابة عنها بدون الرجوع إلى الكتيّب «بزمار عبر التاريخ» نفسه، فهو يحكي كيف تمكّن إبراهام بطرس ارزيفيان وجمهوره الرهباني من التمركز في هذه المنطقة العصيّة، التي كانت لزمان خلا مأهولة بالشيعة.

ولعلّ كتاب التوصية الذي حمله ارزيفيان من الباب بنديكتوس الرابع عشر[2] إلى البطريرك الماروني سمعان عواد[3] خير ضمانة لهم.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) البابا بنديكتوس الرابع عشر (1740 ـ 1758) رقمه 248 في قائمة الباباوات. صرف اهتمامه إلى تعزيز الكنائس الشرقية وعمل في سبيل الاتحاد. ويحمل اسم بنديكتوس 15 من الباباوات... والأخير (1914 ـ 1922) توسط بين الدول في سبيل السلام في الحرب العالمية الأولى وعني بالأسرى المسلمين. والمعروف هو أن بنديكتوس أو مبارك 480 (Benoit)؟ ـ 547؟) راهب إيطالي وأحد منظمي الحياة النسكية في الغرب ومؤسس رهبانية البندكتيين في جبل كاسينو 529، وضع دستورًا للحياة الرهبانية لا يزال مُتّبعًا حتى اليوم في الكثير من الرهبنات الغربية.

(3) سمعان عواد: بطريرك الموارنة (1742 ـ 1756) رفض الكرسي البطريركي زهدًا بعد انتخابه، فعيَّنه البابا من جديد بعد خلاف نشب على اختيار خلف له. أقام في دير مشموشة (قضاء جزين) حتى مات.

فأمْرُ الباب، كما هو معروف، مطاع عند بطاركة الكاثوليك وشعبهم حسبما جاء في «توطئة» كتاب «اليوبيل المئوي الثاني» (1752 ـ 1952) «لرسالة الرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية» في دير القمر، لمؤلفه الأبّاتي بطرس فهد[1]، ومنها نقتطف ما يلي:

«من الشرق انبلجت أنوار الإنجيل وضّاءة ساطعة، من الشرق انبعثت النهضة البدائية للرسالة والتبشير. ولكنّ هذا النور الوهاج أخذ بالأفول، بسبب البِدع والانشقاق المشؤوم الذي أحدثه فوتيوس[2] المبتدع، فسبّب فصل الشرقيين عن الغربيين، إن لم يكن كلهم فجلّهم، فصار على الكنيسة الكاثوليكية حمل ثقيل جديد، وأصبح من واجب رئيسها المعصوم (البابا) الاهتمام لا بهداية غير المؤمنين فحسب، بل بإعادة نصارى الشرق إلى الوحدة الرسولية، فنشأت الرسالات، ونشرت البلاغات، وأذيعت المراسيم البابوية، وعقدت المجامع المسكونية، وأحدثت المعاهد التعليمية[3] والمدارس التهذيبية لنشر البشارة والمفاهيم الخلاصية»[4].

«وعندما استولى الأتراك على مدينة الأستانة سنة 1453، كانت

---

(1) (118) صفحة من القياس الوسط، مطبعة المرسلين اللبنانيين جونية (لبنان) 1954.

(2) فوتيوس (ت حوالى 819): بطريرك القسطنطينية (858 ـ 886). انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية 868. له أبحاث لاهوتية ومجموعة قوانين الكنيسة اليونانية. مات منفيًا. ورد ذكره في «اللؤلؤ المنثور»، ص165، 184، 185، 207.

(3) هذا النص نقله الأبّاتي فهد عن «اليد المارونية في ارتداد الكنائس الشرقية» للعالم البحاثة الخوري بطرس روفايل، ترجمة المؤرخ الأب اغناطيوس الخوري الراهب اللبناني (ص3 ـ 30) كتاب «التذكار المئوي الثاني لتثبيت قانون الرهبانية اللبنانية»، ص: 8.

(4) فهد: ص4.

الكنيسة المارونية وحدها، بين كنائس المشرق المتحدة مع رومية عصرئذٍ هي الراكزة حقيقة على قوام مرتب راهن والحاصلة على سياق كامل من الدرجات والمراتب الكنسية، ولم تكن لفظة «كاثوليكي» لتعني غير الماروني أو اللاتيني». «وقد مرّ على ذلك أكثر من قرن، أي عام 1583، حتى أوفد الكرسي الرسولي إلى المشرق السيد ليونار أبيل، أسقف صيدا اللاتيني، لكي يوطّد دعائم الوحدة البطرسية ويعمل على تطبيق الحساب الغريغوري، ونشر التعاليم الإلهية. وقد كان في سوريا ولبنان بعض أفراد بل جماعات كاثوليكية أيضًا من مختلف الملل الشرقية. وكان الموارنة وبطاركتهم المنفردون في الشرق الأوسط باتحاد مع رومية، يشملونهم بالعطف والعناية (...)، ويوجهون أنظارهم إلى جميع الكاثوليكيين المقيمين ضمن حدود بطريركيتهم، وكانوا يجرون ذلك بمعرفة الكرسي الرسولي»[1].

على أن ذلك يؤيد «براءة البابابيوس الرابع المؤرخة في أول أيلول سنة 1516، وفيها يفوضهم بأن يحدّوا من التأديبات الكنسية، ويقبلوا في حضن الكثلكة المنشقين والأراطقة والجاحدين من أي طائفة كانوا. وقد نال الكهنة الموارنة من بطاركتهم التفويض بسماع الاعترافات لجميع المؤمنين من غير طائفتهم. وعندما أُنكِر عليهم ذلك الانعام فيما بعد، رُفعت إلى رومية عرائض التشكيّات، وحينئذٍ أقرّ مجمع نشر الإيمان المقدس نفسه الموارنة على أعمالهم، وكذلك المرسلون اللاتين اعترفوا للموارنة بتلك الامتيازات»[2].

وقال الأبّاتي فهد أيضًا:

«إنه في سنة 1717 أخذ الرهبان المرسلون اليسوعيون القاطنون

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

في حلب وفي الشام يعارضون كهنة الموارنة عندما كان هؤلاء يسمعون اعتراف السريان والكلدان والملكية وغيرهم من شرقيين وغربيين ويناولونهم الأسرار المقدسة، محتجين عليهم بأن لا سلطة للموارنة في ذلك. وكانوا أيضًا يمنعونهم مدّعين أن ذلك للمرسلين فقط وأن البطريرك الماروني المستمدة سلطتهم منه لا سلطة له في ذلك، لأنها محصورة في الموارنة ولا تتعداها. غير أن الموارنة كانا يوضحون أن لهم هذه السلطة المطلقة من لدن الكرسي الرسولي أيضًا. فأبى اليسوعيون الرضوخ، ولزم أن رفع الأمر إلى الكرسي الرسولي من لدن الفريقين، وكان الكاتب من الموارنة بهذا الصدد الخوري بطرس التولاوي الوكيل على الطائفة المارونية في حلب. فكرادلة الكنيسة بعد وقوفهم على ما كتبه الفريقان حكموا للموارنة وكتبوا للمرسلين ألا يعودوا فيعترضوا للكهنة الموارنة في شيء، بل يتركونهم وشأنهم في جميع تصرفاتهم البيعية على إطلاقها، وبمثل ذلك كتبوا للسيد البطريرك يعقوب عواد الحصروني[1]. ولهذا أمر رئيس المرسلين اليسوعيين مرؤوسه الأب مخايل بلين أكبر معارض للموارنة في حلب أن يذهب إلى كهنة الموارنة مستغفرًا، فأطاع رئيسه وفعل ما أمر به، وانتهت المسألة بحكم المقدس».

إذًا كيف لا يكون أمر الكرسي الرسولي مطاعًا عند الكاثوليك الشرقيين وقد نزل المرسليون الكرمليون والكبوشيون واليسوعيون والفرنسيسكان واللعازريون «على الموارنة في لبنان إخواناً أعزاء»! وكيف لا يَهِبُ الموارنة هؤلاء المرسلين «الأراضي الواسعة والديورة الكثيرة ليتمتّعوا فيها على الأخطار أوان الاضطهاد والاضطراب»! ولقد كتب، في هذا الشأن، المؤرخ الأب جوزف بيسون اليسوعي في كتابه «سوريا

(1) يعقوب عواد: بطريرك الموارنة (1705 ـ 1733). عزله خصومه عن المقام البطريركي فردته روما.

والأرض المقدسة» (في أواخر القرن السابع عشر) يقول: «إن المرسلين في سوريا هم على ثقة أكيدة من أن لهم في 30 ألف ماروني يقطنون بلاد كسروان من لبنان حصنًا منيعًا يقيهم كوارث الخطوب»[1].

بيد أن «منتصف القرن الخامس وبالضبط عام 451م كان منعطفًا تاريخيًّا عجيبًا في الكنيسة المسيحية عامة وفي المنطقة (الشرق الأوسط) خاصة، حيث انقسمت الكنيسة ولعبت السياسة ـ كما في كل زمان ـ دورًا قاسيًا مضيفة نقيصة إثر أخرى إلى سجلاتها. وانقسم أهل البيت (المسيحي)، وبدأ الاضطهاد يحرق الأخضر واليابس. وكانت القرون الخامس والسادس والسابع مسرحًا لهذه المهازل على الرغم من ظهور نخبة من أعظم الشخصيات المسيحية في هذه الظروف»[2]. ويا ليت هذه الانقسامات توقفت عند تلك الحقبة فحسب.

(1) نقلاً عن فهد، المصدر نفسه. هذا... «ووهب البطريرك الماروني يوحنا مخلوف الإهدني (1609 ـ 1633) الرهبان الكبوشيين عام 1628 محبسة مار توما ومحيطها في وادي قديشا، فقالوا في ذلك عام 1634 ما حرفيته: «أعطانا البطريرك الماروني مدرسة في لبنان ومنحنا كل ما له من سلطة وأحَبَّنا دائمًا». و«أنعم البطريرك جرجس عميرة الأهدني (1633 ـ 1644) على الرهبان الكرمليين سنة 1643 بدير مار ليشع قرب قصبة بشراي»، و«جاد الشيخ سنتو بن فياض الخازن على الرهبان الفرنسيسكان منذ سنة 1681 بأرض وسيعة في حريصا ـ كسروان حيث شادوا ديرهم الحالي على اسم مار انطونيوس البادواني». و«لما جاء اليسوعيون إلى كسروان عام 1652 اقتبلهم فيه حاكمه عندئذٍ الشيخ أبو نوفل الخازن بكل ارتياح، فأنزلهم أولاً ضيوفًا في داره، ثم وهبهم أرضًا كبيرة في عينطورة، وشيَّد لهم فيها من ماله الخاص كنيسة ومقامًا، وأعطاهم أيضًا دارًا له في بيروت». و«في سنة 1792 حل الرهبان اللعازريون في لبنان محل الآباء اليسوعيين بسبب الإلغاء الذي نزل بهم بأمر الحبر الأعظم، بيوس السادس (1775 ـ 1799) واحتلوا معهد عينطورة المعروف، ولا يزال بيدهم إلى اليوم عامرًا مزدهرًا شهيرًا».

(2) المطران تاوفيليوس جورج صليبا، من محاضرة له مذكورة سابقًا.

بعد هذا العرض المفصل لدور موارنة لبنان، أصحاب الفضل على المرسلين الكاثوليكيين، نعود إلى البطريرك الأرمني الكاثوليكي أرزيفيان لنرى كيف أتى إلى لبنان، وما هي التسهيلات التي أعطيت له.

جاء في كتاب الباب بنديكتوس الرابع عشر إلى البطريرك الماروني سمعان عواد ما يلي:

«نطلب إليكم أن تبدوا المودة الحميمة والتكرّم اللائق لأخينا بطرس (أرزيفيان) بطريرك كيليكيا للأرمن الكاثوليك وستكونون بهذا عند حسن ظننا إذ إننا نكنّ له جل التقدير»[1].

فمن المؤكد، والحالة هذه، أن يلقى الأرمن الكاثوليك، الهاربون يومذاك من مشانق العثمانيين ونيرانهم وسجونهم، الضيافة الكسروانية الحسنة عند الموارنة «إخوانهم في العقيدة».

غير أن «اعتراف روما الرسمي بانتخاب المطران أرزيفيان بطريركًا زاد في حدة التوتر الذي كان اعترى العلاقات بين الباب العالي (السلطان محمود الأول 1730 ـ 1754) والدول الغربية المعتمد تمثيلها في القسطنطينية. وقد أدى ذلك إلى إقفال جميع مرافئ الأمبراطورية في وجه البطريرك أرزيفيان، ولذلك اضطر إلى اللجوء إلى ديره في الكرَيْم حيث استقبلَتْه سلطات الكنيسة المارونية بكل ترحاب في 6/ 10/ 1743».

هل كان يعلم البابا بنديكتوس الرابع عشر والبطريرك الماروني المثلث الرحمة سمعان عواد أن صراعًا قد ينشب يومًا بين الموارنة

(1) عن «بزمار عبر التاريخ» عن «دور الموارنة في ارتداد الكنائس الشرقية» (ترجمها البزماريون: «دور الموارنة في رجوع الكنائس الشرقية») للأب بطرس روفايل، المذكور سابقًا، ص40.

والأرمن؟ أم أنهما كانا يريان أن وحدة الدين تستطيع أن تذوّب الفروقات الاجتماعية والفكرية والثقافية والتاريخية والسياسية، وتستطيع أيضًا أن توحّد المشاعر المختلفة والأهداف المتضاربة والآمال المتعددة؟

ومهما يكن، فإن كسروان كانت وستبقى ملجأ للمتمردين والمضطهَدين لا سيما إذا كانوا من المناضلين المسيحيين، الأمر الذي يشجع الدعوة إلى الوحدة المسيحية في هذا الشرق المتخم بالاضطرابات الدينية والنزاعات الطائفية.

وما لبث الأرمن الكاثوليك أن باعوا دير الكرَيْم إذ بنوا دير بزمار[1] على أكمة خضراء ترتفع 930 مترًا وتبعد 30 كيلومترًا من بيروت وتنحدر حتى شواطئ البحر المتوسط». وهو «الدار الرهبانية الوحيدة المنشأة في الدول العربية، بالإضافة إلى دير القدس»، ففيه «واحة للاستجمام والانعكاف على الدرس» مما يساعد على تهيئة المرسلين على العيش والعمل مهما كانت الظروف وفي أي مكان، ويساعد أيضاً على «تنمية ثقافة الأرمن الشخصية».

إن أقصى ما نرجوه لهذه الطائفة الكريمة وللشعب الأرمني ككل الموجود في لبنان إقامة هادئة وفعّالة ومفيدة في الربوع اللبنانية التي هي - مذ كانت ـ موئل لكل مضطهَد ومظلوم.

ولنا أن نطالب الحكماء الأرمن (الكاثوليك والأرثوذكس) السّهَر على استمرار العلاقات حسنةً بينهم وبين اللبنانيين، لا سيما الموارنة، لئلا يزداد لبنان خرابًا، ولئلا يصبح الوجود الأرمني في لبنان مدعاة للقلق والخوف على الجميع. وكما قيل في اليوبيل المئوي الثالث لميلاد المثلث الرحمة إبراهام بطرس الأول أرزيفيان:

(1) بوشر ببنائه في عام 1749.

«إن دير بزمار كان وسيبقى متحفًا مكشوفًا تحت سماء لبنان الصافية، فيه اقترن النبوغ اللبناني بروح شعب أصيل، وكان اندماجهما تحفة رائعة للتاريخ وخير عبرة للمستقبل»[1] فإن هذه الكلمة الأرمنية الواعية الرزينة يجب أن تظل أمانة غالية وعزيزة في عنق كل أرمني.

مع الرّهبَان الكريْميِّين

في وادي غوسطا المسمَّى «وادي الكرَيْم»، يستقبلك رهط من الرهبان المرسَلين اللبنانيين، بينهم الفتى والعجوز، بفرح وسرور. أولئك - برغم قلة عددهم - يكوّنون عالمًا مستقلاً وآمنًا لهم عاداتهم وتقاليدهم ومفاهيمهم الخاصة. يتنقلون معك بين «صالونات» الدير وبين الكنيسة والشرفات المطلّة على البحر باهتمام بالغ، ويقولون لك بصوت واحد: «الأرمن لم يتركوا شيئًا إلا وأخذوه معهم عندما اشترى «المؤسس» منهم هذا الدير ما عدا الجرس والصورة التي في الكنيسة». ويدلّون على الحجارة التي تفصل بين طبقات الدير، فكل واحدة منها لها حجارتها، وأقسام البناء واضحة. هذا كان في عهد الأرمن، وذاك في عهد «المؤسس» وذلك حديث العهد بنَتْه الجمعية، فالطبقة السفلى هي من الحجارة الكبيرة، وترى في الزوايا مداميك تحمل إشارات متشابهة كأنها المعالم التي يُسْتَدَلّ بها.

قال الأب أنطونيوس العنداري[2]:

---

(1) «بزمار عبر التاريخ» نفسه.

(2) الأب انطونيوس ساسين موسى ساسين العنداري: من عبدين، قضاء البترون، ولد في أميركا حيث كان والداه، وذلك يوم 1 كانون الثاني 1898. يحمل دكتوراه في الفلسفة واللاهوت من جامعة «نشر الإيمان» - روما. انتخب رئيسًا للجمعية (1951 - 1959). مثّل الجمعية في الأرجنتين. التقيته يوم 13 شباط 1985 في «دار المسيح الملك» («دير يسوع الملك»).

«يُعتقَد أن الذين بنوا هذا المعهد قبل مجيء الأرمن إليه كانوا يخبئون داخل هذه الزوايا المتشابهة أموالهم وحليّهم. وربما فعل ذلك أيضًا الأرمن ممن كانوا هنا».

واستطرد يقول:

«ذات يوم، عندما كنت رئيسًا للدير، لحظتُ حفرًا في هذه الزاوية - وأشار إلى مدماك كبير عليه علامة في حائط الكنيسة الشمالي من الطبقة السفلى - وأغلب الظن أن جماعة (...) أتت لتأخذ شيئًا ما كان موجودًا في هذا المكان».

لم يعلِّق أحد من الكهنة على كلمة الأب العنداري. لكنَّ رئيس الدير الحالي الأب موريس بويز[1] انحنى بقامته الممتلئة المستقيمة عندما كان يدخل الكنيسة وجثا على ركبتيه أمام صورة المسيح[2] ليصلي داعيًا: «اللهم ازرعْ السلام في الأرض ووحّد القلوب واكْثِر من المؤمنين».

وشدّني تمثال نصفي من الرخام الأبيض الساطع النقي المصقول، فاقتربت منه لكي أحقق فيه، فإذا هو «للمؤسس» أيضًا، وإن كان لا يحمل تاريخًا ولا توقيعًا من الفنان النحّات؟!

عن هذا التمثال - الآية، قال لي فيما بعد الأب الرئيس يوسف العنداري: «أما التمثال الرخامي الموجود في دير الكرَيْم والمصنوع في إيطاليا فهو، برأيي، أجمل من تمثال البرونز الموجود هنا في قاعة الاستقبال (التابعة للمعهد)».

إنه لعمل عظيم حقًّا. وليس عجبًا أن يكون قد استقبله جمهور الدير باحتفال كبير عندما وصل من إيطاليا، بل ليس عجبًا أيضًا أن يبقى حيث هو مخبوءًا بعيدًا عن الأعين الحاسدة والأيدي الطويلة.

---

(1) لبناني الأصل مولود في القاهرة. وهو يتكلم المصرية.

(2) قال عنها الأب يوسف خريش: «إنها ترقى إلى القرن الحادي عشر حسبما قيل لنا. وهي الأثر الوحيد، ما عدا الجرس، الذي تركه لنا الأرمن».

نبقى في الكنيسة نستطلع الضرائح الآتية:

1 ـ المطران يوحنا حبيب: رئيس أساقفة الناصرة ومؤسس الرسالة اللّبنانية. ولد في بيت الدين 1816، وتولى القضاء من 1839 إلى 1855. ارتقى إلى درجة الكهنوت 1841، وأسس الرسالة اللبنانية 1865. وجُعل رئيسًا لأساقفة الناصرة (شرَفًا) 1889. توفاه الله 4 حزيران 1894[1].

2 ـ الأب أسطفان قزاح (1819 ـ 1897) الرئيس العام الأول على جميعة الرسالة اللبنانية (1967).كتبت على بلاطة ضريحه هذه الآية من سِفْر أعمال الرسل عن شفيعه القديس اسطفان أول الشهداء: «وكان اسطفانوس رجلاً ملؤه النعمة والروح القدس»[2].

حياة هذا الكاهن الرسولي ألّف فيها المرحوم الخوري إبراهيم حرفوش، أحد أبناء جمعية الرسالة اللبنانية، كتابًا قيّمًا ونفيسًا عنوانه: «قدوة الصلاح في ترجمة الأب اسطفان قزاح»[3].

---

(1) في تلك الأيام كان الأساقفة يُدفنون جالسين على كراسيهم.

(2) «أعمال الرسل» (6: 5). القديس اسطفانس: أحد الشماسة السبعة الذين اختارهم الرسل بعد عيد العنصرة، أول الشهداء المسيحيين 33م. ذكره البطريرك يعقوب الثالث في كتابه «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية» الجزء الأول، ص: 81. 83.

(3) صدر عن مطبعة القديس بولس في حريصا سنة 1915. ومما يجب ذكره أيضًا أن الخوري إبراهيم حرفوش نفسه هو واضع كتاب «دلائل العناية الصمدانية في ترجمة معلي منار الطائفة المارونية، غبطة أبينا وسيدنا الملفان، مار الياس بطرس الحويك، بطريرك أنطاكية وسائر المشرق» الصادر عن مطبعة المرسلين اللبنانيين ـ جونيه سنة 1935. وفي دراسة للأب الدكتور أغناطيوس سعادة، عنوانها «جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة»، ذكرت سابقًا، جاء ما يلي: «وكانت العناية الإلهية قد قادت إليه ويقصد المؤسس ـ المطران) الرجل الرسولي الخوري اسطفان قزاح من بكفيا الذي كان يسعى بدوره إلى =

3 ـ المطران شكر الله الخوري (1862 ـ 1934) رئيس الجمعية عام 1902. مطران صور للطائفة المارونية، شقيق المطران عبد الله الخوري[1].

ماذا تقول هذه الضَّرائح؟

ماذا يقول الماضي البعيد ـ القريب؟

رجال من هنا وهناك وهنالك، بنوا وشادوا ثم قضوا لتبقى آثارهم شمّاخة تشهد أن للحق رجالاً كأنهم كواكب السماء.

وتركنا الكنيسة لنصعد إلى غرفة الطعام. الأب الرئيس موريس بويز بارك المائدة، وحوله الآباء الأفاضل يوحنا سعادة[2] وأنطونيوس

= مشروع رسالة للطائفة، فاختاره رفاقه الجدد رئيسًا عامًّا عليهم، لأن المؤسس رفض الرئاسة زهدًا وتواضعًا، وانزوى في دير الشرفة يعلِّم الأولاد. إلا أن إلحاح الكهنة حمله على أن يعود فيعيش بينهم ومعهم. ثم أقاموه رئيسًا عامًّا عليهم، بعد ارتقائه إلى الكرامة الأسقفية، حتى ساعة وفاته. وأخذ المرسلون اللبنانيون يدخلون الجمعية الناشئة التي راحت تنمو كحبة الخردل في ظلال غارسها الحبيب. «ويُعتبر الأب قزاح الذراع اليمنى للمؤسس القديس وشريكه في تأسيس الجمعية التي عمَّق فيها، بمثله وكلامه، الروح الرسولي والروحانية العالية النابعة من فضائل شفيعها. وقد توفاه الله برائحة القداسة في 18 من كانون الأول عام 1897 في عينطورة. ودفن إلى جانب رفيقه المؤسس في كنيسة الكرَيْم. وأجرى الله على يده بعض العجائب والكرامات التي يعود الحكم فيها لسلطان الكنيسة». هذا وأعيد انتخابه رئيسًا عامًّا للجمعية من عام 1894 إلى 1897 بعد أن كان قد مكث في هذا المركز من 1867 إلى 1889.

(1) دامت ولاية هذا الأب الرئيس (المطران) ثلاث سنوات (1903 ـ 1906). عن الأب سعادة، المصدر نفسه.

(2) ترجم له الأب الدكور اغناطيوس سعادة كما يلي: «الأب يوحنا سعادة (1897 ـ 1984)، من بيت الدين. هو تلميذ رومية ومن أنسباء المؤسس. أدار الرسالة في الأرجنتين والبرازيل، وشغل منصب الرئاسة العامة خلفًا للأب نعمة الله مبارك (وذلك من 1949 إلى 1951). وألّف كتاب «البنان =

العنداري ومنصور يونس (أستاذ الابتداء في الدير) وبولس ناصيف.

كان الغداء بسيطًا جدًّا بينما الحديث اتسع وتشعّبَ حتى شمل قضايا أدبية واجتماعية وسياسية ودينية.

حَياة المؤسّس الحبيب

ودّعتُ رهبانَ دير الكرَيْم ونفسي تسألني: أليس سرًّا أن يجتمع رجالٌ من شمال لبنان وشرقه وجنوبه وغربه وجبله في هذا الوادي ليوحّدوا إمكاناتهم الروحية والعلمية لخدمة عقيدتهم والعلم والإنسان؟

وتسألني نفسي أيضًا: أي رجل هو المطران يوحنا حبيب الذي أتى «إلى هذه الأرض ومعه ثلاثة كهنة: اسطفان قزاح من بكفيا، وفرنسيس الشمالي من سهيلة، ويوسف العلَم من داريا الزاوية، ثم أصبحوا ثمانية، ثم ثلاثة عشر، ثم عشرين، فثلاثين، فأربعين»؟

ثم هذا السؤال:

المطرن يوحنا حبيب - هذا الرائد الكبير - من يكون؟

قلت: الجواب هو عند الأب يوحنا العنداري الرسولي الذي سيطل علينا الصيف القادم (صيف 1980) بكتابه الوثائقي: «المطران يوحنا حبيب مؤسس جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة»[1].

= في أميركا»، كتب تاريخ الرسالة في الأرجنتين، لا يزال مخطوطًا، وله مقالات وأشعار رقيقة نشرت في المجلات والصحف. وتولّى إدارة راهبات العائلة المقدسة وإرشادهن.

(1) تأخر صدور هذا الكتاب عن موعده حتى 14 أيلول عيد ارتفاع الصليب 1980، 497 صفحة من القياس الكبير... يتضمن بعض الصور والوثائق وتمهيدًا من الدكتور فؤاد أفرام البستاني. جميع الحقوق محفوظة لجمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة.

إلا أن المؤلف أطلعني عليه وهو لا يزال في المطبعة بعدما أدرك رغبتي في الوقوف على أمر هذا الرجل. لذلك، ومن خلال هذا الكتاب أو بعضه، سنحاول هنا، كشف أهم الجوانب من حياة هذه الشخصية اللبنانية التي تخطت الإقليمية والطائفية فصارت عَلمًا من أعلامنا وعظيمًا من عظمائنا.

عودة إلى تاريخ الشوف قبل ولادة المؤسس

قبل البدء بكتاب الأب العنداري، لا بد لنا من أن نحدّد ذلك الواقع السياسي والإداري الذي كان يسود منطقة الشوف، حيث مسقط رأس الحبيب، خلال الفترة السابقة على ولادة يوحنا، وإلى حين غادر هذه المنطقة. ولكي يتحقق لنا ذلك، رجعنا إلى كتاب «تاريخ لبنان الحديث»[1] لصاحبه الدكتور كمال سليمان الصليبي إذ هو - حتى الآن - يُعتبر من أفضل المراجع التي يمكننا اعتمادها والاستناد إليها.

إن العودة بالتاريخ إلى منطقة الشوف التي عرفها يوحنا الحبيب عن كثب، إنما هي العودة إلى القرنين السابع والثامن عشر، بل إلى الإمارة الشهابية. وليتسنى لنا هذا يجب أن نذكر انتقال الحكم من يد المعنيين إلى يد الشهابيين. وقد تم كما يقول الدكتور الصليبي:

«في أوائل القرن السابع عشر، سيطر فخر الدين المعني - أمير الشوف - على لبنان كله. وكان قد ورث السيادة على المناطق الدرزية في الجنوب ثم تحيّن الفرص فبسط سيادته هذه على المناطق المارونية في الشمال. وبذلك وضع أساس الائتلاف الماروني - الدرزي الذي قام عليه

---

(1) لدينا الطبعة الثالثة 1972. والكتاب صادر عن «دار النهار للنشر» - بيروت وهو يقع في 253 صفحة من القياس الوسط، إلى فهرس الأعلام والأماكن وفهرس المحتويات.

كيان لبنان كولاية عثمانية»[1]، فصارت منطقة الشوف قاعدة لبنان، ونما فيها التعايش المسيحي ـ الدرزي، وازدهرت البلاد فعمّها الأمن والرخاء والاستقرار.

لكن فخر الدين «جذبت سيرتُه الأنظار في أوروبا، فرأى فيه آل مديتشي[2]، أمراء توسقانية، سبيلاً إلى تحقيق ما حلموا به من سلطان على بلاد الشام»[3].

و«لذلك أعاروا نشاطه اهتمامًا كبيرًا وشجّعوه على تحدي أسياده العثمانيين»، حتى إنه تحدّى هؤلاء بنجاح، قاهرًا جيرانه من الولاة، متوسّعًا في معظم الأنحاء الشّاميّة»، كما «لو أنه قد فاته أن يلتفت إلى خطورة ما هو فاعل، أو أنه أصبح مغرورًا بما منحته إياه دولة تسوقانيا البعيدة. وما إن صمّم الباب العالي على مقاومته مقاومة فعالة توانى التوسقانيون عن معاونته، فقهره العثمانيون في 1633 وساقوه أسيرًا إلى الأستانة حيث مات خنقًا بعد عامين».

---

(1) المصدر نفسه، ص: 31.

(2) مديتشي: (Medici) عائلة إيطالية شريفة حكمت فلورانسا منذ أواسط القرن الرابع عشر. من أهم أفرادها: قوزما الأول والثاني وفرديناندو الأول وقد اتصل بهما الأمير فخر الدين فقدّما له المساعدات الفنية وعقد معهما حلفًا عسكريًّا. ومنها ملكتان على فرنسا هما: (1) كاترين (1519 ـ 1589): ملكة فرنسا بعد زواجها من هنري الثاني. والدة ثلاثة ملوك هم: فرنسوا الثاني، شارل التاسع، هنري الثالث. أتقنت السياسة ومارستها دون رادع أخلاقي، فكانت سببًا في اضطرام الحروب الدينية وفي المذابح التي رافقتها (2) ماري (1573 ـ 1642) ملكة فرنسا بعد زواجها من هنري الرابع (1600). وُلدت في فلورنسا وماتت في كولونيا، وكانت وصية على العرش بعد وفاة زوجها، إلا أن ابنها لويس الثالث عشر أبعدها عن شؤون الدولة بناء لطلب وزيره ريشيليو.

(3) المصدر نفسه.

وامتدت مأساة فخر الدين حتى طالت أنجاله الخمسة: «واحد مات في محاربة الأتراك، وثلاثة قُتلوا مع والدهم، وعاش الأصغر حسين حاجبًا في البلاط العثماني، فرئيسًا للحجّاب، فسفيرًا في الهند».

و«خلف فخر الدين في لبنان الأمير ملحم، ابن أخيه. وخلف الأمير ملحم، في 1656، ابنه أحمد» الذي مات في 1697، وكان آخر الذكور المعنيين.

وهكذا انقرضت السلالة المعنية ليبدأ العهد الشهابي، حسبما شاء العثمانيون، بالأمير بشير الأول، ابن حسين الشهابي، ابن أخت الأمير أحمد آخر المعنيين، إذ نودي الأعيان اللبنانيون إلى انتخابه أميرًا على البلاد».

و«ما إن تمّ الانتخاب، حتى أصرَّ العثمانيون على أن تؤول الإمارة إلى الفتى حيدر شهاب، سبط أحمد معن وأحد أقرباء بشير». وبعد أخذ وردّ «سُوّي الأمر بأن يحكم بشير الأول وصيًّا على الإمارة حتى يبلغ الأمير حيدر سنّ الرشد».

وبفضل هذه التدابير «أصبح الشهابيون، أقرباء المعنيين وأصحاب وادي التيم، أمراء على لبنان».

صحيح أن الشهابيين «كانوا يدينون بالسنّة»، إلا أن هذا لم يمنع الإمارة من أن تنتهي إلى «الإقطاعية الدرزية» في حين إن المسيحيين ـ وبخاصة موارنة الجبل ـ «شكوا من الضعف السياسي»، إذ وقعت مناطق بشرّي والبترون وجبيل (المارونية) ومنطقة الكورة (الأرثوذكسية)، منذ أواخر القرن السابع عشر، «تحت نفوذ مشايخ آل حمادة الشيعة الذين تولوا أمر هذه المناطق عن ولاة طرابلس».

لقد كان حكم هؤلاء المشايخ «عنيفًا ظالمًا» إذ كانوا بعيدين عن نفوذ الأمراء الشهابيين. بيد أن مشايخ آل الخازن في كسروان كانوا «قد

استعادوا ـ بمؤازرة آل معن ـ جزءًا كبيرًا من الأراضي التي استوطنها الشيعة في تلك المنطقة منذ أواخر عهد المماليك».

ولكن «منعة الجانب لم ينعم بها النصارى (المسيحيون) إلا في كسروان» التي تأبى أن تُضام. وأما في الشوف، «حيث اشتدّ نفوذ الشهابيين والمعنيين، فبقي الموارنة والملكيون[1] دون وزن سياسي»[2]. على أن المعنيين «قد شجّعوا نزوح النصارى (المسيحيين) إلى هذه المناطق الدرزية» ومثلهم فعل الشهابيون «حتى كان عدد كبير» من المسيحيين «قد استوطن هناك».

وبما أن المسيحيين «النازحين» هم «في معظمهم من الفلاحين الذين استقروا في مزارع الدروز وعمال في خدمتهم»، كان من الطبيعي أن يصبح (هؤلاء) الأعيان الدروز هم «أصحاب السلطة السياسية في البلاد». وليس هنالك ما يثير العجب أو الاستغراب «إن حاول الأمراء الشهابيون، حتى أواسط القرن الثامن عشر، الظهور بمظهر الدروز»[3].

ظل الشهابيون يتعاقبون على السلطة الواحد تلو الآخر. فبعد الأمير حيدر الذي حكم من 1706 إلى 1732، جاء ابنه الأمير ملحم وحكم

---

(1) الملكيون: يرقون في لبنان إلى القرون المسيحية الأولى، وقد زاد عددهم بقدوم جاليات من الأقطار الإسلامية المجاورة، لاجئين إلى جباله الآمنة. هم طائفتان: أورثوذكسية منفصلة عن رومية نهائيًا، منذ القرن الرابع والخامس عشر، عددها حسب إحصاء سنة 1932: 312، 77 والإحصاء التقريبي لسنة 1952: 858، 130 مقيمين في لبنان. الطائفة الكاثوليكية المتحدة برومية، وعلى رأسها بطريرك منذ سنة 1734، تعدّ حسب إحصاء 1932: 560، 38، والإحصاء التقريبي لسنة 1952: 764، 81 نسمة مقيمين في لبنان. (انظر: الرهبانية الباسيلية الشويرية في تاريخ الكنيسة والبلاد، تأليف الارشمندريت اثناسيوس حاج، الجزء الثاني 1978، ص: 403).

(2) تاريخ لبنان الحديث.

(3) تاريخ لبنان الحديث.

من 1732 إلى 1753، ثم تلاه الأخَوان أحمد ومنصور، وحكَم الاثنان معًا من 1753 إلى 1763. ثم تنازل أحمد لمنصور الذي حكم مستقلاً حتى 1770. وجاء الأمير يوسف بن الأمير ملحم، فحكَم بلاد جبيل من 1763 إلى 1770، ونُودِيَ به أمير الجبل في مؤتمر الباروك 1770 بعد تنازل عمه الأمير منصور.

غير أن ما يهمنا أن نعرفه أيضًا هو أن الدروز «منذ أن استوطنوا لبنان، قد توفقوا إلى إقامة نظام إقطاعي خاص بهم» مما مكّنهم من تدبير شؤونهم الداخلية «كفئة مستقلة، مع مراعاة الظروف الراهنة» بحيث إن «النظام الإقطاعي الإسلامي، سواء في عهد المماليك أو في العهد العثماني، لم يكن وراثيًا، ولم يعطِ صاحب الإقطاع أكثر من حق الجباية لمدّة محددة من الزمن، أقصاها مدى الحياة». و«قد حال هذا النظام، في معظم ديار السلطنة، دون نشوء طبقة إقطاعية وراثية».

وبقي هذا الإقطاع في متناول الأيدي كما بقي «مباشرة تحت سيطرة السلطة المركزية». ومثلما هو معلوم، فإن «نظام الإقطاع في الجبال الدرزية وشمال لبنان وبلاد صفد وعجلون وبقية الأنحاء الوعرة من البلاد الشامية لم يطبق بانتظام». ويمكننا القول «إن الدروز، كغيرهم من الفئات المعزولة في المناطق الجبلية، قد توفقوا منذ عهد المماليك إلى الإبقاء على تقاليدهم الإقطاعية الخاصة بهم. وكانت دولة المماليك راضية ضمنًا بذلك، حتى إنها خلعت على كبير زعماء الدروز، أيًا كان في أيامه، بعض مظاهر النفوذ وأوكلت إليه إمارة جند الحلقة في منطقته».

على أن هذا النفوذ «المعترف به من جانب الدولة لم يكن شيئًا أمام السطوة والمكانة اللتين كان يتمتع بهما مثل هذا الزعيم بين قومه». وسبب ذلك هو أن هذا الزعيم «كان ـ بصفته الأمير الدرزي الأعلى ـ يرئس نظامًا إقطاعيًا قائمًا على حق الإرث ويتزعم عددًا من الأسر الإقطاعية السائدة على مختلف المناطق الدرزية».

و«في عهد المماليك ذاك كان كبار الأمراء الدروز هم من آل بحتر التنوخيين سادة الغرب» لا ينتازعهم أحد، ولاينافسهم مَن في نفسه توق إلى الزعامة والسيادة، حتى اجتاح العثمانيون بلاد الشام، وعندئذٍ «خسر البحتريون مكانتهم العليا لأبنائهم المعنيين، سادة الشوف»[1] الذين هم أيضًا خسروا بدورهم هذه السيادة للشهابيين، مثلما تقدم.

وجاء الأمير بشير الثاني

من غزير في كسروان جاء إلى دير القمر وبيت الدين الأمير بشير الثاني (1767 ـ 1850) ابن قاسم بن عمر بن حيدر الشهابي سعيًا «وراء رزقه عند الأمير يوسف، ابن عم أبيه، فأكرمه الأمير وأدخله في معيّته».

وسرعان ما أصبح بشير «شخصية مرموقة في البلاط الشهابي، يساهم بنصيبه من الدسائس التي كانت تجري فيه»، فتنبَّه لأمر هذه الشخصية خصوم الأمير يوسف، و«في طليعتهم آل جنبلاط، فحاول هؤلاء ـ وهم كبار خصوم الأمير ـ أن يستميلوا بشيرًا إلى جانبهم» وهو الأمير «بالنسب» و«الطَّمُوح» و«ذو الحيلة الواسعة» والقادر، «برغم صباه وفقر حاله»، على انتزاع احترامه ممن كبروه سنًّا، مما جعل الجنبلاطيين يرون فيه «خير منافس للأمير» والحليف الطبيعي لهم. ولكن بشيرًا «تهرب بادئ الأمر من إجابة طلبهم، وربما كان ذلك لافتقاره إلى المال وعدم ثقته بالنجاح».

واختلفت الحال عما كانت هي عليه، فأوقع الأمير يوسف سنة 1787 بخاله أحد الأمراء الشهابيين المسلمين في وادي التيم وقتله. ولما «كان الأمير القتيل ثريًّا» أُوفد بشير إلى حاصبيا «لتقييم إرثه». وفيما هو يؤدي هناك مهمته، التقى الأميرة شمس، أرملة المتوفى، وكانت هي

(1) تاريخ لبنان الحديث.

أيضًا على جانب كبير من الثراء»، ف «أتت بشير الفرصة فاغتنمها، فعاد إلى دير القمر زوجًا لشمس وصاحب ثروة واسعة».

إذ ذاك وجد بشير نفسه «أكثر استعدادًا للسير مع الجنبلاطيين والمطالبة بالإمارة». و«كان قد بلغ الطغيان والجشع بالأمير يوسف، في ذلك الوقت حدًّا لم يعُدْ يطاق»، فكلما «فرض عليه زيادة في المال، كان (يوسف) يعمد إلى زيادة الضرائب حتى أرهق بها البلاد»، الأمر الذي دفع الجنبلاطيين «بتأييد خفي من الجزار» إلى تحريض الشعب عليه. «وانفجرت الأزمة في 1788، حين هب مماليك الجزار في عكا إلى العصيان. ذلك أن الأمير يوسف، وقد شجعه نجاح العصاة في البلاد، سارع إلى تأييدهم. فلما فشلوا، وجد نفسه في مأزق. فما إن أعاد الجزار الأمن إلى نصابه في عكا حتى جيّش عساكره على لبنان لتلتقي جماعة الأمير يوسف في قب الياس وتهزمهم شر هزيمة. واضطر الأمير ـ في الحال ـ إلى التخلي عن كرسي الإمارة. وتنادى أعيان لبنان، نزولاً عند طلبه، للمناداة بنسيبه بشير، مرشح الجزار والجنبلاطيين، خلفًا له، فهرع الأمير الجديد إلى عكا لضمان تعيينه»[1].

إن الغاية من عرض هذه الحقائق جميعها هي التسليم بأن الأمير بشير، القادم من غزير ـ كسروان، القلق على إمارته، الخائف من حلفائه الجنبلاطيين، قد استمال المسيحيين فأمن لهم، ووثق بهم، حتى استعان ببعضهم، ومنهم الخوري يوسف العينكسوري[2] الذي «يتصل نسبه إلى آل رزق»[3] و«استقدمه مع أخيه غانم العينكسوري، وسلّمها عودة في بيت الدين قرب الكنيسة، واستخدم الخوري يوسف كاهنًا شرعيًّا لخدمة

(1) المصدر السابق.

(2) نسبة إلى بلدة عينكسور الواقعة بين عاليه وعبيه.

(3) الأب يوحنا العنداري، المصدر المذكور سابقًا، ص: 17.

شركائه، فكان يعيش من ريع ما تسلمه من أملاك الأمير». وقد أدركت الوفاةُ هذا الخوري «في بيت الدين في 17 تشرين الثاني سنة 1837»، وإلى هذا الخوري العينكسوري يرجع نسب المطران يوحنا حبيب رزق[1].

الحبيب وبيت الدين

وإذا العلاقة بين الأمير بشير والخوري يوسف على أتَمّها، وُلد حبيب بن بطرس بن الخوري يوسف العينكسوري، والدته وردة الحيمري، في أواسط شهر تشرين الثاني 1816 في قرية بيت الدين، مركز متصرفية جبل لبنان، في بيت ملاصق لكنيسة مار مارون الحالية، وهو الآن ملك لعائلة الطرابلسي، اتصل بهم بطريقة الشراء من الأمراء الشهابيين». وكان الأمن، آنذاك، يسود الشوف والربوع اللبنانية جميعها.

نشأ الحبيب «على الإيمان والتّقى. فأمّه وردة، كانت تسابق أباه بطرس إلى الكنيسة بتمام العزم والنشاط للقيام بفروض الصلاة والعبادة». ومما يُروى عن هذه السيدة النقيّة أنها كانت فضلاً عن ذلك «مكرسة جانبًا كبيرًا من أوقاتها لخدمة الكنيسة وتنظيفها. وحدث أن مرضت ذات يوم، فأشارت إلى كِنَّتِها لكناسة بيت الله، فأبت الكِنّة، فذهبت هي رغم مرضها، ونظفت الكنيسة كعادتها».

ودخل الحبيب مع سواه من أطفال بيت الدين المدرسة، حيث تلقى علومه الابتدائية «على يد سلوم عزيز الجزيني، والأبوين واكيم الحاقلاني ويوسف شاهين الغوسطاني. وعن هؤلاء أخذ ما يلائم سن الأحداث من العلم والأدب». وهكذا نشأ الحبيب نشأة مسيحية. وكيف

(1) نفسه.

لا، وأساتذته «كانوا من الأفاضل وأهل تُقى ودين»! فالمعلم سلوم الجزيني مثلاً «كان شابًّا علمانيًّا متدينًا، ثم ارتقى فيما بعد درجة الكهنوت وسمي سليمان وبقي يعلم الأولاد حتى شاخ»، وعليه قرأ يوحنا السريانية والعربية ومبادئ الخط والتعليم المسيحي.

ولكن سلومًا هذا كان «شديد القسوة على تلاميذه، ولذا كان حبيب يتحاشاه وينفر منه، أيام تلمذته له» الأمر الذي جعله يميل إلى الأبوين واكيم ويوسف «فصحبهما الواحد بعد الآخر، وأخذ عنهما مبادئ التقوى ومحاسن الفضيلة»، وأحبهما وتردّد إليهما «حتى أنِس به القس واكيم وتوسّم فيه خيرًا، فاتخذه شماسًا له، إذ كان هذا الراهب يخدم دار الأمير»[1].

الحبيب في قصر بيت الدين

من المؤكد أن يوحنا، الصغير الذي واظب على صحبة الأبوين واكيم ويوسف، عرف دار الإمارة عن كثب كما عرفها من قبله جدُّه وأبوه، لا سيما أن الأب واكيم قد «ولاّه الأمير بشير الشهابي شلأن داره الروحية بعد المطران يوسف اسطفان[2]»[3]، وكان هذا الراهب الجليل

(1) نفسه.

(2) يوسف اسطفان: بطريرك الموارنة (1766 ـ 1793) ولد في غوسطا وتعلم في روما. أسس مدرسة عين ورقة 1789 أولى مدارس لبنان. ألف وجدد في الطقوس. كتب العلامة الخوري بولس عبود كثيرًا عن هذا البطريرك وآماله ومشاكله ومواعظه ومجامعه الطائفية. وكتب عنه أيضًا الأبّاتي بطرس فهد في «بطاركة الموارنة وأساقفتهم للقرن الثاني عشر» دار لحد خاطر طبعة 1985 (ص273، 377). على أن ما كتبه الأبّاتي فهد هو تأريخ للبطاركة الموارنة كافة، أي منذ نشأة المارونية وإلى يومنا هذا. والسلسلة كاملة، ستة مجلّدات، صدرت عن دار لحد خاطر.

(3) نفسه.

يتمتع عند الأمير باحترام فائق، و«يُذكر عنه أن الأمير بشير لما أمر بقطع الأحراج لمسابك الحديد في لبنان، عفا عن أحراج دير حوب (في تنورين) (التابع للرهبانية اللبنانية المارونية) ـ حيث اعتزل الراهب ولبس المسح ـ استجابة لطلبه».

ناهيك طبعًا عن الكاهن الوقور الأب يوسف شاهين الغسطاوي الذي كان «تقيًّا ورعًا، في غاية الدعة وسلامة القلب»، ما جعله يحظى باهتمام الأمير بشير تمامًا مثلما رفيقه الأب واكيم، حتى إنه «تولى الرئاسة الداخلية على مدرس عين ورقة مدة، ثم عيِّن فاحصًا قانونيًّا لكهنة أبرشية بعلبك، كما عينه الأمير بشير قيّمًا روحيًّا على داره بعد الأب واكيم، فأدّى واجبه بكل أمانة ونشاط».

ولا نكون قد جانبنا الحقيقة إذا ما قلنا «إن الفتى حبيب العينكسوري أُعجب بشخصية الأمير بشير الذي حكم البلاد بنزاهة وإخلاص وتجرد»، وإنه «لما كبر أخذ يقلده، فلبس مثله الطربوش، وأطلق اللحية الكبيرة، وجدل الشاربين ولبس العباءة. مع العلم أن هذا الزي، عامة، كان الزي الكهنوتي في ذلك العصر»[1].

تلك كانت حداثة يوحنا حبيب (رزق)، فلا أعتقد إن كان لديه وقت للعب واللهو. لو كان غير ذلك، فعلاً، لما استطاع أن يغادر «بيت الدين» إلى مدرسة «عين ورقة» النائية البعيدة التي لا يأتيها سوى القاصد أو من له مصلحة فيها. وكيف ينسى فتى، في مثل عمره، مسقط رأسه وملعب طفولته لو لم يكن عنده حب العلم كما وجهه أساتذته الكهنة؟

إن ما يؤكد ذلك بعض ذكرياته التي دوّنها الأب يوحنا فرح

(1) نفسه.

السبعلي[1] فكانت من أهم المصادر والمراجع التي استند إليها الأب يوحنا العنداري، ومنها ما يلي:

«إني لما كنت طفلاً في بيت الدين شهدتُ رياضة روحية أقامها هاك أحد الواعظين، القس ارميا خضير، لأبناء الرعية. فكنت أسمع الواعظين، بغاية الإصغاء والورع، ولتأثيرها فيّ، أحرقتُ في النار كاغدًا (دفترًا) كنت جامعًا فيه بخط يدي بعض الأغاني العالمية. أقول ذلك لأبيّن لك فوائد الرياضات الروحية ونجوعها في النفوس المسيحية. فعليك بذل الجهد في إتيانها وإتقانها لنفسك ولغيرك، فإن منافعها تعمّ الكل كبارًا وصغارًا، وأنا امتحنتُ ذلك بنفسي في صغري وفي كبري»[2].

ومن كان عنده تلك المزايا فأنّى له أن يقعد عن طلبه ويقبل الحصار في قرية صغيرة أو كبيرة ويكون مجال التعلم فيها محدودًا؟

(1) الأب يوحنا فرح السبعلي (1860 ـ 1943)، من سبعل، مؤرخ بحاثة قضى حياته يجوب القرى اللبنانية يعظ ويجمع المستندات عن تاريخها وتسلسل أسرها العريقة. نشر قسمًا منها في المجلات والصحف، والقسم الأكبر والأهم لا يزال مخطوطًا (سألت الأب الدكتور أغناطيوس سعادة: لماذا لم تبادروا إلى طبعها حتى الآن؟ فقال: سنعمل على ذلك إن شاء الله) في ماجرياته المؤلفة من ثلاثة أجزاء كبيرة. ودوّن حياة المؤسس، ونسَّق أوراقه ومتروكاته في خمسة مجلدات مخطوطة عنوانها «سمط الحبيب» (قلت للأب سعادة أيضًا: لو تنشر هذه المخطوطات؟ فقال: سنرى ذلك) ضمّنها وثائق قيّمة عن تاريخ لبنان والموارنة. وترك أبحاثًا أخرى في الطقسيات والتاريخ، وقصائد دينية ووطنية، ونشر كتاب «المناجاة الثلاثية» و«تأملات شهر حزيران لقلب يسوع» المعروف في القرى والرعايا. عن دراسة الأب سعادة المذكورة سابقًا.

(2) نفسه.

«إلى عين ورقة»

أو الرحلة الشّاقة

روى الحبيب قائلاً:

«دخلتُ مدرسة عين ورقة نهار الخميس في 24 حزيران سنة 1831 وأنا في سن الرابعة عشرة. وكان دخولي إليها من باب الصّدفة، فإني خطوت إلى المدرسة مع معلمي الخوري يوسف شاهين الغسطاوي الذي كان خادمًا دار الأمير بشير الكبير - قلت معلمي لأنه علمني القواعد السريانية - وحضوره كان لزيارة أهله».

في «عين ورقة» أحبه المطران يوسف رزق الجزيني وقَبِلَه «بعد أن امتَحَنه بعدّة أسئلة طرحها عليه» تلميذًا في المدرسة، إذ قال له: «حسنًا، اذهبْ إلى بيت الدين وأحضرْ لوازمك من كسوة وفراش وارجعْ عاجلاً».

قد يكون صادف يوحنا، في بيت الدين، معارضة من قبَل والديه. فلذلك «تأخر حتى التاسع والعشرين من الشهر الثاني (تموز). وإلى أن سمح له والده بالمجيء إلى المدرسة، اشتاق إليه أولئك الذين رأوه مع أستاذه الغسطاوي في المدرسة أول مرة، أو كما يقول البطريرك يوحنا الحاج في مذكراته:

«دخلت المدرسة في 25 حزيران 1830، ولما وصلتها كان حبيب مع معلمه الخوري يوسف شاهين هناك. وهو أول من وقع نظري عليه فسألت «من هو هذا؟ فقيل لي: إنه تلميذ الخوري يوسف شاهين». ومن اللحظة الأولى وقع حبّه في قلبي موقعًا عظيمًا»[1].

(1) هو يوحنا توما أبي رزق. عاون المطران يوسف اسطفان في إدارة مدرسة عين ورقة. رسمه البطريرك يوسف حبيش أسقفًا وتسمى يوسف، وذلك في سنة 1828.

يتّضح لنا من خلال مذكرات المطران الحبيب أن رحلته من بيت الدين إلى «عين ورقة» كانت شاقة ومؤلمة، فالمسافة بعيدة، والمواصلات قليلة وصعبة كما وصفها، حيث يقول:

«إن المكاري الذي استصحبتُه إذَّاك أذاقني من الإرهاق أمرّه. فإنه كان ينتهرني إذا تأخرتُ عنه لتعبي، ويشتمني إذا سبقتُه، ولقد تعبتُ تعبًا باهظًا بعد المسافة الفاصلة بين بيت الدين ومدرسة عين ورقة، فقطعتُ كل هذه المسافة على قدَميّ، والمكاري كان يفرط في قساوته نحوي بدلاً من أن يشفق عليّ ويركّبني ولو قليلاً في السهل».

أضاف:

«وما كنت لأجرؤ على أن أستميحه الركوب لفظاظة طبعه، ولاشتراطه عليّ أن يقصر حمل دابته على لوازمي فقط، بل كنت أعدّ سكوته عني مِنّةً منه عليّ، وبالإجمال لم يسلّني على ذاك الطريق الطويل شيء إلا افتكاري في نعمة قبولي في المدرسة...».

وقال الحبيب أيضًا:

«أما القسوة التي عاملني بها ذاك المكاري فكانت حافزًا قويًّا لإشفاقي على غيري. فإني منذ ذاك الحين صرت لا أنظر مظلومًا أو تعِبًا إلا ذكرت مرارة الظلم والتعب مما بُليت به وقتئذٍ. وبذكري هذا، كانت تتحرك في قلبي شعائر الشفقة والحنو تجاه من يعانون الحرمان والألم»[1].

وتعلّم الحبيب من المكاري أن لا يفكّر في الرجوع إلى بيت الدين إلا بعد أن يكون قد أحرز نجاحًا بارزًا ملحوظًا. فكيف كانت سيرة هذا الطالب الذي ما نسي «مآثر» ذلك المكاري الظالم؟

(1) نفسه.

الحبيب والأساتذة والزملاء

في المدرسة «لم يرَ حبيب نفسه غريبًا وسط محيطه الجديد، بل انسجم كل الانسجام مع رفاقه وكيّف ذاته بمقتضى قوانين المدرسة ونظامها الداخلي، واضعًا نصب عينيه القيام بوجباته بدقة وإتقان، وتتميم فروضه الروحية والدراسية على أكمل وجه»، إذ هو ينظر إلى مدرسة «عين ورقة» كأنها «أم المدارس المسيحية الشرقية كافة»، رغم الحالة السيئة التي طرأت عليها «بسبب المنازعة الشديدة بين رئيسها المباشر المطران يوسف رزق وبين عائلة بيت اسطفان على الحقوق الولائية التي استغرقت مدة طويلة فأثرت جدًّا على سير المدرسة، في بادئ الأمر، إلى أن نجحت أخيرًا مساعي البطريرك والأساقفة وولّي المدرسة، بعد تدخّل الكرسي الرسولي»، فذَلّلت هذا الخلاف الحاد، وسوّت الأمور بوفاق كان لا بد منه.

أثار الحبيب إعجاب أساتذته وزملائه طوال سبع سنوات ونصف قضاها في تلك المدرسة، فكان لزملائه المرشد والصديق والأخ، حتى إن البطريرك الحاج نفسه قال عنه:

«لم يمض علينا يوم من أيام المدرسة إلا وجدنا أنفسنا مع حبيب منكبّين على نسخ الكتب المدرسية، لقلة المطابع في أيامنا. فكان حبيب يشتغل ويشتغل الآخرين معه، وكنا جميعًا طوع إرادته لما لمسناه فيه من الغيرة والاندفاع، إذ خلق بيننا جوًّا من الفرح ومتعة في القيام بالواجب، فتعلقت قلوبنا به، ورحنا نتسابق في كل صباح ومساء إلى العمل معه بإتقان وإخلاص. وما الكتب الخطّيّة العديدة التي كتبها بيده، وتركها من بعده أثرًا ثمينًا، إلا أكبر شاهد على جلَدَه وتضحياته في سبيل العلم».

وقال عنه الخوري سمعان أيوب فرح الدلبتاوي:

«ما زلت أذكرُ برضى وارتياح أني عُيّنتُ مدةً من الزمن راعيًا لصف

حبيب بطرس الخوري في مدرسة عين ورقة، فعرفتُ فيه حينذاك الطالب المثالي»[1].

على أن حبيب «كان السابع عشر في لائحة تضمّ خمسة وخمسين طالبًا. لكن القسم الأكبر من هؤلاء التلاميذ لم يلازموا رفقته في المدرسة إلا مدّة وجيزة. ومن بين الأشخاص المعروفين الذين عايشوه في حقبة دراسته، نذكر غالب الدحداح[2]، الذي نال شهرة واسعة ومكانة رفيعة وكان الصَّديق الصدوق للحبيب، وبطرس عبد الله البستاني الذي اشتهر بعلمه وأدبه، ومرعي ابن الخوري يعقوب الحاج من دلبتا الذي رُقّي فيما بعد بطريركًا على الطائفة، وحبيب بن يوسف بشارة المرّيض من زوق مكايل الذي سيمَ مطرانًا على عرقا شرفاً، وشبلي الخوري يوسف البستاني من الدبّية الذي اختير مطرانًا لصور وصيدا».

الجميع شهدوا له وأثنوا عليه والتفّوا حوله، فهو المميّز من الكثير من الرجال، أو هو «مع هذا الذكاء، كان(...) حزمًا، نشيطًا، قوي

(1) نفسه.

(2) آل الدحداح: من مشايخ لبنان المسيحيين. لهم ذكرهم في السياسة اللبنانية والأدب العربي. كتب لهم الأمير يوسف صكًّا بمقاطعة الفتوح عهدة لهم وسلّمهم محاصيل أرزاق لمشايخ الحمدانية فيها. منهم: الشيخ يوسف جرجس أول من استلم منهم مشيخة العاقورة 1700، والشيخ اسكندر ت1911. قانوني، نقل إلى العربية قانون التجارة العثماني، والكونت رُشيد 1813 - 1889. وُلِدَ في عرمون (كسروان) وتوفي في باريس وهو من كبار أدباء القرن التاسع عشر. قضى النصف الأخير من حياته في فرنسا وتونس وأنشأ في باريس جريدة «البرجيس وأنيس الجليس» ونشر معجم جرمانوس فرحات وله مؤلفات في التاريخ والأدب وفقه اللغة. الشيخ الدكتور نجيب الدحداح (ت11 أيلول 1984) أمين عام وزارة الخارجية. له مؤلفات وكتابات صحفية في جريدة Le Revéil كان يوقعها باسم (Libanius)، والشيخ فريد، قاضٍ ورئيس مجلس الخدمة المدنية، والشيخ سليم فريد، رئيس مجلس إدارة كازينو لبنان، والشيخ سمير محام، والشيخ شارل محام، والشيخ لوسيان.

الإرادة». وقد «أحرز لكل سر كمالاً»، «ففي أي ظرف طلبناه وجدناه إنسانًا نظاميًّا سالكًا في واجبه، قادرًا نعمة ربه وافيًا لها»[1].

فهل تضيق الدنيا بوجه مثله؟ أم أنه سيكون هو نفسه ذلك العالم الواسع، فيدعو أصحابه إلى محيط عقله وروحه اللامحدود؟

إن من كانت عنده هذه الطاقة اتّسعت له الدنيا ولو كانت ضيّقة.

ونحن إذ نذكر الحبيب ورفاقه، ممن ذكرنا، وجميع الذين مرّوا بتلك المدرسة التي أغْنَت لبنان والمنطقة وبعض البلدان العالمية بمن خرّجت من الأساقفة والكهنة والأدباء والشعراء والمؤرخين والباحطين، فإنما لنحيّي «عين ورقة» بالذات، التي أوقفتها النزاعات مثلما أوقفت، من قبْل، مدرستي «الرّها» و«نصيبين» السريانيتين العظيمتين.

محاولة جريئة ولكن...

لم يتسنّ للحبيب أن يترهّب عندما هرب من المدرسة «عين ورقة» إلى دير ميفوق[2]، فهذه القصة المغامرة الطريفة هي كما ذكرها الحبيب نفسه للأب السبعلي، إذ قال:

«بعد مرور سنة وتسعة أشهر على دخولي مدرسة عين ورقة، لبستُ زي المساكين الشحّاذين، وهربت ليلاً وذهبت إلى دير ميفوق، حيث كان الرئيس العام الأب بليبل[3]. فأطلعته على أمري، وطلبت إليه أن

(1) العنداري: نفسه.

(2) ميفوق: قرية لبنانية تقع في قضاء جبيل. والدير المذكور هو للرهبانية اللبنانية المارونية. عقد فيه مجمع 1780.

(3) هو الأباتي أغناطيوس بليبل، الرئيس العام السادس عشر على الرهبانية اللبنانية المارونية، وهو من مواليد بحر صاف (ـ 1832).
العنداري، نفسه، ص: 41.

يرهّبني في دير حوب لأكون قريبًا من معلّمي الحبيس القس واكيم، فأرسلني الرئيس العام إلى دير حوب وقال لي: «ابق هنا حتى أعرض أمرك للسيد البطريرك. ثم بعد مرور نحو نصف شهر، كتب الأب العام إلى رئيس دير حوب كتابًا يأمرني فيه بالذهاب إلى غبطته فذهبت رغمًا عني. فأمرني غبطته بالرجوع إلى المدرسة. ولم يقبل تضرعاتي وتوسلاتي الكثيرة، فرضختُ للأمر وعدتُ إلى المدرسة، وكانت مدة إقامتي فيها نحو ثماني سنين»[1].

أو هي كما يرويها البطريرك يوحنا الحاج القائل:

«إن حبيب لم يُخفِ عني شيئًا من أموره الخاصة إلا رغبته في الترهّب، فقد أخفاها عني في البداية إلا أنه أخبرني بها أخيرًا. فحدث أنه في إحدى الرياضات السنوية التي كنا نصنعها عادة في أسبوع الآلام، تاقت نفس حبيب كل التوق إلى الزهد في الدنيا والتكرّس له تكرّسًا مطلقًا تحت تدبير معلّمه البار الناسك القس واكيم، فصلّى وأكثر من الصلاة في تلك الرياضة. ولما صمّم على هجر المدرسة، شرع يهيء زاده مما كان يوضع أمامه على المائدة، إذ كان يأكل نصف طعامه أو أقلّ، ويأخذ الباقي إلى مخدعه خفية، حتى جهّز بعض أرغفةٍ زادًا له في طريقه الطويل إلى دير سيدة ميفوق».

وتابع البطريرك الحاج يقول:

صَحَوْنا سَحَر يوم من سِبّة[2] عيد الفصح، وطلبنا التلميذ حبيب فما وجدناه، بل وجدنا على سريره ثيابه الجديدة وطربوشه الجديد. ترك هذه الأمتعة لعلّه يعوّض على المدرسة شيئًا مما أنفقتْه عليه، ولبس ثيابًا

(1) العنداري، نفسه.

(2) سِبّة هنا اللفظة السريانية ومعناها الأسبوع. (قاموس).

رثّة ثم اعتلى سطح المدرسة وقفز عنه ليلاً، وذهب في طريقه إلى دير ميفوق. وفي ذهابه تَنَكَّبَ الطريق من المدرسة إلى البحر إخفاء لأمره، وخوفًا من أن يلقاه أحد فيعرفه. هذا ما أخبرني به حبيب بعد عودته. أما نحن، فلما لم نجده، أمسى كلّ منّا في أسوإ حال من الحزن، كأنه فُجع بأعز عزيز»[1].

لماذا كانت هذه المحاولة؟

هل كان الحبيب يعرف ما تخبئه له الأيام فاستعجل الوصول؟ هو يريد أن يكون راهبًا، ويريد أيضًا أن يكون «مُرْسلاً». غير أن الأحلام الكبرى لا تتحقق بدون المتاعب والمعانيات.

إن هذا ما سنعرفه في القسم التالي.

الحبيب: الفَقيه والمؤسِّس

لما تخرّج الحبيب في مدرسة «عين ورقة» كان علمُ الفقه «منحصرًا ـ كما في القرون المتأخرة ـ بالمسلمين دون سواهم. فقلّما رأينا فقيهًا نصرانيًّا في لبنان قبل الحبيب»[2]. أما «الذين كانوا يتولّون القضاء فيه من النصارى في تلك الحقب، فكان فقههم مقصورًا على نتف يحصّلونها من المطالعات الشخصية، لا من الأخذ عن أستاذ»؛ لهذا «كانوا يعتمدون في أهم أحكامهم على فتاوى من مشايخ المسلمين».

ومن بين المسيحيين الذين عملوا آنذاك في القضاء: «المطران يوسف اسطفان، والمطران جبرائيل الناصري والخوري ارسانيوس الفاخوري والخوري جريس يميّن الإهدني»[3].

(1) نفسه.
(2) الأب يوحنا العنداري المصدر نفسه، ص: 45.
(3) العنداري: نفسه.

على أن لبنان بقي «بموجب نظام شكيب أفندي، مقسومًا إلى قائمقميتين: درزية ونصرانية، على رأس كل منهما قائمقام يعّينه ويُقيله والي صيدا»[1].

وقضى هذا النظام الجديد «بأن يكون في كل قائمقامية مجلس يرأسه القائمقام، مؤلف من نائب القائمقام وقاضٍ ومستشار عن كلّ من الطوائف الخمس: السنّة، والموارنة، والدروز، والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك. واقتُصِر على تمثل الطائفة الشيعية في المجلس بمستشار، لعدم اعتراف العثمانيين بأنظمة شرعية خاصة بالشيعة».

و«قام شكيب أفندي بنفسه بتعيين أعضاء مجلس القائمقاميتين لمدى الحياة، وقضى بأن يكون لرؤساء الطوائف المعيّنة حق تعيين من يملأ المراكز الشاغرة عند الحاجة، بالاتفاق مع القائمقام وأعضاء مجلسه، وبموافقة والي صيدا. وكان على العضو، بعد تعيينه، أن ينصرف بكامل وقته إلى أعمال المجلس، فيتقاضى عن ذلك راتبًا شهريًّا معينًا».

و«كانت للمجلس، في كل من القائمقاميتين، مهمتان: الأولى مالية، وهي تقدير الضرائب وتوزيعها على المناطق وجباياتها، والثانية قضائية، وهي النظر في الدعاوى المحالة إليه من القائمقام»[2]. وبما أن الفقه الذي قوامه «درس الشرع وتطبيق أحكامه تطبيقًا عادلاً منصفًا بين الفرقاء المتخاصمين»[3]، رأى البطريك يوسف حبيش[4] «وقد تفانى

(1) الصليبي، المصدر المذكور سابقًا، ص: 106.
(2) الصليبي نفسه.
(3) العنداري: نفسه.
(4) آل حبيش: أسرة من مشايخ لبنان الموارنة. نزحت من يانوح ـ قضاء جبيل وتوطنت غزير 1515. أعطت البلاد عددًا من رجال السياسة والدين =

غيرة على تقدم وطنه وطائفته دينًا ودنيا، فوضع نصب عينيه نشر الفقه في لبنان» أن الأمر يحتاج إلى «شباب يتخصصون في درس القانون وعلم الشريعة» فاختار «غبطته تلميذين متفوّقين من طلاب مدرسته عين ورقة، هما حبيب البتديني (المترجَم له) وبشارة خليل الخوري» (جد الرئيس الأسبق بشارة الخوري) وأمر بإرسالهما إلى بيروت لدرس الفقه[1].

تردد الحبيب في تلبية رغبة البطريرك بادئ الأمر، إلا أنه عاد بعد أن أقنعه المطران يوسف رزق، فلبّى طلب صاحب الغبطة، فأرسله هو وبشارة الخوري إلى بيروت في أول تشرين الأول سنة 1838 ليدرسا على يد القاضي الشيخ محمد البزري، والمفتي الشيخ أحمد أفندي الغُر[2]، ولكن بقاءهما في بيروت لم يطل أكثر من شهر واحد، حيث

= والعلم منهم: أبو منصور يوسف وأخوه أبو يونس سليمان وكانا مستشاري الأمراء العسافيين، أبو ضاهر يونس: أمين خزانة الأمير فخر الدين المعني الثاني، طربيه: ولاه الأمير أحمد معن غزير وجوارها، يوسف بطريرك الموارنة 1823 ـ 1845، وقد جعل دير مار عبدا (فتوح كسروان) مدرسة إكليركية وعني بمدرسة عين ورقة ونظَّم الأوقاف والقضاء، شديد: قنصل عام الدولة العثمانية في إيطاليا وباريس 1900 ـ 1910 ثم وزيرها المفوض في تفليس (جيورجيا) 1910 ـ 1918، يوسف يعقوب 1851 ـ 1913. له «الفوائد الأدبية في اللغتين الفرنسية والعربية»، وفؤاد: صاحب دار المكشوف.

(1) العنداري: نفسه.

(2) الشيخ أحمد مصطفى الغر (1783 ـ 1857): قاضٍ ومفتٍ في بيروت. أخذ الطريقة القادرية عن أبي حسن علي الكيلاني. له «الفتاوى الحاوية لوقائع زمانه» و«ديوان». مدحه المفتي عبد اللطيف فتح الله (1766 ـ 1844) في قصيدة حائية مطولة على البحر الطويل، وما جاء فيها: «ترنم حمام الدوح في أحسن الصدح/ فقد هام بي وجدي إلى ساكن السفحِ/ أمرت، نسيم السفح، فيك ملمة/ شممت لها نفحا فغردت للنفحِ/ صدحتَ على الأغصان تلهو عن الهوى/ وينمو غرام الصب من ذلك الصدحِ/ وبالغ معي في حمد أحمد جاهدا/ وأبد معي في حمد أبلغ المدحِ/ ابدَ المجد، طود العز في كل =

تفشّى الطاعون في المدينة ومات القاضي البزري. وبرغم ذلك «نسخ الحبيب وجمع عدة فتاوى وأحكام موقّعة بإمضاء الشيخ الغُر، واحتفظ بها بين أوراقه الخاصة طوال توليه القضاء»[1].

وما حدث لبيروت لم يمنع الحبيب وبشارة من تحصيل ما خسراه هناك، فانتقل الزميلان إلى طرابلس «حيث درسا الفقه على الشيخ إعرابي الزيلع مدة تسعة أشهر حتى انتهيا من ذلك في أوائل شهر آب 1839»[2] ثم قفلا عائدين إلى الجبل.

الحبيب يُعيَّن قاضيًا شرعيًا

فور وصول الحبيب إلى البطريركية «اطّلع على كتاب من الأمير أمين بن الأمير بشير الشهابي الكبير، حاكم جبل لبنان، جوابًا على كتاب غبطته، يقول فيه إن أباه يستدعي حبيبًا لينصّبه قاضيًا شرعيًّا» ويعود تاريخ هذا الكتاب إلى 20 آب 1839، ونصّه كما يلي:

«جناب حضرة المحبّ الأعز الأكرم البطريرك يوسف (حبيش) المكرّم دام بقاه.

غبَّ إهداء عاطر المحبة وأداء فاخر المودة... صدر بتاريخه أمر سعادته (أي أمر أبيه الأمير بشير) بأن عزيزنا الشّدياق[3] حبيب البتدّيني

= موطن/ وركح العلايا: فخرها فيه من ركحِ/ يميل إلى كسب المعارف والعلى/ يرى أن هذا الكسب من أحسن الكَدحِ» انظر: ديوان المفتي عبد اللطيف فتح الله، الجزء الأول، حققه زهير فتح الله، راجعه محمد الحجيري، بيروت 1104هـ/ 1984، يطلب من دار النشر فرانتس شتاينر بفيسبادن، ص477، 481.

(1) العنداري: نفسه.

(2) العنداري: نفسه.

(3) الشدياق: ج شدايقة: من كان أدنى من الكاهن درجة واحدة وهي يونانية الأصل (قاموس).

يُنصّب قاضيًا مع عزيزنا الخوري أرسانيوس الفاخوري، موضع عزيزنا الشّدياق جرجس يمّين الإهدني، فيقتضي أن ترسلوه لهذا الطرف لكي نقفه على خاطر سعادته الشريف. كذلك قبل أن ترسلوه، تُفهّموه جميع ما تقتضيه هذه الوظيفة بحسبما تراه فطنتكم. وأما أخونا الشيخ بشارة الخوري، فسيلزم لخدمة سعادته ببعض أمور، فاقتضى إفادة محبتكم بذلك، ودمتم محروسين».

محبكم أمين شهاب

حاول الحبيب أن يتهرب من هذه المسؤولية (الوظيفة) لأنه كان يفكر في غير ذلك. لكنه، هذه المرة أيضًا، رضخ للأمر و«اعتلى حبيب منصة القضاء قبل ارتقائه الكهنوت وهو بين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين من العمر. أما المدة التي مارس فيها هذه الوظيفة، فتمتد من 20 آب 1839 إلى 13 تشرين الأول 1855، أي ما يزيد عن ستة عشر (كذا) سنة» فيما عمل الشيخ بشارة «في ديوان الأعمال العدلية»، كما علّم «الخوري يوحنا الحاج والخوري بطرس منصور الفقه» بأمر من الأمير الذي استجاب «لالتماس غبطته». و«قرأ الكاهن على الشيخ بشارة مدة خمسة أشهر، ثم نُفي الأمير إلى مالطة في غرة تشرين الأول سنة 1840، وفيها نزعت الدولة العليّة ولاية سوريا من يد محمد علي باشا، ونصّبت الأمير قاسم واليًا على الجبل»[1].

تَنقّل القاضي حبيب بين غزير وصربا وبكفيا وبرمانا ودلبتا و«دير العفص»[2]، يحكم بالعدل، ويحل المشكلات المستعصية، فحقق شهرة صارخة أكسبته صداقة المخلصين، وبخاصة الأب اسطفان قزاح (سبق

(1) العنداري: نفسه.

(2) يقع «دير العفص» تحت الطريق المؤدية إلى دلبتا من جهة غزير. وقد بُني سنة 1797م.سكنه رهبان من الرهبنة اللبنانية، ولا يزال صالحًا للسكن.

ذكره) الذي أصبح، فيما بعد، رفيقًا له على طريق «الرسالة».

وعُرف الحبيب بالقاضي النزيه أو كما يصفه المثلث الرحمة البطريك الياس الحويّك[1] حيث يقول: «كان شغله الشاغل، في توليه القضاء، لانتصار للحق والنهضة لإحقاقه بكل ما لديه من إمكانات حتى دلت عليه الأيدي ونطقت باستقامته الأفواه وقيل عنه: هوذا الحق»[2].

من القضاء إلى الكهنوت

أكثر من خمس عشرة سنة ظل الحبيب قاضيًا. وقد كان له أن يستمر في القضاء زمنًا طويلاً، لو لم يُجْبَه، من قِبل الأمير، في مسألة يوسف بك كرم. فالأمير يريد من الحبيب أن يحكم ابن كرم بينما الحبيب يرفض مجاراة الظالم والقضاء بغير الحق.

ما هي قضية يوسف كرم؟

الحبيب نفسه رواها مبيّنًا المؤامرة على يوسف بك كرم، شارحًا موقف، من هذه القضية الذي لم يتراجع عنه برغم الضغوطات والإغراءات التي مارسها عليه الأمير، فقال:

«في سنة 1845 تعيّن الخوري أرسانيوس في المجلس، ثم خرج منه سنة 1852 بأمر المجمع المقدّس. وحينئذٍ استدعاني القائمقام وأمرني بتعاطي وظيفتي بالقرب منه خارج المجلس إلى أن يتهيأ له نصْب قاضٍ رسمي بدلاً عن الخوري أرسانيوس.

(1) الياس الحويّك (1843 .1931): بطريرك الموارنة 1899. امتاز بحزمه وإحسانه إبّان الحرب العالمية الأولى فكان مقامه البطريركي موئلاً للمنكوبين. انتدبه اللبنانيون إلى مؤتمر الصلح في باريس للمطالبة باستقلالهم واسترجاع الأراضي المسلوخة من لبنان.

(2) العنداري: نفسه.

«أما الأب الحاج، فنصّبه الأمير حيدر قاضيًا رسميًّا في المجلس في شهر تموز سنة 1853 عوضًا عن الخوري أرسانيوس. ثم مات الأمير حيدر في 11 أيار 1854، فتولّى الأمير بشير عساف وكالة القائمقائمية. وفي 13 آب 1854 تعين الأمير بشير أحمد قائمقامًا، فجمع أرباب المجلس وأوصاهم بسلوك طريق الحق والإنصاف. وأوعز إلى الأب الحاج أن يكتب إمضاءه «قاضي مؤقت»، محتجًّا أن القاضي الرسمي هو الخوري أرسانيوس، فأنكر أبوّته عليه هذا الأمر وغادر المجلس. فاستوفى الأمير مرامه بالحيلة، فإنه كان يكره أبوته باطنًا، لاتهامه له أنه كان ضلعًا مع الأمير بشير عساف. فاستدعاني حينئذٍ وأمرني بأن أكون قاضيًا مؤقتًا في المجلس، إلى أن يتم سعيه في إرجاع الخوري أرسانيوس الفاخوري إلى قاضوية المجلس، ورغبّني في صرف المعاشين، أي معاش كوني قاضيًا خارج المجلس، ومعاش قاضوية المجلس. فاستعفيتُ، فلم يقبل. فأخذ يلاطفني ويتملّقني بحلاوة لسانه بقوله: أصير ممنونًا، ونحوه. فاعتذرت إليه بحجة ضميري ضيّق، فأخاف مخالفة الآراء في المجلس. فأبرمني بمعاهدته لي بحضور المطران يوسف رزق، على أنه لا يجري شيئًا من أحكام المجلس، إلا أن يكون على وفق رأيي، وأنه لا يستخدمني أكثر من شهر واحد. فضاقت حجتي، فدخلت المجلس في 8 أيلول سنة 1854، ثم اعتزلت عنه في 12 شباط سنة 1855، ثم عزلني الأمير عن قاضويتي خارج المجلس في 13 تشرين الأول سنة 1855»[1].

على أن قضيّة يوسف بك كرم هي التي كانت بمثابة ناقوس الخطر الذي دق يومذاك في المجلس، مما قلب الأمور حتى انتهت إلى ما كان يشتهي الحبيب ويرغب، بل إلى ما كان ينتظره، منذ طفولته.

(1) العنداري: نفسه.

وقال الحبيب:

«إن ما أسلفتُه من سخط الأمير بشير أحمد عليّ، فيُعلم سببه مما يأتي شرحه، وهو أن يوسف بك كرم كان مأمور عهدة إهدن وملحقاتها، وكان ضلعًا مع الأمير بشير عساف في مدة الوكالة، بخلاف أكثر مشايخ بلاد الجبّة، ومنهم أخو يوسف بك كرم، فإنهم كانوا ضلعًا معه على الأمير المذكور. فلما تولى الأمير بشير أحمد القائمقامية هاجوا وماجوا؛ فمنهم عن طمع بربح انشراح خاطر القائمقام، ومنهم عن حسد أوجهيّة يوسف كرم ونزع المأمورية منه وتسليمها لأخيه».

أضاف:

«فحضروا ومعهم الكثير من الأهالي، وشكوا يوسف بك كرم مدّعين عليه عدّة دعاوى جنائية، مما يترتب على ثبوتها إهلاكه أو نفيه مؤبدًا، فمنها أنه سالبٌ راحة الأهالي ومالهم، ومنها أنه هيّج الأهالي غير مرة على التمرّد على الحكومة، وسبّب القتل، إلى غير ذلك. فأحال القائمقام دعاويهم إلى المجلس، وبحصر المعنى إليّ لأني أنا قاضي الموارنة، والغرماء موارنة. وبحسب ترتيبات الدولة يومئذٍ يتعلق بي وحدي الحكم، وأما باقي المجلس فليسوا سوى معاونين وشهود. فأقام هؤلاء دعاويهم في المجلس، وغبّ أن طال الخصام بينهم، لم يثبت شيء من دعاويهم بحسب قرار رأي المجلس بحضرة القائمقام. عندئذٍ استماحه بعض أرباب المجلس تصفية خاطره على يوسف بك فيخدمه حق الخدمة. فأجاب بالإغضاء عن الدعاوى المذكورة، وإنما هو يريد إقامة الدعوى عليه من حيث إنه مأمور متعدٍّ حد مأموريته، فادّعى عليه في المجلس أنه خالف تعليمات الدولة، باستعماله إلقاء بعض أهالي مأموريته في السجن، وربط بعضهم وتقييد بعضهم بالجنازير. فلم تثبت دعواه هذه أيضًا لأن يوسف بك نفاها وفنّدها كلها موضحًا أنه سلك

مسلك عامة المأمورين الجاري في القائمقامين، في الماضي وفي الحاضر. وطلب حينئذٍ يوسف بك إلى القائمقام أن يطلعه على التعليمات للسلوك بموجبها، فأبى. ولما خاب أمله من تذْنيب يوسف بك، استدعاه إلى ناديه وعزله عن أمورية العهدة، فذهب يوسف بك إلى بيروت ينتظر قدوم دي لسبس، قنصل عام دولة في بيروت، حتى يشتكي».

واستطرد الحبيب يقول:

«وبعد ذهاب البك، توسلتُ إلى القائمقام ليقيلني من المجلس، فأجاب: اكتب مضبطة باستعفائك واذهبْ. فكتبتُها وأمضيتُها وتسجلت في المجلس. وإذ استأذنتُه بالذهاب قال: اصبرْ عليّ يومين ثلاثة، فبقيت إلى أن قدِم القنصل فشكا البك أمره إلى القنصل، فغضب أشدّ الغضب على الأمير وشهوده. فخاف الأمير، ورجع يكلف المجلس تذنيب يوسف بك ليعتذر للقنصل، وطال الجدال بينه وبين المجلس. وأخيرًا أخذ يتملقهم واحدًا فواحدًا، فاعتذروا بأن البك ماروني، فالحكم عليه مختص بالخوري. فأجابهم بأن الخوري لا عائق منه. إذ ذاك استكتب كاتب سره مضبطة، مضمونها أنه من بعد الفحص والتدقيق والتحقيق، ثبت لدى المجلس ارتكاب البك القباحات والجنايات، حسب الدعاوى المقامة ضده، وأن عزل القائمقام له عن المأمورية واقع في محله، إلخ...».

وختم قائلاً:

«ثم استدعاهم واحدًا واحدًا مبتدئًا من قاضي الإسلام ثم الدروز، ثم ثم... وقال لهم: إن الخوري وعدني بإمضائها في الآخر، بعد أن حلفت له على أني لا أضر الغريم. فمالوا إلى ذلك، وكل منهم جرّ الآخر إمضائه، وبعد، استدعاني وتملّقني كثيرًا وحلف لي أنه لا يضرّ البك، وإنما غرضه تخميد غضب القنصل. فاعتذرت بأن الديانة لا تسوّغ

الإمضاء. وأخيرًا تَهدَّدني بأنه يضرّني، ثم أمر بالترسيم عليّ - أي بالإقامة الجبرية - داخل مكان المجلس، وبأن لا أخرج منه حتى أمضي المضبطة أو أردّ عليها. فبقيت إلى غروب الشمس مصرًّا على جواب واحد، وهو طلب الحرية بأن يسمح لي بالذهاب خارج القائمقامية، في بيروت أو غيرها، وعند ذلك أردّ على المضبطة. وإذ تجسّمت المسألة وتداولتها الألسن، توسط لي الأمير أمين وكيله في المجلس، فرفع الترسيم عني فخرجت»[1].

قد يكون فاتنا أن نذكر أن الحبيب رُقّي في 5 نيسان 1841 درجة الكهنوت، مع بقائه في الوظيفة المذكورة، وذلك على الأسقف سمعان زوين، الوكيل البطريركي[2].

فلما عُزل عن القضاء ووجد نفسه بدون مهنة، عزم على ترجمة كتاب «مختصر اللاهوت الأدبي» للعلامة غوري، وقد طبعه فيما بعد بجزأين كبيرين[3].

لقد شرع الحبيب بالترجمة ابتداءً من سنة 1855، ثم استدعاه الشيخ قانصوه الخازن لتعليم ابنه، الشيخ نوفل، الفقه، فأقام عنده من أول أيار سنة 1857 إلى 29 تموز سنة 1859 وحدث الهيجان ضد المشايخ آل الخازن، فعمد إلى محل سكناه في دلبتا مستأنفًا الترجمة.

وفي أوائل سنة 1861 دعاه صديقه الخوري ميخائيل الأزرق، السرياني الكاثوليكي، رئيس دير الشرفة، إلى الإقامة عنده على سبيل

(1) العنداري: نفسه.

(2) سمعان زوين: كان يُدعى القس طانيوس زوين. سيم أسقفًا سنة 1816 وتسمى سمعان. وكله البطريرك على الأرزاق البطريركية في قنوبين، توفي في 20 نيسان 1848 ودفن في بكركي.

(3) عن الأب اغناطيوس سعادة، الدراسة المذكورة سابقًا، بتصرف.

الضيافة، فقال له الحبيب: «أنا أهوى ذلك، ولكن كيف لك ولي التثقيل على الدير؟» فأجابه بما يريحهما معًا، بأن يساعده على تدريس ثلاثة طلاب هناك، وأن يقيم القداس لجمهور الدير، حين غيابه، فأقام في الشرفة إلى سنة 1818، أي أكثر من أربع سنوات.

كانت حياة الكاهن يوحنا حبيب «ملؤها الفضيلة والتقوى والتضحيات» كما سجل في حياته القضائية نزاهة قل نظيرها. وأكرم الحبيب والديه وأحبهما وتفانى في خدمتهما، إذ كان «يحنو عليهما ويخفف عنهما أثقال الأمراض والشيخوخة، فبأي عرفان جميل ضمهما إليه يوم الفتنة (1840) وكيف وقاهما شر الغوائل، وبأي نشاط واحترام سهر على خدمتهما حتى يوم وفاتهما، وبأي إكرام دفن كلاً منهما وبأي ارتياح كان يساعد نفسيهما بقداديسه»[1].

الحبيب يؤسس «الرسالة اللبنانية»

كل هذه المواقف النبيلة هيأت للحبيب رفاقًا مخلصين صادقين، فلما كان قد رأس في 25 آذار 1839 «أخوية» من الكهنة:

- الخوري يوسف رزي، من كفرياشيت ـ الزاوية.

- الخوري يوسف عطية الصوري، من دبل ـ الجنوب.

- الخوري يوحنا الصايغ، الملقّب بالإسلمبولي، أو الاستنبولي، لأنه نشأ في استانبول ـ من حيّاطة ـ كسروان.

غاية هذه الأخوية «العمل الرسولي في أحضان الطائفة المارونية» ومركزها مدرسة مار الياس الإكليريكية في عينطورة التي انتزعتها الجمعية من الإرسالية البروتستانتية، كما ذكرنا من قبل.

(1) العنداري، المصدر نفسه، ص: 23.

ولما لم تحقق هذه «الأخوية» النجاح المطلوب، فكّر الحبيب في تجديد هذه المدرسة «فرفع في 3 تشرين الثاني سنة 1863 عريضة للسيد البطريرك يسأله تجديد المدرسة وإطلاق الحرية لمن يريد دخولها من الكهنة ليبقوا عرضة لأي تدبير أو سلطة تصرفهم عن قصدهم وحاجتهم»[1] فأذن له غبطة البطريرك، فكانت التجربة القاسية إذ «زاد في بنائها وجمع لها الأتباع الجدد» لكنه مُني بالخيبة.

بعد ذلك، عاد الحبيب من جديد يحثّ السير ليجد البديل، حتى علم بأن الرهبان الأرمن يريدون بيع دير الكرَيْم في غوسطا، فأقبل على شرائه من أمواله الخاصة (دفع ثمنه 95000 قرش). وفي 13 آذار 1866 فتح أبواب هذا الدير لاستقبال الكهنة الأولين طليعة المرسلين اللبنانيين بعد مباركة البطريرك وتثبيته «الرسالة اللبنانية».

ومن دير الكرَيْم أخذت «جميعة المرسلين اللبنانيين الموارنة» تشع على العالم، متكلة على شفيعيها: العذراء ويوحنا الحبيب، وعلى إخلاص أعضائها وتفانيهم، فاعترضتها أنواع شتى من المعوقات والعراقيل، إلا أن «المؤسس» صاحب الإرادة القوية والماضي المجيد تصدى لكل هذه العقبات وذللها واحدة فواحدة.

ثلاثة وعشرون عامًا من العمل «الرسولي»، في دير الكرَيْم، مضت فاستدعى البطريرك بولس مسعد، يوم 4 كانون الأول 1889 الخوري يوحنا حبيب «للمثول بين يديه بأمر الطاعة المقدسة ورقّاه إلى درجة الأسقفية، بعد أن ظلّ يمانع ويتهرب منها عدة سنوات»[2].

و«في 4 من حزيران عام 1894 فاضت روحه الطاهرة في دير

(1) العنداري، انظر: «العمل» 4 حزيران 1978.
(2) سعادة: المصدر نفسه.

الكَريْم، محاطًا بأبنائه المرسلين الجدد، ودُفن في احتفال خاشع ومهيب داخل كنيسة الدير»، فتعاهد الرفاق على متابعة المسيرة، بحرارةٍ وإيمان، وإذا هي «تملك، رغم قلة عدد أعضائها، أديارًا ومدارس ومراكز رسالات في الوطن والمهجر»[1]، ومكتبة غنية بالمخطوطات والكتب والوثائق[2]، وإذا هي أيضًا أم لرجال عُرفوا بالإخلاص والمثابرة للجمعية الأم، إذ إنهم بذلوا الجهد الكبير وناضلوا في سبيل تحقيق الغاية التي من أجلها ولدت «الرسالة اللبنانية»، وهم من غير المؤسس ورفقائه الأولين: الأب نعمة الله مبارك، الأب يوحنا سعادة، الأب أنطونيوس العنداري، الذي سبق ذكره، الأب ساسين ريدان، الأب يوسف العنداري، رئيس المعهد نفسه، والأب بولس نجم الرئيس العام الحالي.

وليس من عمل يخلّد هذا الرجل الكبير، المؤسس، المطران يوحنا حبيب، مثل درام «جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة» وثباتها على هذه الطريق.

---

(1) سعادة: المصدر نفسه.

(2) يشرف عليها الأب الدكتور اغناطيوس سعادة.

الفصل الثالث

مَدينة ليسَت من العالم الثالِث
دَير سَيّدة اللويزة ومَدرَستها وَجامعتها

«كان لبنان قبل نزوح الموارنة إليه جبلاً موحشًا تملأه غابات الأرز والأحراج المختلفة الكثيفة. وكان مخيفًا لوفرة وهاده العميقة وقممه الشاهقة ووعورة مسالكه وحيواناته الكاسرة. ولم يكن فيه من السكان إلا القليل، ومن الكنائس والأديار ما لا يتجاوز أصابع اليد».

الأبَاتي بطرس فهد الرئيس العَام السابق للرهبَانية المارونيّة المريَميّة من كتابه «الكنائس الشرقية عَبر التاريخ (1972) ص76

مع الأب مَارُون صَدقة

حادثتان تذكّرتُهما عندما كنتُ أنْصتُ للأب مارون صَدَقة، رئيس دير سيدة اللويزة في زوق مصبح - كسروان[1] وهو يقصّ عليّ حكاية هذا الدير، قبل وبعد أن تَسلّمَته الرهبانية المارونية المريمية - الحلبية سابقًا.

وقتئذٍ كنا في جولة استطلاعية على الدير القديم - الأساسي، والكنيسة والصالون والمكتبة و«صالون المجمع»، نستعرض بعض حصائل ثلاثة قرون إلا قليلاً من السعي والتواصل.

خلْفَنا إلى الجهة الجنوبية - الشرقية، يشمخ قصر منيف من الحجارة البيض الطبيعية المصقولة، وقد اصطفّت مئات السيارات في ساحته الوسيعة، فيتخيل من لا يعرف أن هذا القصر (مركز سيدة اللويزة العالي) هو مدرسة وجامعة، نفسه أمام دائرة حكومية في بلدٍ لا يقع في العالم الثالث، مطمئن إلى سيادته وعدالة حكامه ووحدة شعبه واقتصاده المستقر وجيشه القوي وحدوده المصونة.

فماذا عن هاتين الحادثتين؟

الحادثة الأولى

جرت سنة 1569 هذه الحادثة للبطريرك الماروني المثلّث الرحمة

(1) أثر التعيينات التي تمت سنة 1984 أصبح الأب صدقة رئيس مدرسة سيدة اللويزة ونائب الرئيس العام الأبّاتي مارسيل أبي خليل. أما رئاسة الدير فقد أعطيت للأب الياس كميد.

ميخائيل الرزي[1]، وتفاصيلها أن غبطته أوفد الخوري لوقا، من قبرص، إلى البابا بيّوس الخامس[2] ليقدّم خضوعه ويلتمس له درع التثبيت، فمرَّ

(1) الرزي: أسرة مارونية اشتهر منها: (1) ميخائيل، بطريرك (1567 ـ 1581) وقد أرسلَ طلابًا إلى روما وسعى لتأسيس المدرسة المارونية فيها (2) سركيس، بطريرك (1581 ـ 1597) وفي عهده أنشئت المرسة المارونية في روما (3) يوسف، بطريرك (1597 ـ 1608) وقد أمر باتباع الحساب (التقويم) الغريغوري الذي ينسب إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر (Gregoire 13) (1572 ـ 1585)، وهو الخامس والعشرون بعد المائتين في لائحة الباباوات، والذي اهتم بالشرقيين وأسس المدرسة المارونية في روما (4) سركيس بن موسى، ولد في بقوفا (لبنان) وتعلم في روما. مطران دمشق (1600). عاد إلى روما حيث اشتغل في تعريب الكتاب المقدس وطبع الكتب الطقسية، وتوفي فيها.

(2) بيوس: (Pius) الخامس، القديس (1566 ـ 1572) رقمه في لائحة الباباوات 224. حرم اليزابيت (Elizabeth) الأولى (1533 ـ 1603) ابنة هنري الثامن من زوجته آن بولين، لأنها نظمت الكنيسة الانغليكانية، وقد اشتهرت بأنها قرّبت إليها رجال الأدب والفن. تحالف Pius الخامس مع البندقية وإسبانيا فكسروا الأتراك بحرًا في ليبانت 1571.

ويحمل اسم (Pius) عدة باباوات أهمهم إلى الخامس: الثاني (1458 ـ 1464): من علماء النهضة ومشجيعها الذي حاول عقد محالفة مع ملوك أوروبا ضد السلطان محمود الثاني، السادس (1775 ـ 1779): اضطهده وسجنه رجال الثورة الفرنسية فمات في المنفى، السابع (1800 ـ 1823) وقع الكونكوردا مع فرنسا، لتنظيم الشؤون الكنسية وتوّج نابوليون امبراطورًا سنة 1804. لكن هذا (نابوليون) اغتصب دولته وسجنه، التاسع (1846 ـ 1878): في عهده تمت الوحدة الإيطالية ففقد الكرسي الرسولي ممتلكاته، وانعزل في الفاتيكان وكذلك خلفاؤه من بعده. وقد أعلن عقيدتي الحبل بلا دنس 1854 والعصمة البابوية 1870 وعقد المجمع الفاتيكاني الأول، العاشر، القديس (1903 ـ 1914): حارب البدعة «العصرية»، الحادي عشر (1922 ـ 1939): وقَّع معاهدة اللاتران (Latran) التي أنهت الخلاف بين الكرسي الرسولي والحكومة الإيطالية فأصبح الفاتيكان دولة ذات سيادة. =

الخوري لوقا بقبرص حيث اضطر أن ينتظر سنة كاملة دونما أن تعرف ما هي الأسباب، فأرسل البطريرك إلى البابا عريضة ثانية مع الأب ايرونيموس دي فساتوس الفرنسي من رهبان القدس بالمعنى نفسه. فقدمها الأب المذكور إلى الحبر الأعظم بواسطة الكاردينال كارفا (محامي الطائفة بروما). سُرّ البابا بهذه العريضة وهَمَّ بتثبيت السيد البطريرك وإجابة مُلتمَسِه ومطالبه. إلا أن كتابات من قبرص وردت آنذاك على روما تتهم البطريرك الماروني باليعقوبية خلافًا لشهادة الموفد الأب ايرونيموس المعهود. فكتب البابا والكاردينال والأب ايرونيموس إلى الأب جان فرنسيس موركانتي رئيس «القدس الجديد» ليمضي عاجلاً إلى لبنان ويفحص جيدًا عن سيرة البطريرك الماروني وإيمانه[1]. فقام الأب موركانتي بالمهمة «قيامًا مدققًا مدرجًا عظم المسؤولية والنتائج المتوقّفة على ذلك وأطلع السيد البطريرك على رسائل الكرسي الرسولي بهذا الصدد فأمر البطريرك ميخائيل الرزي الغيور فورًا بالتئام رساء الطائفة المارونية وعلماء الأمة، فتمّ ذلك في أواخر تشرين الثاني 1569[2].

أعلن المجتمعون «أن تلك التهمة الشنعاء لا أصل لها البتّة، وأن

= وقد نشط حركة العمل الكاثوليكي والرسالات، بيوس الثاني عشر (1939 ـ 1958) أعلن رسميًا عقيدة انتقال العذراء إلى السماء نفسًا وجسدًا 1951 وأوثق عرى الصداقة وحقق تبادل العلاقات الدبلوماسية مع الدول العربية والإسلامية.

(1) رسالة البابا هذه مؤرخة في 8 حزيران 1569.

(2) أخرجه الأباتي بطرس فهد، في كتابيه: «مجموعة المجامع الطائفية المارونية عبر التاريخ» طبعة 1975 (ص33، 34) و«العلامة المطران يوسف سمعان السمعاني» طبعة 1973، (ص49، 50)، عن «حقيقة الموارنة» للأب اغناطيوس طنوس، و«الحق القانوني عند الموارنة» للخوري أسقف جرجس منشى الحلبي، والفغالي، وعن مستندات أثبتها المطران بطرس ديب، محفوظة في كاتدرائية مار بطرس بالفاتيكان.

السيد البطريرك جزيل التقوى صحيح المعتقد والعقيدة»[1] ورفعوا في هذا الأمر تقريرًا مطوّلاً وقّعه الأب موركانتي نفسه والأساقفة: داود من الحدَث، وسركيس الدويهي من إهدن، وجرجس بن خرواحي من بشري، وسركيس الرزي من عرقا، وأثبتوا فيه أن السيد البطريرك «ما زاغ عن إيمان آبائهم قط وأنهم أكرهوه على قبول البطريركية» حتى إن البطريرك نفسه كتب قائلاً: «إن كنتُ غيّرتُ عادة من عوائد الكرسي الرسولي فأكون مؤاخَذًا أمام الله والكرسي المقدّس»[2].

الحادثة الثانية

هذه الحادثة وقعت في شهر أيار من عام 1969. وهي كما رواها لي أحد الأصدقاء ـ من الطائفة السريانية الأرثوذكسية ـ أن الربّان (المطران) جورج صليبا قد نظّم في أحد الأيام من شهر أيام المذكور، رحلة إلى وادي قاديشا[3] شارك فيها طلاب المدرسة الإكليركية للسريان الأرثوذكس وبعض وجهاء الطائفة الذين منهم الصديق الراوي.

وفيما كان هؤلاء يهمّون بالدخول إلى إحدى المغاور، قابلهم على الباب راهب جليل طاعن في السن. ولما ألقوا عليه السلام بالعربية لم يعرْهم اهتمامًا، إلى أن وصل الربان (المطران) صليبا[4] وخاطبه بالسريانية فردّ عليه بأحسن، وقد ظهرت على وجه هذا الراهب الجليل

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) قاديشا: واد في لبنان الشمالي. معناه الوادي المقدس. دعي كذلك لكثرة النساك والرهبان الذين أقاموا فيه منصرفين إلى العبادة في مغاوره. كان ملجأ للموارنة في أيام الشدة. أهم أديرته: قزحيا وحوقا وقنوبين ومار اليشع ومغارة مارينا.

(4) أكدها لي المطران صليبا عندما سألته عنها.

العتيق علامات السرور والفرح إذ رأى الربان صليبا بثيابه الكهنوتية السريانية الشرقية. ومما قاله الراهب الماروني لزواره، بالسريانية طبعًا، ما معناه: «ولدتُ سريانيًّا وأعيش سريانيًّا وسأموت سريانيًّا، وإذا لم يرض البابا فليرسلْ أحداً من قِبله يأخذ له جبتي هذه» وقد أمسكها بإصبعه ـ على ذمة الراوي ـ كأنها لا تعني شيئًا.

في القبو

أقولُ تذكرتُ هاتين الحادثتين ربما لا لسبب. فلعلّ الجو الذي خيّم على القبو المستطيل المعقود بعضه إلى بعض والكنيسة هو الذي أوحى لي ذلك. فالسريانية، على كل حال، كانت لغة سكان هذا الجبل أيام كانت اللغة التركية تحاول القضاء على العربية في بلاد المسلمين وتتّرك العرب.

في هذا الجو الذي يعبق بالطيب، جمح الخيال وذهب بي لا ينثني، إلى قَنوبين[1]، حيث تراءى لي الأب موركانتي يُعمِل النار في أكوام من المخطوطات عثر عليها في مكتبة البطريرك ميخائيل الرزي، أثناء تنفيذ المهمة ـ التحقيق في التهمة ـ المؤامرة. ولما لم أطق النظر إلى تلك النكبة التي حلّت بهذا التراث، صحوتُ على الأب الرئيس مارون صَدَقة يقول: في هذا القبو كان يقيم الكاهن أغناطيوس سلهب الحاقلاني ومعه أربع رهبان وغيرهم من المبتدئين. وقال أيضًا: هنا كانت كنيسة. انظر إلى هذا السقف إنه يختلف عن سقف الدير (القبو)، لكن الترميم أزال الحيطان الداخلية إذ كانت تقطع الكنيسة عن الغرف الخمس التي كانت موزعة في القبو.

(1) قنوبين: دير في وادي قاديشا (لبنان) معناه: معبد. كان مقامًا للبطريرك الماروني منذ القرن الخامس عشر، وفيه مدافن البطاركة. وقد عقد فيه مجمعان: 1580 و1596.

إلى «الصالون»

نترك القبو إلى الكنيسة. فوق بابها الذي يفتح على الغرب كلمات متشابهة قرأها الأب صَدَقة كما يلي: «بسم الله الحي الأزلي بنا (بُني) هذا الهيكل المبارك على اسم أم الله الطاهر مريم على يد أحقر عبيدها وطالب منها أن تكون شفيعة فيه وفي كل من له تعب وشوْتفة (عناء) تحريرًا مسيحية سنة ا ش ت».

أما الباب الشمالي، فقد ثبتت فوقه رخامة كتب عليها: «في هذا المعبد أعلن تثبيت قانون الرهبانية اللبنانية 1732، وعُقدت فيه المجامع اللبنانية. رُمّم من الخارج والداخل 1961».

ندخل الكنيسة. الأب صدقة يركع، يصلي، يقف منتصبًا. الكنيسة تمتاز ببساطتها، والأبواب ما زالت كما هي. الجدران كشط عنها الكلس فظهرت متراصّة متماسكة كأنها أسنان جنيّة صبيّة. أما المذبح، فتغيّر وصار من الرخام ووضعت عليه صورة بالموزاييك تجسد انتقال العذراء. همس الأب صَدَقة قائلاً: «هنا عقد المجمع اللبناني الكبير 1736. راجع مؤلفات الرئيس العام الأبّاتي بطرس فهد»[1]. ثم ركع وصلّب مستأذنًا العذراء التي فوق المذبح.

---

(1) ولد في عشقوت ـ كسروان في أول أيار 1911، دخل الرهبانية 19 أيلول 1927. لبس الاسكيم (...) تشرين الثاني 1928. سيم كاهنًا في 12 تموز 1937 على يد نائب الحبر الأعظم، كاردينال روما. عُيّن رئيسًا عامًّا على دير مار انطونيوس في روما 1969. وكان نائبًا عامًّا للرهبانية المريمية لدى الكرسي الرسولي. انتُخب رئيسًا عامًّا يوم 10 تموز 1975. وبعدما انتهت ولايته سكن دير مار ضوميط ـ فيطرون. زرته في هذا الدير الذي يشهد استحداثات بناء ضخم سيكون مدرسة، يوم الخميس 21 آذار 1985، فوجدته في صحة وعافية تامتين. إنه هناك يقرأ ويكتب ويحقق. رئيس الدير هو الأب برنار يزبك، ومدير الطالبية فيه الأب بولس فهد. ويسكن الدير أيضاً =

انطلقنا إلى الجهة الشمالية من الباب العلوي حيث «الصالون» الممتلئ بالأرائك، والذي يغطي أرضه السجّاد الفاخر. على جدرانه وُزّعت سبع صوَر زيتية لفنانين إيطاليين(...) عليها آثار ريشة فنان لبناني (؟) حاول إصلاحها فلم يفلح، كما أُخبرت.

إلى المكتبة «وصالون المجمع»

نسير في الممشى بين الغرف نحو الجناح الجنوبي ليواجهنا تمثال نصفي من البرونز، هو للمطران عبد الله قراعلي الحلبي[1] ويمكنك من

= الأب يوسف شهوان الذي يعمل على تأليف كتاب «حياة المسيح» كما قال لي.

أما مؤلفات الأبّاتي فهد فهي: كتاب الهدى: دستور الطائفة المارونية في الأجيال الوسطى، كتاب الملكية والمارونية، ترجمة الأبّاتي جبرائيل الشمالي الرئيس العام الأسبق، رد مسهب على منتقدي كتاب الهدى، حول كتاب الهدى وتاريخ الطائفة المارونية، اليوبيل المئوي الثاني لرسالة الرهبانية في دير القمر، مختصر عن المجامع المسكونية منذ الابتداء إلى يومنا هذا، الذكرى القرنية الأولى لدير مار ضوميط فيطرون ومخطوطاته، لمحة عن مذاهب تحديد النسل، تاريخ الرهبانية المارونية بفرعيها (12 جزءًا)، القديس يوحنا مارون البطريرك الأول على الطائفة المارونية، أقوال الراهبة الهندية وترجمة حياتها، ردود ونبذات تاريخية، الكنائس الشرقية عبر التاريخ، العلامة السمعاني الشهير، أطروحة للمطران شديد بالإيطالية ترجمة الأبّاتي فهد، كتاب الشرح المختصر للبطريرك الدويهي (جزءان عربي ولاتيني)، ترجمة المثلث الرحمة المطران بطرس صفير (عربي وإيطالي)، تاريخ الأزمنة للبطريرك الدويهي، فهارس المخطوطات في روما ولبنان، مجموعة المجامع والطائفة المارونية عبر التاريخ، الموجز التاريخي للرهبانية المارونية المريمية، البطريرك يعقوب عواد في الميزان، سلسلة البطاركة الموارنة وأساقفتهم منذ نشأة الطائفة المارونية وإلى يومنا هذا.

(1) قرآلي أو قرأعلي (عبد الله) (1672 ـ 1742): ولد في حلب. من مؤسسي الرهبانية اللبنانية المارونية. أسقف بيروت 1716. له «المصباح الرهباني =

خلاله أن تتعرف إلى ذلك العالِم الكبير، الطويل القامة، النحيل الوجه، الفولاذي الإرادة. ولكنك ستنزعج مثلي ربما عندما تعلم أن هذا التمثال لا يحمل تاريخًا، حتى ولا اسم النحات الموهوب؟!

لقد تساءلتُ وأنا أتحسس هذا التمثال الرائع: أإلى هنا يتحكّم التواضع بالفنان فيجعله ينسى أن يوقّع عملاً عظيمًا كهذا؟

على يمين التمثال ثلاث لوحات زيتية إيطالية أيضًا هي: (1) المسيح مع الأم الحزينة وإحدى المريمات (2) لوقا ومار يوسف (3) الملوك الرعاة ـ المجوس ـ يقدّمون الهدايا للطفل: يسوع.

هذه «الزيتيّات» الأخّاذة أفسدها كذلك، ويا للأسف، «الفنان» اللبناني نفسه الذي عهِّد إصلاح لوحات الدير. ومن كان يهوى الفن الأصيل لا يمكنه، أبدًا، أن يتمالك دموعه عند ما يتأمل في تلك اللوحات الشهيدات، ضحايا غطرسة «فنّان» مدّعٍ ومغرور.

يمضي بي الأب صَدَقة إلى المكتبة، فإذا أنا في حضرة توما الأكويني[1]، معلم الكنيسة وحجتها في اللاهوت والفلسفة المدرسية

= في شرح القانون الرهباني» و«مختصر الشريعة» و«مواعظ»، و«مذكرات». جاء في كتاب «اليوبيل المئوي الثاني 1752 ـ 1952 لرسالة الرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية، في دير القمر» لواضعه الأبّاتي بطرس فهد ما يلي: «أما المطران عبد الله قراعلي، فخر المارونية وصاحب الفضل في وضع المجمع اللبناني وأحد المؤسسين القديسين لرهبانيتنا العزيزة فخبِّر عن أعماله الرسالية وتضحياته العديدة في سبيل الدين والعبادة ولا حرج. قد استعاض بنشر جلال أعماله، وعظائم أفعاله في سبيل الدين والدنيا والقضاء والإصلاح الطائفي، المأسوف على علمه التاريخي البحاثة الخوارأسقف بولس قرعلي، في ثلاثة مجلدات كبيرة دعاها «اللآلئ...» ص: 14.

(1) توما الأكويني (1225 ـ 1274): راهب دومينيكاني ولد في إيطاليا وعلم في جامعة باريس. اطّلع على آراء ابن سينا (980 ـ 1037) والغزالي =

«سكولاستيك»، القائل فيه المطران العلامة ميخائيل ضومط:

«إن تآليف القديس توما أوفر من أن توصف بل أوفر من أن تحصر في مثل هذه الدراسة السريعة. كيف، والقديس توما رَهَن العمر، ولو قصيرًا، على النحت والتأليف. وقد سهل عليه الأمر تَمرسُه بالجهد العقلي وانصرافه التام إليه. كما أنه كان يرى في التعليم والتأليف جهادًا في سبيل الحق أجدى من أي سعي آخر. ولم يخطئ في رأيه هذا، لأن تآليفه ما زالت ـ إلى يوما هذا ـ دليلاً ومعينًا لكل طالب»[1].

وفي حضرة القديس أوغسطينوس[2] الذي تبع هواه في شبابه واعتنق مذهب «المانويَّة»[3] القائل بمبدأين: مبدأ الخير ومبدأ الشر،

= (أبو حامد = محمد) (ت505هـ/ 1111م) وابن رشد (أبو الوليد محمد بن أحمد) (1126 ـ 1198) عن طريق الترجمات اللاتينية وانتقدها. أشهر مؤلفاته: «الخلاصة اللاهوتية» و«الخلاصة ضد الأمم».

(1) قادة الفكر، توما الاكويني، بقلم ميخائيل ضومط، المطبعة الكاثوليكية 1956، ص: 14.

(2) أوغسطينوس (القديس354)) (Augustin). 403): اسقف هيبون Hippone افريقيا) (مدينة ومرفأ في الجزائر، تدعى اليوم (عنابة) و«يونة» سابقًا). له مؤلفات أهمها: «الاعترافات»، «مدينة الله»، «في النعمة». ورد ذكره في حاشية رقم (1) (ص107) من كتاب «اللؤلؤ المنثور» فقط. لأن السريان لم يطّلعوا على مصنّفات علماء الرومانيين باللاتينية، فلم يعرفوا شيئًا من كتب ترتليان واوغسطينس والذي وصل إليهم من ابمروسيوس وروفينس وهيرونمس ولاون، فهو يسير، جاءهم بطريق النقل من اليونانية، ولم نعهد عالمًا سريانيًا أتقن اللاتينية غير الحكيم ثاوذوري الأنطاكي في حدود سنة 1240م حسبما يقول البطريرك برصوم.

(3) مؤسس مذهب المانوية هو: ماني (215 ـ 276). أدخل ماني في التصوير الفارسي نسق التصوير الصيني ورسم الملائكة والشياطين. إليه مرجع اليزيدية، العقيدة القائمة في الأساس على الغلو في يزيد بن معاوية (645 ـ 683)، وعلى تقديس الشيطان وتحريم التعليم. إلا أن أتباع هذه الفرقة قد =

النّور والظلام، ثم ارتدّ بفضل أمه مونيكا، والقديس امبروسيوس[1] فأصبح من أشهر آباء الكنيسة، إذ كان خطيبًا ولاهوتيًا وفيلسوفًا وكاتبًا، وقاوم البدع heretical doctrines) لا سيما «الدوناتية»[2] و«البيلاجية»[3]. وفي حضرة جاك بوسويه (Bossuet) [4] والقديس ألفونس دي ليغوري[5] أحد أئمة اللاهوت الأدبي ومؤسس رهبنة الفداء 1732، والقديس فرنسوا دي سال[6]، الذي ردّ إلى الروحانية المسيحية أبعادها الإنسانية.

= انحصر وجودهم في شمال العراق، في قضائي سنجار والشيخان، ومنهم شراذم قليلة في جهات حلب وأرمينيا والقوقا، ويقدسون في العراق مقامًا باسم الشيخ علي، ولهم كتاب ديني يسمى «الجلوة».

(1) امبروسيوس (القديس) Ambrosuis (379 ـ 397): من آباء الكنيسة. رئيس أساقفة ميلانو (إيطاليا). فرض توبة صارمة على الامبراطور تيودوسيوس الأول (379 ـ 395) الذي ثار على أهالي تسالونيكي سلانيك (Saloniqu) ـ في شمال اليونان ـ فأمر بذبحهم. ولهذا القديس (امبروسيوس) أناشيد دينية وتآليف عيدة في تفسير الكتاب المقدس والوعظ والطقوس.

(2) بدعة أنشأها دوناتس أسقف قرطاجة (315م). عرفت بتصلبها مع «الخطأة». أحدثت شقاقًا وفتنًا كثيرة في أفريقيا.

(3) أنشأ هذه البدعة راهب بريطاني يدعى Pelagius (نحو 360 ـ 430) القائل: «إن الإنسان لا يحتاج إلى نعمة الله في سبيل الإخلاص» وعرفت باسمه.

(4) بوسويه جاك Bossuet 1627) 1704) ولد في ديجون (Dijon) مدينة في فرنسا شهيرة بجامعتها وأكاديميتها ومتحفها. أسقف مو. له مواعظ وتآبين فصيحة ومؤلفات لاهوتية وفلسفية وتاريخية.

(5) الفونس دي ليغوري (القديس) (1696 ـ 1787): أسقف إيطالي.

(6) فرانسوا (فرنسيس) دي سال (القديس) (1567 ـ 1621). ولد في السافوا (فرنسا). أسقف جنيف. له مؤلفات روحانية منها «مدخل العبادة». أسس مع القديسة حنة شانتال راهبات «الزيارة» في فرنسا سنة 1610، التي أعاد تأسيسها الأب غينار اليسوعي تحت سلطة البطريك الماروني سمعان عواد الحروني في عينطورة ـ الذوق (لبنان) 1744.

أمامنا عشرات المجلدات والمخطوطات[1] وكتب التاريخ والفلسفة والأدب والقواميس الفرنسية والعربية والإيطالية واللاتينية والسريانية والعبرية والإنكليزية، ومجموعة «ألف ليلة وليلة» أو الحكايات الخيالية الموضوعة بين القرن الثالث عشر والرابع عشر، وعددها 264 تحكيها السلطانة «شهرزاد» لأختها «دنيازاد» في حضرة الملك «شهريار» خلال ألف ليلة وليلة سمَر. وهي تنوّه بوقائع تاريخية وعوائد وأخلاق تلك الأزمنة. على أن أشهرها قصة السندباد وقمر الزمان وعلي بابا، وقد دخلت في الأدب العالمي فتُرجمت إلى لغات كثيرة وتعددت طبعاتها.

«اللباب»

من المجلدات الضخمة التي تستحوذ عليك: «اللباب» فهو كتاب في اللغة الآرامية السريانية ـ الكلدانية. وضعه القس جبرائيل القرداحي الحلبي ـ اللبناني[2].

يقع «اللباب» في جزأين، مجموع صفحاته 1320. طبع الجزء

---

(1) إن القسم الأكبر من مخطوطات الرهبانية المريمية نقل إلى روما للمحافظة عليه.

(2) جبرائيل قرداحي (1845 ـ 1931). راهب ماروني. أستاذ اللغات الشرقية في مدرسة «البروبغندا»، وهي إحدى مدارس روما للعلوم الدينية، يتثقف فيها الكهنة من أنحاء العالم. تأسست سنة 1623. وبروبغندا Propagenda ، في الأصل، هو «مجمع انتشار الإيمان أسسه البابا غريغوريوس الخامس عشر (Gregoire15) سنة 1622، يضم لجنة من الكرادلة مكلفة الإشراف على الإرساليات التبشيرية. قال، في هذا الراهب، الأبّاتي بطرس فهد: «وأشهر من أنجبت الرهبانية في حقل العلم والتأليف الأب جبرايل القرداحي الفيطروني». «فكان قطبًا من أقطاب العلم في الرهبانية بل في الشرق أجمع، صرف كل حياته في رومية منكبًا على الدرس والتأليف، له مصنفات جمة منها مطبوع ومنها ما زال مخطوطًا، أشهرها قاموسه في اللغة السريانية والعربية المعروف باللباب» (اليوبيل المئوي الثاني 1752 ـ 1952، نفسه، ص: 16.

الأول (620 صفحة) سنة 1887 في المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، «بالرخصة الرسمية من مجلس المعارف في ولاية سورية الجليلة» وطبع الجزء الثاني (700 صفحة) سنة 1891 في المطبعة الكاثوليكية نفسها، وبالرخصة عينها، ذات الرقم 392.

في مقدمة هذا الكتاب اللغوي النفيس، يقول مؤلفه بعد «بسم الله الحي السرمدي» ما يلي:

«الحمد لله شكرًا على آلائه وأتم الصلاة على رسله الكرام وأنبيائه. أما بعد فإني لما رأيت السريانية مع قِدَمِها (وردت قدمها) ورفعة منزلتها وغناها وكثرة منفعتها يكاد لا يكون لها عند أهلها كتاب لغوي مرتّب على حروف المعجم، يضم أصول الكلم وفروعها من باب واحد على أسلوب محكم. شمّرتُ في وضع هذا الكتاب عن ساقي الجد حتى انتهيت فيه ـ والحمد لله ـ إلى هذا الحد. وقد تحاميت فيه إثبات ما ليس من خالص اللغة مما أدخله المتآمرون فيها، إلا إذا اشتهر استعماله، أو مسّت الحاجة إليه في أماليها ثم اصطلحت فيه على عدة أمور في تحصيل المطلوب منه وتعميم الفائدة من لدنه».

صحّح طبع «اللباب» المطران يوسف دريان[1]، وقدّم له شعرًا، مبيّنًا كم عانى مؤلّفه (القرداحي) الذي قضى عشر سنوات، نقدًا وتنقيبًا وجمعًا، ثم خمس سنوات ترتيبًا وإخراجًا وتصحيحًا.

---

(1) يوسف دريان (توفي سنة 1920) من الرهبانية الحلبية اللبنانية. أسقف ماروني على مصر. له أناشيد ومؤلفات في تاريخ الموارنة. قال لجورج بيكو عندما جاء البطريرك الحويّك ليحمله على التسليم بإلحاق لبنان بحكومة دمشق، في عام 1918: «لموتنا في ظل صخورنا خير لنا من الانضمام إلى دمشق». (انظر كتابنا: «أية عروبة أية قضية؟» طبعة أولى 1977، حاشية رقم (1)، ص331. عن «تاريخ لبنان العام» لمؤلفه يوسف مزهر، الجزء الثاني، ص: 873.

يقول المطران دريان:

«يا أيها السريان هذا الكتاب ... قد جاء بالآيات في كل باب
ينشر اللسان بعد البلى ... وبعدما هالوا عليه التراب
خوضوا عباب البحر تلقوا المنى ... فدون كسب العلم خوض العباب
ثم أشكروا جبريل[1] ذاك الذي ... أحيا لكم ذكرًا بهذا الكتاب
وقد فداكم بصفا عيشه ... وأطيب العمر وشرخ الشباب
وقد قضى عشر سنين به ... بالنقد والتنقيب والانتخاب
وبعد ذا خمسًا لترتيبه ... ونبذ ما قد كان فيه يُعاب
حتى أتى في بابه مفردًا ... يكشف عن وجه المعاني النقاب
لذلك قد أرّخته زاهلاً[2] ... بشّرتُ قرداحي بنشر اللباب

وطويتُ «اللباب» لأسأل الأب صَدَقة: هل لنا عودة إلى هذا الكتاب في مدارسنا فيحيا وتحيا معه اللغة السريانية ذات المجد التليد والتاريخ الخالد؟

ردّ الأب صَدَقة قائلاً: يا ليت! يا ليت!

في «صالون مجمع الأساقفة»

إلى جانب المكتبة، يقع «صالون مجمع الأساقفة». المكتبة والصالون كأنهما صالة عرض. فهنالك صُوَر الرؤساء العامين المؤسسين عبد الله قراعلي وجبرائيل حوّا[3]

---

(1) يقصد المؤلف: جبرائيل القرداحي.

(2) الزاهل: المطمئن البال.

(3) جبرائيل حوّا (1668 ـ 1756): أحد مؤسسي الرهبانية اللبنانية المارونية. اقتنى لها ديرًا في روما حيث مات. أسقف قبرص 1723. يذكر الأبّاتي فهد مستندًا إلى «الآلئ» لمؤلفه المطران عبد الله قراعلي فيقول: «ولكن أحد المؤسسين، وهو الأب جبرايل حوّا والذي صار مطرانًا فيما بعد، كان =

وجرمانوس فرحات[1]. وصُوَر لأساقفة ورؤساء عامين للرهبانية

= يريد أن يجعل غاية الرهبانية الرسالة ونشر التعاليم الخاصة، دون العبادة التنسكية والزهد المنقطع عن العالم، بخلاف رفقائه الألى كانوا يؤثرون جعل الرهبانية للنسك والعبادة التوحيدية البعيدة عن ضوضاء المدينة والعالم.«ولم يطل الأمر حتى اختلطت الفكرتان وامتزجتا، فنشأت الرهبانية الحلبية اللبنانية المارونية بفكرتيها الجديدتين: العبادة لله والرسالة الرعوية. ومنذ ذلك الوقت أخذت الرهبانية تهتم بتأسيس الرسالات وتوسيع نطاق التبشير وزرع كلام الله بين الموارنة، في لبنان، وبين مختلف الطوائف الشرقية، وخارج لبنان خاصة، مع العلم بأن هذه الحياة الجديدة القائمة على التضحية وبذل الجهد واحتمال مشاق الأسفار وأخطارها لنشر البشارة الإنجيلية، لم تكن معروفة في لبناننا العزيز منذ أول عهد البطريركة المارونية إلى مغيب القرن السابع عشر في شكلها الحالي المنظم الذي نعرفه في أيامنا الحاضرة، ونراه في رهبانيتنا الحلبية المارونية وفي الرهبانيات القانونية الشرقية والغربية». (فهد: اليوبيل المئوي الثاني، نفسه (ص3).

(1) جرمانوس فرحات (1670 ـ 1732): مطران حلب على الموارنة. أديب وشاعر ولغوي. جدد الحياة النسكية في لبنان وكان في أس النهضة الأدبية. له «بحث المطالب» و«القاموس» أو «باب الإعراب عن لغة الإعراب» و«ديوان». أسس، في حلب، المكتبة المارونية الشهيرة بمخطوطاتها. عن هذا المطران يقول الأبّاتي فهد: «ولا بد أن نذكر بفخر واعتزاز، فريد عصره وعلامة دهره، الراهب الحلبي اللبناني جبرايل فرحات أحد نوابغ الطائفة المارونية الذي تولّى رئاسة الرهبانية الغامة طوال مجمعين كاملين، من سنة 1716 إلى سنة 1725. ثم سامه البطريرك يعقوب عواد مطرانًا على حلب باسم جرمانوس فرحات في 29 تموز سنة 1725». أضاف: «فهذا الراهب العظيم ذهب إلى دمشق عام 1719 وعكف هناك على الوعظ والرسالة، ملقيًا المحاضرات الدينية مساء كل يوم، شارحًا التعاليم الخلاصية، سامعًا الاعترافات العديدة، واضعًا القوانين لتأسيس الأخويات لعبادة الوردية، وثوب السيدة، بموجب تفويضات نالها من رومية فكانت الجماهير الغفيرة تتهافت على سماع عظاته وأقواله بإقبال باهر من جميع الطوائف». وقال أيضًا: «وقد كتب البحاثة الأب بليبل في تاريخه عن الرسالة التي أداها المطران فرحات في سبيل الارتداد فذكر الكتابة التي حررها الوكيل =

ورهبان علماء: أوغسطين البستاني، جبرائيل صفير العجلوني، يوسف سمعان السمعان، يوسف دريان، إسطفان الخازن، لويس البستاني رئيس عام سابق، جناديوس العضم (رئيس عام سابق)، يوحنا معربس (متقاعد) وغيرهم، وغيرهم...

تضم هذه «الصالة» أيضًا خزانتين. في الأولى عشر بدلات للقداس، معظمها من القرن السابع عشر، لا تزال تحافظ على رونقها. بين البدلات واحدة مشغولة، في استنبول، من خيطان الفضة والذهب.

في الخزانة الثانية، جمعت كؤوس قيمة، ونسخة عن القانون العام للرهبانية المارونية الحلبية الصادر سنة 1700، وهو بخط المؤسس عبدالله قراعلي مصدّقة من غبطة البطريرك اسطفان الدويهي وممهورة بختم الكرسي البطريركي (1700) معها طابيّة الأب الرئيس قراعلي.

وتجد في «صالون المجمع» أيضًا وأيضًا لوحات زيتية نتمنى أن تُحفظ جيدًا وتصان، لما تجسّد من فن عظيم يعزّ نظيره اليوم، ومنها: (1) انتقال العذراء إلى السماء، كانت في الكنيسة قبل الترميم (2) المسيح مصلوبًا (3) مار مارون في خلوة (4) لوحتان لمغارة الميلاد (5) هيرودية تتسلم رأس يوحنا المعمدان (6) عرس قانا الجليل وتحويل الماء إلى خمر (7) مار بطرس مصلوبًا رأسًا على عقب.

= العام للرهبانية عام 1927 إلى رئيسه العام الأب مخايل اسكندر الإهدني الذي كان عهدئذٍ في رومية، فقال فيها: «إن الديانة الكاثوليكية في حلب لعلى نمو مطرد مزدهر، أوصلها إليه اهتمام المطران رومانوس فرحات وعنايته حتى أضحى الاعتقاد راسخًا بأن جعل إقامته في حلب إنما هو تدبير رباني أراده تعالى عز وجل ليحيي الإيمان والورع في تلك المدينة. وقد تحققت تلك العناية الصمدانية بارتدادات الارثوذكس العديدة التي أوجدها فرحات بجهاده غيرته وعلمه» (فهد: المصدر نفسه، ص: 13، 14).

وقفة في الساحة

رن جرس الهاتف في الممشى فدخل علينا أحد الرهبان (...) يقول لرئيس الدير الأب مارون صَدَقة: «أبونا الريّس مطلوب ع الخط». عندئذٍ اعتذر الأب صَدَقة قائلاً: «الآن صار بإمكانك أن ترجع إلى مؤلفات الرئيس العام الأبّاتي بطرس فهد، فهي المراجع الصالحة المختصة التي يمكنك الاعتماد عليها».

كان التناغم بين البحر ونهر الكلب يُسمع من دير سيدة اللويزة كأنه دفق الحليب من ثدي أمٍّ عامرة الصدر إلى فم طفلها الجائع، وقد بدت تنساب عليّ وهذه دموع ليس البكاء وحده الذي أسالها. قلت: لنتعرَّف إلى «مركز سيدة اللويزة» قبل الإبحار في مؤلفات المؤرخ والمحقق فهد.

في ساحة الدار وقفتُ لأقول: من هنا طلعتْ شمس الرهبانية المارونية المريمية، فألقت أشعتها على شاطئ بحر الروم فحملها فوق أمواجه رسالات لها، حي حطت، شأنٌ ونفوذٌ روحيان جليلان.

ثم التفتُ إلى «جناح الطالبية»[1] الذي فيه يتمّ فيه إعداد الطلاب إلى سنة الابتداء في الإكليريكية، فإذا عند زاوية المدخل تمثال نصفي من الرخام الأبيض يجرّني نحوه حاسبًا أنه سيكون للعالم الكبير جرمانوس فرحات، رائد النهضة العربية، وأحد مداميك هذه المؤسسة الكبيرة. ولما اقتربت منه وجدتني أمام البابا بيوس (Pius) العاشر. سألت: لماذا هنا

(1) في شباط 1985 زرت الأستاذ إدوار باخوس المدير الإداري لهذا المركز في البناء الجديد الذي يبتعد عن الدير بـ 50م، فأفادني أن اسمًا جديدًا قد أعطي للمركز وهو: «كلية اللوزية للتعليم العالي» ويدير هذه الكلية الأب انطوان صفير. سألت الأستاذ باخوس عن عدد الطلاب والطالبات عنده فقال: حوالى 1100. أما الأساتذة والإداريون فهم 80 معلمًا ومعلمة. مديره الأب فيليب الحاج هو الرئيس الحالي لدير مار سركيس وباخوس ـ عشقوت.

هذا التمثال؟ فقيل لي: «كان هناك على المدخل، قرب غرفة الاستعلامات وفي بدية الأحداث نقل إلى هنا. إن الأبّاتي جناديوس العضم[1]، الوكيل العام لدى الكرسي الرسولي، كان يحب هذا التمثال، وبناء على طلبه جيء به إلى دير سيدة اللويزة».

ساحة دير سيدة اللويزة متى ستحتفل بنصب تماثيل مؤسسي الرهبانية المارونية؟ الأساقفة: جبرائيل حوا، وعبد الله قراعلي، جرمانوس فرحات، والراهبان العظيمان: أغناطيوس سلهب الحاقلاني، ويوسف البتن، الذي لم يعمِّر طويلاً؟ هل يتصدرون هذه الساحة؟

بلى!

هؤلاء يستحقّون أن يعودوا إلى هنا، وعسى أن تكون عودتهم خيرًا لجمهور الدير وزواره وأصدقائه، بل خيرًا للرهبانيات اللبنانية المارونية بكل فروعها.

في المدرسة والجامعة

مقابلةُ رئيس «مركز سيدة اللويزة العالي»، الأب الدكتور بشارة الراعي[2]، ولو على موعد مسبق، أمر صعب، فكيف لو جئته فجأة!

المسؤوليات الواقعة على عاتقه كثيرة وجسام، «فالاتفاق بين الرهبانية المارونية المريمية وكلية بيروت الجامعية بشخص رئيسها

(1) أحد الرؤساء العامّين للرهبانية الحلبية اللبنانية (1964) وفي هذا العام تمامًا في التاسع من شهر شباط (1964) أذن بطبع كتاب «تاريخ الرهبانية اللبنانية بفرعيها الحلبي واللبناني» للآباتي بطرس فهد، إذ كان المؤلف، آنذاك، مديرًا عامًّا للرهبانية.

(2) الأب بشارة الراعي: رئيس المحكمة الروحي، أستاذ الأحوال الشخصية في الجامعة اليسوعية. نقل إثر تعيينات 1984، إلى مدرسة سانت ريتا ـ ضبية.

الدكتور ألبير بدر ـ يولي المسؤولية الأكاديمية: اختيارا لمعلمين، تحديد المناهج، إدارة الدروس، منح الشهادات، إلى الكلية المذكورة، والمسؤولية الإدارية إلى الرهبانية»[1] ما يجعل وقت الأب الراعي غاليًا ودقيقًا.

وإذ تعلم أن «مركز سيدة اللويزة العالي» (للفروع الجامعية» قد افتتح «الفصل الأكاديمي الأول من السنة الجامعية 79 ـ 80، باحتفال تعارف أقيم في قاعة محاضرات المركز ـ بحضور الأب الراعي نفسه وعميد كلية بيروت الجامعية الدكتور رياض نصار والأساتذة المحاضرين والموظفين في المركز والأهالي والطلاب يوم 28 تشرين الثاني 1979»[2]، وأن «امتحانات الدخول إلى كافة الجامعات الأميركية ـ الإنكليزية، التي لا تجري إلا في دائرة الامتحانات في الجامعة الأميركية، وحسب»[3] قد «سُمح لها بأن تقام هنا في هذا المركز «الفريد في المنطقة»[4] وذلك «تجاوبًا مع ما يبغيه من تخفيف أعباء ومشقات الانتقال عن كواهل الطلاب، ونظراً للظروف الأمنية الراهنة»[5]، فمن المؤكد أنك ستدرك أي جهد عظيم يبذله الأب بشارة الراعي ومعاونوه، لا سيما الأستاذ إدوار باخوس، لتدرك أيضًا أن لا داعي لِلَّوم أو العتب إذ ما رفض هذا الراهب الديناميكي استقبال من جاءه عشوائيًا، فالزمن قوة وطاقة لا يجوز هدرهما رخيصين!

---

(1) من رسالة للأب الراعي موجهة ـ في 6/ 12/ 1979 ـ إلى رئيس وأعضاء جمعية الصناعيين في زوق مصبح، معرّفاً بالمؤسسة الجامعية المستحدثة، ومقترحًا بعض المشاريخ المستقبلية بالتعاون معهم.

(2) الأنوار 29 تشرين الثاني 1979.

(3) ادوار باخوس، الأنوار 30/ 9/ 1979.

(4) ادوار باخوس: المصدر نفسه.

(5) ادوار باخوس: المصدر نفسه.

كم استرخصنا الوقت في هذا الوطن الجميل!

كنا نحسب أن الآتي مثله مثل الحاضر، فلا الوظيفة هي الوظيفة، ولا الواجب هو الواجب يوم كنا نُقبل على مكاتبنا غير راغبين إلا بالوجاهة والنفوذ.كان الوطن ينحدر، من مكانه، شيئًا فشيئًا.

ثم انفجر البركان، وحدث الذي ما ظننّا يومًا أنه سيحدث.

لقد ضاع منّا الوطن!

هل ينفع البكاء بعد؟

مصيبتنا العظمى أننا ما زلنا نَغْتال الزمن، بقايا الزمن!

مكتبة المركز والمختبرات

ومهما يكن، فإن الأستاذ إدوار باخوس ـ المسؤول الإداري ـ ينوب عن الأب بشارة الراعي في أمور شتى.

قال لي الأستاذ باخوس:

«إن أعمال المركز ومشاريعه كثيرة ومتميزة، فنحن نعدّ الطالب الثانوي إلى الجامعة، بمعنى نوجهه إلى الاختصاص، إذ نضع بين يديه دليلاً يرشده إلى الكلية التي تناسبه، كما نطلعه على الاختصاصات وأهميتها إلى أن يأخذ هو طريقه. فعندما يكون لديه المعلومات الكاملة عن الحياة الجامعية، فإنما يكون قد أصبح مؤهلاً لأن ينصهر في مجتمع الكلية التي يختار دونما أدنى شعور منه بالغربة».

ودعاني المدير الشاب إلى جولة استطلاعية شملت المختبرات وغرف التدريس والمكتبة.

كل شيء هناك يبعث على الهدوء والتأمل. الملصقات تُشعرك بالطمأنينة والرضا.

هنا نقرأ: «حيث يكون روح الآب تكون الحرية»، وهناك: «اذهبوا وتلْمِذوا جميع الأمم».

يتألف «القصر» أو «المركز» من مائة غرفة أو أكثر مجهزة بأحدث الوسائل والمعدات. أما المكتبة فحديثة العهد، وفيها بعض الموسوعات. إلا أنها ستنمو بسرعة، كما قال الأستاذ باخوس. المختبرات العصرية تقرِّبُ النظريات إلى الواقع، «لم يعد العلم حبرًا على الورق فحسب» قال الأستاذ باخوس. أضاف: «إن اللغة الإنكليزية عندنا تُدرَّس بواسطة أحدث الوسائل السمعية والبصرية. يجب أن نواكب العالم المتمدن، يجب أن نكون عصريين. لن نترك الزمن يفلت منا».

يشهد «المركز» إقبالاً ملحوظًا، فالطلاب أتوا إليه من المتن وجبيل وكل كسروان. ففي المدرسة والثانوية 1500 طالب وطالبة[1]. وفي القسم الجامعي 200، وفي القسم اللغوي (الانكليزي) 200. أما الأساتذة والموظفون فعددهم لا يقل عن مائتين وثلاثين أستاذًا وإداريًّا ومن الأساتذة الذين اختارهم «المركز»: الدكتور نقولا صالحة لإدارة الأعمال، الدكتور ريمون ملاط للاقتصاد، المحامي إدوار حنا، الدكتور جان سكاف للأدب العربي، الدكتور فؤاد رفقة للفلسفة، الأستاذ جورج مغامس.

الوطن النموذجي

لا شيء يخرق الهدوء المخيّم على «المركز» سوى رنين الهاتف على طاولة «التليفونيست» السيدة حياة فارس[2] في صالون «المركز» وضربات

(1) لما أتيت الأب مارون صدقة، الرئيس الحالي للمدرسة والثانوية، يوم 9 شباط 1985، وكان يوم عيد القديس مارون، سألته عن المدرسة وأحوالها، فقال: تضم مدرستنا اليوم حوالى 2580 طالبًا وطالبة.

(2) حياة فارس: أرملة المرحوم جورج فارس الذي اغتيل صيف 1979، قضاءً وقدرًا، يوم انفجرت على طريق جونية ـ عند مفرق «أدونيس»، قنبلة، =

الآلة الكاتبة في غرفة السكرتيرة. جدران «المركز» وبلاطه وزواياه وكل ناحية منه تشهد على سَهَر القيّمين على «القصر»: من الرئيس الأب بشارة إلى الحجّاب، مرورًا بالأساتذة والإداريين. وهي تعترف للطلاب ـ صغارًا وكبارًا، بوعيهم وتفهمهم روح النظام وجدوى الانضباط.

أما ملاحظتي الوحيدة، فهي أن ليس لهذا «المركز» ـ حتى اليوم ـ مجلة تدرّب الطلاب على الكتابة والتفكير يشارك فيها الأساتذة فينشرون الدراسات والأبحاث الأدبية والعلمية والتاريخية التي يحتاج إليها الطلاب لا سيما الثانويون والجامعيون.

بينما كنت ألملم أوراقي استعدادًا للعودة إلى البيت، استيقظتُ على الواقع الذي ينتظرني. وكم كان حزني عميقًا وأنا أعبر حدود «مركز سيدة اللويزة العالي» إلى الوطن ـ لبنان، بل إلى الفوضى والخراب والانتحار!

على الطريق الممتد بين «مدينة ليست من العالم الثالث» وبين بدارو، أرض المعارك والمتقاتلين، طالما رددت والألم يعصرني: أيها المسؤولون. ماذا فعلتم بوطنكم؟ ألم يكن باستطاعتكم أن تبنوا وطنًا نموذجيًّا كما بنى الرهبان المريميون «مدرسة سيدة اللويزة...»؟

إلى أين ذهبتم بالنظام والدستوروالأمن؟

لقد ضحى هؤلاء الرهبان، كما ضحى إخوان لهم، رهبان

= وكان المرحوم الشيخ بيار الجميل، الرئيس الأعلى لحزب الكتائب اللبنانية، يمر بسيارته هناك ومعه مرافقوه إلى دير المخلص ـ صربا ـ جونية، حيث كان من المقرر أن يُعقد اجتماع بين «الجبهة اللبنانية» من جهة وممثلي الطوائف المسيحية من جهة أخرى. كان جورج المغدور ساعتئذٍ، يعبر الطريق بالاتجاه الآخر، فأصيب بشظايا قاتلة. إثر هذا الحادث المفجع تم تعيين هذه السيدة في «المركز». لم أنسَ أن أسأل الأب مارون صدقة عنها، إلا أنه قال لي: «لقد تركت.. لا أعرف لماذا؟ ولا أعرف أين صارت».

وراهبات بلديّون[1] وأنطونيون ومرسلون وعازاريون[2] وبولسيون[3] ويسوعيون[4] وباسيليون شويريون وغيرهم، وغيرهم[5]، فأنشأوا مدارس ومعاهد وجامعات راقية ومحترمة فكان عطاؤهم عظيمًا لا يُجارَى ورائعًا لا يُنافَس، ومجداً لا يضاهَى.

---

(1) لهم جامعة الروح القدس ـ الكسليك، والمركزية في غدير وجونية، وفي الجية ودير مشموشة.

(2) مدارس راهبات المحبة في الأشرفية وكليمنصو وذوق مكايل، مدرسة مار يوسف في عينطورة، مدرسة مار يوسف المهنية في ضهر الصوان.

(3) مدرسة القديس بولس للمرسلين ـ حارة صخر.

(4) مدارس راهبات القلبين الأقدسين في الأشرفية (شارع القلبين الأقدسين والسيوفي) والحدث والحازمية وجديدة المتن ومنصورية المتن وحريصا وغدير وكفر حباب جبيل وبكفيا وقرنة شهوان وبيت مري وبكاسين ومروج وسوق الغرب وبترون وعاريا وعاليه وحدث الجبة ودرعون وصيدا وتعنايل وطرابلس وزحلة وعيناب وحمانا وضهور الشوير ومزرعة كفرذبيان ومشغرة.

(5) نذكر بصورة خاصة مدارس الفرير في الجميزة وفرن الشباك ومون لاسال ـ عين سعادة (مع تقديري للأخ الرئيس برنارد حبيقة) وطرابلس وزغرتا وبرج البراجنة. ونذكر بالمثل مدارس الراهبات المارونيات ـ عائلة المقدسة في عبرين وجبيل وساحل علما والأشرفية والزلقا والفنار، ومدارس الراهبات الباسيليات الشويريات، والراهبات المخلصيات، ومعهد البلمند، وكلية البشارة الأرثوذكسية ومدرسة زهرة الإحسان، ومدارس راهبات دير الصليب في جل الديب ودير القمر وبرمانا، ومدرسة شانفيل، وكلية مار الياس بطينا، ومدارس الحكمة في الأشرفية وكليمنصو وجديدة وبرازيليا ـ بعبدا، ومدرسة سيدة الرسل ـ البوشرية، ومدرسة سيدة الفنار ـ الفنار، ومدرسة سيدة السلام ـ الدورة، ومدرسة النجاة للراهبات المخلصيات ـ الحدث، ومدرسة مار يوسف، ومدارس الدومينيكان والفرنسيسكان، ومدرسة الراهبات الكرمليات ـ رأس بيروت، ومدرسة الراهبات الكرمليات ـ رأس بيروت، مدرسة البطريركية ـ ميناء لحصن، ومدرسة راهبات سيدة المعونة الدائمة في فرن الشباك وزحلة، ومدرسة مار يوسف ـ قرنة شهوان التي يشرف عليها المطران الياس فرح، وثانوية مار سويريوس للسريان الأرثوذكس في المصيطبة.

أما على صعيد الدولة وإدارة البلاد، فإن شيئًا من هذا لم يأتِ به المسؤولون، فانزلق منهم الوطن مثلما ينزلق الزيت من بيت الأصابع.

المؤسِّسُون

مؤلفات الأبّاتي بطرس فهد تتجاوز الثلاثين كتابًا. وهي تختصر لك مراجع لا تحصى، فتضعها بين يديك مخلّصة لتمدّك بمعلومات وحقائق تاريخية، إن شئت أن تتبعها في المجلدات والكتب القديمة أفنيت العمر كله أو أكثره، وهيهات أن تجد إلى ذلك سبيلاً.

من كتابه «الموجز التاريخي للرهبانية المارونية المريمية ـ الحلبية سابقًا» (طبعة 1979) نتعرف إلى تاريخ دير سيدة اللويزة ـ بخاصة ـ وإلى أديار هذه الرهبانية عامة المنتشرة في لبنان والعالم.

يقول الأبّاتي فهد:

«ومما لا ريب فيه أن الحياة الرهبانية إنما هي أسمى وأكمل مما يصبو إليه المسيحي على الأرض لبلوغ الكمال الإنجيلي الذي عاشه المخلّص الحبيب مع تلاميذه، وطلب منهم وممن يريدون أن يكونوا مثله مجدّين في طلب هذا الكمال أن يتقيّدوا بالمنشورات الإنجيلية».

أضاف:

«فالحياة الديرية ما نشأت عن الحياة النسكية، لأن المؤسسات والقوانين الرهبانية تفترض وجود مرحلة أولى في تاريخها قبل الوصول إلى حالة الترهّب، بل يلزم الجزم بأن الحياة الرهبانية، انفرادية كانت أم اجتماعية، ظهرت إلى حيز الوجود يوم ظهرت الكنيسة المقدسة، يوم وجد أول مسيحي عاش الإنجيل الطاهر».

وقال أيضًا:

«فالراهب هو المسيحي الذي يسعى ليعيش الإنجيل على أكمل

وجه، مستخدمًا أنجع الوسائل للبلوغ إلى الاتحاد به روحيًا، فروحانيته والحالة هذه إنما هي روحانية الإنسان المسيحي الذي وعى أهمية خلاصه، ولكن الراهب يتميز عنه بحفظ العفة طوال حياته الرهبانية، منعزلاً ما أمكن عن المهام العالمية حافظًا قانونه، ليبالغ أعمال الروح تقديسًا للنفس وتمجيدًا لله وحبًا لخير الإنسانية»[1].

رهبان لبنان

وإذ يستعرض الأبّاتي فهد الحياة الرهبانية الجماعية في مصر - مع القديس بافوسيوس (حوالى 346)، مؤسس الحياة النسكية المشتركة - وفلسطين - مع القديس إيلاريون تلميذ القديس أنطونيوس الكبير - وسوريا، حيث جعل يوليوس سابا (315 - 325 من جبال الرَّها مركزًا لإقامته النسكية، وكذلك الناسك يعقوب، أسقف نصيبين المتوفى سنة 338 - وفي بلاد فارس - مع القديس ميثاي الذي أقام ديرًا شرقيّ الموصل خلال سني (361 - 363)، وأرمينيا مع القديس باسيليوس العظيم - واليونان - حيث جبل آتوس الذي يُعتبر من أهم المناطق التي انتشرت فيها الحياة الرهبانية، ويدعى هذا الجبل بالمقدس لكثرة ما أنشئ فيه من أديار وما أقيم فيه من مغاور كُرّست لعبادة الله[2] - يصل، بنا أخيرًا إلى لبنان، وهنا - كما يروي التاريخ - ظهر أول ناسك، كان يُدعى: المطران ايرسموس في أيام الأمبراطور ديوفلسيسانوس أحد كبار أباطرة الرومان المتأخرين[3]، والذي أشعل الاضطهاد على المسيحيين سنة 303م. انزوى هذا الناسك في المغاور اللبنانية، وانكب على الصوم

(1) فهد: الموجز التاريخي للرهبانية المارونية المريمية - الحلبية سابقًا، طبعة 1979، ص4.

(2) المصدر نفسه. بتصرف: (ص5، 6، 7، 8).

(3) حكم هذا الامبراطور من 284 إل 305.

والعبادة والتأمل، ولكنه بإلهام إلهي ترك العزلةوذهب إلى أنطاكية لتشجيع المؤمنين. إلا أنه ما لبث أن مات شهيدًا، الأمر الذي يثبت بالأدلة والبراهين أن الحياة الرهبانية في لبنان لم تكن، قبل القرن السابع عشر، سوى «الزهد والانفراد والعمل والصلاة»، فلا رسالة، ولا انسجام مع المجتمع مثلما اليوم. بل «كان الرهبان يشتغلون في الحقول والزراعة، ويقومون بصلوات النهار والليل، ويمتنعون عن حضور الأفراح وركوب الخيل، ويصومون أغلب أيام السنة لا يأكلون لحمًا ولا يقتاتون إلا مما تنبته الأرض عفوًا، وما كانوا ينذرون النذور الرهبانية المعروفة، بل كان المتقدم في الدين يتلو على طالبي الكمال بعض صلوات ويوشحهم بالاسكيم الملائكي، ويتشحون بثوب خشن رديء وينامون به»[1].

... وجاء الحَلَبيون

آنذاك كان الإقبال على الحياة الرهبانية القاسية، بالنسبة إلى ذوي الرهبان، كأنه الرحيل من هذه الدنيا. فالراهب في ديره، أو قل في القبو، هو بنظر أهل قريته أو عشيرته، كأنه من سكان القبور.

ظلت الحياة الرهبانية في لبنان هكذا، حتى «قيّض الله لها سنة 1694 ثلاثة شبان من أبناء حلب الشهباء متحلين بالعلم والأخلاق وحسن التدبير، هم: جبرايل حوّا وعبد الله قراعلي ويوسف البتن، أتوا جميعهم إلى لبنان الشمالي، إلى الوادي المقدّس في قنوبين مركز البطاركة المارونيين، بعدما زاروا القدس الشريف وتباركوا من قبر المخلّص الحبيب، وسنة 1695 لحق بهم ابن مدينتهم جرمانوس فرحات رائد نهضة اللغة العربية، وعرضوا رغبتهم في تأسيس رهبنة جديدة على

(1) المصدر نفسه

غبطة البطريرك العظيم اسطفان الدويهي[1] في دير قنوبين بالشمال، فقبلهم غبطته بعطف، وسُرّ بهم واستبقاهم لديه مدة لكي يختبروا أنفسهم، مقدمًا التوجيهات والمساعدات اللازمة».

واستطاع هؤلاء الحلبيون أن يزرعوا في الجبل اللبناني نواة لرهبنة شرقية منظمة «دون أن يهملوا القديمة المعروفة برهبان دير مار أنطونيوس كوكب البرية». وقرّر الرهبان الأربعة أن تكون رهبانيتهم مؤلفة من رئيس عام واحد وأربعة مدبّرين ورؤساء أديار ومراكز، يخضعون جميعًا لقدس الرئيس العام بقوة نذر الطاعة، أحد النذور الثلاثة: الطاعة والعفة والفقر، بحيث يقدر الرئيس العام أن ينقل رهبانه من دير إلى آخر، وأن يتدبّر شؤونهم ويوجههم عن بعد التوجيهات العامة، لكون الأديار جميعها مستقلة، وجعلوا هدف الرهبانية الأول هو الزهد والخورس والانقطاع عن العالم، دون إهمال سائر الأعمال الكهنوتية، وسمّوا رهبانيتهم بالرهبنة الحلبية، لكنهم في سنة 1706 غيّروا اسمَها ودعوها باللبنانية، تذكارًا لتأسيسها في جبل لبنان، وقبلها السيد البطريرك وباركها راضيًا مرتاحًا»[2].

من بشري إلى زوق مصبح

نال المؤسسون الحلبيون عطف أهالي بلدة بشري وثقتهم فتملكوا منهم دير مار إليشَع النبي، في الوادي المقدس المنقور[3].

---

(1) اسطفان الدويهي (1630 ـ 1704): بطريرك الموارنة ولد في إهدن (لبنان)، تعلم في روما وعاد إلى بلاده يعظ ويعلِّم. عيِّن اسقفا على قبرص ثم بطريركًا 1670، له مؤلفات دينية وتاريخية أهمها: «منارة الأقداس»، و«رد التهم»، و«تاريخ الأزمنة».

(2) المصدر نفسه.

(3) كان هذا الدير، آنذاك، مسكنًا للآباء الكرمليين. يعود تاريخه إلى سنة 1315 وفقًا لما ذكره المؤرخ العلامة البطريرك الدويهي في «تاريخ الأزمنة» =

ولما أخذ عدد أبناء هذه الرهبانية يزداد، تسلّم المؤسسون في سنة 1695 من أهالي مدينة إهدن بواسطة السيد البطريرك الدويهي، دير «مرت مورا»[1] الذي كان خرابًا، فرمّموه وجدّدوا بناءه وأنفقوا عليه مالاً كثيرًا، كما يقول المؤسس عبد الله قراعلي:

«إنهم (الرهبان) لما تسلّموه كان مهدّمًا كله إلا الجزء القليل منه، وكان فيه راهب واحد غير كاهن، كبير السن اسمه أنطونيوس دخل فيما بعد في شركتنا (أي رهبانيتنا) وأخذنا في البناء وترميم الدير مدة شهرين، وأحاطوه بسور، وكانت النفقة من مال القس جبريل (الحوّا)، والشمّاس يوسف البتن، وأنا لم أكن أملك شيئًا من المال البتّة. وكان المصروف على الدير وعمار كنيسة وقلاية[2] وغير ذلك مبلغ 6832 غرشًا»[3].

في هذه الأثناء، كان يرابط «الأب التقي أغناطيوس سلهب الحاقلاني في دير صغير أنشأه على صدر زوق مصبح كسروان، المشرف

= الذي نشره الشرتوني، (ص127). والكرمليون رهبانية تأسست على جبل الكرمل (فلسطين)، حيث يقع دير مشهور يعود إلى القرن الثالث، سنة 1185 ثم انتقلت إلى روما بعد 1238 حيث تأسس فرع النساء سنة 1452. اشتهر بين أبنائها: يوحنا الصليبي (Jean de la Croix) (1542 ـ 1591) وهو قديس إسباني ومصلح رهبانية الكرمل ويعد من علماء التصوف المسيحي. له «أنشودة الروح»، و«الليلة الظلماء»، القديسة تيريزا الأبلية (Thèrese d'Avila) (1515 ـ 1582) ولدت في آبلا (إسبانيا) وأصلحت رهبانية الكرمل وأسست أدياراً كثيرة. لها مؤلفات في التصوف المسيحي، القديسة تيرزيا الطفل يسوع (1873. 1893): قبرها مزار شهير في ليذيو (فرنسا). لها كتاب «حياة نفس». هذا، وللرهبان الكرمليين أديار في الشرق منذ القرن السابع عشر: حلب 1627، بغداد 1722، ماردين 1747، حيفا، بشري، طرابلس، عكار.

(1) يقع دير مرت مورا في أسفل إهدن.

(2) القلاية: مسكن الأسقف أو رئيس الدير: وهي يونانية الأصل.

(3) كتاب «اللآلئ» (ص28)، أخرجه الأبّاتي فهد. المصدر السابق، ص: 14.

على بحر الروم». «وكان هذا الكاهن الورع راهبًا عابدًا تقيًا فطنًا يرغب في التعبّد لله وفي عمل الخير لمواطنيه، وكان عنده أربعة رهبان من الاسكيميين وغيرهم من المبتدئين».

على أن هذا الدير «كان مؤلفاً من قبو مستطيل لكنه قليل الارتفاع والاتساع أي غرفة واحدة مستطيلة ملاصقة للكنيسة».

ولما تناهى إلى الأب الحاقلاني خبر تأسيس الرهبانية الحلبية اللبنانية، انضم إليها سنة 1707 و«أبرَّ نذوره ووقف عليها ديره هذا جميع أملاكه» و«كان للدير عقار وافر لكنه فقير بالبناء والأمتعة اللازمة» كما أنه مثقل «بجملة ديون». وقد صدق «في كلامه جدًا...» إذ حقق وعده دون تردد.

بعد ذلك، أحدثت الرهبانية على هذا الدير «الأرزاق والأثاث» و«عيَّنت عليه أول رئيس الأب أروتين الحلبي» الذي عرفوه «عابدًا عاملاً متضلعًا من اللغة السريانية وحاذقًا بصناعة الخط العربي والسرياني»، فأخذ يعمل على توسيع الدير وتسديد الديون الكثيرة.

غير أن الرهبان الحلبيين عادوا ليشهدوا ضغوطات واضطهادات من قبل بعض الشماليين (...) مما حتّم «نقل مركز الرئاسة العامة للرهبانية» من هناك «إلى دير سيدة اللويزة» و«قد تم ذلك عام 1732»[1].

الامتداد والانقسام

انطلقت هذه الرهبانية وتوسعت نحو دير القمر ومصر وروما وأفريقيا والبرازيل وكندا، فتملكت الأراضي وبَنَت الأديار والكنائس، فدخلها شبان لبنانيون امتازوا بالحيوية والنشاط، فكثر عدد الرهبان إذ كثرت الأديار والأرزاق، إلا أن «عَدو الخير (...) لم ترقْه هذه الأعمال الزاهرة، فزرع الحسد في بضع العقول لاختلاف في العقلية والعلم

(1) المصدر نفسه.

وحب الرئاسات، فذرَّ خلاف شديد بين أفراد العائلة الرهبانية الواحدة، واستمر حتى انقسموا فريقين غير متساويين في العدد والحقوق: الرهبانية الحلبية المارونية والرهبانية اللبنانية المارونية».

ولما لم يعد من مجال للعودة إلى ما كانوا عليه «أصبح لكل فئة رئيس عام خاص ومدبّرون عامون ورهبان خاضعون» فعلم الكرسي الرسولي بالأمر، فأصدر «الأمر السامي المبرم سنة 1770 بالقسمة نهائيًا»[1]، إذ كان الرهبانيون البلديون[2] يصرّون على القسمة طوال سنين على الرغم من المداخلات الكثيرة المتنوعة»[3].

لكن القسمة التي شطرت هذه الرهبانية العريقة لم تقعد الحلبيين عن تحقيق الرسالة، بل جدّدوا كل أديارهم ومراكزهم ورسالاتهم وزادوا عليها، حتى أصبح لديهم في لبنان وسواه «عشرون ديرًا ومركزًا»، وعدة مدارس ابتدائية مجانية، وأربع مدارس ثانوية: واحدة في دير سيدة اللويزة بمصبح كسروان، وثانية في دير القمر[4]، وثالثة في بلاد الاغتراب

(1) المصدر نفسه.

(2) يكفي الرهبان البلديين فخرًا أنهم أنشأوا جامعة الروح القدس - الكسليك.

(3) المصدر نفسه.

(4) زرت هذه المدرسة في شهر أيلول في شهر أيلول 1982، وكان رئيسها آنذاك الصديق الأب بولس الراعي. وفيها التقيت بعض العائلات المسيحية والدرزية، إذ إن هذه المدرسة شأنها شأن جميع المدارس المسيحية في الجبل وغيره، هي للدروز كما للمسيحيين كما للمسلمين. وكثيرًا ما سمعتُ من رهبان وراهبات، من هنا وهناك وهنالك، أطيب الكلام وأعذبه عن طلاب وطالبات من الطائفتين الإسلامية والدرزية ممن تعلموا في مدارسهم وكلياتهم، وكثيرًا أيضًا ما سمعت هؤلاء المرسلين يتحسرون على لبنان الموحد، لبنان المدرسة والجامعة والقرية، لبنان المدينة، لبنان الإنسان، لبنان الأخوّة والوفاق، لبنان المسيحي - الإسلامي. ولطالما قالوا بضرورة التفاهم والتعايش، إلا أن السياسة الضعيفة من جهة، والمصالح الأجنبية =

الأوروغواي، حيث تدرس اللغة العربية أيضًا ليظل اللبنانيون مرتبطين بلغة الوطن الأول، وجملة مدارس تكميلية في الوطن والمهجر»[1].

وأنشأت الرهبانية اللبنانية المريمية (اتخذت لها أخيرًا هذا الاسم) «في القطر المصري رسالة مؤلفة من ثمانية مراكز كبيرة عامرة، ورسالة ثانية في الأرجنتين، وثالثة في أكرا ـ غانا الأفريقية، ورابعة في كندا». ولها في روما دير «معروف مشهور ترسل إليه طلابها ليتلقوا العلوم الجامعية في مدرسة لاتران (Latran) البابوية وتخرج فيها أجيالاً يحملون الشهادات العليا ويتقنون إلى ذلك اللغة الإيطالية ويطلعون على المخطوطات النادرة في مكتبة الفاتيكان الشهيرة، ويكتشفون كنوز الفكر ويزيحون الأستار عن الحقائق[2]»[3].

= من جهةٍ أخرى، أبت إلا أن يتمزّق لبنان.. هذا الوجه الإنساني الحلو، فكان الذي كان. حل مكان الأب الراعي الأب جورج موراني، أما المدرسة هناك فشاغرة بسبب حرب الجبل.

(1) المصدر نفسه.

(2) يُمثّل الرهبانية المريمية في مصر: الأبّاتي الياس أبي خير (مركز شبرا)، والأب جوزف نمر (مركز مصر الجديدة)، والأبّاتي لويس الخازن (مركز المنصورة)، والأب انطوان زغيب (رعية الاسكندرية)، والأب يوسف نعمة (مركز الخرطوم ـ السودان). ويمثّلها في الأرجنتين الأب لويس قبيطر. وفي الأورغواي، الأب الياس سلامة. وفي غانا ـ أفريقيا، الأب عبد الله مارون. وفي البرازيل، الأب انطوان صدقة. فيما عيّن الأب بطرس طربيه رئيسًا على دير القديسة تريزيا ـ سهيلة، والأب سعد نمر رئيسًا على انطوش الصعود ـ ضبية، والأب جورج خليل رئيسًا على دير سيدة النجاة (الوطى) ـ زوق مكايل، والأب منصور أبي خليل رئيسًا على دير مار انطونيوس ـ دلبتا، والأب جرمانوس الخويري رئيسًا على دير مار شليطا ـ كفرذبيان، والأب نقولا سيف رئيسًا على دير مار بطرس وبولس كريم التين ـ بيت شباب، والأب إيلي صفير رئيسًا على دير مار الياس شويا، والأب الياس زخيا رئيسًا على دير مار اليشاع بشري.

(3) المصدر نفسه.

قلنا إن القسمة التي شطرت الرهبانية المارونية لم تقعد الحلبيين، وهي أيضًا لم «تتخم» الرهبانية البلدية، والأخيرة اتخذت من هذا الحدث ـ الانفصال منعطفًا جديدًا، فراحت تكد وتتعب لا من أجل الحفاظ على «حصتها» فحسب، بل من أجل الاستمرار في الخلق والإبداع، وما لبثت أن صارت أكبر الرهبانيات اللبنانية. وها هي اليوم، بفضل تماسك أبنائها، تتصدر الميادين الرهبانية والثقافية والاجتماعية، ولها دور مؤثر وفعّال في حقل السياسة الوطنية، وعندها أربعة وستون ديرًا ومدرسة وأنطوشًا وجامعة وإرسالية[1].

---

(1) ظهر يوم الثلاثاء 26 آذار 1985 جئت دير مار شربل ـ حريصا، حيث الرئاسة العامة حاليًّا، أسأل قائمة بأديار الرهبانية اللبنانية المارونية ومراكزها في لبنان والخارج، فالتقيت الرئيس العام الأبّاتي بولس نعمان وبعض الآباء لا سيما الأب الدكتور توما مهنا. وفي يوم الخميس 28 آذار 1985، تسلمت من الأب مهنا هذه اللائحة وفيها: (1) دير ما انطونيوس ـ بيروت، رئيسه الأب يوحنا الحاج(2) دير الروح القدس ـ الكسليك، رئيسه الأب باسيل باسيل(3) جامعة الروح القدس ـ الكسليك، رئيسها الأب يوحنا تابت(4) دير مار انطونيوس ـ قزحيا، رئيسه الأب شربل شينا (5) دير مار انطونيوس ـ شكا، رئيسه الأب دانيال ديب (6) دير سيدة النجاة بصرما، رئيسه الأب مخايل الخوري (7) دير مار انطونيوس ـ الجديدة، رئيسه الأب مبارك سكر (8) دير مار جرجس ـ عشاش، رئيسه الأب انطونيوس الشالوحي (9) دير مار يوسف ـ بان، رئيسه الأب شربل سويد(10) دير مار جرجس ـ ديرجنين، رئيسه الأب الياس كوسا (11) دير سيدة المعونات ـ جبيل رئيسه الأب الياس العنداري(12) انطوش مار يوحنا مرقس ـ جبيل، رئيسه الأب مارون غاريوس (13) دير مار مارون ـ عنايا، رئيسه الأب لويس خليفة(14) دير مار سركيس وباخوس ـ قرطبا، رئيسه الأب ليوس زيادة (15) دير القديسة ترازيا ـ طورزيا، رئيسه الأب بولس ضاهر(16) دير مار شليطا ـ القطارة، رئيسه الأب نبيه خوري(17) دير مار انطونيوس ـ حوب، رئيسه الأب جورج طربيه (18) دير سيدة ميفوق، رئيسه الأب نعمة الله يونس (19) دير مار عبدا ـ معاد، رئيسه الأب حارس مطر (20) دير مار قبريانوس ـ كفيفان، رئيسه =

....

= الأب انطوان حيدر(21) دير مار يعقوب الحصن - دوما، رئيسه الأب طوبيا خليل (22) دير سيدة النجاة - بصا (تنورين)، رئيسه الأب جورج كيروز(23) دير سيدة طاميش، رئيسه الأب يعقوب السقيم (24) دير مار يوسف - البرج، رئيسه الأب ميخائيل ناكوزي (25) دير قلب يسوع - جونيه، رئيسه الأب جوزف قمر(26) دير سيدة النصر - غوسطا، رئيسه الأب جورج كميد(27) دير مار روكز - مراح المير، رئيسه الأب مرتينوس سابا (28) دير مار بطرس وبولس - العذرا، رئيسه الأب بطرس فرح (29) مدرسة مار شليطا - عجلتون، رئيسها المحترم بولس مسعد(30) دير مار شربل - حريصا، رئيسه الأب اغوسطين عازار(31) دير مار انطونيوس، حمانا، رئيسه الأب جورج توما (32) مدرسة مار يوسف المتين، رئيسها الأب يوسف الحاج(33) دير مار مخايل بنابيل، رئيسه الأب الياس اندري (34) دير مار موسى - الدوار، رئيسه الأب مبارك فرحات (35) دير مار مخايل - بحرصاف، رئيسه الأب الياس الحسيني (36) دير مار انطونيوس - بيت شباب، رئيسه الأب جورج كرباج (37) دير مار جرجس - الناعمة، رئيسه الأب عزيز قزي (مهجَّر بسبب حرب الجبل)(38) دير مار انطونيوس - النبطية، رئيسه الأب جرجس نصر(39) دير المخلص - البرامية، رئيسه المحترم نعمة الله الحلو(40) دير سيدة مشموشة، رئيسه الأب باسيل ناصيف (41) دير مار شربل - الجية، رئيسه الأب بولس مرهج (42) دير مار مارون بير سنين - مجدل المعوش (رهبانه مهجَّرون بسبب حرب الجبل)(43) دير مار يوحنا - رشميا (رهبانه مهجَّرون بسبب حرب الجبل) (44) دير مار انطونيوس سير (رهبانه مهجَّرون بسبب حرب الجبل) (45) دير مار الياس - الكحلونية (رهبانه مهجَّرون بسبب حرب الجبل) (46) دير مار يوحنا - قبيع (رهبانه مهجَّرون بسبب حرب الجبل) (47) مدرسة وادي شحرور، رئيسها الأب نعمة الله عون (48) انطوش مار انطونيوس - زحلة، رئيسه المحترم انطونيوس حويس (49) مدرسة مار انطونيوس - عين زبدة، رئيسها الأب يوسف زلزل(50) انطوش مار جرجس - المعلقة، رئيسه الأب كميل شمعون (51) انطوش سيدة المعونات - بعلبك، رئيسه الأب شربل خوري (52) انطوش مار جرجس - أبلح، رئيسه الأب ميخائيل الحاج. أما الإرساليات الموجودة خارج لبنان فهي: (1) البرازيل - سان باولو، رئيسها الأب فرنسيس نصر (2) الأرجنتين - =

تضم الرهبانية المريمية مئة وخمسين راهبًا، منهم سبعون كاهنًا وعشرون دارسًا إكليريكيًّا، والباقون مبتدئون وطلاب.

ومن الكهنة «خمسة وعشرون راهبًا يؤمّنون الرسالات والرياضات الروحية والتعليم المسيحي والإرشاد في حركات الشبيبة وما إليها من الأندية والسهرات الإنجيلية»، بينما يعمل الباقون «في الأديار ويقومون بالصلاة الخورسية»[1].

وكما سائر الرهبانيات اللبنانية فتحت الرهبانية المريمية مركزها وأديارها للمهجّرين ممن أكلت الحرب منازلهم وقراهم ومؤسساتهم، فكانت لهم عونًا كبيرًا مما جعلهم يستعيدون الأمل وحب الحياة.

... وبعد

كلما وقفتُ في ساحة «دير سيدة اللويزة» حملتني الذاكرة من على قمة «سيدة الوطى»[2] حيث الأب الأديب الياس نجار، لأدخل على «سيدة التلة» في دير القمر، رئيسها الأب بولس الراعي، ومن هناك تلفّ بي على مصر وروما وأكرا والأرغواي، ثم تعيدني إلى حلب، بلد المؤسسين وسيف الدولة الحمداني، والشاعر أبي فراس، بل إلى حيث

= مندوسة، رئيسها الأب بطرس سعادة (3) الأرجنتين - التوكومان، رئيسها الأب مبارك سلامة (4) المكسيك - فلوريدا، رئيسها الأب يعقوب نجم (5) السنغال - دكار، رئيسها الأب بولس سلامة (6) مالي - باماكو، رئيسها الأب ادوار ناكوزي (7) شاطئ العاج أبيدجان، رئيسها الأب بولس خوند(8) أوستراليا - سيدنه، رئيسها الأب انطوان حرفوش(9) إسرائيل - يافا، رئيسها الأب اغوسطين حرفوش (10) ايطاليا - روما، رئيسها الأب باسيل هاشم (11) قبرص - نيقوسيا، رئيسها الأب اندره فرنكو(12) كندا - مونتريال، رئيسها الأب انطوان سليمان.

(1) المصدر نفسه.

(2) رئيس هذا الدير، اليوم، الأب جورج خليل كما ذكرنا.

للمتنبي ذكريات ومواقف لا تُنسى. وفي قلعتها أقرأ، عن تلك المدينة العظيمة، في الكتابات الحثيّة ـ من الألف الثاني ق.م، أيام كانت عاصمةً لمملكة «مجهاد» ـ والكتابات الآشورية، حينما استولى عليها تغلات فلاسرّ الثالث (738ق.م.)، وفي تاريخ الإسكندر المقدوني الذي فتحها سنة 333ق.م، وتاريخ السلوقيين الذين دعوها «بيرويا» بعد أن احتلوها. لأقرأ أيضًا كيف انتقلت إلى أيدي الرومان، ثم كيف خربها الفرس سنة 540م. وأقرأ أيضًا وأيضًا تاريخ العرب، وقد جعلوها سنة 637م عاصمة جند قنّسرين، وتاريخ الحمدانيين وهؤلاء قد ازدهرت على أيديهم، ثم قصتها مع البيزنطيين في النصف الثاني من القرن العاشر، ومع الفاطميين، ومع السلاجقة، ثم مع صلاح الدين الأيوبي، الذي جاء بعده المغول وقد اجتاحوها سنة 1260 فأحرقوها أو دمّروها، وهكذا حتى أصبحت ولاية عثمانية... وإلى يومنا هذا. وكل القراءات تثبت أن حق حلب في الحياة والحرية هو أقوى من أولئك المحتلين المغتصبين.

وإذ تنتهي هذه الجولة ـ الرؤيا، لأعود ثانية إلى الدير الأم، في زوق مصبح، فينتفض ذلك «المجمع اللبناني» الشهير الذي عُقد هنا «في كنيسة القديسة مريم، الثلاثين من أيلول والأول والثاني من تشرين سنة 1736»[1]، مذكّرًا بأيام الرهبانية اللبنانية الحلبية المارونية الموحّدة،

(1) المجمع اللبناني الذي عقده في جبل لبنان السيد السامي الاحترام بطريرك طائفة السريان الموارنة الأنطاكية يوسف بطرس ضرغام الخازن، بمؤازرة السيد الفائق الاحترام يوسف سمعان السمعاني، قاصد الكرسي الرسولي، ترجمه عن النسخة اللاتينية المطبوعة في رومية بمطبعة انتشار الإيمان المقدس 1820 المطران يوسف نجم مطران عكا، النائب البطريركي. طبع في مطبعة الأرز جونيه سنة 1900 (ص1). وإذ نذكر البطريرك يوسف ضرغام =

وكيف كان أولئك المؤسسون، الأساقفة والرهبان والبحاثون والعلماء يلفّون الدير من كل جانب، وكأني بهم يقولون بصوت واحد: ليس للرهبان المشرقيين إلا أن يكونوا متّحدين، ومَن انقسم على نفسه ضاع أو اندثر!!

= الخازن، إنما نذكر ما لأسرة الخازن اللبنانية العريقة من فضل وإحسان، باعتراف الكثيرين من أساقفة ورهبان اللبنانيين وغير اللبنانيين. فهذه الأسرة أنجبت رجال السياسة والحكم والاقتصاد والقانون والمطارنة والبطاركة. اشتهر من سلالة سركيس الخازن المعروف بالشدياق سركيس الذي توفي سنة 1570: ابنه الشيخ أبو صقر إبراهيم 1600 مربي الأمير فخر الدين المعني وأخيه الأمير يونس ثم مدبر فخر الدين، والشيخ أبو نادر، ابن الشيخ أبي صقرت 1647، من مدبري الأمير فخر الدين تولى في أيامه بلاد كسروان وجبيل والبترون وجبة بشري والمرقب. وقد قبض عليه مع سيده في مغارة جزين 1633، واتّصف الشيخ أبو نادر بفطنته وشجاعته الشيخ أبو نوفل نادر (ت1697). وهو ابن الشيخ أبي نادر من ثقاة الأمراء المعنيين. ولاه المديرية الأمير حسن بن فخر الدين ثم ولداه الأميران أحمد وقرقماز. وعين قنصلا لفرنسا في بيروت سنة 1659، ووكيل قنصلية البندقية، يوسف ضرغام (المذكور أعلاه) طوبيا بطريرك الموارنة (1756 ـ 1766)، يوسف بطريرك الموارنة (1845 ـ 1854)، الشيخ فيليب (1865 ـ 1916). أنشأ جريدة «الأرز» مع أخيه الشيخ فريد (1869 ـ 1916). ولدا في عرمون ـ كسروان وجاهدا معًا في سبيل استقلال لبنان حتى استشهادهما إذ أعدمهما جمال باشا. لهما كتاب «لمحة تاريخية في استقلال لبنان» وترجمة «المحررات السياسية». يوسف (ت1944). صحافي عاش زمنًا في مصر وساهم في تحرير صحف عديدة أنشأ جريدة «الأخبار» 1896 ثم مجلة «الخزانة» 1900 ثم جريدة «بريد الأحد» 1902، وعاد إلى لبنان فأصدر جريدة «الأرز» 1922 ثم «البلاد» 1933. ومن الخازنيين أيضًا: النائب الشيخ الياس الخازن والاقتصاديان رجلا الأعمال: الشيخ رُشيد صالح الخازن وشقيقه الشيخ هيكل، المحامي الشيخ وليد الخازن، والشيخ نمر الخازن، صاحب «عرق الخازن».

الفصل الرابع

نساء الإحسان
الأم مريم جَهشان
السيّدة اميلي سُرسق

«أحْببْتَ البرَّ وأبْغَضْتَ الإثمَ فلذلك مَسَحكَ إلَهُكَ يا اللَّهُ بُدهنِ البَهجةِ أفْضَلَ مِنْ شُركَائِك».

من رسَالة القديس بُولس إلى العبرانيّين 1 ـ 9

عجَلة الزمَان

عجَلةُ الزمانُ تُسرع الخطى، تمر من أمامنا كلمْح البصَر، ترفض رجاءنا، تتجاهل استغاثتنا. وإذا ما التفتتْ نحونا، فبسخرية أو شفقة. تقذِفُ على الأرصفة آخر ملابسها القديمة. دخانُها يُكثِّفَ الأرجاء ويحتل وجهَ الشمس. صوتُها قريبٌ بعيد لا يحاكي العواطف ولا يُهَيّج الأشجان.

على متن هذه العجلةِ التقى «العَبثيّون» ذوو اللحى الطويلة الفوضوية وقد علّقوا في رقابهم «أحذية» و«قباقيب» من الذهب أو الفضة أو الخشب أو التنك نَسَبُوها إلى ملوك الحداثة والإبداع. يحمل هؤلاء أدوات الرسم والنحت والموسيقى والشعر. وفي جوّ صاخِبٍ مضطرب، يضَعُ كلٌّ فنّه على هواه، ويلقي به منْ على سطْح العجلة مُلَطّخًا وعاريًا حتى من اسمه، والويل لمن يسأل عن هذا «الفنّ» أو عن هويته.

زبانية هذا الزمان يمنعون التفسير والتأويل ويستنكرون البحث والتدقيق. يتسلّلون إلى خزائن تراثنا عبثًا واستهتارًا، كأن لهم مَعاثًا[1] أو مُنْتَدَحًا. ومثلُ هؤلاء لا أعرف إلى أين تشحَنُهم عجلة الزمان، فلربما

(1) المعَاث: المذهب والمسلك. والمنتدَح: مذهب. ويقال: «إن لي عن هذا الأمر لَمَعاثًا» أي مندوحة فيمكنني تركه. ويقال: «لك منتدح في البلاد» أي مذهب واسع عريض. والمثل يقول: «إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب». المعاريض جمع مِعراض وهو التورية بالشيء عن شيء آخر. والمندوحة: السعة. يضرب لمن يحسب أنه مضطر إلى الكذب (قاموس).

خدَعتْهم لكي تصرفَهم عن صناعة تاريخهم. فهل تنبَّه المعْنيّون للأمر قبل فوات الأوان؟

إن هذا ليس نقدًا لأحد من الناس بالاسم، وإنما هي خواطر تزاحمت على لساني عندما كنت أجولُ مع الأم تيودورا جبيلي رئيسة «راهبات زهرة الإحسان الأرثوذكسية»[1]، والحاجة الأخت بربارة أبو إبراهيم[2]، والأرشمندريت نقولا بدوي[3] ـ ذات مساء ـ في مدرسة «زهرة الإحسان» وكنيستها بالأشرفية ـ بيروت.

---

(1) تيودورا هو اسم امبراطورة بيزنطية (527 ـ 548م). زوجة يوستينيانوس ـ امبراطور بيزنطي (547 ـ 565م) الذي حاول توطيد الامبراطورية البيزنطية في السياسة والدين والقانون، وأمر بتدوين القوانين الرومانية، وكمل، في القسطنطينية، بناء كنيسة أجا صوفيا. حارب الفاندال والفرس، واستعاد إيطاليا والأقاليم الأفريقية. ساعدت تيودورا زوجها، وكان من مشجعي المونوفيزية. طلب منها النجدة مار يعقوب البرادعي، إذ إنها ابنة كاهن سرياني من منبج، فاستجابت لطلبه (كما جاء في كتاب «كنز قمران مدارج البحر الميت» للمطران اثاسيوس يشوع صموئيل ـ الترجمة العربية، قدّم لها ونشرها المطران ثاوفيلوس جورج صليبا طبعة 1985، (ص72). إلا أن يوستنيانوس عاد إلى اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية إثر وفاة زوجته (كنز قمران، المصدر نفسه).

(2) القديسة بربارة: عذراء شهيدة كرَّمها المسيحيون منذ القرن السابع. يحتفل بعيدها في 4 كانون الأول بأفراح شعبية يشترك فيها الأولاد.

(3) يحمل اسم نيقولا خمسة باباوات منهم نيقولا الأول الكبير (858 ـ 867) والثاني (1058 ـ 1061) وقيصران روسيان وهما نيقولا الأول (1796 ـ 1855) ونيقولا الثاني (1868 ـ 1918)، وراهب بيزنطي يدعى نيقولا الراهب الذي نقل إلى العربية مع الطبيب الإسرائيلي مسداي بن شبروط مخطوطة ديسقوريدس في المواد والعقاقير الطبية أهداها قسطنطين السابع (905 ـ 959) إلى عبد الرحمن الثالث أول خليفة أموي في الأندلس (929 ـ 961) وأسقف ميرا القديس نيقولاوس الذي حضر المجمع النيقاوي (325م)، وتكرم ذخائره في مدينة باري في إيطاليا، ويدعى أيضًا زخيا أو الظاهر. ونيقولاوس الشامي: مؤرخ وفيلسوف ولد في دمشق نحو =

كنيسة وميتم ومختبر

كثيرة هي العناوين والأشياء التي وقفنا عندها نقرأ ونتأمل، لا سيما أربع أيقونات هدية من البطريرك جراسيموس الأورشليمي إلى مدرسة باكورة الإحسان للبنات في بيروت، وهي تصوّر لنا، بمنتهى الدقة والإتقان، مراحل حياة المسيح العجائبية: الميلاد، العماد، الصلْب، والقيامة.

في الكنيسة ـ على تواضعها ـ أيقونات روسية وغير روسية دبّت فيها الرطوبة، وصُوَر معظمها بريشة الحاجة بلاجيا تبشراني قدّمها للكنيسة محسنون (...) اشتروا بمالهم ذكْرًا عَطِرًا ورحمة وصلاة.

وفيما أنا أنظر إلى هذه الأعمال الفنية القيّمة الخالدة بإعجاب، تخيّلتُ أو قل رحل بي الخيال إلى ما يُسمّى بالفن الحديث، وحاولت أن أقارن بين هذا العطاء الإنساني العظيم وبين تلك الهلوسات الغثيانية، ثم عدت عن هذا لما رأيت أن لا مجال أبدًا إلى المقارنة بين ما تخلده الأيام والسنون وبين ما هو مائت قبل أن يُولد.

ونخرج من الكنيسة باتجاه «الميتم» الذي يضم أكثر من ستين يتيمة من مختلف الطوائف تتراوح أعمارهن بين خمس سنوات وعشرين سنة، كنّ يتهيأن إلى الصلاة صفوفًا منسَّقة على رأسهن الراهبة الأخت صوفيا نعمة التي بدت كأنها واحدة منهن، براءة وتواضعًا.

فوق أبواب بعض غرف هذا الميتم أسماء وتواريخ:

* وقف إبراهيم يوسف سعد وعائلته لمدرسة زهرة الإحسان (1913).

= 64ق.م. علّم أبناء انطونيوس كتاب «التواريخ». وفي «اللؤلؤ المنثور» ورد نيقولاوس الخطيب (...) (ص365 ـ 389).

* تقدمة جمعية «البنفسجة» المؤلّفة من تلميذات مدرسة زهرة الإحسان (1934).
* تقدمة من أدما أمين شكور طراد أرملة جرجي مخايل فراية (؟).
* رَقْفِيّة السيدة إميلي عن نفس المرحوم تيودور برهر المسكوني - عائلة روسية (1934).
* وقفيّة السيدة حنّة والدة نجيب خليل فرنيني عن نفس ابنتها المرحومة ماري (1910).

وينتهي الممَرّ إلى المختبر الذي «هو تقدمة البطريرك ألكسي - بطريرك كنيسة موسكو وكل روسية» لا يعرف القيّمون على المدرسة تاريخ وصوله إلى هنا.

ذكّرني اسم هذا البطريرك بالقديس ريشا (يسمّى هو أيضًا ألكسي) الذي قيل إنه هجر بيت أبيه في روما ليلة عرسه وساح في بلاد الشام وعاد بعد 17 سنة مَنكَرًا ولم تُعرف هويته إلا بعد موته في القرن الخامس. وذكّرني أيضًا بأولئك الأباطرة البيزنطيين ممن حملوا اسم ألكسي أو ألكسيس[1]. كم تحمل الأسماء دلائل وإرشادات وبراهين!

---

(1) نذكر هنا أشهرهم: (1) ألكسيس الأول/ كوفينوس (1048 - 1118) ارتقى العرش سنة 1081 تصدى لهجمات الأتراك السجلوقيين في الأناضول والنورمان في الابيروس. يُعتبر أول من أعطى البندقية مركزًا اقتصاديًّا في الشرق. استفاد من الحملة الصليبية الأولى لاستعادة قسم من آسيا (2) ألكسيس الخامس/ دوكاس، تولّى السلطة سنة 1204 في عهده احتل الصليبيون بيزنطية وأسسوا فيها امبراطورية لاتينية (3) ومن أباطرة طرابزون (Trabzon) في أرمينيا التركية على البحر الأسود (4) ألكسيس الأول/ الملقب بالكبير وهو امبراطور من 1204 إلى 1222. احتل طرابزون بعد استيلاء الصليبيين على بيزنطية وأسس فيها امبراطورية بيزنطية واحتل شبه جزيرة القرم (5) ألكسيس الثالث (1338 - 1390) تقرّب من بيزنطية ومن الأتراك فزوج بناته لأمراء منهم.

الذين يوالون الكنيسة الغربية يستوردون أسماء من الغرب، والذين يوالون الكنيسة الشرقية يستوردون الأسماء من الشرق. أما المسلمون، أينما كانوا، فأسماؤهم يأخذونها من العرب! وبهذا يصبح الذبح على الهوية، أو الخطف، أمرًا بسيطًا، لا لبس فيه ولا تعقيد ولا إشكال. وغالبتني الأسئلة: لماذا لا نتحرر من أسمائنا؟ لماذا لا ننقذ أبناءنا من خطر الهوية؟ لماذا لا نشطب الدين عن تذكرة النفوس؟ من أين جاءتنا الحرب على الأسماء؟

لتسقط الأسماء التي تجرنا إلى المهلكة!

بل لتسقط الأسماء التي تفرّق بين الإنسان وأخيه الإنسان!

في الصالون

عدنا إلى «الصالون» لنستذكر الأم الرئيسة تيودورا جبيلي، التي صار لها نصف قرن أو أكثر في المدرسة، وقد كرّسها المتروبوليت غفرائيل الصليبي رئيسة في 5/ 4/ 1979، فراحت تلملم لنا أشتاتًا كان يجب أن تجمع في حينها.

في «الصالون» صُوَر لراهبات وسيدات مجتمع أين منهن نساء اليوم؟ وُزّعت على الجدران لتحكي لنا قصة مؤسسة خيرية ومدرسةٍ وجمعيةٍ رهبانية. نتقدم إلى هذه الصور. إنها أكبر من الكلمات وأكبر من أن نفكر في قراءتها. وجوه مشرقة وخالدة: الأم مريم جهشان، الأم كاترين خير، الأم حنّة الخوري المعلوف، الأم ماري عازار، الأم ناتالي شويري، السيدة إميلي سرسق، السيدة فريدة طراد، والسيدة ليندا سرسق. نساء تجاوز صيتُهن الحدود، فإذا صداه في كل مكان الأريجُ وريحُ المسك.

تقف في «الصالون» خزانة للكتب من خشب الجوز، عمرها زاد على الثمانين عامًا مكتوبٌ عليها: «تقدمة المحسن المرحوم الياس

جرجي سيوفي - عام1902». عن هذا المُحسن قالت الحاجة بربارة أبو إبراهيم: «إنه يستحقّ أن يُذكَر دائمًا بالخير. لقد وهب المدرسة المفروشات والخزائن الثمينة».

فلنتذكّر إذًا أي فرق بين أثر وآخر، بين عطاء وعطاء. القضية، على كل حال، هي جمالية إنسانية. المهم أن نُحسن الاختيار ونعرفَ الغث من الثّمين. هنا كنوزٌ تاريخيةٌ حملَتْنا إليها عجَلة الزمان وأنزلتها كواكب مضيئة، فبرز الفرق عظيمًا وشاسعًا بين محْمُول ومحْمُول. على أن العجلة الدهرية العجيبة تحتمل الكثير الكثير وتشحن الكثير الكثير. ودائمًا نحتاج إلى الذوق والمقدرة على التمييز، فمتى خسِرنا هذه الطاقة خسِرنا كل شيء جميل ومفيد.

في باحة «الزهرة»

يحتلُّ باحة مدرسة زهرة الإحسان، البناء القديم، تمثالان رخاميان. الأول للسيدة إميلي خليل سرسق يتصدر منذ عام 1914 المدخل الرئيسي، مكتوب عليه: «تذكار شكر وامتنان من الأخت مريم جشهان رئيسة رهبنة مدرسة زهرة الإحسان ومن أعضاء الجمعية ومتخرجات المدرسة».

فالحياة إذًا دَيْن ووفاء على ما يقولون.

كيف لا تكون السيدة إميلي سرسق هنا في هذه الباحة، وهي التي أعطت «زهرة الإحسان» الوقت والصبا والمال؟

زهْرةٌ في حديقة. وكما الجَمال له مكانه ومناخه، كذلك الإحسان له أهله وذووه. إميلي منحَت المدرسة جمالها والمدرسة حافظت عليه وفاءً بالوعد والعهد.

يرابط التمثال الثاني تحت شجرة في الزاوية الشمالية - الشرقية من

الباحة. هو للمؤسّسة الأم مريم جهشان صار له هناك منذ سنة 1925. الأيام تأتي وتذهب، والحديقة هي الحديقة. زهرتان لن تؤثر فيهما العواصف ولا الأزمنة ولا الأحداث.

إميلي ومريم وجهان لحديقة واحدة اسمها «زهرة الإحسان».

ما أعظم عطاء مريم وإميلي!

مَجْدُ إميلي...

لقد تراءى لي وأنا أتنقّلُ بين هذين التمثالين كيف كانت تقام الحفلات والمهرجانات هنا، في هذه الباحة الوسيعة ذات الحكايات الرائعة. وقد بدأتْها سنة 1890 مع مشاهير الرجال من الحكّام والأحبار والمحْسنين والأدباء والشعراء ممن وردوها مهنئين أو خطباء أو مُعظّمين.

هنا قُلّدت المحسنة الكبيرة إميلي سرسق «البراءات» ومُنِحَت الأوسمة. فهي تحمل:

1 - براءة الجمعية الأمبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية موقّعة في 19/ 12/ 1893.

2 - براءة سلطانية بنيشان الشفقة من الرتبة الأولى من الغازي السلطان العثماني عبد الحميد بن عبد المجيد خان[1]، 1318هـ - 1900م.

---

(1) عبد الحميد الثاني (1842 - 1918): جلس على العرش السلطاني سنة 1876. قاوم الدستور بشراسة لقب بـ «السلطان الأحمر» لكثرة ما سفكه من الدماء خلع سنة 1909. «كان حزب تركيا الفتاة قد خلع عبد العزيز وأجلس مكانه مراد، أخا عبد الحميد. ولكنه أنزل قبل دستور مدحت باشا. ولكنه ما لبث أن ألغاه حكم البلاد حكمًا قاسيًا، كثرت فيه العيوب، واختلّت موازين الأمور، وأقصى مدحت باشا، ثم سعى إلى قتله. كان عهده طافحًا =

= بالحروب فحارب صربيا 1876 وروسيا (1877 ـ 78)، وانتهى القتال بعقد معاهدة (سان ستيفانو) التي عدلها مؤتمر برلين 1878. حارب اليونان 1897، وحدثت مذابح الأرمن (1894 ـ 1896) التي قتل فيها عدد كبير من رعاياه الأرمن تقرّب إلى ألمانيا، وعيَّن كثيرين من الضباط الألمان لتدريب الجيش العثماني وإعادة تنظيمه. وحصل منه الألمان على امتياز رد سكة حديد بغداد. ثار عليه 1908 الضباط الشبان المنتمون إلى حزب تركيا الفتاة، وأكرهوه على منح دستور للبلاد 1908، ثم خلعوه 1909 حين لمسوا نواياه السيئة. احتفظ به سجينًا، أولاً في سالونيك، ثم في جهة قريبة من إزمير». (الموسوعة العربية الميسرة، دار النهضة لبنان، الجزء الثاني ص1180). وفي حفلة من حفلات الدستور، ألقى أمين الريحاني (1876 ـ 1940) خطبة جاء فيها: «أيها الوطنيون. أنتم المستضعفون في الأرض وأنتم إن شاء الله الوارثون. ويشهد على ذلك نير ماضيكم وحرية حاضركم. يشهد على ذلك ظلام أمسكم ونور يومكم. فأنتم المعلمون والمحررون بفضل زعماء الآراء الحرة وبفضل الجند العثماني الذي سيبرهن لأوروبا اليوم أن الشرق لم يزل منبت المعجزات. ففي الماضي كانت معجزاته دينية واليوم معجزاته سياسية. بالأمس دهشت دول أوروبا بالمعجزة التي أتتها اليابان واليوم تدهشها المعجزات السياسية والاجتماعية في دولة بني عثمان. فأوروبا لا تعرف حتى الآن معنى الثورة السلمية، وما رأت بين شعوبها المتباينة عناصرها السياسية والمتضاربة مذاهبها الاجتماعية مثلما يسود اليوم في أمتنا من التساهل والمساواة والإخاء. وهذا هو النور الذي ينشق من الظلام. هذه وردة الوئام التي تنبت على ضريح الشقاق والخصام هذه هي الحرية التي تشيد لأمة هيكلها في روضة الألفة والسلام». وجاء أيضًا: «بالأمس كان خطيبكم يتسنم المنبر فيجمجم الكلام ويوريه ويلغز ويرمز ويعقد مقاله ويلويه لتخفى على جواسيس الحكومة معانيه. واليوم نراه كما لو كان في باريس أو في نيويورك يصدع بالحق (يتكلم به) ويجاهر مصرحًا بآرائه ومبادئه. والفضل في ذلك عائد إلى زعماء النهضة الإصلاحية النظريين وإلى زعمائها العلميين. بل الفضل عائد إلى كل من حرك قلمًا لبث روح الحرية والدستور. وإلى جلالة السلطان الذي كلل النهضة بالنور فصان الدولة من الخطوب والمحن وخلص الأمة من الهزاهز والفتن. فالأمة التي كانت أمس أسيرة ظلمه أصبحت اليوم أسيرة فضله. وقد =

3 ـ رسالة البطريرك دميانوس (دوميتيانوس)[1] بطريرك أورشليم ـ عن المدينة المقدسة، في 23 حزيران 1901.

4 ـ طِرْس بطريرك بعُود الصليب[2]، من البطريرك دميانوس (نفسه) عن المدينة المقدّسة في 23 حزيران 1901.

5 ـ وسام صليب القبر المقدس من البطريرك دميانوس (نفسه) في 27 تموز 1901.

= يكون الأسر أكبر من الأسير ولكن العاتق يا سادة أكبر من الاثنين فالسلام على عبد الحميد، والسلام على عهده الجديد سلام على عصر الحرية المجيد». من كتابه «الريحانيات» الجزء الثاني، المطبعة العلمية ـ بيروت، 1923، نقل هذه الخطبة التي عنوانها «الحرية والتهذيب» إلى كتاب «حصاد الفكر العربي الحديث في قضية الحرية» مؤسسة ناصر للثقافة، الطبعة الأولى 1980، (ص281 ـ 289).على أن الريحاني قد علّق قائلاً: «وذنبي صغير بالنسبة إلى ذنوب الشعراء في هذا المقام. ثلاث تسليمات (يقصد: السلام على عبد الحميد، والسلام على عهده الجديد، والسلام على عصر المجيد) يغفرها الله ولكن الثلاث مائة قصيدة... سبحان من لا تخدعه الحوادث سبحان العالم بذات الصدور وبخفايا الدستور» (المصدر نفسه ـ حاشية (1) (ص283)).

(1) علـــى اســـم: Domitian (Domitien) A. O. 51 - 96, Titus Falvius - Domitianus Augustus. Rom. emp. (18 - 96). وورد في «اللؤلؤ المنثور» (ص269): «إن بطرس الثالث القلونيقي الذي اختير سنة 581 لمكان فضله وعلمه ورسم بطريركًا لأنطاكية في دير مار حنينا، اشتهر بمحاورته دميانس السرياني بطريرك الاسكندرية الذي خلّط في شرح عقيدة الثالوث الأقدس، في أثناء نقضه بدعة مثلثي اللاهوت لا تشبثًا ببدعة ولكن لقصر نظره في العلم. ولما لم يذعن إلى مشورة بطرس وحاول التملص من البحث والدفاع عنادًا، ناقضه (هذا) الحبر في كتاب ألّفه باليونانية ينطوي على أربع مقالات (أو ثلاث) في مئة فصل دعمه بشواهد من الأئمة».

(2) الطرس جمع أطراس وطروس: الصحيفة عمومًا، الصحيفة التي محيت ثم كتبت. والمقصود هنا أن البطريرك دميانوس كتب إلى السيدة اميلي سرسق، رسالة، بمثابة «بركة»، على عود الصليب.

6 ـ أمبرطور ألمانيا وزوجته (الأولى)[1] يأمران في 10 تشرين

(1) هو: Wilhelm II (1859 - 1941). امبراطور ألمانيا، وملك بروسيا (1888 ـ 1918). ابن وخلف فريدريك الثالث، وحفيد وليم الأول، كما كان حفيد الملكة فكتوريا، من ناحية أمه. كان شديد الإيمان بحق الملوك الإلهي، محبًّا للمظاهر العسكرية، شديد الاندفاع، أكمل دراساته بجامعة بون. سعى وليم كامبراطور أن يجعل ألمانيا دولة تجارية وبحرية واستعمارية عزيزة الجانب رفيعة المكانة، وسرعان ما اصطدم ببسمارك (Bismark) فأرغمه على الاستقالة 1890، وأصبح القوة المسيطرة على حكومته حاول في سياسته الداخلية التهوين من شأن الأحزاب الاشتراكية، بسن القوانين القمعية والقيام بالإصلاح الاجتماعي. ولكنه ركز أكبر اهتمامه في السياسة الخارجية غير أن نصيبه كان الإخفاق الذريع في هذا الميدان، فقد فشل في تجديد معاهدة تأكيد التحالف مع روسيا 1890. ومع أنه كان يرغب في المحافظة على العلاقات الودية مع بريطانيا، إلا أن برنامجه البحري، ومطامعه التجارية والاستعمارية حالت دون عقد تحالف بين الدولتين، ودفعت انجلترا إلى تكوين الاتفاق الودي الثنائي مع فرنسا 1904، ثم الاتفاق الودي الثلاثي 1907، وازدادت علاقاته مع فرنسا توترًا بالتدخل الألماني في الشؤون الاستعمارية الفرنسية في أفريقيا، ولا سيما في المغرب، ولكنه تمكن من ضم تركيا إلى جانب ألمانيا. كان وليم مغرمًا بالسياحة، ويكثر من إلقاء الخطب الرنانة، وأحدثت برقية التشجيع التي أرسلها كرومر (Cromer) أزمة مع انكلترا. وكان برنامجه الضخم في التسلح برًّا وبحرًا، ودبلوماسيته (أو قلة إلمامه بالدبلوماسية الأزيبة) مسؤولين إلى درجة ما عن نشوب الحرب العالمية الأولى وكان الرئيس ولسن (Wilson, T.) قد أعلن أن نزوله عن العرش شرط ضروري ينفذ قبل البدء في إجراء مفاوضات الصلح، فقامت فتن في ألمانيا أكرهت الامبراطور على النزول عن العرش، وفرَّ على هولندا (10 نوفمبر - تشرين الثاني 1918) حيث أقام في عزلة في دورن بقية أيامه (For more than 20 yeras he lived in comform table exile at Dorn)

وقد رفضت الحكومة الهولندية أن تسلّمه إلى الحلفاء لمحاكمته كمدبّر للحرب. وبعد وفاة زوجته الامبراطورة اوجستا فكتوريا (Augusta, Victoria) تزوّج ثانيةً الأميرة الأرملة هرمينه 1922. كتب سيرة لأيام شبابه ومذكرات عن سياساته واتصالاته.

الثاني 1898 جرجي أفندي موسى سرسق ومدامته إميلي بمجالستهما على الطعام[1].

7 ـ فارسة حاملي صليب القبر المقدس الأرثوذكسيين «شفاليه» عن البطريرك دميانوس، في 14 نيسان 1931.

8 ـ براءة الاستحقاق اللبناني ـ مرسوم رقم9232. صدر عن رئيس الجمهورية شارل دباس[2]، وعن رئيس مجلس الوزراء أوغست أديب. قلّدها إياه وزير المعارف والفنون الجميلة جبران تويني يوم 28 نيسان 1932.

وبقي التمثالان

رفعتُ رأسي لأبصر ستة أبيات من الشعر محفورة فوق الباب الرئيسي، سنة 1890، تاريخ اكتمال بناء هذا الصرح، هي:

«هذا المكانُ لقد بدا كمنارةٍ ... في ربع بيروت البهيّ المصانِ
ربّاتُ خِدرٍ قد أقَمْنَ بناءهُ ... وذواتُ قدْرٍ من نسا الإحسانِ
مِن مالهنّ تأسست أركانُهُ ... حتى غدا من أجمل البنيانِ
وَقْفًا على جميع البناتِ جَعَلْنَهُ ... للعلم والتهذيب والإتقانِ
برٌّ عظيم ما سُبقنَ بمثلهِ ... مِنْ شَرْقِنا في غابرِ الأزمانِ
فلذلك التاريخ جاء مسطّرًا ... هوذا البنا باكورة الإحسانِ»

وفجأة انهمر المطر، فغادرتُ المدرسة، فيما دخلت الأم الرئيسة،

انظر: الموسوعة الميسرة ـ المصدر نفسه.

- The World Book Encyclopedia, Volume 2, pp. 255 - 256.

(1) نشرت هذا الخبر جريدة «لسان الحال» في 14 تشرين الثاني 1898.

(2) شارل دباس: أول رئيس للجمهورية اللبنانية 1926 ـ 1933. في عهده ألغي مجلس الشيوخ 1927.

تيودورا جبيلي، والحاجة بربارة أبو إبراهيم، والأرشمندريت نقولا بدوي، إلى الكنيسة ليصلُّوا مع الراهبات وبنات «الميتم».

أما التمثالان، فقد عادا إلى صمتهما، وكل واحد منهما يمد نظره إلى رفيقه، كأنهما يتساءلان:

أين الأدباء ينثرون الكلمَ العذبَ الجميل؟

أين الشعراء يغنُّون القصائد التي تسحر الألباب؟

أين الحكّام يجتمعون في بيوت العلم والأدب ليتنافسوا في بذل المساعدات لها ومدّها بالمعونات والتسهيلات؟

أين الصحافة تشُقّ الطريق أمام فاعلي الخير وتحرّض على مناصرتهم وتشجيعهم؟

أين المُحْسِنون يغذّون بأموالهم المؤسسات الخيرية الاجتماعية ومدارس الفقراء؟

أين أنصار الحق والواجب؟

أين أصدقاء الحرية والعدالة؟

أين دعاة السلام؟

أين رجال الدين يطالبون بإنصاف المواطنين وإنقاذهم من الخطر الذي بات يهدّدهم؟

أين هم أصحاب النخوة والشهامة والكرامة؟

أين هي التضحية؟

لماذا كانت الحرب؟

مَن يقاتل مَن؟

ظلَّ المطر ينهمر حتى غرقت بيروت وسُدَّت الطرقات والمنافذ بينما

عَجَلة الزمان ما زالت تشحن زبانية «الحداثة» و«الإبداع» إلى حيث لا يعلمون، وبدا الدلالون يهتفون لتجار الحرب والسلاح: شعراء متهتّكون للبيع، رسامون مهلوسون للبيع، صحافة خليعة للبيع، مؤرّخون للبيع، فلاسفة للبيع، أدباء للبيع، ملوك للبيع، رؤساء للبيع، رجال دين للبيع، مقاتلون للبيع، نساء للبيع، رجال للبيع، أخلاق للبيع، بيع... للبيع.

وكان لا بد من البحث في تاريخ هذه المدرسة ومؤسِّساتها، لا سيما «أم المحسنين» المرحومة إميلي خليل سرسق «ربة الحسن والكمال وعقد ربات الجمال» كما يقول نجيب داود زلزل[1]، فعسى أن يتسلّم قيادة عربة الزمان روّادٌ حقيقيون يحفظون للوطن وجهه وللإنسان كرامته.

«شيطانة» الشعرَاء

اميلي سُرسق

لا أعتقد أن في لبنان الحديث أو غيره من بلدان لمنطقة امرأة تنادَى الشعراء والأدباء والصحافيون ورجال الدين والحكّام إلى تكريمها مثل المرحومة إميلي خليل سرسق.

لقد استطاع منشئ مجلة «الحسناء»[2] المرحوم الأديب والشاعر والصحافي جرجي نقولا باز (1882 ـ 1959) أن يجمع حتى عام 1937 كل ما قيل في هذه السيدة التي «أضاءت شمعتُها شموعًا في أُسرتها شموعًا في جمعيتها، شموعًا في ديرها، في مدرستها، وفي محيط لا يدرك حدّه، وهي شموع لا ينطفئ نورُها، بل تبقى تتلألأ إلى أبد الدهور»[3]، فإذا هو كتابٌ من مائتي صفحة من الحجم الكبير لا

(1) خرجة نقولا باز، في كتابه: «املي سرسق ستين عاماً محسنة» (ص26 ـ 37).

(2) أنشئت مجلة «الحسناء» عام 1909.

(3) الدكتورة أنس بركات باز. أخرجه جرجي باز، المصدر نفسه (ص2).

يحمل تاريخ الطبعة الأولى، وإنما يُعتَقَد أنه صدر في أوائل 1938، حوَى بين دفتيه القصائد التي نظمها فيها شعراء لبنانيون وغير لبنانيين والمقالات التي دبّجها لها أدباء ووجهاء وصحافيون والرسائل الواصلة إليها من أحبار وأباطرة وسلاطين وحكّام وولاة، وكلها تشهد على فضائل هذه السيدة وإحسانها وسخائها وطيب محتدها.

يقول جرجي باز:

«يعلم الناس فضل المحسنة إميلي سرسق في عالم الإحسان وينظم فيها الشعراء ويكتب عنها المنشؤون، وقد نالت أوسمة الشَّرَف، ونُصب تمثالُها في زهرة الإحسان، وصارت مضرب مثَل جودها ستين عامًا».

أضاف:

«العائلة والكنيسة، الجمعية والرهبنة والمستشفى (مستشفى القديس جاورجيوس «مستشفى الروم»)[1] والميتم والمدرسة والتعليم والتهذيب

---

(1) يحمل هذا المستشفى اسم القديس جرجس (George, Saint) الذي على ما قيل من أمراء كبدوقية (Cappadocian) الواقعة غربي تركيا الآسيوية ـ الأناضول، استشهد على أيام ديوقليتيانوس (Diocletianus, Rom. emp. 303 (305 - 284 ، في نيقوميديا، إزميت التركية . (Nicomeda or Izmit) يعيِّد له النصارى في 23 نيسان ويكرّمه المسلمون باسم الخضر. بيد أن الخضر، كما جاء في «الموسوعة العربية الميسرة» هو «ايليا بن الياس صاحب موسى عليه السلام، لقيه وقصد معه مجمع البحرين، حدثت بينهما أحداث عجيبة لم يلبثا أن افترقا بعدها (59 ـ 81 سورة الكهف). مضرب المثل في العلم الزاخر الحكمة الأناة والصبر، هادي السفن في أعالي البحار، شيخ الزهَّاد والمتعبِّدين أو «نقيب الأولياء» عند المتصوفة، يقدر على التشكل بأشكال مختلفة وإن كان بشرًا، معمر وخالد يؤدي الفرائض والواجب» (الموسوعة... الجزء الأول ص758) وفي سنة 1350 رفعه الصليبيون إلى رتبة شفيع انكلترا.
Sint George was highly venerated by the Grusaders, and in 1350 was made patron saint of England (w.B.E.V.8.P.111).
في الأول من شهر نيسان 1985، زرت رئيس الخدمات العامة =

= لمستشفى القديس جاورجيوس، الأستاذ اميل رحباني في مكتبه أسأله بعض المعلومات عن المستشفى وتاريخ تأسيسه، فقدم لي كتابًا صدر عن المستشفى سنة 1983 بمناسبة مرور مائة عام على إنشائه:

L'Hopital Saint George féte en 1983, son Premier Centenaire.
ودعـــا الاستاذ رحباني السيد سركيس إلى مرافقتي في جولة على باحة المستشفى وحديقته وبعض الطبقات القديمة، فإذا في الباحة الجنبية تمثال لرئيسة جمعية السيدات للمستشفى السيدة ماري خليل سرسق، شقيقة اميلي، وأرملة نخله جرجس التويني (1872 ـ 1954). وفي الحديقة تمثال للمتروبوليت إيليا الصليبي (1966)، وآخر لغبطة البطريرك السيد ألكسي، بطريرك موسكو وكل الروسيا «اعترافًا بفضله وتقديرًا لإحسان تبرّعه بالمعدات الطبية لهذه المؤسسة ـ 1966). ثم «مقام» عن نفس الرئيس حبيب أبي شهلا تقدمة من عائلته 1966، إلى جانبه تمثال للمرحوم حنا يوسف سياج (1984) المتوفى في الاسكندرية. خلف «المقام» أيضًا تمثال للمرحوم ديمتري يوسف سرسق المتوفى في 1924. أما الطابق الأول ففيه لوحات عليها أسماء المحسنين الذين تبرعوا لبناء غرف في المستشفى، وأسماء الذين أوقفوا عقارًا له وأسماء الذين قدموا أموالاً. هؤلاء المحسنون هم: مخايل جرجي مجدلاني، اسكندر سرسق، أسما عرمان (ابنة أسعد سرسق)، أولاد اندراوس سابا (يوسف وجرجي ونخلة ونقولا)، مخايل نعمة طراد، فيودر برهر مسكوبي (وقف زوجته اميلي)، إما غبرييل أبو شعر، إما أمين شكور طراد، الدكتور اسكندر سركيس، الآنسة نجلا جبران غاليه، يوسف متري سرسق، نقولا صدقة، يوسف حنا سياج الدمشقي، خليل متري سرسق (قدم عقارًا في حلوان)، نقولا كسيب (قدم عقارًا في بخعاز)، نعمة يافث، فريد عماد وإخوانه، إبراهيم يوسف المخباط، نقولا إبراهيم سرسق (صاحب متحف نقولا سرسق)، يوسف مرزوق الكويت، المطران صموئيل داود، بعد الله القسيس، الأخت فروسين برباري، الدكتور كرنيليوس فانديك، فيليب جرجي سرسق، حبيب بسترس بسترس، قسنطنين يوسف غرزوزي، ظريفة بسترس، جرجي نقولا سابا، بَسعي نظلي اسكندر بك التويني، مخايل كسيب، الياس بطرس عازار، الياس جرجي سيوفي، يوسف متري سرسق (ثانية)، ماري جرجي سابا، المطران جراسيموس مسرة، تيودور جبيلي، أسما جرجي =

والمؤاساة في سبيل تعزيزها استمرت محسِنَةً، فما أفضلها مثالاً لنا، للسيدات ليسرنَ على نهجها وللسادة يتمثلون بها، ما أعظمها بالنبل والإحسان»[1].

قالوا فيها

في هذه المرأة نظم الشاعر اللبناني خليل الحوري - يوم 9 كانون الثاني 1881 - قصيدته «الملاك» ومطلعها:

هبط المَلاكُ الآن في أوْج العلى	وبلُطفه قَصَدَ المَلاكَ الأجملا
حسَدَ الزَّهورَ على سماء جبينه	فأتاه بالنور البهيّ مكلَّلا
وأراد أسمى منزلٍ في مجده	فأقام في حجب الشعور مظلّلا
دعْه يحجب في العلى بمقامة	وانظر جمالَ ملاكِنا السامي العُلا»[2]

وكتب أديب إسحاق[3] في جريدة «التقدّم» العدد 28/ 12/ 1881 يقول:

= طراد، إبراهيم يوسف أسعد وأولاده، إبراهيم طرشا، نقولا كسيب (ثانية)، جرجي نقولا دحلان، فيليب نقولا رزوق، ادال الياس رزوق وفارس سليم شقير. المدير الحالي للمستشفى هو الأستاذ سلام الريس، يشاركه الأب جورج ديماس.

(1) باز: المصدر نفسه (ص3).

(2) المصدر نفسه.

(3) أديب إسحاق (1856 - 1885) صحفي وأديب وشعر وخطيب ومترجم وكاتب مسرحي وممثل وسياسي. ولد بدمشق، واشتغل بالصحافة منذ مطلع شبابه، فحرر جريدة «التقدم» البيروتية لصاحبها يوسف الشلفون، واشترك في تحرير مجلة «ثمرات الفنون». جاء إلى القاهرة وأصدر 1877 جريدة «مصر» بإيعاز من أستاذه جمال الدين الأفغاني، انتقل إلى الاسكندرية واشترك مع سليم النقاش في إصدار جريدة «مصر القاهرة» 1880 وكان ينسخها بيده لافتقاره إلى وسائل الطباعة. عاد إلى بيروت، فالقاهرة واشتغل =

«أعارَكِ البدرُ محيّاه، وحيّاك الروضُ بريّاه. فسَرَت منك نسيمات الزمن تحمل شِيَحًا وثُمامًا وتمشّت فيكِ أرواحُ الصبا يتأرجن بأنفاس الخزامى، أم أنت مخبري بمكارم الكرائم، ومبشري بإحسان الحسان».

وكتبت جريدة «الهدية» في عددها الصادر بتاريخ 15/ 6/ 1889 تقول:

«إن بعض سيدات الثغر الفاضلات يذهبن كل يوم خميس إلى مدرسة باكورة الإحسان الأرثوذكسية ويعملن بأيديهن أعمالاً متْقنة وجميل من مثل خياطة وتخريم وتطريز وسائر أعمال اليد، وهذه الأمتعة تباع أخيرًا ويكون ثمنها للمدرسة»[1].

ثم كتبت «لسان الحال» وسواها من الجرائد والمجلات مثل «المحبة» و«صوت الوطن» و«الأحرار» و«الحسناء» و«الاتحاد اللبناني» و«البشير» و«النهار» والمرآة الجديدة» ومجلة «النّور» في الاسكندرية، و«البرق» و«الحقيقة» في السيدة إيملي سرسق التي جعلت مالها في خدمة عقلها حتى سيطرت إميلي سرسق التي جعلت مالها في خدمة عقلها حتى سيطرت عليه، فوجّهتْه، على طريق الإحسان والإعمار والتربية والتعليم، أيّما توّجيه.

ومن مصر أيضاً نظم نخلة قلفاط[2] قصيدة منشورة في مجلة

= فيهما بالصحافة كما شغل بعض مناصب الترجمة في مصر. توفي في بيروت. عُرف بأسلوبه الرصين وحماسته المتدفقة ودوته إلى الحرية والكرامة الإنسانية. ترجم عن الفرنسية روايات: «اندروماك» و«شارلمان» و«ابنه رولاند» واقتبس رواية «الباريسية الحسناء» وألَّف «الدرر» و«تراجم مصر في هذا العصر»، و«غرائب الاتفاق»، و«نزهة الأحداق في مصارع العشاق» واشترك مع غيره في تصنيف كتاب «آثار الأذهار». (الموسوعة العربية ج1 ص105).

(1) المصدر نفسه. ومجلة «الهدية» أصدرتها سنة 1889 «معية التعليم المسيحي الأرثوذكسيبة» في بيروت.

(2) نخلة قلفاط (1851 - 1905): أديب لبناني وشاعر وصحافي وقصصي. =

«سلسلة الفكاهات» عدد آزار 1894، يقول:

إليكِ يُشار يا ملَكَ الكمالِ   لكلّ حميدةٍ في كل حالِ
يحقُّ بكِ التفاخر والتباهي   إذا افتخر النساءُ على الرجالِ
أرُونا يا بني بيروت منكمْ   ولوْ شخصًا على هذا لمثالِ»[1]

وفي مجلة «الفتاة» المصرية في عدد نيسان 1894، مقالة بعنوان «السيدة إميلي سرسق»، كما لسليم سركيس[2] مقالة بعنوان «المرأة الفاضلة ـ من يجدها ثمنها يفوق اللآلي» منشورة في «لسان الحال» (5/ 3/ 1894) باسم مستعار: «مريم مزهر». ومن الشيخ اسكندر العازار والأساتذة: فتح الله جاويش وإبراهيم الأسود والياس زخريا أبيات من الشعر فيها الثناء على هذه السيدة والإطراء والتبجيل. ولعل أبرز ما قيل فيها شعرًا قصيدتين: واحدة للدكتور نقولا

= ولد وتوفي في بيروت. أنشأ مجلة «سلسلة الفكاهات» في بيروت والقاهرة. سُجن وذهب ضحية الاستبداد الحميدي. له «تاريخ ملوك المسلمين»، «تاريخ روسيا». وله قصص عديدة وتمثيليات.

(1) المصدر نفسه.

(2) سليم سركيس (1869 ـ 1926): صحفي وأديب ومؤرخ. ولد ببيروت، واشتغل محررًا بجريدة «لسان الحال» التي أنشأها عمه خليل سركيس في بيروت 1877. غادر لبنان (1892) إلى باريس، فأصدر جريدة «كشف النقاب»، وسافر إلى لندن حيث أصدر جريدة «رجع الصدى». انتقل سنة 1894 إلى الاسكندرية حيث أصدر جريدة «المشير» الاسبوعية التي جعلت الحكومة العثمانية تصدر عليه حكماً غيابياً بالإعدام. نقل «المشير» إلى القاهرة وأصدر «مرآة الحسناء» 1896، وهي مجلة نسوية نصف شهرية، أصدرها باسم الآنسة مريم مزهر، فصدر منها 23 عددًا. أصدر «نشرة الكهرباء» 1897، وسافر إلى أمريكا حيث أقام خمس سنين، أصدر فيها «الراوي»، و«البستان». عاد إلى مصر سنة 1905، وأصدر مجلته الأدبية الشهيرة مجلة «سركيس» (1905 ـ 1926)، وعمل إلى جانب ذلك محرراً في «الأهرام»، و«المؤيد» له طائفة من المؤلفات.

فياض[1] وأخرى لتامر ملاط[2]. جاء في الأولى:

أين الرجال الأولى بالغيرة افتخروا   وأن من صنعوا المعروف واشتهروا
هل أدركوا في المعالي شأو سيدةٍ   في كلّ مأثرةٍ أضحى لها أثرُ
«يا قوم هذي بلاد الله واسعةٌ   والمُحسِنون مع الأيام قد كثروا
من منهم استأثر الحسْن مباشرةً   منهُ ولم يكُ للتمجيد ينتظر»[3]

وجاء في القصيدة الثانية:

«قل ما استطعتَ وما تشاءُ وغالِ   فلقد وجدت وأي أي مجالِ
وضْعُ العقود من الثناء نضيدةٌ   إنّ العقودَمن الثناءِ غوالِ
فمن الخواطر للنّحور قلائدٌ   ومن الكلامِ جواهر ولآلي»[4]

ومما قاله شبلي الملّاط:

«سقى أرضَ السراسقةِ القطارُ   ودرَّ على معاهدها النضارُ
ديارٌ أورقت فيها المعالي   وأمرع في جوانبها الفخارُ
لسرسق قام في الآفاقِ مجدٌ   على هام النجوم لهُ منارُ»[5]

(1) نقولا فياض (1873 ـ 1958): طبيب لبنان. شاعر وأديب وخطيب. له «رفيق الأحوال».

(2) تامر الملاط (1851 ـ 1914): شاعر لبناني. مولده ووفاته في «بعبدا» بلبنان. درس الشريعة الإسلامية، كما المطران يوحنا حبيب وخليل الخوري والبطريرك يوحنا الحاج وغيرهم. اشتغل بالتعليم ثم في المحاكم. له شعر «محكم النسج على طريقة المتقدمين» جمع بعض شعره أخوه «شبلي» في «ديوان الملاط» (1925). ومن الدوحة الملاطية أيضًا فريد أمين ملاط، صاحب «ديوان الفرائد» (طبعة 1985) قدّم له: نقيب المحررين ملحم كرم، والمحامي هنري الأسمر. لنا فيه بحث نشر في «البيرق» يوم الأربعاء 27 آذار 1985.

(3) باز: المصدر نفسه.

(4) نفسه.

(5) نفسه.

وقال فيها أيضًا الشعراء: فارس شقير ونجيب داود زلزل وجرجي قسطنطين صبّاغة وقاسم أبو الحسن السكستي ـ البيروتي، ومخايل عبد الله البستاني وسلوى نجيب فياض ونقولا بسترس ونجيب طراد ونجيب بشاره ويوسف مراد الخوري.

أما الذين كتبوا في السيدة سرسق المقالات فهم كثيرون أيضًا، منهم: مصطفى انجا ـ طرابلس، ونخلة مطران صبّاغ، وسلوى الصائغ[1].

وكان لشاعر القطرين خليل مطران[2] نصيب في تكريم السيدة إميلي سرسق إذ غنّى لها، في مصر، مرتين، قال:

«إذا غبت عن دار عليك عفاتها   عيال فما الإحسان عنها بغائبِ

كذا الشمس أن تغرب فإن الذي به   تصُون حياة الناس ليس بغاربِ

وقال يحيّي محسنة كريمة زارت مجتمعًا لمواطنيها السوريين» في القاهرة:

«سيداتي وسادتي الأكرمينا   إن أذنتم تفضلاً أن أكونا

نائباً عنكم وعن نادينا   لأحيي الضيف العزيز المصُونا

---

(1) نفسه.

(2) خليل مطران (1872 ـ 1949). شاعر لبناني. لقب «شعر القطرين»، لأنه وُلد ونشأ في لبنان، وقضى معظم حياته في مصر ومات بها. درس العربية على الشيخ إبراهيم اليازجي، وأتقن الفرنسية. هاجر في شبابه من لبنان، خوفًا من بطش الحكم التركي. فأقام سنتين في باريس، ثم استقر في مصر حيث عمل مدة بالصحافة. تولّى إدارة «الفرقة القومية». ويعد مطران حلقة الصلة بين مدرسة البعث التي بدأها البارودي (محمود سامي) في أواخر القرن التاسع عشر، وبين الاتجاهات الشعرية الحديثة في فترة ما بين الحربين العالميتين، فقد كان أكثر من قرينيه: أحمد شوقي وحافظ إبراهيم ـ تحررا من قوالب الشعر القديم. وكان التعبير عن وجدانه ـ كما صرح في مقدمة ديوانه (1908 ـ 1910) ـ هو أهم ما يعنيه.

قلتُ يا ربّةَ الجمالِ النضير   ومثال العفاف بين الحورِ

أنتِ شرَّفْتِنا بهذا الحضورِ   أنتم بالحضور شرَّفْتمونا»[1]

فوق هذا وذاك، ألقى الأديب الأستاذ ميخائيل نعيمه كلمة في السيدة إميلي سرسق عنوانها «قَلْبٌ وروح»، وذلك يوم أول كانون الأول 1937، في احتفال أجري لها في «نادي مدرسة زهرة الإحسان» بمناسبة منحها وسام الاستحقاق اللبناني. وشارك في هذا الحفل الخطباء والشعراء: جرجي نقولا باز، هكتور خلاط (قصيدة)، إبراهيم نجار (كلمة)، جبران التويني (كلمة الحكومة) (قلّدها الوسام حسبما تقدم)، نقولا بسترس (قصيدة)[2]، ماري عطية (كلمة زهرة الإحسان)، نبيهة شحادة (هدية «البنفسجة»)، وسلمى الصائغ التي تكلمت باسم السيدة إميلي نفسها[3].

هذه المرأة من هي؟

من أين جاءت؟

ما علاقتها بجمعية زهرة الإحسان؟

هذه الأسئلة وغيرها سأحاول الإجابة عنها، مثلما سمحت لي الظروف والمراجع، على أمل أن أكون قد أضفتُ ولو كلمةً واحدة إلى ما قاله فيها ذلك الحشد الكبير من الشعراء والأدباء والصحافيين، على أن هؤلاء وأولئك قد عرفوها عن كثب وعاصروها واختبروا مواقفها وإحسانها، فما أبعد زماننا عن زمانهم، وما أسعد حظهم وما أشقاني!

---

(1) المصدر نفسه.

(2) هو غير الرئيس الأسبق للتشريفات لدى وزارة الخارجية السيد نقولا ميشال بسترس، أمه ليندا ـ شقيقة اميلي سرسق، ووالد الأستاذين ميشال وسيريل (بسترس). له كتاب Je me souviens الصادر عن مكتبة انطوان (1983) تقديم المرحوم الشيخ نجيب دحداح.

(3) المصدر نفسه.

السّراسِقَة

من «البربارة» قضاء جبيل ـ أبحر إلى بيروت والاسكندرية رجال ونساء من آل سرسق اللبنانيين. وقد تمت هذه الرحلة في أواسط القرن السابع عشر. عملوا في التجارة فحصَّلوا ثروات طائلة كانت، حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين، حديث الأوساط الأرستقراطية في لبنان وسوريا ومصر.

أعطت هذه العائلة رجالاً اشتهروا في السياسة والإحسان منهم: إلياس جبرائيل قنصل إيران لمدة خمس وثلاثين سنة (1841 ـ 1875). أولاده القناصل: اسكندر وحنا وقسطنطين وأخوه أسعد شاهبندر دولة إيران في اسكندرون ومستشار محكمة استئناف ولاية بيروت[1]، وجورج ديمتري، ترجمان قنصلية ألمانيا ومترجم تاريخ اليونان وزعيم الماسون ورئيس محفل لبنان، ويوسف عميد البلد وعضو مجلس الأعيان العثماني، ونجله نجيب عضو الجمعية الأمبراطورية الروسية الفلسطينية، والفرد موسى سكرتير السفارة العثمانية في باريس، وميشال إبراهيم عضو مجلس النواب في دولة بني عثمان.

مولد إميلي...

في منزل خليل بن ديمتري بن نصر الله بن جبرائيل سرسق ببيروت، ولدت إميلي[2]. أمها مهجة بنت عطا لله بن يوسف دباس.

(1) كان أسعد سرسق يتقن ست لغات عالمية قراءة وكتابة. كاتب رحلاته إلى أوروبا.

(2) لم أتوصل إلى معرفة تاريخ ولادتها، فاستعنت بالارشمندريت نقولا بدوي، ثم بالمختار السيد بشارة أنطوان غلام، ثم بحفيدتها السيدة ماري وزوجة السيدة جوي ثابت، ثم بالسيد جورج بولس كساب، وكيل ورثة المرحوم إبراهيم سرسق، ثم بالأستاذ نقولا بسترس، فضلاً عن اتصالي بإدارة =

ولما «ترعرعت أرسلها أبوها إلى الاسكندرية حيث تلقت بعض العلوم في أشهر مدارسها» ومن هناك «عادت إلى وطنها وقد أفرغ عليها الشباب أبهى حلل الجمال فاقترنت بابن عمها جورج أفندي موسى سرسق» لتظهر «إلى العالم متوجة بأحلى الفضائل والكمال». فمالت إلى «عمل الخير وإغاثة البائسين» حتى إنها «عززت بمالها مدرسة كبيرة في بيروت للبنات تدعى مدرسة زهرة الإحسان» و«جعلت لهذه المدرسة مرتّبًا من مالها تنفقه عليها مع ما يجتمع لديها من أموال الفاضلات والفضلاء»[1].

كثيرة الأسفار

عاشت إميلي سرسق «متنقّلة بين سوريا ومصر» و«ساحت في أوروبا» لأجل الاطّلاع وكسب المعرفة والخبرة، مما مكّنها من «إدارة أموالها بعد وفاة زوجها» إدارة حسنة وواعية. ولم «تقتصر مآثرها على جمعية ومدرسة»، بل «هي جهزّت عرائس عديدات» و«أنفقت على تعليم المعسرين والمعسرات»و«وقَتْ من شر الفقر عدة عائلات» و«ساعدت المظلومين»، كما «خلّصت الأبرياء من أيدي الظالمين». فكَمْ «من بائس أسعدته» إميلي سرسق، وكَمْ من «طريد آوته» إميلي سرسق، وكَمْ من «جائع أطعمته» إميلي سرسق[2]!

ولكثرة أسفارها وتنقلاتها إلى هنا وهناك وهنالك، يُرجّح أن تكون الأخت مريم جهشان قد التقتها[3] في ذات رحلة على ظهر الباخرة، إلى

= مدرسة زهرة الإحسان، إلا أن واحدًا من هؤلاء لم يستطع أن يجيب عن سؤالي: متى ولدت اميلي سرسق؟!

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) بدا لي فيما بعد أن السيدة اميلي سرسق، عندما القتها الأخت مريم جهشان أول مرة، ودَعَتْها إلى تأسيس «جمعية زهرة الإحسان»، كانت لا تزال عزباء.

القدس أو في عودتها إلى بيروت. إذ إن الأخت جهشان أيضاً كانت تسافر وتسعى إلى حيث استطاعت داعية إلى تأليف جمعية خيرية مهمتها تعليم البنات الأرثوذكسيات وغير الأرثوذكسيات ومساعدة اليتامى والمشرَّدين.

ولادة الجمعية

وإذ ذكّرت الأخت مريم جهشان «بمَن يمكنها الاعتماد عليها»، تذكَّرت تلك الآنسة التي كانت على ظهر الباخرة محط الأنظار لرزانتها وكرم أخلاقها ومهابة جمالها «فقصدتها تسألها المساعدة»[1]. و«إذْ دخلت غرفتها رأتها ترتّب ثيابها في الخزانة، وحالاً توقفت عن الشغل، ففاوضتها في الأمر، فوعدتها خيرًا، وكان وعدها فاتحة باب الأمل، بل أول محقّق له، وكأنهما من تلك الساعة وضعتا حجر الزاوية».

إذ ذاك استدعت الأخت مريم جهشان النساء الأرثوذكسيات إلى اجتماع في منزل خليل سرسق، على أن يكون يوم الاثنين 9 شباط 1881. وفي الميعاد المحدّد: حضرت آسين الياس فياض (زوجة متري بسترس)، وإميلي خليل سرسق، وإميلي ميخائيل شحادة (زوجة اسكندر نقولا سرسق)، وهلا متري ملكي (زوجة خليل جرجس فرنيني)، وحنُّون متري سرسق (زوجة حنا الجمّال)، وروز بولس طراد (زوجة حنا شكور طراد)، وزاهية جرجس تويني (زوجة حنا الياس سرسق)/ وزمرد جَدي (زوجة لطف الله غندور سرسق)، وسوسن إبراهيم فياض (زوجة أسعد فاضل فياض)، وظريفة بسترس (زوجة لطف الله بك سرسق)، وظريفة خليل تويني (زوجة يعقوب كفوري)(*)[2] وعفيفة متري عبده (آنسة

(1) باز: المصدر نفسه.

(2) لا بد أن نشير، هنا، إلى عائلة كفوري اللبنانية الوسيعة الانتشار، فمنها في المتن (بولونيا وبتغرين والخنشارة وبكفيا ووطى المروج) وبيروت، =

وفريدة عبد الله بسترس (زوجة قسطنطين نمر روزي)، وفوتين دبّاس (زوجة جرجي سلوم دبّاس)، وفوميا حداد (زوجة فضل الله سيّور)، وكاترين نعمة الله كركبي (زوجة جرجس ميخائيل جهشان)، وكاترين نقولا سرسق (زوجة خليل جرجس دبّاس)، وكاتيا الياس سرسق (زوجة اسكندر بولس طراد)، وكاتيا متري سرسق (زوجة جرجس تويني)، ولبيبة إبراهيم جهشان (الأخت مريم جهشان)، ومرتا (زوجة أنطوان ذوقاني)، ومريم جبيلي (زوجة جبرائيل الخوري)، ومناشة نعمة (زوجة حبيب بسترس)، ونظلة قرداحي (زوجة اسكندر بك تويني)، وهدلا إسحق طراد (زوجة يوسف جَدي)[1].

انبثقت من هذا الاجتماع النسائي الكبير جمعية «البنفسجة» (زهرة الإحسان)، ترأستها السيدة ظريفة بسترس، من 1881 إلى 1900 ثم تلتها السيدة إميلي سرسق حتى سنة 1943. فجاءت بعدها ابنتها السيدة ليندا سرسق التي ظلت ترعى هذه الجمعية بقلب كبير وعاطفة صادقة إلى أن توفيت سنة 1979 عن عمر قضته، كما قضت والدتها عمرها، في الإحسان وعمل الخير ومساعدة المحتاجين. وتقول قُصاصة أطلعتني عليها الرئيسة الحالية الأم تيودورا جبيلي والحاجة بربارة أبو إبراهيم، إن أول نائبة لرئيسة الجمعية هي السيدة مناشة نعمة بسترس، وأول أمينة على المال هي السيدة إميلي سرسق.

= كسروان، وطرابلس، وشتورا، وقب الياس، وزحلة، وحوش الأمراء، وحوش الزراعنة، وقاع الريم. من أبنائها المهندسان: رامز ميشال وروجيه، والأطباء: أنيس خليل وجورج أنيس وشوقي (للأسنان) ونهاد (للأسنان)، والمحامي نجيب. وأما رجال الأعمال فهم كثيرون. وفي بيروت شارع يعرف بشارع الكفوري ـ المتفرع من بدارو ـ سامي الصلح.

(1) مؤسسة دير وكنيسة سيدة الدخول للروم الأرثوذكس في «كرم الزيتون» كما سنرى في البحث الآتي.

المدرسة والميتم

لما كانت الحاجة إلى مدرسة تعلّم البنات «خير المبادئ وأصحّها»[1] و«مختلف العلوم واللغات على أقوم الطرق وأفضلها»[2] ماسّة، التأمت الهيئة العمومية لجمعية «زهرة الإحسان» يوم الأحد الموافق 28 آب 1881، في منزل خليل سرسق، حيث اتخذت قرارًا يقضي بتأسيس مدرسة وميتم.

وعلى الفور استأجرت الجمعية منزل درويش التيّان في حي «التينة»، ثم بيت يعقوب الكفوري في محلة «حاووز الدحديلة» شمال دير راهبات القلبين الأقدسين اليسوعيات، التباريز.

بعد أربع سنوات مرّت على تأسيس مدرسة «زهرة الإحسان»، انتزعت هذه المدرسة لنفسها مكانًا مرموقًا بين المدارس الكبيرة آنذاك مثل: الحكمة وعين ورقة والثلاثة الأقمار والعالية في برمانا، فوجدت الجمعية في هذا الارتقاء ما يشجعها على بناء مركز لها في «أجمل بقعة من محلة الأشرفية بيروت تمتاز بجودة هوائها وجمال مناظرها الطبيعية وموقعها الصحي البديع»[3]. وقد أشرف على البناء المغفور لهم: جرجس التويني وميخائيل شحادة وملحم فياض ويوسف عرمان.

من هذا المركز الجديد انطلقت مدرسة زهرة الإحسان «تُرضِعُ بناتها (وأبناءها) لُبان الأرثوذكسية وتغرس في قلوبهن (وقلوبهم) حب

(1) بيان مدرسة زهرة الإحسان (1937 ـ 1938).
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه. كانت الأشرفية يومذاك، وبخاصة المنطقة التي شيدت فيه المدرسة منتزها، وكانت فيها حدائق صغيرة. إلا أن هذا الجمال الطبيعي انقرض فقامت مكانة غابة من الاسمنت.

الجامعة الوطنية»[1] و«أخذت تقبل فيها البنات اليتيمات على نفقتها والبنات الموسرات على نفقة ذويهن، حتى أصبحت في عهد قريب جامعة «لشتات بنات الطائفة في بيروت»[2].

وإذا ما كنا سنذكر أشهر خريجي «زهرة الإحسان» فإنما نذكر نقولا فياض وغسان تويني ونجاح سلام (المطربة) وسلمى صائغ ونقولا ينّي بسترس ونقولا بك رزق لله وماري ينّي...

ومن معلميها: أنطوان قازان ونقولا بسترس ولودي حبيب متري وأسما عبده وروز صائغ ونقولا فياض ونجيب فياض وسلمى صائغ وماري عطية ومتري المر وجورج ملحمة. على أن المديرة الحالية ومنذ عشرين سنة هي السيدة الأستاذة لطيفة صليبا أسمر[3]. وتستقبل «زهرةُ الإحسان» كل يوم أكثر من ألف وخمسمائة طالب وطالبة. فيما يحتضن الميتم حوالى مائة يتيمة من طوائف متعددة.

رهبنة زهرة الإحسان

بعد المدرسة والميتم تأسست جمعية رهبنية متخذة القديسة كاترينا[4] شفيعة لها، وذلك في 25 تشرين الثاني 1897، عندما سمت

(1) قانون رهبنة زهرة الإحسان المطبوع بإذن سيادة السيد الجليل كيرلوس كير غفرائيل، مطران بيروت ولبنان، الكلي طهره، (ص2، 3).
(2) المصدر نفسه.
(3) الآن يكون قد مضى عليها في الإدارة ما يزد على ست وعشرين سنة.
(4) هي القديسة كاترينا الاسكندرية. يقال: إنها استشهدت في الاسكندرية حوالى 307. لها دير شهير في شبه جزيرة سينا. زار هذا الدير المطران أثناسيوس يشوع صموئيل عام 1940، فتحدّث عن مكتبته في كتابه «كنز قمران» ومما قاله: «في هذه المكتبة وقعت عيوننا على مجموعة رائعة من التحف الذهبية والفضية المطعمة باللؤلؤ والزمرد والحجارة الكريمة.. وقد لامست أيدينا المخطوطة السريانية الأثرية النفيسة للإنجيل المقدس والتي يرقى عهدها =

كاترين خير أول راهبة، ثم تبعتها الأخت حنه الخوري معلوف ثم هيلانة عفيش في 25 تشرين الثاني 1899، ومريم جهشان في 18 نوار 1900.

تعاقب على رئاسة الجمعية الأم مريم جهشان من 1900 إلى 1932، والأم كاترين خير من 1932 إلى 1947، والأم حنة الخوري معلوف من 1947 إلى 1949، والأم ماري عازار، والأم ناتالي شويري، والرئيسة الحالية الأم تيودورا جبيلي.

مائدة المحبة

في الخامس والعشرين من تشرين الثاني الماضي (1979)، وبمناسبة عيد القديسة كاترينا شفيعة الجمعية والمدرسة، أقيمت في مدرسة زهرة الإحسان «مأدبة المحبّة»، باركهامتروبوليت بيروت غفرائيل الصليبي، فعم الفرح الجمعية والراهبات والمعلمين والطلاب والطالبات إذ احتفلوا أيضًا بمرور اثنين وثمانين عامًا على تأسيس الرهبنة.

= إلى القرن الرابع وتعتبر اليوم أقدم نسخة له. وهي مصونة في صندوق صنعته خصيصًا لها المسز لويس من خشب مدينة كبمردج». وقال أيضاً: «ولن أنسى أن أذكر أمرًا لفت نظرنا واستغرابنا، وهو وجود جامع للمسلمين في هذا الدير، يقصده المسلمون البدويون العائشون في تلك النواحي لإقامة الصلاة في عيد هارون ومهرجان البدو» (ص85، 86). وهناك أيضا كاترينا السيانية (1347 ـ 1380)) (Catherine of Seina)راهبة دومينيكية إيطالية، من كبار المتصوفة المسيحيين بدأت تصوفها في سن مبكرة، وما إن بلغت التاسعة عشرة حتى وقفت نفسها على خدمة الفقراء والمرضى (Caring for the sick) . رأت رؤى كثيرة أملتها وسُجّلت لها في كتابَي «الحوار»، و«العناية الإلهية»، لأنها كانت أمّية. ذهبت، استجابة لرؤيا، إلى مدينة افينيون بفرنسا وأقنعت البابا غريغوريوس الحادي عشر (Gregory 11) أن ينهي الانشقاق الذي مزّق وحدة الكنيسة. كانت من أشد أنصار البابوية الرومانية، وهي شفيعة مدينة روما. عيدها 30 نيسان.

هل انقرض السراسقة

جئت ذت يوم بيت المرحومة ليندا سرسق الذي يقع بإزاء متحف نقولا إبراهيم سرسق[1]، فوجدت السيد جورج بولس كساب، مدير أعمال ولدها المرحوم إبراهيم غارقًا مع مساعديه في تصفية الحسابات، فسألته:

ـ هذا التراث ما مصيره؟

(1) مما لا شك فيه أن الوعي الحضاري عند المغفور له نقولا إبراهيم سرسق، هو الذي حداه إلى التنازل عن قصره الذي بناه سنة 1912، لبلدية بيروت، بموجب وصية منه (كانون الأول 1952) على أن يطلق عليه اسم «متحف نقولا إبراهيم سرسق»، بشرط أن يكون المتولّون رؤساء بلدية بيروت الواحد تلو الآخر. وإثر زيارتي لهذا المتحف يوم الاثنين 1/ 4/ 1985، علمت من الأستاذ صالح سعد، رئيس القسم الإداري، أن المتحف قد اتخذ منه، في عهد الرئيس الأسبق كميل شمعون، قصرًا للضيافة، وبعدما انتهت مدة ولاية الرئيس المذكور كرّس متحفًا، وبدأ نشاطاته بمعرض الخريف الأول (1961). ويبلغ عدد المعارض التي نفذها متحف نقولا إبراهيم سرسق حوالى الثلاثين، منها اثنان في باريس: الأول (1981 ـ 1982)، الثاني (1983 ـ 1984). ومن أهم المعارض التي عرفها المتحف: معرض السجاد الشرقي (1962 ـ 1963) ومعرض منحوتات أوغست رودان الباريسي (1963 ـ 1964) ومعرض الأيقونات الملكية (1969). على أن قاعة المتحف قد تم افتتاحها، سنة 1974، وذلك بعد الترميم والتوسيع، بمعرض الفن الإسلامي. تتعهد هذا المتحف لجنة تتألف من: رئيس البلدية الأستاذ شفيق السردوك (المتولي الحالي)، الوزير فكتور قصير (الرئيس)، الدكتور فوزي الداعوق (نائب الرئيس، الأستاذ كميل نجيب أبو صوان (الحافظ)، السيدة كلودا ثابت ناصيف (أمينة الصندوق)، والأعضاء: السيدة ناديا كتانة، السيدة جمانة الأحدب، السيدة رقة بيهم سلام، السيدة صونيا فرنجية الراسي، الأستاذ جان نفاع، السيد أمين بزري، السيد جورج رياشي، السيد بيار خوري، الدكتور لطف الله ملكي، السيد محمد غزيري، الذي خلف المرحوم الدكتور عبد الرحمن اللبان.

ردّ قائلاً:

«إن للمرحوم السيد إبراهيم سرسق خمس بنات يعني خمسة أصهار[1]. ماذا سيقرّر هؤلاء؟ لست أدري».

تركتُ «ورشة التصفية» لأقول: قد تحسبُ عجلةُ الزمان أن آل سرسق انقرضوا أبداً. ولكن هل توقفت هذه العَجَلة، بمن تشحن، عند مدرسة زهرة الإحسان، ومستشفى القديس جاورجيوس، ودار العجز لطائفة الروم الأرثوذكس، ومتحف نقولا إبراهيم سرسق، لترى كيف يستمر العظماء برغم الموت والسنين؟

لقد مضى على «زهرة الإحسان» عشرة عقود أو أكثر مع الجهاد المتواصل في سبيل العلم والتعلّم، فهل تنبّه روّادُ عجلة الزمان واستدركوا؟

إن هذا ما استطعتُ جمعه من معلومات عن هذه المؤسسة الأرثوذكسية وأعمالها ومَن هم من ورائها، فأرجو أن أكون قد أتيتُ بما يحفظ لها بعضًا من حقها الكثير... الكثير.

---

(1) عدت إلى السيد جورج بولس كساب في 21 شباط 1985 أسأله عن تركة المرحوم إبراهيم سرسق، فقال لي إنها مستمرة مع الورثة... ولم يحصل تقاسم.. أو ما يسمى تصفية. أما بنات إبراهيم سرسق فهن: آمال: زوجها فرنسي هو السيد Olivier Gerard، جمانا: زوجها المهندس حيرام شارل قرم، ليندا: زوجها السيد دونالد هوشر، سيلفانا: زوجها الدكتور ناجي فؤاد الخوري، المتخصص في الأشعة... وهو موجود في أميركا، ميشيل: زوجها المهندس جبرييل صهيون. هذا وللمرحوم إبراهيم شقيقة هي السيدة ماري، زوجها السيد جوي ثابت.

الفصل الخامس

راهبَة ورسَالة
الأم كاترينا كركبي
مؤسِّسَة دَير سَيّدة الدّخول
للرّوم الأرذوذكس في بيرُوت

«ما أجمل الكنيسة سواء أكان في أيام الأعياد أو غيرها. إذ وضع فيها الصليب ورُصّعت جوانبها باللآلىء. ففي الجانب الواحد ترى الأنبياء والرّسُل والشهداء المباركين، وفي الجانب الآخر ترى رسم الأم ابن الله وصَلبوته»(*)

مار يعقوب السّروجي

خرجه البطريرك يعقوب الثالث في كتابه «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية»

الجزء الثاني - طبعة 1957 ص327

"السيدة" حامِيَة الأشرفيّة

على رأس «كرْم الزيتون» حيث تنتهي ساحة «ساسين»[1] من الجهة الشرقية للأشرفية، تتربع السيدة العذراء فوق سطح كنيسة تُعتبر إحدى الكنائس الكبرى في بيروت.

من هناك، تبْسط السيدةُ ذراعيها على الأشرفية لتمنح أهلها السلام والطمأنينة. علاقة سكان الأشرفية مع السيدة عميقة الجذور وأصيلة. نورُها يشع أبدًا على الفقراء كما على الأغنياء. صدرُها مفتوح للزائرين المصلّين. الكل أبناؤها، فلا فضل عندها لكبير على صغير ولا لقويّ على ضعيف.

عينا السيدة ساهرتان، فهي تصغي بملء سمعها وقلبها إلى كل لاهف القلب وحزين ومظلوم. تحتضن طفلها، الإله يسوع، بحنان مريمي ورحمة عجائبية، فتعلّم النساء الأمومة والحب والتفاني.

وللسيدة حكايات كثيرة مع المعذَّبين والبائسين «لا يرقى إليها الشك». فكمْ من حزينة جاءتها تشكو وتذرع، فاستلبت منها حزنها لترده إليها فرحًا وغبطة وسعادة! وكم من تاعس عَشَر وأكبّ على وجهه فلما قصدها عاد مستقرًّا مطمئنًّا!

---

(1) آل ساسين، عائلة لبنانية كبيرة. من أبنائها: النائب الأستاذ ميشال، وشقيقه الأستاذ جوزف، رئيس ومدير عام «مصرف الاسكان»، ميلاد، طبيب في طرابلس. وساسين (Sisinnus) قديس احتمل الاضطهاد في سبيل الإيمان أيام ديوقليتيانوس (Diocletiaunus) دافع عن الإيمان في مجمع نيقية 325.

عجائب كثيرة حققت السيدة وتحقق في «كرم الزيتون». فمن كان مؤمنًا «زاده الله إيماناً»، ومن لم يصدّق «قهرتْه المحَارةُ وتراجع كئيبًا لا يدري ماذا يفعل».

وجهان يبكيان

ذات مساء حارّ من أماسي تموز 1976، وكانت سماء الأشرفية تمطر موتًا سعيرًا، بكت العذراء (السيدة) وبكى معها ابنها يسوع. نبّهت الرئيسة الأم مارغو تبشراني لهذا الحدث، فأمرت أن تقرع الأجراس، وهرع الناس إلى هناك غير آبهين للموت الذي كان يسطو على شوارع الأشرفية ومنازلها. وسرعان ما غصّت الكنيسة بالمؤمنين على اختلاف مراكزهم والتفاوت في أعمارهم، جاءوا يسألون: لمنْ تقرع الأجراس؟

ارتفعت الصلوات تمجيدًا لأم الإله، مريم، فتبدّد الخوف وزال عن الوجوه، وانطلقت الأهازيج من حناجر الحزن والرعب تشق باب السماء المغطاة بدخان الحرائق، تتحدّى الفَجَرة أينما كانوا وأيًّا كانوا، فإذا الصمودُ في هذه البقعة من الأرض «أعجوبة» رعتها السيدة، من على مكان سيبقى سراج هدى ورجاء للصالحين.

امرأة فرنسية (...) شهدت هذا الحدث، فروت قائلة:

«يوم الأحد الواقع في الثامن عشر من تموز 1976 ناداني الجيران وأخبروني أن في كنيسة سيدة الدخول في الأشرفية، توجد أيقونة للسيدة العذراء تحمل السيد المسيح وإن كلاهما (كذا) يبكيان».

أضافت:

«توجهتُ حالاً إلى الكنيسة لأشاهد هذا الحدث العجيب، لأنه بالفعل كان بالنسبة إلي هكذا. رغم الجموع شققتُ طريقي فوصلتُ أمام الأيقونة حيث شخَّصتُ جيدًا السيدة العذراء والطفل يسوع، فشاهدتُ

دمعة تجري على خد مريم الأيمن، ودمعة كبيرة تجري على الخد الأيسر ليسوع، فصُعِقْتُ لمشاهدتي الأمر المستغرَب. صَلّيْتُ كثيرًا طويلاً وعدتُ إلى المنزل مرتبكة».

ما أصعب أن تصدّق!

وما أصعب أن لا تصدّق أيضًا!

ومهما يكن، فالمحنة التي عاشتها الأشرفية وسواها من المناطق المسيحية، وبالتالي كل المناطق اللبنانية من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ومن الشاطئ إلى البقاع، أبكت الحجارة والصخور، حتى إنها جعلت الناس تنتظر «العجائب» و«المعجزات» لا من السيدة وابنها يسوع فحسب، بل من القديسيين والأئمة والأولياء الصالحين. وكما المسيحيون كذلك غيرهم من أصحاب المذاهب الإيمانية، لا سيما الشيعة، فالشفيع، عند هؤلاء وأولئك، هو الذي «يخلّص» من العذابات التي قد تستعصي، وهو الذي «يفْرض» الحلول العادلة بعدما يكون الظلم قد استفحل وساد. والشفاعة، باختصار، هي إنقاذٌ غيرُ منظور وعوْنٌ غير مرئي. ولا يطلب الشفاعة إلا مَن يكون قد سُدّت في وجهه الأبواب كلها وأغلقت دونه المراحم.

وقفة تأمل

في أي وقتٍ وقفتَ على باب سيدة الأشرفية ـ كرم الزيتون، تجد الناس يأتون إليها أفواجًا أفواجًا، كهولاً وشبانًا، عجائز وصبايا، يرسمون شارة الصليب ويدخلون الكنيسة. هذه تضيء شمعة عن حبيب غائب، وتلك ترْكَعُ لتصلّي من أجل شهيد أو مريض أو سجين، وأخرى، في إحدى الزوايا، تقبِّلُ صورة أو تعانق أيقونة لسبب أو أكثر. وهكذا طال النهار وفي أول الليل.

ما أكثر الذين رأيتُهم يبكون وهم يغادرون الكنيسة!

ولطالما سألتُ نفسي: لماذا تبكي هذه الحسناء أو تلك الأم؟ لماذا دمعت عينا ذلك الرجل؟ ما به هذا الفتى يدخل الكنيسة خافضًا رأسه؟ ما سِرّ هذا الإقبال اليومي على باب السيدة؟

وتبخّرت التساؤلات فوق نار إيمان الزائرين. ثم فجأة، ومن حيث لا أدري، ساقني الإعجاب إلى الكنيسة لأضيء شمعة للوطن الذي مزّقه الطمّاعون(...) وجلسوا على جلده يتنادمون ويتشاربون.

لو كان لبوابة السيدة الكبيرة التي دخلتها أول مرة - يوم السبت 5 أيار 1979 - مع نيافة الحبر الجليل المتروبوليت جورج خضر أن تنطق لأعلنتْ، بلغات العالم كلها، تعَبها ووجعها. ولكن هل تتعب بوّابة الرحمة والسلام؟

برغم الزحف البشري المتواصل يبقى الصمت مهيمنًا على «عباد الله». وإن أنت سألت عن ضجيج المدينة، فهو خارج حرم الكنيسة. إنه ينتظر على الرصيف المقابل، يتصدى للمارة، يعلق بهم. ضجيج المدينة يريد أن يصرف المؤمنين عن عملهم. تبًّا له ما أشقاه! إنه ينفخ نارًا وشرًّا.

ولو قُدّر لبوابة السيدة أن تحصي زوّارها، لتراكمت لأرقام والسجلات. لكنما التواضع هو العنصر المقرِّر. فلماذا الإحصاء على قارعة الطريق؟ ثم كيف يكون الإحصاء والشفيعة العذراء نُورُها يغطي المنطقة كلها ويجتاح السُدود والحدود، ويتسرب إلى البيوت ليدخل على النفوس الزكيّة في حجراتها فيمنحها سعادة وهناء وأملاً جديدًا؟!

صُوَر وأيقونات

دخلتُ الكنيسة مرة أخرى أتلمّس ما أنا جاهله، فإذا بي في دنيا جديدة. الصُوَر والأيقونات التي تملأ جدران الكنيسة وزواياها تستحوذ عليّ. لقد احتلّت هذه أعصابي وأخذت تجسُّ مني الأنفاس. حاولتُ أن

أُشبع عينيّ من جمال المعلقات ليوم آخر، ولكن عبثًا حاولتُ، إذْ أصابني الغثيان وتهيّجتْ عروقي فانتابني شعور غريب أرغمني على التفكير في الخروج لأنقذ نفسي مما أنا فيه. فهنالك، إلى يسارك وأنت داخل، أيقونة ترْبط منك اللسان إذا ما وقفتَ أمامها، وتُرْبِكُك، وتدخلُ تحتَ جلدك، وتغشي على بَصَرك، فتنقلك إلى عالم آخر. هيبة الفن والعطاء تفرض عليك الطاعة والانحناء وربما الاستسلام. وإن بدا لك أن تسأل عمّن زيّن هذه الكنيسة، قُلنَ لك باعتزاز وافتخار: «إنها الحاجة بلاجيا تبشراني».

لَمْلمتُ بعضي وخرجتُ من هذه الكنيسة الأرثوذكسية المشرقية التي كأنها متحفٌ للأيقونات والصُوَر، وأنا أردد المثل القائل: «اعملوا الخير وأنتم في نَفَس البقاء» فبرزتْ عندي رغبة في قراءة تاريخ هذا الدير الذي انتزعني من دنيا الأنانيات والصراعات المادية الرخيصة إلى دنيا التُّقى وسعادة الروح.

رخاميّات

بين باب الكنيسة والمدخل الزجاجي المطل على الساحة رفعتُ رأسي، فإذا فوق الباب ثلاث لوحات رخامية نُقِشت عليها نصوص وكلمات. فالأولى تحمل خمسة أبيات من الشعر المقفّى الموزون، مؤرخة سنة 1910، غير أنها لا تحمل توقيع صاحبها. وقد نُظمت لتكون بمثابة وثيقة ولادة للكنيسة والدير التي تمّت في عهد، المثلث الرحمة المتروبوليت جراسيموس مسرّة[1]، وهي كما يلي:

(1) آل مسرّة: عائلة لبنانية - بيروتية، من أبنائها المحامي ميشال مسرّة. يحمل المتروبوليت مسرّة اسم القديس الناسك جراسيموس، من آسيا الصغرى (ت475م). أحد منظمي الحياة الرهبانية، ومؤسس دير بالقرب من نهر الأردن.

«قد شادها متري الغلام[1] كنيسة — تحيا بها ذكرى دخول السيدهْ
«ولأجلها سعدى قرينته سَخَتْ — بالمال فاشتركا بهذي المحْمَدهْ
في عهد راعينا جراسيموس قد — تمّ البناء وعونُ ربك وطّدَهْ
فزَهَت وأمَّ فناءها أهلُ التُّقى — ودعا الضعيفُ بها الإله فانجدَهْ
من جاء أرّخ سائلاً لك قاصدًا — يا أُمَّ ربّك بَلّغيه مقصَدَهْ»

اللوحة الثانية وثيقة لولادة ثانية... تقول:

«قد تجدّد بناء هذه الكنيسة في عهد سيادة الحبر الجليل كيريوس كير إيليا الصليبي[2] متروبوليت بيروت وتوابعها 1954، وذلك بدلاً عن الكنيسة التي قد أنفق على بنائها في هذا المكان نفسه المرحومان متري اندراوس غلام وزوجته سعدى أبو الروس 1909 في عهد المثلّث الرحمة المتروبوليت جراسيموس مسرّة».

وتقول اللوحة الثالثة:

«إن أعضاء اللجنة الذين اهتموا وأشرفوا على تجديد بناء هذه الكنيسة المقدسة بمعاونة كاهن الدير الاكسرخوس اسبيريدون جبران مسرة وجمعوا التبرعات من ذوي الغيرة والميراث هم الذوات الغيورون: نجيب مخايل غنطوس، طانيوس متري غلام، ميشال متري عيد، جبران إبراهيم المتني، نجيب لطيف شقير، توفيق نعمان هدايا، كميل شحادة بريدي، ألفرد شاكر أبو شهلا. وذلك في عهد رئيسة الدير الحاجة

(1) متري اندراوس الغلام وزوجته سعدى أبو الروس هما اللذان بنيا الكنيسة والدير، كما سيمر معنا.

(2) آل الصليبي: عائلة لبنانية. اشتهر من أبنائها المطرانان ايليا وغفرائيل. الأطباء: الياس سبع، جورج وهبي، شاهين وولده سمير، نعمان عارف، المحامي إيلي، الباحث والمؤرخ الدكتور كمال سليمان.

افدوكيا وهبة مجدلاني سنة 1954»[1].

ضريح الأم المؤسّسة

تجرني الإشارات إلى «الصالون الجديد»، الذي بَنَتْهُ الرئيسة الأم الحاجة مارغو تبشراني ودشّنه في 21 تشرين الثاني الجاري (1979)، المطران غفرائيل الصليبي. على يمين الممر ارتفعت فوق ضريح الأم المؤسسة لوحة رخامية بيضاء ناصعة عليها صورة الأم المؤسسة المثلثة الرحمة الحاجة كاترينا كركبي بلباسها الملائكي البيزنطي، تحمل الكتاب المقدّس بيد والسُبحة بيد أخرى وعلى وجهها تبدو علامات القداسة. تحت الصورة نقرأ:

«تحيا نفسي وتسبّحك وأحكامك تغنيني»
الحاجة كاترينا كركبة

* مؤسسة ورئيسة رهبنة ودير سيدة الدخول.
* ولدت في بيروت سنة 1848 توحّدت على طريق النسّاك سنة 1888.
* صارت راهبة قانونية سنة 1898: احتفل بتلبيسها اسكيم التقدم

(1) إن عائلات غنطوس وعيد والمتني وشقير وهدايا وبريدي وأبو شهلا ومجدلاني جميعها لبنانية. من أبناء هذه العائلات سياسيون وتجار وأطباء ومحامون وصناعيون وأدباء وصحافيون. نذكر مثلاً لا حصرًا: جورج سليم وجورج فريد شقير (وكلاء أجواخ وأقمشة) والعصاميين الزحلاويين السادة أبناء نجيب غنطوس أصحاب «عرق غنطوس وأبو رعد» وهم: إيلي وجرجس وجوزف والمحامي ألبير. من آل غنطوس أيضاً محقق بيروت الأستاذ جورج غنطوس. ونذكر: جبران المتني، والنائب نسيم مجلادني، والمغفور لهما الرئيس الأسبق حبيب أو شهلا، له مقام في حديقة مستشفى القديس جاورجيوس، كما ذكرنا والصحافي فريد أبو شهلا منشئ مجلة «الجمهور»، وطوني بريدي رئيس منطقة الأشرفية الكتائبية.

في طريق الكمال الإنجيلي سنة 1900.

* توشّحت بالاسكيم الملائكي ثانية سنة 1902.
* قلّدها صليب إنكار الذات غبطة البطريرك الأورشليمي داميانوس سنة 1905.
* استلمت مع تلميذاتها الراهبات هذا الدير الشريف وسُمّيت رئيسة في 21 تشرين الثاني سنة 1909.
* انتقلت إلى الأخدار السماوية في 10 آذار 1905.

نفعنا الله بصلواتها. وجعل ذكرها مؤبدًا آمين[1].

ذكريات وأوقاف

وفي دير سيدة الدخول شواهد أُثبتت فوق أبواب ما يزيد على عشرين غرفة موزعة بين طبقتي الدير. واحدة من زوجة إلى زوجها، وأخرى من أم إلى ولدها أو ابنتها، وثالثة من أخ إلىَ أخيه. أسماء غابت عن دنيانا فتحوّلت ذكريات وأوقافًا: برباري، أبو شلَش، ربيز، بشور، شحادة، كركبة، أبو شعر، تويني، سرسق، جَدي، الشماس، سبط، شقير، سابا، سكر، عفيش، محفوظ، حنّون، ملكي، نخلة، فرزلي، دبس، كبّوش، متني، أبو حلقة، غبريل، عبد النور، شاليش... فهؤلاء كانوا بالأمس، مثلنا يجاهدون ويتعبون ويتألمون ويحزنون ويفرحون.

ماذا في القبور؟

فريق يقول: لا شيء يبقى سوى العظام، وهذه مع الأيام تغدو ترابًا فحسب.

---

(1) هذه اللوحة هي من أعمال النحّات المرحوم ج. ابوسلو. صُنِعت وركّبت فوق ضريح المؤسسة الأم كاترينا سنة 1916.

وفريق يقول: من القبر تبدأ حياة أخرى هي أوسع مدى وأرحب من الحياة الدنيا التي ما خلت يومًا من فساد أو طغيان.

ومهما يكن، فإن لنا في مثل هذه الذكريات والأوقاف وفي صفحات التاريخ نوعًا آخر من الحياة، فهلا عرفنا إلى ذلك سبيلاً؟

الدير والحرب والسلام

أكثر من عشرين راهبة يعملن في خدمة دير وكنيسة سيدة الدخول. عطاؤهن دائم مستمر، وسخاؤهن على الفقراء والمحتاجين كبير مثير. تواضُعُهن يجعلك قرير العين، وبساطتهن تجدد فيك الثقة بالنفس والاعتقاد بأن المحبة ما زالت موجودة. فالرئيسة الأم الحاجة مارغو تعطي ووجهها إلى الأرض، فإذا أعطت باليمين لا تترك اليسار تعرف، وإذا أعطت باليسار فلن تعرف اليمين.

لقد أمّ الدير مهجّرون تهدّمت منازلهم وتعطلت أعمالهم، فاستقبلتهم الحاجة الرئيسة وشقيقتها الأخت بلاجيا والراهبات، فكن لهم أمهات وأخوات. وكما سائر الأديار المسيحية اللبنانية، على الساحل وفي الجبل، ساهم دير سيدة الدخول للروم الأرذوذكس في إنقاذ تلك الأسَر التي دمّرتَها الحرب واقتلعتها من منازلها وقراها. ومما لا شك فيه أن دير السيدة في «كرم الزيتون» سيبقى، في السلم كما في الحرب، كرْمًا على درب المسيح وأمه العذراء مريم.

كيف أنشِئ دَيْر سيّدة الدخول

نحن لا نعرف شيئًا يُذكر عن طفولة مؤسِّسة دير سيدة الدخول الحاجة كاترينا كركبي (كركبة)، وإنما تشير المرحلة الثانية من حياتها إلى أنها نمت وترعرعت في بيت كان يسوده جوّ مسيحي هادئ. وقد تكون

عائلتها من تلك العائلات المسيحية الأرثوذكسية البيروتية التي اشتهرت بالتجارة والأعمال الحرة[1].

يُحكى عن هذه السيدة الفاضلة أنها تزوجت من رجل من آل جهشان، وأن زوجها نفسه لم يكن ذا عمر طويل، إذ مات بعد مضي ما لا يزيد على ثلاث سنوات من زواجهما. ويُفترض أن يكون زوجها المذكور رجلاً فاضلاً ومخلصًا، مما جعلها تسلك طريق النسّاك متعالية عن الأهواء والشهوات، حافظةً لزوجها الودّ والحب من جهة، وداعية لعمل الخير والإحسان من جهة أخرى.

في بيتها الكائن في الخندق الغميق، من البسطة التحتا، الذي على أنقاضه قامت بناية «الأحوال الشخصية»، أخذت كاترينا تتنسك ولمّا تبلغ الأربعين، فالتزمت الصوم القاسي، إذ كانت تأكل مرة واحدة كل 48

(1) عائلة كركبي (كركبة) لبنانية يُعتقد أن أصلها من بعلبك مع أن الدكتور حسن عباس نصر الله، صاحب الكتاب النفيس «تاريخ بعلبك» (طبعة 1984) لم يؤكد لي ذلك. وأنها نزحت من هناك إثر نكبة 1860م. حاولت الاتصال ببعض أبناء هذه العائلة، في بيروت، فلم أوفّق إلا إلى السيد غسان نجيب كركبي، محاسب، من سكان فرن الشباك، فقال لي إن هذه العائلة تعود بأصلها إلى بعلبك... مستندًا إلى سجلات في دائرة نفوس زحلة. غير أن السيد كركبي هو كاثوليكي لا يحفظ شيئًا عن الأم كاترينا، وإنما يعرف أن له عمة (...) من راهبات الناصرة توفيت في بيروت. وأرشدني السيد غسان إلى المهندس جورج فريد كركبي الذي لم أتمكن من الاتصال به. ولدى زيارتي للدكتور ناجي شوفاني، رئيس مركز الدورة للضمان الاجتماعي - بيروت، في مكتبه، وذلك يوم السبت 29/ 3/ 1985، وجدت أمامه كتابًا عنوانه: «المصارف الأجنبية في لبنان: نظامها القانوني والضريبي» لمؤلفه القاضي الدكتور مروان كركبي، وبما أن الكتاب لا يحمل عنوان المؤلف.. وبما أن المؤلف هو غير معروف من الدكتور شوفاني. رجعت إلى دليل الهاتف للبنان فلم أعثر على هذا الاسم، وعندئذٍ توقفت عند هذا الحد.

ساعة، وقاطعت اللحوم والحليب والبيض والسمك، مكتفية بالحبوب والخضار المسلوقة، مستعينة بالصلاة وقراءة الكتاب المقدّس.

وأكبّت كاترينا على مطالعة سِيَر القديسين وأعمالهم، فلما أعجبت بحياة هؤلاء وإخلاصهم للعقيدة، صممت على تقليدهم والتقيّد برسالاتهم، فذاع صيتها بين العائلات البيروتية المسيحية والإسلامية، وراح النساء يتسابقن لزيارتها في منزلها، وكثيرًا ما كانت تدعوهن إلى مشاركتها الصوم والصلاة. وواصلت كاترينا العبادة والزهد والتقشف، إلى أن صار بيتها كما المزار يقصده البائسون والمعذَّبون من مختلف المذاهب والطوائف يسترحمونها ويتبرّكون بها.

وحين أشرفت كاترينا على الخمسين، أعلنها المثلث الرحمة غفرائيل (شاتيلا الدمشقي) مطران بيروت ولبنان، يوم الأربعاء في 4 حزيران 1898، راهبة قانونية. وبعدها بسنتين سافرت الأخت كاترينا إلى القدس لزيارة الأماكن المقدّسة، فاحتفل بها رئيس دير مار سابا[1] الأب فيلبّس مع رهبان الدير. ودعا في يوم الفصح المجيد سنة 1900 إلى حفل كبير في ديرة العامر، فكان يومًا مشهودًا، إذ لبست فيه الراهبة كاترينا اسكيم التقدّم في طريق الكمال الإنجيلي.

وفي عام 1902 وَشَحَها المطران جراسيموس مسرّة في بيروت، الاسكيم الملائكي». ومن ذلك الحين بدأت تقتبل الراغبات في مشاركتها بعيشة النسك في بيتها الذي أصبح مقصدًا شريفًا لحضور الصلوات والمواعظ الدائمة»[2].

(1) أنشأ هذا الدير القديس سابا (439 - 532م) قرب القدس وسمّاه على اسمه. عُرف عن هذا القديس أنه تنسك في فلسطين على القديس افتيموس، وحارب تعاليم اوريجانوس 185 - 230م. أشهر أساتذة مدرسة الاسكندرية اللاهوتية.

(2) عن مطبوعة بمناسبة القداس السنوي الأول عن نفس الأم المؤسسة كاترينا كركبة، محفوظة في الدير.

فمن الضهور ـ المتن، جاءتها الأخت ماري قربان، ومن بيروت الأخت ماري غوث، ثم الأخت أفدوكية[1] مجدلاني، ابنة عم

---

(1) على اسم افدوكية (Eudexie) زوجة الامبراطور البيزنطي (أركاديوس (Arcadius) (377 ـ 408) ابن تيودوسيوس (Theodosius) أول الآباطرة البيزنطيين. والمعروف أن أفدوكية قد غضبت على القديس يوحنا فم الذهب (347 ـ 407) ـ أحد آباء الكنيسة ومعلميها ـ واضطهدته فنفته لأنه «وبَّخ بمواعظه أهل البلاد البيزنطيين على سيرتهم».

عن هذا القديس جاء في كتاب «تاريخ الكنيسة السريانية» الأنطاكية، الجزء الأول، تأليف سويريوس يعقوب توما (البطريرك يعقوب الثالث) ما يلي: «ولد يوحنا فم الذهب في سنة 344 في مدينة أنطاكية في بيت موسر. كان أبوه سقوندس قائدًا في الجيش الروماني في سوريا، وكانت أمه انثوسة من ربات الفضيلة، ترملت في العشرين من عمرها فتولت تربيته غارسة في نفسه أصول الفضائل بإرشاداتها المنبعثة من قلبها العامر بالفضيلة حتى شبَّ وترعرع على مبادئ التقوى. درس علمي المنطق والبلاغة على ليبانيوس، والفلسفة على اندروغوتيس. وفي سنة 369 أقامه البطريك ملاطيوس قارئًا في بيعة أنطاكية، ثم تنسك في دير مجاور وقرأ علم الكتاب المقدس على ديودورس الشهير أستاذ المدرسة الأنطاكية اللاهوتية. عقد مودة مع باسيليوس الكبير في حداثته وصنف كتابًا في الكهنوت».. «وكان ثاوفيلوس الاسكندري يحسد مناقب الذهبي الفم بل لم يكن مرتاحاً إلى رسامته وقد أصرَّ قبل ذلك على رسامة قسيسه وصاحبه ايسيذورس للكرسي القسطنطيني ولم يفلح. ومما زاد في الطين بلة أن الذهبي الفم استمع إلى شكوى الرهبان الأربعة الملقبين بالأخوة الطوال الذين كان قد عزلهم ثوفيلوس»... «ولما ركب السفينة ليمضي إلى منفاه (كما شاء ثاوفيلوس وافدوكية واينيانيوس أسقف قبرص وسوريانوس أسقف جبلة وانطيوخس أسقف عكا وأقاق أسقف بيرية) حدثت زلزلة هائلة كادت تدمر المدينة واهتز لها على الأخص القصر الامبراطوري. فانزعجت أودكسية (افدوكية) وبكَّتها ضميرها وطلبت إلى ارقاديوس ليعيده ففعل»... «ثم عادت القيصرة إلى كرهه بعد شهرين فكاشفت ثاوفيلوس الذي أسرع إلى إعلان خلعه. وفي 15 حزيران سنة 404 نفي ثانية بأمر القيصر إلى مدينة نيقية» (طبعة 1953) (ص296، 297، 298).

الأستاذين نسيم ونعيم مجدلاني، وغدا منزل الحاجة كاترينا في الخندق الغميق «يُعرف ببيت الراهبات الأرثوذكسيات».

زارت الحاجة كاترينا القدس مرة أخرى سنة 1905. وهناك قلّدها البطريرك الأورشليمي داميانوس الأول الذي سبق ذكره في 20 نيسان من السنة ذاتها ـ كان يوم الفصح المجيد ـ صليب إنكار الذات.

من القدس عادت الحاجة كاترينا كركبي لتنشئ في بيتها الصومعة، في شهر كانون الأول 1908، قانونًا رهبانيًا سمّته قانون «كوخ العذارى الساهرات»، وجعلت عنوانه قول السيد المسيح: «اسهروا وصلّوا لئلا تدخلوا في تجربة».

كان هذا القانون الرهباني قاسيًا جدًّا وصارمًا جدًّا. فالأكل ـ مثلاً ـ مرة واحدة كل 48 ساعة، على أن يكون خاليًا من اللحوم والبيض والزيت. كذلك العبادات... إذ الصلاة متواصلة، وقراءة الكتاب المقدس مستمرة، والاطلاع على سِيَر القديسين وشهداء الكنيسة واجب، بل أكثر من واجب.

مكثت الحاجة كاترينا في الخندق الغميق حوالى ستين عامًا من البرّ والقداسة والإحسان. قهرت جسدها بالصلاة والخشوع والتقشف والعزلة. مسحت بالزيت على وجوه المتعبين ممن كانوا يتوافدون إليها. أضاءت الشموع من أجل النفوس المعذّبة. وتألمت للذين غيّبتهم الحروب والفتن الطائفية عن أطفالهم وعائلاتهم. أنفقت القروش على المساكين الضعفاء. صلّت لأجل الأغنياء ليكونوا محسنين، وللحكام كي يعدلوا، وللملوك كي يُحلوا السلام بين الشعوب.

لقد أفنت الحاجة كاترينا صباها، في «الخندق الغميق» تتعبد وتتنسّك. ولما فكّرت في إنشاء دير وكنيسة، وجَدت عند المحسِنَيْن المرحومَين متري غلام وزوجته سعدى أبو الروس، الاستعداد لهذا الأمر

والرغبة في تحقيقه، لا سيما بعد حادث كاد يقضي على السيد غلام لولا الحاجة كاترينا نفسها.

وكانت الأعجوبة

أصيب المرحوم متري أندراوس غلام[1] سنة 1908 بوجع في يده أخذ يشتد يومًا بعد يوم. راجع بشأنه أطباء ذلك الزمان، فلم يوفق إلى العلاج الشافي. جرّب الطبّ العربي وجميع النصائح التي أسديت إليه ولكن عبثًا. أقلق هذا الأمر متري غلام وزوجته الفاضلة سعدى، وكادا يتعقّدان لولا فكرةٌ خطرت لسعدى فجر أحد الأيام الباردة. وربما راودتها هذه الفكرة إثر حلم جميل استيقظت عليه إذ رأت فيه زوجها يبني، في «كرم الزيتون»، على عقار له هناك، ديرًا وكنيسة.

قالت سعدى لزوجها «هات نروح لعند الحاجة كاترينا كركبي في الخندق الغميق. بقولوا عنها فاضلة وقدّيسة. بلكي الله بيشفيك عَ يدها وخلينا ننذر إذا كان شفيت إنّا نبني كنيسة ودير للحاجة كاترينا وراهباتها بأرضنا بكرم الزيتون».

فلاقت الفكرة استحسانًا وقبولاً لدى متري الذي أنهكه الألم. وما إن أشرقت الشمس حتى مضى الزوجان نحو «الخندق الغميق» يقودهما إيمان قوي وثابت، بل أمل كبير بنجاح هذه الرحلة السعيدة.

(1) آل غلام، عائلة لبنانية هاجرت من البربارة مع السراسقة... وسكنت بيروت دون سواها، عرف منها جورج طانيوس (مدقق حسابات ومستشار مالي) وشقيقه جوزف (مدير عام بنك البحرِ المتوسط) وكاتينا جان غلام، أول قاضٍ ـ امرأة في لبنان، والمحامي بيار شقيق جورج وجوزف المذكورين، والدكتور سعاد شقيقة كاتينا. كما عرف من آل غلام أيضًا: الارشمندريت اغابيوس والارشمندريت جراسيموس.. حسبما أخبرني المختار بشارة انطوان غلام.

سمعت الحاجة كاترينا ما قاله متري غلام وزوجته فقالت: «هذا أمر بسيط جدًّا بعون الله وبركة أمّنا السيدة العذراء والقديسين» ثم أخذت كوبًا صغيرًا فيه زيت ومسحت له يده المريضة، ثم شدّتها برباط من الصوف وصلّت له ودَعَت، فرجع متري وسعدى إلى منزلهما والثقة بنجاح «العملية» تملأ قلبيهما.

في الليلة التالية صحا متري من نوم عميق كان قد استسلم له باكرًا ليجد الرباط المشدود حول يده مرميًّا على الأرض. ارتجف، رفع يده فإذا هي سليمة تمامًا. حاول مرة أخرى ثم ثالثة ثم رابعة. ولما اطمأن إلى ذلك أيقظ زوجته ليطلعها على ما حدث، ففرحت بما رأت، وجَلَسا يصلّيان حتى الصباح.

وحين طلع النهار انطلقا نحو «الخندق الغميق» ليعْلما الحاجة كاترينا هذا الأمر العجيب. قَبّلا شاكرَين يدها، وأكدا لها أنهما سيباشران ـ حالاً ـ بناء كنيسة ودير في «كرم الزيتون» فسُرت الحاجة كاترينا لهذا الخبر البشارة وقالت: «لتكن إذًا السيدة العذراء شفيعة الكنيسة والدير. مبارك عملكما. أسأل الله التوفيق والنجاح».

إلى كرم الزيتون

بعد أقل من شهر واحد بدأت حركة البناء في «كرم الزيتون» وبدأ شَقْع الحجارة. ويومًا فيومًا كانت الجدران تعلو وتشمخ، فتهافت أرباب الفضل والتقوى يمدون الزوجين السعيدين: متري وسعدى بالمساعدات.

مع نهايات صيف 1909 تمّ البناء، فطُلب من الحاجة كاترينا أن تنتقل من «الخندق الغميق» إلى «كرم الزيتون» فرحّبت بذلك، إلا أنها أجّلت الموعد إلى يوم 21 تشرين الثاني، ليكون دخولها الدير والكنيسة يوم تحتفل الكنيسة الجامعة «معيّدة» لتذكار تقدمة القديسة مريم البتول

الكلية الطوبى إلى هيكل سليمان في مدينة أورشليم[1] من والديها القديس يواكيم والقديسة حنه، وذلك مذ كانت بعد حدثة جداً مكرّسينها لله»[2] فكان لها ما أرادت.

وفي اليوم المحدّد استلمت الحاجة كاترينا وتلميذاتها الدير الجديد باحتفال ديني كبير ضمَّ أكابر الطائفة وأعيانها. إلا أن الحظ لم يؤات

---

(1) هنالك مؤلف سيصدر قريبًا، من إحدى العاصم الأوروبية، للباحث والمؤرخ الدكتور كمال الصليبي، يحمل نظرية تقول بأن أحداث التوراة (التي منها إنشاء هيكل سليمان) وقعت في منطقة عسير في الجزيرة العربية وأن موسى وسليمان عاشا في تلك المنطقة. ويستند الدكتور الصليبي إلى ما ورد في التوراة من أسماء للمدن والقرى هي ذاتها أسماء لمدن وقرى كانت أو ما زالت باقية في منطقة عسير. وما إن تناقلت الصحف العالمية والمحلية بعض الأخبار عن هذا الكتاب، حتى انبرى إلى الرد عليه الدكتور عمر فروخ، في مجلة «الرسالة» البيروتية، صاحبها فيصل السمَّاك (العدد 64، السنة الثامنة، ربيع الأول 1405هـ كانون الأول 1984) والدكتور محمود الزايد، أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركية، بمقالة نشرتها جريدة «الشرق الأوسط»، التي تصدر من لندن، في عددها: الخميس 31 كانون الثاني 1985. إلا أن أيًّا من هذين الردين لم يكن كافيًا أو مقنعًا، إذ إن الباحثين فروخ والزايد لم يطلعا على هذا الكتاب المنتظر، وإنما اكتفى كلاهما بما قاله الدكتور الصليبي في أحاديث صحافية عقدها معه صحافيون لبنانيون، لا سيما في «السفير» و«الشراع». وسنظل نأخذ بما قالت به التوراة، بالنسبة إلى هيكل سليمان، حتى يثبت الدكتور الصليبي سلامة نظريته وصحة بحثه. على أننا لا نستبعد وقوع التوراة في خطأ تاريخي فادح مثل ذاك الذي وعدنا الدكتور الصليبي باكتشافه وتصويبه. إن حاجتنا إلى تاريخ أكثر جدية وأقرب إلى العقل تفرض احترام حرية البحث في مختلف القضايا والشؤون وإلا بقينا على جهلنا أو مع تلك «المسلَّمات» التي ما لبثت تتحكم في إرادتنا وتحول دون تحقيق ما نصبو إليه ونتطلعه بأعين مسهدة وقلوب واجفة.

(2) الكنز الثمين في أخبار القدّيسين، تأليف السيد السعيد الذكر مكسيموس بطريرك طائفة الروم الملكيين الكاثوليكيين، المجلد الأول، طبع ثانية بالمطبعة العمومية خاصة المعلم يوسف الشلفون في بيروت سنة 1866.

الحاجة كاترينا لأكثر من ست سنوات، وبرغم ذلك كانت حياتها الجديدة في الدير الجديد مليئة بالأعمال الخيرية والنشاطات الروحية حسبما هي سيرتها. فاشترت من مالها الخاص قطعة أرض أضافتها إلى أرض الدير وأوصت جمعيتها بتوسيع المشروع حتى يصبح ذا شأن كبير في المنطقة.

واستطاعت الحاجة كاترينا بفضل تقواها أن تحقق الحلم الجميل الذي طالما راودها. ولما أمّنت على مستقبل جمعيتها وتلميذاتها سلّمت روحها «غَلَس الثلاثاء السادس من الصوم الكبير في 10 آذار 1915»[1] قريرة العين. «واحتفل بصلاة الجنّاز عن نفسها سيادة المطران جراسيموس مسرّة مع لفيف إكليروسه الموقّر وهيئة مدارس الجمعية الخيرية احتفالاً مهيبًا اشتركت فيه الأهالي على اختلاف المذاهب. ثم دُفنت في قبر جديد بجانب كنيسة الدير» حيث رُفعت اللوحة التي عليها صورتها ونبذة من حياتها، كما تقدّم، لتبقى «أتعابها النسكية وإرشاداتها الذهبية» قدوة لجميع راهبات الدير وروّاده المؤمنين[2].

عهد جديد

إن حُجّاج الدير والكنيسة سيفاجأون إذا هم علموا أن هذا البناء الضخم الواسعة أرجاؤه قام على أكتاف الراهبات والمال الحلال الذي يجمعنه بعرق الجبين ودموع الجهد.

لقد قُدّر لدير السيدة أن تدخله، في حزيران 1920، طفلتان شقيقتان من آل تبشراني من بسكنتا هما: مارغو (مارغريتا مريم) وبلاجيا. ولما رأت الأم الرئيسة ـ آنذاك ـ الحاجة أفدوكية مجدلاني

---

(1) المصدر نفسه.

(2)

عندهما الاستعداد لخدمة الدير، أبقتهما عندها بعدما استأذنت والدهما المرحوم عيد تبشراني وأمّهما المرحومة ميليا معلوف. فاستقرت الطفلتان الشقيقتان حيث طاب لهما البقاء[1].

أرسلت الأم أفدوكية هاتين الطفلتين إلى مدرسة «زهرة الإحسان» حيث درستا مبادئ اللغتين العربية والفرنسية. ولما ورثت الحاجة أفدوكية مجدلاني عن أهلها ألف ليرة ذهبًا، اشترت قطعة أرض في كرم الزيتون تجاور أرض الدير فاتسعت مساحته، مما دفع الراهبات إلى زراعة الأرض ليبقى على الشقيقتين الصغيرتين، مارغو وبلاجيا، بيع ما تنتجه هذه الأرض للمارة على الرصيف قرب الكنيسة وكما في موسم الخضراوات كما في موسم الزيتون.

شاركت مارغو وبلاجيا في خياطة الثياب العسكرية للجيش الفرنسي طوال فترة الانتداب، إذ كان المتعهد الخياط متري طرابلسي يكلّف راهبات الدير تنفيذ الطلبات تفصيلاً وخياطة التي كانت تصله من الحكومة الفرنسية.

كبرت مارغو وبلاجيا فأُلبستا الاسكيم، وما كان لأحد أن يعلم أن دير سيدة الدخول في الأشرفية سوف يبلغ ذروة المجد، بفضل هاتين الراهبتين الصغيرتين. وفيما اتجهت الأخت بلاجيا سنة 1945 إلى القدس لتدرس قواعد الرسم التصويري، في دير هناك للراهبات الروسيات وبقيت الأخت مارغو تحدّق إلى المستقبل الذي لم يكن ببعيد.

وإذ سهرت الأخت مارغو على الدير والكنيسة وأخلصت لرسالتها، استطاعت أن تنتزع تقدير الأخوات وعارفي دير السيدة

(1) آنذاك كان عمر مارغو تسع سنوات وعمر بلاجيا ست سنوات تقريبًا.

واحترامهم لها، مما حدا المثلث الرحمة المتروبوليت إيليا الصليبي أن يعيّنها، في 3 نيسان 1964، رئيسة عامة على الدير والكنيسة، لتخلف الرئيسة المرحومة الحاجة تقلا عازار.

ومنذ بداية عهد الأم الرئيسة مارغو تبشراني، والدير مستمر في التوسع والازدهار. ويكفيها أنها كانت، في أيام الشدائد والمحن والأحزان، أمًّا مثالية لكل من جاء يطلب مساعدتها.

كلما مررتُ من أمام كنيسة السيدة في «كرم الزيتون» أنحني وأتوقف لأتأمل ذلك الصرح الذي بدأ قبل ثمانية عقود ديرًا صغيرًا وكنيسة متواضعة، ثم ما لبث أن أصبح بفضل توجيهات الرئيسات اللواتي تعاقبن بعد المثلثة الرحمة الأم المؤسسة على رئاسته، لا سيما الأم مارغو تبشراني مدّ الله عمرها، وبفضل تجاوب الراهبات وسهرهن ومحبة المحسنين نجمًا مسيحيًّا ساطعًا في سماء الأشرفية وضواحيها[1].

بَيرُوت... الأيقونة في خطَر

الأيقونة حلمها الأكبر...

هي تعيش للفن، للكنيسة، للصورة.

الأخت بلاجيا تبشراني أيقونة الأزمنة الحديثة.

(1) في هذا الدير تعقد المؤسسات الأرثوذكسية مهرجاناتهما البنية والوطنية. وفي يوم الأحد 10 آذار 1985 أقامت «الرابطة اللبنانية للروم الأرثوذكس» قداساً ترأسه سيادة المتروبوليت الياس عودة، وحضره لفيف من رجال الدين والسياسة والمجتمع.

أشياؤها كثيرة، وألوانها كثيرة.

على القماش ترسم، على الخشب ترسم.

بالذهب تغطي المساحات.

بالزيت والبيض تلوّن.

ودائمًا عبة اللون قبل غيرها، وهي عندها لعبة الحياة.

الشرق المؤمن المسيحي كل أبعاد الصورة والأيقونة في مرسم الأخت بلاجيا الكائن في دير سيدة الدخول للروم الأرثوذكس في «كرم الزيتون» ـ الأشرفية.

التاريخ على الوجوه والثياب والصلبان.

الجغرافيا كل الشرق، وكل الغرب.

ليس للجغرافيا ـ في ذاكرتها ـ مكان محدّد ولو صغير.

فنّها فوق المكان وفوق الزمان.

لماذا؟

لأن الأيقونة للكنيسة والكنيسة لله.

الأخت بلاجيا تتمسك بالمطلق.

هي مسيحية بالمطلق، ومشرقية بالمطلق، وإنسانية بالمطلق.

ثلاثة محاور لدائرة واحدة.

وليس ثمة ما يشير إلى أن هذه المحاور يمكن فصل بعضها عن بعض.

ومهما يكن، فالذي يبقى هو العطاء، ولا سيما إذا ما كان من القلب.

هكذا ترى الأخت بلاجيا الفن، وهكذا ترى الحياة، فلا فرق، عندها، بين الحياة والفن.

هي ـ إذن ـ ترسم لتحيا، وتصوّر لتحيا، وتلوّن لتحيا.

ولا بد من القول إن الأخت بلاجيا قد خُلقت لتكون مثلما هي اليوم.

بل قل: خُلقت من أجل الفن الكنسي.

تغادر الأيقونة أو الصورة مرسمها محملة بشيء منها.

بعض من عينيها وبعض من قلبها وأعصابها يذهب إلى حيث تذهب أيقوناتها وصورها.

من الشرق إلى الشرق إلى الغرب، والعلاقة مشرقية.

تنظر، دائمًا، إلى الأمام، إلى الذي هو الطريق ـ الحق.

سِفْر من اللوحات الخالدة يتجدد كما الإيمان والحياة والحب.

وليس الزمن عدو الأيقونة.

الأصح، أن الزمن هو صديق الأيقونة وحليفها الدائم والمخلص. فكلما ابتعدت بكَ الأيامُ عنها، كلما تألقتْ روعة وجمالاً لا الغبار ولا الصدأ يؤثران في أصالتها.

كل شيء يدخل في الماضي وينأى ما عدا الأيقونة والصورة.

كما المسيح والعذراء كذلك الأيقونة.

المسيح فيكَ ما دمتَ إنسانًا، والعذراء معك ما دمتَ على الحب والرجاء.

الماضي في الأيقونة، والمستقبل في الأيقونة.

الأيقونة حكاية لا تُنسى لأنها غير مكتوبة بالحبر.

وعهد لا يُلغى لأنه لم يُذكر في كتاب.

رائحة الأيقونة تنقذ من بليّة.

إنها فرح اقتحمنَا قبل طلوع الفجر وقتَ كنا في جوف البؤس.

لأجل هذا الفرح كان الصراع، وما زال، وسيبقى.

أنتَ أمام الأيقونة لا تملكُ سوى الصمت والتأمل.

اغسلْ يديك!

اغسلْ عقلك!

اغسلْ قلبك!

امسحْ عينيك بماء الورد!

أنتَ في حضرة الأيقونة.

يجب أن تكونَ جميلاً، إذا أردتَ أن تنظر إلى الجمال!

هل تستطيع معي صبرًا؟

حبُّ الأيقونة من أعمال الروح..

اللغة واحدة والعلاقة واحدة.

المسيح واحد والعذراء واحدة بينما القديسون كثُر.

تأمَّلْ!

كلما اجتاحني الخوف أو الحزن ألجأ إلى مرسم الأخت بلاجيا تبشراني.

ماذا هناك؟

كل شيء لأجل راحة النفس والضمير.

هناك، تتراجع الآلام كأنك تتعاطى العلاج.

اللون يداوي الأعين والنفوس.

الشكل يبرِّد الحق.

تأمل!

الذي يأخذ الفرح من الأيقونة لا يصيبه حزن ولا يدخله ألم.

هكذا تكلمت الأخت بلاجيا.

صار لها حوالى نصف قرن مع الرسم والتصوير.

قبل الريشة كم «خرطَشَتْ» على الحيطان والمقاعد بالطبشور وأقلام الرصاص والفحم!

بدأتْ رحلةُ الأخت بلاجيا مع الفن الكنسي، فدخل «كرم الزيتون» عصر الأيقونة.

نقطة التحول أوسع من الخيال.

مثل النعمة التي تهبط من فوق، نزل حب الأيقونة على الأخت بلاجيا فاهتزت واضطربت.

عاصفة «العبقرية» ضربت الراهبة الصغيرة.

«كرم الزيتون» تحت وطأة الوحي، والراهبة الصغيرة تحت وطأة الوحي أيضًا.

زهرة الآلام الزرقاء ملأت «كرم الزيتون»، غطت الأرصفة والعتبات، صعدت إلى الشبابيك ثم إلى السطوح.

دخلتْ زهرة الآلام الزرقاء إلى البيوت فاحتلت الأرائك والأسرّة والخزائن واحتلت حتى ثياب الأطفال.

كل شيء تغيّر في «كرم الزيتون»، لكن أحدًا لم يعرف أن عصر الأيقونة قد بُعث من «الكرْم...».

من بيروت إلى القدس إلى أثينا والخط مستقيم أبدًا.

القدس ضاعت!

أثينا ما زالت تذكّر بأبيها زفس سيد آلهة اليونان، وتذكّر أيضًا بجدها كرونس إله العواصف والأمطار!!

وكأن لا تنفع الذكرى؟

رأيت موسكو وكل روسيا قد هربت إلى ما وراء الشرق!!

لعلها تعبت من التأمل، أو ثقل عليها الفرح.

المشرقية مسؤولية لا يتعهدها سوى النخبة، النخبة المعاكسة.

بقيت بيروت

بيروت الحجر والليل والتجارة هشمتها الحرب.

صارت بقايا مدينة.

لكن بيروت الأخت بلاجيا ما زالت تنفح الدنيا بالطيب والعطايا.

بيروت «كرم الزيتون» تحميها «السيدة».

وبيروت الأيقونة تتمرد على الذين يحملون النار والحديد.

من كنائس صيدا والخيام وباب إدريس والشوف والبقاع والشمال حملوا إلى «كرم الزيتون» أيقوناتهم وصوَرَهم التي جرّحتها الحرب أو دمَّرَتْها.

الأخت بلاجيا بكت، سقطت أرضًا، كسرت ساقها.

لقد استطالوا على الأيقونات؟

المشرقية في خطر!

لن أدَعَهم يحرقون رموزنا!

هكذا تكلمت الأخت بلاجيا،

وظلت تقاوم الحدث الرهيب لكي ترمم الأيقونات ـ الضحايا.

بعد شهرين قضتهما مع العذاب والوجع، عادت الأخت بلاجيا إلى مرسمها.

مهمتها كانت شبه مستحيلة.

أجل!

غير أن الغلبة كانت للإرادة والصبر والثقة بالنفس.

لقد أرجعتْ فنانتُنا إلى الصور والأيقونات المحطمة والمشوّهة روقنها وبهاءها.

ألم تقل: لن أدعهم يحرقون رموزنا؟!

الحرب على الأيقونات ـ في لبنان ـ حرب على الأخت بلاجياو«كرم الزيتون»وحرب على بيروت الأيقونة.

ماذا يقول عشاق الأيقونة؟

ماذا يقول المشرقيون؟

إذا سقطت بيروت الأيقونة سقط ما سواها.

وأنتم، أيها الفنانون، مهما اختلفت مدارسكم وعقائدكم، ألا تخافون على الفن من الحرب التي باتت تهدد بيروت ـ الأيقونة؟

صرخة في واد؟

لكنني لا أرجو أن تكون كذلك.

الفصل السّادس

شربل الذي انتصر على شربل

«إن حَياة القدّيسين في جميع عُصور التاريخ المسيحي كانت دائمًا مظهرًا بينًّا من «حجر عثرة» يسُوع: إنهم علامة للمخالفة. حياتهم تدين العالم: فهي تقتدي بحياة السيّد المسيح الذي يطيب له أن تسطع أشعة قدرته في الضعف البشري. إن ضميرهم المستنير بنور إيمان فعّال، ينشر على القريب والبعيد تعليم الإنجيل الأصيل المعاش في حُبّ الطاعة والفقر والحرّية الباطنية وفي الهرب إلى القِمَم لملاقاة أبي الأنوار في صلاة صامتة ثم الانحدار إلى معترك الحياة لكي يشهدوا للأوحد».

الكردينال بولس بطرس المعوشي
بطريرك أنطاكية وسائر المشرق
من رقيم له في 17/5/1966
خرجه الأب بولس ضاهر في كتابه
«شربل إنسان سكران بالله» الطبعة الثانية 1978 ص5

شربل الذي انتصر على شربل

لو بقيت عنّايا[1] بلا ....

---

(1) عنايا: قرية في لبنان ـ قضاء جبيل. جاء في كتاب الأب بولس ضاهر: «في القرن الثالث عشر كان الموارنة وهم ملتفُّون حول بطريركهم الموطّد كرسيه ردحًا من الزمن، في قرية حجولا القريبة يقطنون جبل علماية والقرى المجاورة. وكان، بعد سقوط فلسطين، أن لجأ الصليبيون إلى لبنان واستنجدوا بالموارنة. ولكنهم ـ بالرغم من شجاعتهم ـ كان لا بد للعدو المتفوق بالعدد والعِدد أن يتغلّب. فقبض الفاتحون في حجولا على البطريرك القديس جبرائيل صديق الصليبيين وأخيهم في الإيمان. بعد أن قاسى عذابات شبيهة بآلام المسيح، نال إكليل الشهادة في طرابلس، رافضًا الجحود بدينه المسيحي، غافرًا لمعذبيه، عام 1305. فعملت في الأديار والكنائس والقرى يد السلب والتدمير، وقد عزم الغزاة الجدد على إبادة الموارنة، حلفاء الصليبيين، وإبدالهم بشيعيين، وهم طائفة من المسلمين المستقدَمين من بلاد فارس والعراق. غير أن هؤلاء لم يلبثوا ـ بعد اختلاطهم بالموارنة ـ أن اهتدوا، إن لم يكن إلى الدين المسيحي، فعلى الأقل إلى روح المحبة والأخوة. والعطف الأبوي الذي أحاطهم به البطريرك بولس مسعد، ولا سيما بعد زيارته لسلطان القلسطنطينية، كان كافيًا لكسب ثقة هؤلاء الأخوان الساميين الذين هم أيضًا ورثة الموعد الذي عقده الله مع إبراهيم». أضاف: «كانت المحبسة إذن وما حولها ملكًا لعائلة شيعية هي عائلة مشايخ آل ملحم من قرية طورزيا، منهم ابتاعها الشابان يوسف (أبي رميا) وداود (خليفة) بما وفَّراه من كد أيديهما، أما الباقي، فقد اشتراه الرهبان في ما بعد عام 1814م. وأتت السنون. وبعد أن أصبحت عنايا ملكًا للشيعة، عادت للموارنة، مسترجعة اسمها الجليل القديم، حالاً محلها اسمها الجديد «نبي الراس». والجدير بالذكر أن الأسماء التي تحملها هذه الرابية وما =

دير[1] ولا محبسة لما خرَجَتْ من قضاء جبيل إلى قضاء كل لبنان فقضاء العالم.

ولو لم يأت يوسف أنطون مخلوف (شربل)[2] إلى دير عنايا والمحبسة[3] لبقي الدير والمحبسة ينتظران حتى يومنا هذا وإلى ما بعد مَن يحوّلهما إلى مزار.

= يجاورها هي أسماء مأخوذة عن الأراضي المقدسة! فقمة عنايا بالذات تحمل اسم «جبل التجلي»، واسم طورزيا، إلى الجنوب، منقول عن «طورزيت»، «جبل الزيتون»، إلى الشرق يبدو «آرونا اليابوسي» (المعبد الوحيد، في لبنان، المشيد لإكرام أبوي أمنا العذراء المجيدة). ثم إن عنايا، اسم الهضبة التي بني عليها دير مار مارون ومحبسته، قد يكون مأخوذًا من كلمة «بيت عنيا». وأخيرًا، إلى الشمال، تبدو «صخرة قيافا»، وإلى الغرب معبد قديم على اسم «يواكيم وحنه... وابتاع الأرض التي بني عليها الدير من شيعي حجولاً بمبلغ 4500 قرش عام 1820، الطيب الذكر الأب اغناطيوس بليبل، رئيس الرهبانية العام» (شربل إنسان سكران بالله، (ص77، 78).

(1) هو دير مار مارون، وقد وضع الحجر الأول في الساحة سنة 1828. رئيسه الحالي الأب لويس خليفة كما تقدم.

(2) ولد يوسف انطون مخلوف (الأب شربل) في بقعكفرا سنة 1828.

(3) سنة 1851 غادر أهله وقريته سرًا إلى دير سيدة ميفوق، ثم إلى دير مار مارون عنايا، حيث اندمج في سلك الرهبانية اللبنانية المارونية، متخذًا اسم شربل أحد شهداء الكنيسة الأنطاكية في القرن الثاني. أبرز في أول تشرين الأول 1853 نذوره الاحتفالية في دير مار مارون عناية، ثم التحق بمدرسة الرهبانية في دير مار قبريانوس كفيفان حيث أكمل دروسه اللاهوتية. سيم كاهنًا في بكركي في 23 تموز 1859. عاش في دير مار مارون عنايا مدة ست عشر سنة كان خلالها مثال الراهب القديس وانتقل إلى محبسة مار بطرس وبولس المجاورة للدير سنة 1857، وما كان يخرج منها إلا بأمر الطاعة المقدسة لرؤسائه وفيها نهج الآباء القديسين صلاة وحياة وممارسات. انظر: «لبنان وطن سكران بشربل» جمعه ونسقه وقدّم له الأب بولس ضاهر، طبعة أولى 1978 (ص14).

عنايا شربل لم تعدْ قرية لبنانية يحدّها قضاء معيّن. فهي معروفة اليوم لدى كثيرين من الناس من الشرق والغرب وسوف تُعرف أكثر بعد سَفَرِها الثاني إلى روما.

سافرت عنّايا إلى روما، أول مرة سنة 1965 يومة أُعلن تطويبُ راهبها صاحب العجائب الأب شربل مخلوف[1].

ستغزو عنايا ـ القريةُ ـ العالمَ المسيحي بأكمله لأن شربل خدم المسيح في ديرها ومحبستها برًّا وسلامًا وفرحًا وصبرًا.

وإن كان التاريخ قد حكى عن معارك «واترلو» و«جبال الأورال» و«العَلَمين» و«سيناء» وغيرها من المعارك التي انتصرت فيها جيوش أو انكسرت واندحر قادة جبابرة أو بلغوا ذروة المجد، فعلى التاريخ أن يذكر باعتزاز وشرف معركة عنايا التي دامت زهاء سبعة وأربعين عامًا. ولكنها ـ بكل تأكيد ـ ليست مثل سائر المعارك القديمة منها والحديثة.

في كل معركة يتقابل جيشان أو أكثر فيبدأ الصراع وشدّ الحبال وإرهاق الأنفس العظيمة. ومن الميادين مايحفظ ـ حتى اليوم ـ آثار حوافر الخيول وأقدام الفيَلَة وبقع الدم الذي أريق. ومنها أيضًا ما يزال يئن تحت جنازير الدبابات وعربات الموت، إذ يشهد الآلاف لتلك الطائرات الحربية التي كانت تغطي الأجواء بما فعلتْه قذائفها في المواقع العسكرية

---

(1) سنة 1954، وقّع البابا بيوس الثاني عشر قرار قبول دعوى تطويب شربل مخلوف وحث البابا يوحنا الثالث والعشرون على الإسراع بدرس ملف الدعوى. وسنة 1965 وقّع الباب بولس السادس قرار إعلان بطولة فضائل الأب شربل. وتمت حفلة التطويب في 5 كانون الأول سنة 1965 إبان اختتام المجمع الفاتيكاني الثاني. وكان لبنان ممثلاً رسميًا وشعبيًا تمثيلاً يشمل جميع اللبنانيين. وسنة 1976 وقّع الباب بولس السادس قرار إعلان قداسة الطوباوي شربل في احتفال عالمي أقيم في 9 تشرين الأول سنة 1977.

والمنازل الحدودية والمدن الآمنة، إذ جعلتها خرابًا ما بعده خراب. بيد أن معركة عنايا هي من نوع آخر. إنها حرب لا خيول فيها ولا سيوف، ولا دبابات ولا عساكر، ولا نبال ولا قذائف، ولا صواريخ عابرة الحدود، ولا بوارج مرابطة على الشواطئ، تغطّي فريقًا وتضرب آخر. بل هي حرب الإنسان على ذاته، بطلاها القلب والعقل.

معركة بلا غبار

في معركة عنايا بقي شربل، خادم المسيح، سبعة وأربعين عامًا يصارع شربل اللحم والعظم.

شربل الأول «مجدُه يبدأ في القبر»، وشربل الثاني «مجدُه ينتهي في القبر». وشتان بين مجد ومجد وبين شربل وشربل.

سلاح الأول حب الله، إذْ نسي ذاته «ليفتكر» في الله ويتجرّد من كل ما فيه ليقْتَني الله. وسلاح الثاني قلب وجسد يذكّرانه بأمه وعشيرته وقريته وأرضه وثيابه وحبيبته، وكِلا السلاحين حادٌّ وقاطع.

معركة بلا غبار بدأت في دير وانتهت في محبسة.

لماذا المدافع ودويها؟

لماذا القصف بالطيران؟

لماذا الرجْم بالقذائف العنقودية وغير العنقودية؟

إنه لصراع بين شربل وشربل.

هل أحد تدخّل؟

هل جاء المحبسة «مشروع مصالحة» من هذا الفريق أو ذاك؟

لقد حارب شربل من أجل أن يستحق المسيح.

الهدف واضح إذًا.

ولكن كيف يستحق شربلُ المسيح؟

قلب أمه كان أول المنهزمين إذ تركها ومشى.

وكما أمه كما حبيبته ماري.

ما حاجة شربل إلى ماري وهو لم يشعر مرة واحدة بأنه يميل إليها مثلما يميل الحبيب إلى حبيبته؟!

ظل شربل يتابع انتصاراته واحدًا إثر واحد، فتغلّب على إرادته وتفوّق على أترابه في القرية، ثم تحرر من أهوائه ورغباته فأتى الدير خاشعًا طائعًا، والدنيا في نظره لا تساوي ساعة صلاة أو لحظة سجود وتأمل، وأقصى غاياته قهر جسده بالانفراد للتعبّد والتنسّك.

ففي مكان لا جليس فيه ولا أنيس، كانت الحرب بين شربل وشربل، تشتدُّ وتعنف يوماً بعد يوم، وقد أبى هذا الراهب أن يهادِن أو يسالم، بل واصل جهاده في الليل كما في النهار، متخذًا هدفًا له المسيح فحسب.

كانت عنايا آنذاك تنام باكرًا، فيطفئ أهلُها المصابيح ليتسلّل كلّ إلى فراشه بعد التعب والعمل الشّاق ما عدا واحدًا من أولئك كان لا ينام أبدًا، عنيتُ به الحبيس شربل القابع وحد، في محبسته، بل الصامت المتعبّد والمحارب الشجاع، أو قل المتمرّد على الدنيا ومظاهرها، الساخر من المادة، الكافر باللذة، والملتصق بيسوع.

وحده شربل كان يبقى السهران الغائب. «نواصته» تحترق لتضيء

صفحة من كتاب أو زاوية من زوايا المحبسة. ويحترق هو كي يلتصق بالمسيح. فالحرب، بينه وبين «النواصة» سجال: في الشتاء، يتحداه الزمهرير والثلج والليل الموحش والنعاس. وفي الصيف تهاجمه العقارب والأفاعي، فيتصدى لهذه وتلك، وللصيف والشتاء، بقلب ملؤه الإيمان والحب. ولا عجب في ذلك ما دام شربل قد نذر نفسه للمسيح وصمّم على أن يكون هو الذبيحة والمحرقة معًا.

شربل لا يعيّد ولا يزور أحدًا ولا هو يدخل البيوت. مهمته أن يسمع بصفاء ومحبة شكاوى المعذَّبين والمضطهَدين والفقراء والمرضى والمتعَبين والبائسين ويصلي لهم، ويطلب من «أبيه السماوي» للمريض الشفاء وللبائس السعادة وللفقير النعمة وللمضطهَد الأمن وللشريد الاستقرار وللمُتعَب الراحةَ والهناءة.

على أن شربل كان يرفض الحسنة والهدية من جهة، إذ لا حاجة إليهما. ومن جهة أخرى، كان يوجّه المحسنين إلى اليتامى والأرامل والعجزة وسواهم من الفقراء والمعوزين، ليدفعوا إليهم بحسناتهم وصدقاتهم وهداياهم.

قال الأب سمعان الأهمجي يصف الراهب شربل مخلوف:

«إن الرئيس (رئيس الدير) كان يرسل، من وقت إلى آخر، الأب شربل إلى القرى المجاورة، إما لتشييع ميت وإما لإسعاف مريض. فكان يذهب في مهمته متجهًا توًّا إلى الكنيسة. كان الأهلون يسرعون إليه من كل صوب تبركًا بلمس ثوبه أو قبلة يده ملتمسين منه الصلاة على ماء يحملونه في أباريق لكي يباركوا به المنازل والماشي وينالوا الشفاء»[1].

(1) خرجه الأب بولس ضاهر في «شربل إنسان سكران بالله» المصدر المذكور سابقًا (ص106).

وكتب الخوري ميخائيل أبي رميا يقول:

«كان الأب شربل يُفرح قلب من يعترف عنده بنصحائحه وإرشاداته. وأنا قد اعترفت عنده مرارًا عديدة. وإني أشتهي الآن من صميم الفؤاد أن أحظى بكاهن مثله لأعترف عنده طيلة حياتي! كان يقرأ في قلب التائب وكانت ذاكرته ترى كل ماضيه. كان يعطي كلَّ داء دواءه. وعلى الرغم من قسوة الكفّارات التي كان يفرضها كان المؤمنون يسعدون بالرجوع إليه»[1].

وليس غريبًا أن يلقى الراهب شربل مخلوف عند إخوانه الرهبان المحبةَ والتقدير وعند رؤسائه الثقة والإعجاب. وكما يروي الأب سمعان الأهمجي المذكور آنفًا إذ يقول:

«إنه فيما كان يمرض أحد الرهبان مرضًا ثقيلاً، كان يطلب إلى الرئيس بإلحاح زائد أن يرسل إليه الأب شربل ليمنحه الأسرار الإلهية، فكان يأتي ويمكث إلى جانب المريض الليل كله جالسًا على الكرسي ولا يفارقه إذا تمكن من ذلك، إلا ليصلي فرضه في الكنيسة»[2].

هذه الكلمات إن دلت على شيء، فعلى غنى في النفس والروح عند الراهب شربل الذي كان قاسيًا على نفسه والناس والكهنة من أجل مسيحية أصيلة.

الكثيرون ممن عرفوا شربل مخلوف مضوا ولم يبقَ منهم شيء يُذكر، فيما بقي حيًّا في ضمائر الناس، يهزها كلما استرخت أو نامت عن حق سليب وشرف طعين ومالٍ غير شرعي ومجدٍ زائف.

(1) نفسه.
(2) نفسه.

المعركة الكبرى

سبعة وأربعون عامًا وأكثر عمر الحرب التي خاضها شربل مخلوف بصمت وإيمان وحب وانسجام مع نفسه حتى صَهَرته القداسة.

ولمّا شاءت السنون أن تحسم هذه المعركة المهمة الخطيرة، ختمت حياة المجاهد الأكبر والحبيس العنيف بموت جسده ليحيا بمجد المسيح وحبه ما دام المسيح والمسيحيون.

اعتقد البعض (...) أن شربل مخلوف قهرته الأيام وطوته الليالي إلى الأبد. هؤلاء ظنوا أن «النواصة» قد غلبته فأحرقته بينما الحقيقة هي أن صراع شربل على الأرض قد انتهى ليدخل في صراع جديد مع الوجدان البشري والذاكرة المستقبلية، فصارت عنايا رجاء المسيحيين وأمل الضعفاء منهم والمقهورين والمظلومين، إذ صار شربل واحداً من وسطاء الخير، أصحاب الكرامات، بين المسيحي والسماء.

تسامع به مرضى ومعاقون وبائسون من أميركا وأوروبا وأفريقيا والهند والصين ومن كل مكان، فأتوا يحملون همومهم وآلامهم، فتوسلوا إليه، وسألوه، وصلّوا له، وبكوا أمامه طويلاً وسهروا على قدميه ووعدوه بالتقوى والإخلاص، فأظهر لهم مكانته وكرامته «عند ربه يسوع» «محبة الله»، فمنهم من ترك عصاه ومشى، ومنهم من ترك حذاءه غير المتجانس في هدأة الليل أو مع بزوغ الفجر وانطلق فرحانًا. وآخرون أنْستهم «العجائب» ما كان يجب أن يفعلوا، فبعثوا من بلادهم برسائل الشكران: فمن كان مصابًا برأسه أرسل رأسًا من البرونز أو خلافه، والذي كان يشكو داء عضالاً في معدته أو رئتيه أو قلبه بعث إما معدة أو رئتين أو قلبًا من الحديد أو النحاس. كذلك الذين فقدوا أطرافهم أو بعضها. هؤلاء أرسلوا الأيدي والأرجل، البلاستيكية وغيرها، فامتلأت

صالة القديس شربل في دير مار مارون بقرابين الامتنان ورسائل التقدير، ممن قصدوه فاستجاب لهم محققًا مطالبهم وظنونهم الحسنة.

محفوظات الدير

في دير عنايا، أو قل دير مار مارون، غرفة محدّدة فيها: عكازات و«رؤوس» و«صدور» و«أمعاء» و«أكباد» و«قلوب» و«أطراف». وفيها أيضًا أحذية لأقدام غير متجانسة أو مشوهة، ورسائل، وصُوَر، كلها تشهد لذلك الذي وُلد في قرية صغيرة تدعى بقعكفرا في أعالي بشري من أبوين فقيرين ومجتمع فقير وعاش حياته مقهور الجسد والقلب.

محفوظات الدير هذه وثيابه التي ما زالت ملطخة بدمه والقطعة الباقية من السنديانة[1] التي كان يصلي تحتها وغيرها تعترف للمحارب العظيم بأنه ما كان إلا مثل حبة الخردل التي زُرعت في الأرض، فصارت أكبر جميع البقول، تكاد أغصانها الكبيرة تلامس السماء.

هكذا بدأ الراهب شربل مخلوف معركته في عنايا، وهكذا انتهت.

كان «سفير الله» و«وزيره»، فعاش ملاكًا وقدّم عجائب ومات ملاكًا.

هذا المسيحي المناضل صوته، اليوم، يجلجل:

«زاغوا عن الطريق ويسوع قال: أنا الطريق.

زاغوا عن الحقيقة، ويسوع قال: أنا الحق.

زاغوا عن الحياة، فوجدوا الموت».

(1) قطع هذه السنديانة رواد الدير ليأخذوا منها البركات والذخائر، فلم يبق منها سوى تلك القطعة التي يحتفظ بها الدير مع أدوات القديس.

شربل مخلوف لم يأتِ بفلسفة أو فكرة أو قصيدة أو بيان، ولا هو فسّر الكلام أو تأوّله، ولا دعا إلى الاجتهاد؛ وإنما قهر جسده في حرب لا مثيل لها.

لقد فاق عطاءُ شربل مخلوف كل هذه العطيّات.

وبفضله غدَتْ عنايا مزارًا وأرضًا مقدسة.

ما أحوجنا، اليوم، إلى شربل جديد.

ويا ليت كلّ قرية لبنانية تُؤتَى النعمة مثلما عنايا.

الفصل السابع

فرنسيس الغزيري
الأب يعقوب الكبوشي

«تعلَّم من شقاء غيرك. تعلَّمْ أن تعطي المحتاج قليلاً، فلا قليل عند من لا يملك شيئًا، ولا عند الله إذا كان العطاء على قدر المستطاع. وإن لم يكن لديك ما تعطي، فأعط من نشاطك، أعط من دموعك؛ ففي ذلك أعظم تفريج لغمّ المعذّب أن يجد قلبًا يعطف عليه ويخفّف شيئًا من شقائه»

غريغوريوس النازيانزي (نحو 329 ـ 390)
(معلم الكنيسة القديس. بطريرك القسطنطينيّة.
صديق القدس باسيليوس ورفيقه في الحياة النسكيّة
كان شاعرًا وخطيبًا كبيرًا)
ذكر هذا القول الأب سمير مظلوم، رئسي «كاريتاس لبنان» في مؤتمره الصحافي الذي عقد في مقر كاريتاس لبنان ـ الأشرفية يوم الثلاثاء 26 شباط 1985

الصّليبَان

اثنان وعشرون بيتًا أو مقرًّا تناثرت في لبنان، ساحلاً وجبلاً، تضم 250 راهبة كما الملائكة، على صدر كل واحدة منهن يرتفع صليب بحجم نبضة القلب، تذكّرنا برجل من هذا الجبل الأبي، هو الأب يعقوب الكبشوي (1875 ـ 1954م) المولود «خليل» من «أب فاضل يدعى بطرس صالح حداد، وأم كريمة اسمها شمس يواكيم حداد، في بلدة غزير»[1] الكسروانية، قاعدة أمراء بني عساف والمشايخ الحبيشيين، ومسقط رأس الأمير بشير الثاني الشهابي.

وإذا أنت تغادر بيروت الجالسة قلقة على أنقاض بيروت الفينيقية

---

(1) الأب سليم رزق الله الكبوشي: أبونا يعقوب، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت 1978. ومما قاله الأب رزق الله عن والد الأب يعقوب: «بطرس حداد، نموذج من رجال الجبل اللبناني، ماروني، كسرواني، فخور بمنطقته التي يعتبرها قلب لبنان، عضو في أخوية العذراء، متدين دون مبالغة. بعد القداس، يهمه فنجان القهوة على السطيحة من يد أم يوسف، وبعد الظهر غطّة النوم واجب مقدس. مشهور بروحه المرحة وسرعة خاطره ونكاته. واقعي، لا تدور عليه الحيل. أضاف: «أقام دعوى على أحد الخصوم، ولما بلغه أن بين الشهود امرأة مستعدة للحلف على الإنجيل زورًا، قال: أسحب دعواي وأترك حقي حتى أوفر عليها هذه الخطيئة». وقال عن والدته: «أما الوالدة شمس، فكانت من نوع آخر. صرح عنها كثيرون ممن عرفوها: «أمه قديسة، أمه أقدس منه» «همها زوجها وبيتها وتربية أولادها. وهي تعرف أهمية دورها ورسالتها. ولا بد أن ابنها كان يفكر بها عندما كتب: «الأم سر البيت» (ص9، 10).

عاصمة الحرْف، والرومانية التي تمتعت بالحقوق «المدنية» فكانت مركزًا لمدرسة الحقوق في القرن الثالث الميلادي ـ أو تدخلها من الشمال، لا بد أن يسترق منك النظر ـ صليبان: واحد على كنيسة تتوّج رأس «جل الديب» وترعى سكان «الجل»[1] وأصدقاءهم وحلفاءهم، وآخر يعتلي قمة نهر الكلب حيث دير يسوع الملك، صاحب الذراعين المبسوطتين دائمًا، الساهر على سلامة «أدونيس» والمقيمين في حَرَمه، والذين يعبرون الجسر، يوميًّا ذهابًا وإيابًا. فالإثنان: صليب جل الديب وصليب أدونيس، يؤكدان مع الأب يعقوب الكبوشي: أن «لا سماء إلا بالصليب»[2]، و«من أراد السماء بدون وجل، كمن يمد يده ليأخذ بضاعة بدون دفع»[3].

وهل يمكنك، إذا ما عرفت أن الذي وراء صليبَي جل الديب وأدونيس هو الأب يعقوب، إلا أن تنحني إجلالاً وإكبارًا لهذا الرجل الذي لبس الخشن وسَلَك الطرقات الوعرة بصندل بسيط رخيص؟!

تعالَ إذًا لنتعرف إليه كاهنًا ومؤسّسًا ومحسنًا.

---

(1) إن أكثرية سكان جل الديب هم من آل أبو جوده. ومن أبناء هذه العائلة اللبنانية الكبيرة سياسيون ورجال أعمال وأطباء ومحامون وصحافيون ورجال كهنوت وأدباء، عرف منهم: الوزير السابق خليل، المطران رولان، الأب حنا، المحامي حفيظ، الدكتور فريد، الاقتصاديون: شكر الله وزرد ووليم وإدوار، والمحامي سامي أمين عام تجمع الصناعيين في كسروان، إدوار، رئيس البلدية، ميشال، أحد رئيسي تحرير «النهار»، بديع، صاحب مدرسة «الجودة»، المتعهد حفيظ... ومن آل أبو جودة من غير جل الديب: جان، رئيس ومدير عام البنك اللبناني للتجارة، ألبير، صاحب ثانوية «غراند سيتي» وشقيقه حنا صاحب ثانوية «مار يوحنا» في الحدث، ووليد نسيب، مدير البنك اللبناني للتجارة، فرع الحازمية.

(2) صوت نبي من لبنان، إعداد الأب سليم رزق الله الكبوشي، حزيران 1975، (ص35).

(3) نفسه.

خليل الراهب

«لبس خليل الثوب الرهباني في 26 آذار سنة 1894 وأبرز نذوره الأولى في 14 نيسان من سنة 1895. ثم ارتبط بالنذور الاحتفالية في 24 نيسان سنة 1898، وفي الأول من تشرين الثاني سنة 1901 سيم كاهنًا في مدينة بيروت»[1] بل «في كنيسة القصادة الرسولية، هو وثلاثة من رفاقه، وذلك بوضع يد المنسنيور دوفال الدومينيكاني»[2].

أحَبَّ خليل اسم «يعقوب»[3] وأعجب به فاتخذه بديلاً من «خليل».

---

(1) المجمع المقدس لدعاوى القديسين، قرار ملف بيروت أو «أبونا يعقوب» المصدر المذكور سابقًا. الفصل الثالث: «أنا بين أيديكم» من (ص21 إلى ص32) والفصل الرابع: «الرهبنة قداس» (من ص 33 إلى ص37).

(2) أبونا يعقوب، المصدر نفسه (ص34).

(3) يعقوب الأول هو ابن إسحاق وأخو عيسو. رزق اثنا عشر ولدًا أشهرهم يوسف الحسن. باسمهم سميت أسباط بني إسرائيل الاثنا عشر. ذكره القرآن بين الأنبياء. ويحمل اسم يعقوب من المشاهير (1) يعقوب الأصغر: هو ابن حَلفى. أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، وأول أسقف في أورشليم. مات شهيدًا سنة 62. له «رسالة» اعتبرت من أسفار العهد الجديد (2) يعقوب الكبير: ترجم له يعقوب الثالث قائلاً: هو ابن زبدي وسالومي من سبط زبولون. نشأ مع أخيه يوحنا عند ساحل بحر الجيل. ويمكن أن يكون يعقوب هذا تلميذًا ليوحنا المعمدان، كما كان أخوه وشريكاهما سمعان واندراوس. غير أننا نسمع عنه لأول وهلة في ربيع أو صيف سنة 27 يغسل الشباك في بحر الجليل مع أبيه وأخيه، فدعاه يسوع مع أخيه للتتلمذ له بعد أن دعا شريكيهما، فتركا كل شيء وتبعاه. كان يعقوب أكبر من يوحنا سنًّا، والثاني بين الرسل. ولما منح يسوع الاثني عشر رتبة الرسولية: جعل ليعقوب ويوحنا اسم (بوانرس) وهو مركَّب من لفظتين سريانيتين معناهما (بنو الرعد)، مشيرًا بذلك إلى طبعهما الناري وغيرتهما الوقادة وروحيهما الملتهبتين اتَّقَد عليه غضب اليهود فشكوه إلى هيرودس اغريفا (أغريبا) الأول ابن أريسطوبوليس الذي قطع رأسه بالسيف إرضاءً لهم سنة 44 قبل عيد الفصح بمدة وجيزة. وهو الرسول الوحيد الذي نستطيع أن نسجل نوع موته بالضبط. وبعد مدة =

= نقل رفاته إلى إسبانيا حيث دفن في (كومبوستيلا) بإكرام جزيل (تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية ج1 ص59، 60) (3) يعقوب أسقف نصيبين: ترجم له يعقوب الثالث قائلاً: ولد في مدينة نصيبين من أسرة سريانية. وتحلّى بالفضائل منذ نعومة أظفاره ثم رغب عن الدنيا وارتاض بأعمال النسك، فذاع صيت فضائله في كل الأقطار ولا سيما كثرة عجائبه. وكان يقتات بجذور النباتات وأوراقها ويلبس رداء خشنا من جلد المعزى. ولما انتشرت لفحات فضله رُسم أسقفًا لنصيبين فلم يغير وشاحه أو شيئًا من خشونة عيشه. تبحّر في علم الكتاب العزيز وأنشأ مدرسة في نصيبين للعلوم الدينية والآداب السريانية. وهدى كثيرين من الوثنيين إلى حظيرة الكنيسة، واعتنى بأهل الفاقة والبؤس. وفي سنة 336 حضر تكريس بيعة القيامة في أورشليم وفي سنة 338 لما حاصر سابور الثاني ملك الفرس نصيبين للمرة الأولى، انقلب بعسكره خازناً بدعاء هذا القديس وتلميذه مار افرام. وفيها توفي فرتبت له الكنيسة عيداً في 18 أيار. (الكنيسة السريانية ج1 ص194) (4) يعقوب السروجي: انظر ترجمته في «بيان الزيارة» (ص35) (5) يعقوب البرادعي: ترجم له البطريرك أفرام الأول برصوم قائلاً: من أشهر الأحبار ورعًا وطهرًا وأكبر المجاهدين الرسوليين في نصرة المعتقد القويم، ونخبة النساك الصوّامي القوّامين ذوي الصلاح والدين المتين. ولد في مدينة «تل موزل» واسم أبيه القس ثنوفيلس بن ملنو. وترهب في ميعة صباه في دير منسيلتا المجاور لوطنه، وحذق السريانية واليونانية وتعمق في الكتب المقدسة والعلم اللاهوتي، وأمعن في أعمال النسك وتحلى بأجمل الفضائل. وفي سنة 528 رحل إلى القسطنطينية وسار فيها سيرته. وفيها رسم بطلب الحارث بن جبلة الغساني ملك العرب وأمر القيصرة ثاودورة (تيودورا)، مطرانًا للرها وبلاد الشام وآسيا بوضع يد ثاودوسيوس بطريرك الاسكندرية عام 543 وقيل 544 فرحل إلى الاسكندرية ورسم أسقفين بمعاونة بعض أساقفتها. وطفق يطوف متنكرًا بلاد الشام وأرمينية وقبادوقية وقيليقية، وايسورية وبمنيلية ولوقانيا ولوقيا ومزوجية وقارية وآسيا الصغرى وجزائر قبرس ورودس وخيورمدللي، وما بين النهرين وفارس والاسكندرية مرشداً الارتدكسيين ومشجعاً إياهم ورسم لهم بتفويض البطريرك سبعة وعشرين أسقفًا وشمامسةً وقسوسًا بلغ عدهم بضعة آلاف، وكثيرًا ما قفل إلى ديره. وأقام على هذه الحال خمسًا وثلاثين سنة لا يعرف كللاً. =

وتأثر بالقديس فرنسيس الأسّيزي (1182 ـ 126م) مؤسس رهبانية الفرنسيسكان، حيث قال فيه:

= وأبلى في بيعة الله بلاءً حسنًا وكان ببطولته خير عضد لها في زمن الشدة حتى نقله الله إليه في دير رومانس اوقسيون بمصر في 30 تموز 578 وعيَّدت له البيعة. أنشأ ليثورجية أولها: «اللهم يا أبا السلام الكلي القداسة» 15 صفحة، وأربع رسائل نشرت في الإسناد، وثلاثاً إلى يوحنا الأفسسي وغيره، ورسائل عامة إلى الأساقفة والكهنة ذكرت في سيرته المطولة. «اللؤلؤ المنثور» (ص260) (6) ديونيسيوس يعقوب بن الصليبي، ترجم له أفرام الأول برصوم قائلاً: من أفراد الزمان وحسنات ملطية وأعيان أحبار السريان الأوضحين سبيلاً والأنجحين سعيًا، وأحد المدافعين عن النصرانية وصدور المتنصرين للارتدكسية آية أقرانه أدبًا ومعرفةً وفضلاً وسعةً تأليف. كان في أيامه جماعةٌ من العلماء ولم يكن العلم في قلب أحد منهم أحلى منه في قلبه، فخاطره أوقد وروضه أنضر وسراجه أزهر ونجمه ألمع، وهو لا غرو عين وقته وصدر زمانه وشيخ عصره. ولد يعقوب في مدينة ملية، وعن أساتذتها أخذ صنوف العلم من لغة وأدب وتفسير وتاريخ وفقه وفلسفة ولاهوت، مُحرزًا منها حظًّا وافيًا. عُدّ من أقطاب اللاهوتيين وفي العشر الأخير من تشرين الثاني عام 1171 سار إلى جوار ربه فأودع جثمانه بيعة آمد الكبرى وخلفه كاتبه. له تفسير أسفار العهد الوسط، وتفسير أسفار العهد الجديد. «اللؤلؤ المنثور»، نفسه من (ص382 ـ إلى ص 391) (7) يعقوب المقطَّع: جندي قديس. فارسي الأصل. استشهد في عهد بهرام الخامس (420 ـ 428). وحمل اسم يعقوب قادة مسلمون هم: يعقوب بن داود (كاتب ووزير عباسي) (توفي سنة 187هـ/ 803م)، ويعقوب بن عبد الحق (أبو يوسف المريني ـ المنصور) (1210 ـ 1286)، سلطان مرين (1258 ـ 81286 حكم في فاس (المغرب)، قضى على الموحّدين. ويعقوب ابن كلِّس (930 ـ 991) وزير فاطمي من الكتاب الحساب. ويعقوب بن يوسف (المنصور) (1160 ـ 1199) سلطان الموحدين. مدَّ نفوذه على شمالي أفريقيا وإسبانيا وانتصر على المرابطين. و«يعقوب ابن الملك العادل ويلقب بالملك المعز، كان فاضلاً، وتوفي سنة 654هـ» (كما جاء في «منادمة الأطلال» تأليف العلامة عبد القادر بدران، إشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية (1405هـ ـ 1985م) (ص343).

«في سنة 1221 بينما كان القديس فرنسيس يبشّر بوحي إلهي بالإنجيل الطاهر في جوار بلدة «أسّيز»، حيث أسّس الرهبانيتين الأولى للرجال والثانية للبنات، كان لكلامه تأثير عظيم في النفوس، وكانت غيرته تدفع قلوب سامعيه إلى بغض الخطيئة وممارسة العيشة الثابتة حتى إن أكثرهم عزموا عل ترك مقتنياتهم للانضواء، كل حياتهم، تحت لوائه لكي يستنيروا بإرشاداته ويتلقّنوا عنه المشورات الصالحة، ويقتدوا بأمثاله العجيبة».

وقال أيضًا:

«وكان في قصد الرجال أن يدخلوا في أديرة الرهبانية الأولى والنساء في أديرة الرهبانية الثانية، بيد أن رجل الله شعر بنور باطني حمله على رفض طلبهم الذي كانت تتوق إليه نفوسهم. غير أنّه تبنّاهم كأولاده الروحيين، ووعدهم بأن ينشئ لهم خطّة جديدة مناسبة لشأن كل منهم وحاله بحيث إنهم يشبهون الرهبان، ويشتركون باستحقاقات التي يربحها هو وإخوته في ممارسة الحياة النسكية، وإن لم يدخلوا الأديرة»[1].

وكبر إعجاب الأب يعقوب بالقديس فرنسيس فقال مرة:

«لو سألتم ما أعظم الشركات الدينية الموجودة في الكنيسة؟ الجواب واضح: الرهبانية الثالثة. ومن هو أعظم الآباء القديسين الذين غرسوا في بستان الكنيسة أكبر جمعياتها، فأصبحت فرحها وفخرها؟ الجواب: مار فرنسيس».

على أن الراهب الثالثي، كما عرفه الأب يعقوب، هو «جندي سلاحه الصليب لمحاربة العالم، لا بالهرب إلى الأديرة، بل في

(1) أبونا يعقوب المصدر نفسه (ص77،78) نقلاً عن صديق العائلة 1913.

الميدان» أو كما يقول: «يمكنني أن أعيش كراهب بدون أن أترك العالم» الثالثي في العالم كالنفس في الجسد، ليمنعه من الفساد».

فمن كانت هذه مفاهيمه وآراؤه، لا بد أن يتجه نحو الرهبان الكبوشيين وديرهم في بيت خشباو. فالكبوشيون «فرع من رهبانية أسسها القديس فرنسيس (1216)، أدخلت على نفسها إصلاحًا ذاتيًّا في السنة 1525، وانتشرت في العالم حاملة رسالة الإنجيل، متبنّية طرقة خاصة من القداسة قوامها الصلاة والتبشير بتجرد وفرح، مفضّلة الإقامة والعمل مع الطبقات الفقيرة والكادحة».

وكان قدومها إلى الشرق (في) 1625، أولاً إلى بيروت وصيدا، ثم إلى حلب ودمشق وبغداد وتبريز والقاهرة ونيقوسيا وغيرها من المدن في لبنان وسوريا والعراق وبلاد فارس وتركيا ومصر والحبشة. كل ذلك ما بين 1625 و1638».

وفي «لبنان كانت مراكزهم: بيروت 1625، صيدا 1625، طرابلس ووادي قاديشا 1628، عبيه 1645 ، غزير 1696، صاليما 1710، بعبدات 1893»[1].

واشتهر من الكبوشيين كثيرون «أمثال الطوباويين أغاتنج وكاسيان (Bx Agathange de Vendôme et Bx Cassien de Nates 1638) المرسَلين في شمالي لبنان وقد استشهدا في الحبشة، الأب توما، ذبحه اليهود في دمشق، وخلطوا دمه بعجين الفصح (1840)، والأب شارل، قُتِل وأمرق في عبيه[2] 1845... وغيرهم من الشهداء الذين سينضم إلى

(1) المصدر نفسه.

(2) هجره رهبانه إثر حرب الجبل (1982 ـ 1983).

جمهورهم الأبوان ليونار وتوما، وكلاهما من بعبدات، وقد استشهدا منفيّين في بر الأناضول خلال الحرب العالمية الكبرى».

وظل الأب يعقوب يحفظ أطيب الذكريات عن دير بيت خشباو المجاور لغزير، وأنجح الأنظمة الرهبانية التي شهدها، في هذا الدير، وطبقها على نفسه، حتى إنه قال، بعد أكثر من خمسين سنة مرت على انتمائه إلى الآباء الكبوشيين في عظة مسجلة بالعامية: «أحسن شيء هو أن تعطي الرئيس المثل الصالح، يعني أن تكون موجودة قبل الكل. أعرف أنا، عندما دخلت الرهبنة الكبوشية في بيت خشباو، كان عندنا رئيس عاجز «ختيار» كان يعجبني أكثر من الكل. نصف الليل، لمّا نقُوم للصلاة ونذهب إلى الكنيسة، نراه وصل قبل الكل بالرغم من كبر سنّه وسُوء صحته، كان هذا أكبر مَثل للرهبان حتى يتشجعوا للقيام بواجباتهم نحو الله من جهة الصلاة. بهذا المثل أنا متأكد أن كل شيء يمشي، والباري تعالى يعطينا القوّة اللازمة حتى نصلَ إلى المكان»[1].

إذًا، على خطى القديس فرنسيس ورهبانه مشى الراهب اللبناني يعقوب (الحداد) وراح يتصدى للأزمات الاجتماعية والإنسانية التي كان يعانيها اللبنانيون، فجاب القرى والمدن اللبنانية يبلسم الجراح ويهوّن على المعذّبين ويسد جوع عائلات فقيرة، ويبشر ويلقي الرياضات الروحية ويتعهد الراهبات وينشر أخويات رهبنة القديس فرنسيس الثالثة وينشئ المدارس الابتدائية لتأمين التنشئة الإنسانية المسيحية للشبيبة.

على درب الصليب، التقى الأب يعقوب المشرّدين والبائسين والمتعَبين والجياع، فحزن لأحزانهم وتألم لأوجاعهم، من دون أن ينثني

(1) المصدر نفسه.

عن مهماته الإنسانية التي تطوع لتحقيقها، مهما عاندته الأيام والظروف، بل استمر يدعو إلى الصبر ويقول: «الصبر هو فضيلة تنفي من النفس الغَمَّ الذي تسببه المصيبة الحاضرة»[1] «ولا يعطي البخورُ رائحةً عطرة إلا بوضعه على النار. نمزج المرّ بالسكّر لنشربه بقبول. هكذا التفكّر في الجزاء الأبدي يشجعنا، كما أن الربح يشجع العامل على احتمال أتعابه، إنك ترفض حمل صليب ثقيل لو كان من خشب، غير أنك تحمله أو تجره إلى بيتك لو كان من ذهب».

ماذا يحمل يعقوب الكبوشي غير آلام الناس وهمومهم؟

هذا الكاهن هزأ بالدنيا وذهبها وحديدها وخشبها، إذ «لا توجد ههنا (على الأرض) سعادة كاملة».

وأنّى للأرض أن تعطي السعادة ما دامت خيراتها مثل «كرة من ماء الصابون ملوّنة سريعة الزوال» أو هي «ثمرة اصطناعية، لونها جميل لكنها خالية من كل لذة...». خيرات الأرض، مهما يكن نوعها، «يجب أن نستعملها كسلّمٍ للبلوغ إلى السعادة»[2].

وأي شيء يبقى سوى المحبة، التي على اسمها وبقوتها، أسس الأب يعقوب، في سنة 1921، مشروعًا رسوليًا سمّاه «الصليب» كي يبرهن أن السعادة ليست على الأرض.. بل هي في الأخوّة والإخلاص لبني البشر.

راهبَات الصّليب

في سنة 1930 بدأ مشروع «الصليب» أعماله، إذ ولدت جمعية

(1) صوت نبي من لبنان (ص153).

(2) المصدر نفسه.

«راهبات الصليب اللبنانيات» التي تُعتبر حقًّا من أبرز المؤسسات الرّهبانية العاملة على الأرض اللبنانية.

رسم الأب يعقوب لهذه المؤسسة الطريق القويم، طريق المسيح، مؤكدًا على عظمة الفقر وأهميته إذ قال: «ما من رهبانية حادت وجنحت عن الفقر إلا تضعضعت أحوالها وتولاها الضعف والعجز وانهار برجها أو أشرف على الانهيار»[1].

فالراهب ينبغي له أن يكون فقيرًا. ومن كان غير ذلك من الرهبان فقدَ همّتَه ونشاطه وحبه للإحسان، أو كما يقول الأب يعقوب:

«انتبهوا يا رؤساء. إنْ صرنا أغنياء مِلْنا إلى حبّ التنزّه والسفر والاصطياف والشراء. أكّدْنَ يا راهبات أن بيتنا يسقط بالفناء في حب الزيادة. أنا لا أريد سوى اللازم لا غير وهذا عضد الرهبنة وثباتها».

على أن نَذْر الفقر هو التزام الفقر، ونذْر العفّة التزام العفة ونذْر الطاعة التزام الطاعة. ولكن هذه الالتزامات لا يحققها سوى أصحاب الإرادات القوية والعزّ والأَنَفَة.

«إن الراهب هو أفقر من الفقير، لأن الفقير يمكنه أن يصير غنيًّا، أما الراهب فلا. الفقير يمكنه أن يعمل أعمال تملّك أما الراهب فلا».

اثنان لا يلتقيان: الرَّاهب والغنى. المسافة بينهما لا محدودة. كلاهما عدو للآخر. «الغِنى أصل كل شر» و«ما دامت الرهبنة فقيرة، تجد فيها حب الشغل. ومن اشتغل انتصر على التجارب. لكن مع الغنى ورخاء العيش يأتي الشر»[2].

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

تلك هي المبادئ والأسس التي عيّنها الأب يعقوب لراهباته وحدّدها لهن؛ فليس غريبًا أن تنهض المشاريع الخيرية هنا وهناك وفي كل مكان. فمن «معبد سيدة البحر» إلى «مدرسة مار فرنسيس» إلى «دير الصليب» إلى «دار يسوع الملك» وإلى مدارس ومعاهد في الأقاليم والمدن، وراهبات الصليب في تطور مستمر وحركة دائمة لا تعرف الملل ولا السأم.

قد يسأل أحدنا: أي دافع عظيم يقف وراء هذا التقدم؟ الجواب عن هذا السؤال نأخذه من الأب يعقوب نفسه، حيث صرّح في أواخر حياته قائلاً:

«كنت أتمنى لو تمكّنتُ من تكريس لبنان كله للصليب، وكلما شاهدتُ قمّة كنت أريد أن أركّز هناك صليبًا. الصليب دليلي وشعلة حياتي»[1].

ليس معنى هذا أن يكون لبنان وطنًا مسيحيًّا بالمفهوم السوسيولوجي، بل هو يرمي إلى جعل الاتصال بين اللبنانيين، بعضهم مع بعض عبر الصليب الذي هو «فرح لا كآبة» و«تعزية لا ضجر».

كيف جاءته الفكرة؟ يروي الأب سليم رزق الله الكبوشي فيقول:

«دُعي الأب يعقوب إلى أحد مستشفيات بيروت لسماع اعتراف شيخ مريض كان بالماضي راهبًا وكاهنًا ترك ديره ثم عاد، في آخر أيّامه، يتندّم ويأسف. وهل من وسيط أفضل من الراهب الكبوشي لمصالحته مع ربّه؟ فحضر الأب يعقوب والتبس عليه الأمر فاتجه ـ خطأ ـ نحو شيخ

---

(1) أبونا يعقوب: ص 221.

درزي ينام في سرير مقابل سرير الكاهن. فقال له الشيخ: الذي طلبك هو جاري. فتأثر جدًّا من درجة الإهمال التي وصل إليها أخوه في الكهنوت: لا من يزوره، لا من يساعده على واجباته الدينية، لا من يأتيه بالقربان».

أضاف:

«شجعه الأب يعقوب ووعده بأن يهتم بأمره، ويلاقي له حلاً سريعًا ومناسبًا. أين؟ وكيف؟ وفجأة، انحلّت المشكلة. لماذا لا يأخذه إلى سيدة البحر؟ لماذا لا يأخذ معه كهنة عجزة مثله يلقون ـ على أيدي الراهبات ـ المساعدة في شيخوختهم، والخدمة اللائقة بكهنوتهم؟».

إذ ذاك «اعتبر الأب يعقوب تلك الصدفة تدبيرًا من العناية الربانية وهديّة له من أبيه مار فرنسيس بمناسبة اليوبيل المئوي السابع لوفاته» و«عرض فكرته على الراهبات فوافقن للحال».

و«انتظر (الأب يعقوب) عيد مار فرنسيس في الرابع من تشرين الأول، وذهب إلى المستشفى فحمل بين ذراعيه الكاهن العاجز ووضعه في عربة وأتى به إلى جل الديب، ودخل الكنيسة مع الراهبات، ورتّل الجميع نشيد التسبحة الكبرى: «إياك اللهم نمدح»، وكان ذلك اليوم يومًا تاريخيًّا في حياته، وفاتحة مشاريعه الخيرية»[1].

هذا هو السر العظيم الذي تقبض عليه راهبة الصليب بأمانة وطهارة: خدمة العجزة ومساعدة المحتاجين «والسهر على كل شيء»[2].

ويا ليتنا استطعنا أن نكرّس لبنان كله للصليب.

---

(1) المصدر نفسه: أبونا يعقوب.

(2) صوت نبي، ص: 71.

الأب يعقوب والمجتمع

عاش يعقوب (الحداد) الكبوشي في قلب المجتمع يصارع من أجل الأفضل والأحسن والأكمل. عرف الصحافة، فقدرها حق قدرها. ونظرًا لأهميتها، أرادها صحافة واعية وجريئة ومخلصة وصادقة ونزيهة. ولطالما نبّه هذا الصحافي أو ذاك قائلاً له:

«إن نشر الكتابة الجيدة هو أهم وأنفع عمل في الأيام الحاضرة. على المؤمنين أن يقاوموا بكتاباتهم الحسنة الكتابات الفاسدة. لأن المطبوعات الرديئة هي أشرس سلاح، تهدم كل بنيان أدبي اجتماعي وديني. إن الكتابات الرديئة تزيغ العقل».

وقال:

«احذروا من الأنبياء الكذبة الذين يلبسون لباس الكتاب أي الورق، ورق الجرائد. إن الأنبياء الكذبة لا يتكلمون معكم رأسًا بل يكاتبونكم».

ولكي يفهم الأب يعقوب الصحافة ودورها، لا بد له أن يفهم الوطن وعظمته وحقوقه. فللوطن عنده مكانة جليلة مقدسة، فهو «أرض جدودنا والهواء الذي استنشقوه، (و) السماء التي تأملوها، (و) الأفكار التي افتكروها، (و) المذهب الذي اعتقدوه وتمسكوا به ودافعوا عنه وربما لأجله ماتوا».

لذلك نحب وطننا وندافع عنه ونصونه ونحميه، و«ما كل من قال الوطن الوطن صار وطنيًّا بل من يعمل لرفع الوطن وإعلاء شأنه».

أين نحن من وطننا إذًا؟

هل عملنا له أم دمّرناه وأسقطناه من عليائه؟

ماذا نقول لهذا الكاهن لو عاد يسألنا عن لبنان والصليب؟

لم يترك الأب يعقوب الكبوشي أيًّا من الأمور الإنسانية إلا واهتم به أو نظر إليه. فبأسلوب بسيط جدًّا وواضح جدًّا، دلّنا على واجباتنا نحو

السلطة وبيَّن ما لنا على السلطة من حقوق. فلكي نحترم الملك والرئيس والقائد والحاكم والوزير وأي مسؤول، يجب أن يكونوا أهلاً للاحترام وأهلاً للثقة.

«هل تُعطى قيادة المركب لمن لم يركب البحر في حياته»؟ و«ما المنفعة من شمعدان كبير لا يعطي نورا؟».

والحقيقة هي «أن من دُعي إلى رتبة هو كفؤ لها لا يجب أن يتكبر بل أن ينظر إلى مسؤوليته» وإلا تمرّد عليه الناس وخرجوا شاهرين السيوف. وعندئذٍ تقع الكوارث وتحل النكبات وتتساقط الروائع والقيم التي أنجزناها.

وبالأسلوب عينه قال الأب يعقوب رأيه في المرأة، كما أرشد الأمهات «والرجال» والأبناء... إلى حياة «يرضى عنها الله والعدل»، ودعا إلى التضحية والتفاهم والوداد والتعاون والمسامحة.

خاطب الأم فقال لها: «لا يكون خلاصك وحدك ولا هلاكك وحدك. فاحفظي المتوجب عليك: نحو الله - نحو رجلك - نحو أولادك».

والتفتَ إلى الآباء فقال لهم: «إن لم تعلّموا أولادكم تضرون بالله إذ منحكم إياهم ليكونوا قدِّيسين. إن لم تعلّموا أولادكم تضرون بأولادكم إذ تهلكون نفوسهم وتفقدونهم الخير السامي. إن لم تعلّموا أولادكم تضرون بهم إذ لا راحة لكم على الأرض».

وإلى البنت فقال لها: «البنتُ كالنهر، ماؤه نقي عند منبعه ومتى جرى في المدينة توسّخ».

على أن العفّة هي مثل الزنبقة، التي تصونها ستّ أوراق، إذ يصون العفة ستة أعمال: (1) صيانة النظر والسمع (2) تقديس عمل الشم

والذوق واللمس (3) صيانة الكلام والحركات واللبس (4) الانتباه إلى الصداقة حتى تكون مقدسة (5) اجتناب الكبرياء السرية والكسل (6) السهر على القلب.

ما أكثر نصائح الأب يعقوب ووصاياه! لقد تكلم عن الله والإيمان والمسيح الملك وقلب يسوع والقربان والمناولة والصليب الروح القدس والقديسين والكنيسة والكاهن والعذراء، وعيّن الكمال والطهارة والوداعة، ووصف الصداقة وعرفان الجميل والمحبة والعمل والخطيئة وعمى القلب وخلاص النفس والتوبة والموت والوقت والرياضة والضمير والغيرة والإصلاح الأخوي والمسامحة والصلاة. كما ألقى أضواء على الأحزان والتجارب والصبر والبخل والحسد والغضب والكبرياء والتواضع والتربية. ولا نكون قد بالغنا إذا ما قلنا إنه برع في هذه الموضوعات جميعها وشخّصها ووضع لها العلاج الشافي والحل الذي لا غنى لنا عنه. ويكفيه أنه قال: «لا يكفي للسماء أن يكون مسيحنا مات على الصليب لأجلنا، بل أن نحمل صليبنا. لا يكفي كوني مسيحيًّا بل أن أعمل وأنا في حال النعمة أعمالاً صالحة».

وقال:

«عار علينا إن استرحنا بينما أهل العالم يتعبون».

فالواقع أن حياة هذا النبي اللبناني لم تعرف الفراغ أو القعود أو الكسل. وبرغم الأمراض التي حلت به وهو شيخ، بقي الأب يعقوب يعمل ويجاهد ويبحث عن المحتاجين ليقدم لهم المساعدات المادية والمعنوية، ويزور المرضى والعجزة، ويحتضن المتخلفين عقليًّا، وكل ذلك من دون أن يسأل عن معتقد هذا أو ذاك، إذ الإنسان عنده هو ابن الله فحسب. وما شأن المذاهب والأديان والأحزاب ما دام الضمير «هو محكمة في رأس الإنسان».

فأي ضمير كان هذا الكاهن الذي أسعد الأشقياء وعاونهم على أمورهم!

بل أي عقل هذا الذي بنى «جمهورية البؤساء» ضمن جمهورية تهب العواصف عليها من كل صوب.

لعلّه كان يقرأ أيامنا هذه من قبل أن تولد إذ قال:

«إن المسيحيين المجتمعين معًا للصلاة، يشبهون عسكرًا قوياً يدفع الله إلى الاستجابة (حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي أكون بينهم). إن الحطب المجموع يحترق بقوة، حتى ولو أضافوا حطبًا أخضر.

«الله يُسَرّ بصوت نفس واحدة فكم بالحري بأنفس متفقة ومتكاثرة».

أين هم المتفقون؟

ما حال الذين يتكاثرون؟

لماذا ذوو المال عن وطنهم وواجباتهم لاهون؟

كلما استرق مني النظر صليب، أرى الأب يعقوب الكبوشي يرتفع وينبسط ضياؤه ليقول: «نرفع الحجارة والأشواك من الأرض قبل زرع الكرم. هكذا نفسنا يجب أن نقلع منها العوائد الرديئة بالتوبة والأمانة»[1]، وأتصوره يعبث بشعري ليعيد إليّ الأمل الذي اختطفته مني الأحداث.

فهلا التفتَ اللبنانيون ـ بعد هذه النكبات ـ إلى يوم تطويبه[2] وتعلّموا منه كيف تُرفع الحجارة والأشواك من أرض الوطن؟!

---

(1) المصدر نفسه.

(2) في اليوم الرابع والشعرين من حزيران 1979 أعلن قداسة البابا يوحنا بولس الثاني قائلاً: «يجب إدخال دعوى تطويب خادم الله الكاهن الراهب (يعقوب) الكبوشي مؤسس راهبات الصليب اللبنانيات».

الفصل الثامن

دَمَعَةُ حُزنٍ وبطاقةُ رحْمة
المطران كيريوس نقولاوس نعمان
متروبوليت بصرَى وحورَان وجَبل الدروز

«أبَا المحرُوم، ثِقْ في الخُلد أنّا
هنَا بَاقون نمحضك الولاءَ
سَنرعى العَهدَ عهدك مَاحَيينا
ونفتقِدُ الشهَامة والإبَاءَ»

مترى نعمان

دَمعَةُ حُزنٍ وبطاقةُ رحْمة

على مرمى حجر من المكتبة البولسية في جونية تصافحنا وتعانقنا. بين البلدية، قلب المدينة الذي ما أربكه الجهد وشدة الحال، وبين السوق القديمة التي نفضت «شبابها» وتبرّجت للتجار الهاربين من العاصمة، بيروت، فهبطت عليها «السعادة» من كل صوب، كانت مَوْقفَتُنا.

وجهه هو إلى البحر، ووجهي أنا إلى الجبل. وترى عربات «التليفريك»، في الفضاء، مثل «الفراريج» على السّفود.

سألته عن صحته وعن أولاده «الدكاترة»[1]، فردّ بصوت متقطّع وحزين:

---

(1) هم: (أ) عبد الله: ولد في بيروت في 27 كانون الأول 1947 وأتم تحصيله في الجامعة اللبنانية وجامعة نانسي الفرنسية. يحمل إجازة في الأدب المعاصر (1970) وكفاءة في الألسنية (1971) ودكتوراه في الأدب الفرنسي (1975). درَّس الأدب والحضارة العربية في جامعة نانسي (1969 ـ 1972) والأدب الفرنسي في لبنان (1972 ـ 1974). يعمل منذ 1966 في الترجمة والصحافة والنشر، وهو الملحق الثقافي لدى السفارة اللبنانية في باريس منذ 1974. له مؤلفات بالعربية وبالفرنسية وترجمات من الفرنسية أشهرها: الديمقراطية الفرنسية لـ فاليري جيسكار دستان، منشورات عويدات والشركة التونسية للتوزيع، بيروت ـ باريس 1977. ويسهم منذ عام 1979 في إنشاء «موسوعة لاروس الكبيرة» (في عشرة مجلدات، تصدر تباعًا في باريس) (ب) جهاد، من مواليد حريصا لبنان عام 1949. يحمل شهادة الدكتوراه في الفلسفة =

- الجميع مشتاقون إليك. وأنت ما هي أخبارك؟
- ما زلت أتنفس. أنا أيضًا مشتاق إليكم. ما حال الأستاذ عبد الله في باريس؟ ماذا عن «دار النعمان»[1]؟
- عبد الله مليح، و«الدار» حسبما تعلم.

ففهمت من كلامه أن «دار النعمان» مثل الوردة التي لا تعيش إلا في الربيع والصيف. وهي كغيرها من المؤسسات التي تتعاطى الطباعة والنشر، عملاؤها الكتّاب والقرّاء، ومناخها الحرية والأمن والانفتاح الحضاري على الأمم والشعوب.

وعاد ليقول:
- ولكن جرحًا عميقًا محزنًا أصابني هذا العام.

سألته:
- خير؟ لماذا أنت مجروح ومحزون هكذا يا أستاذ متري؟

= من الدولة الفرنسية وكذلك دبلوم الدراسات العليا الأوروبية ودبلوم الكفاءة في الأدب الفرنسي ودبلوم الدراسات الاجتماعية. كان أستاذًا للغة وآدابها في جامعة نانسي ـ فرنسا (1972 ـ 1975). وهو أستاذ جامعي في لبنان منذ عام 1975. مؤسس «التجمع اللبناني للإصلاح» وعضو في غير جمعية ثقافية واجتماعية. له ترجمات من الفرنسية، وكتب في العربية منها: المعليشية (نقد اجتماعي)، دار نعمان للثقافة ـ 1979 و«ابن خلدون وعلم النفس» (بحث حول مفهومه للغرائز ومراقبتها)، دار نعمان للثقافة، 1982 (ج) نبيل: ولد في بيروت في 28 حزيران 1951 وأتمّ دراسته في جامعات نانسي وباريس. يحمل دكتوراه في الطب (1976) وشهادات تبريز في ثلاثة اختصاصات: الطب الوقائي، الطب القضائي، أمراض القلب والشرايين. يعمل في اختصاصه الأخير منذ سنة 1979 في فرنسة (د) ناجي: من مواليد حريصا (لبنان) عام 1954 يحمل إجازة في التاريخ وإجازة في الحقوق وإجازة في العلوم التجارية 1979 ودبلوم دراسات معمقة في التاريخ القديم 1980، من جامعة نونت Nantes له مؤلفات بالفرنسية والعربية وترجمات من الفرنسية.

(1) دار نعمان للثقافة ـ تأسست 1979.

وسحب الأستاذ متري من جيبه مغلفًا فيه بطاقة عليها صورة المثلث الرحمة كيريوس نقولاوس نعمان، متروبوليت بصرى وحوران وجبل الدروز[1]. فوق الصورة كُتب «ذكرى أربعين» مما يعني أن البطاقة

---

(1) ولد في دمشق سنة 1911. سيم كاهنًا في 15 آب 1937 بدمشق. في 15 آب 1962 كان يوبيله الفضي، وذلك بمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على رسامته كاهنًا. سيم أسقفًا (مطرانًا) على حوران وجبل الدروز في 8 تشرين الأول 1967، بوضع يد لمطران ميشال عساف والمطران يوسف الطويل والمطران بطرس كامل المدور، نيابةً عن البطريرك مكسيموس الرابع الصائغ الذي أقعده المرض في حينه، ووري المطران نعمان الثرى في 23 من آب 1982. وإذ نذكر البطريرك مكسيموس الصائغ (1878 ـ 1978)، وهو من حلب، لا بد أن نتذكر وقفته في دار الضيافة بدمشق سنة 1957 أو كما جاء في كتاب «الرهبانية الباسيلية الشويرية في تاريخ الكنيسة والبلاد» للأرشمندريت اثناسيوس الحاج، حيث يقول: «في 11 نيسان سنة 1376 (11 نيسان 1957م)، دعا فخامة رئيس الجمهورية السورية (شكري القوتلي) رؤساء الدين المسلمين والمسيحيين معًا إلى الإفطار معه في دار الضيافة بدمشق، وكان من الرؤساء المسيحيين في هذا الإفطار: غبطة البطريرك مكسيموس الرابع صائغ وثلاثة أساقفة وغيرهم من أساقفة ونواب بطريركيين من سائر الطوائف الأرثوذكسية والكاثوليكية. في نهاية الإفطار، بعد أن تكلم فضيلة الشيخ بهجة (محمد بهجة) البيطار، وأتى على ذكر ما جاء في القرآن والحديث عن توصية للمسلمين بالنصارى، ودعوة أبناء الديانتين إلى التعاون على أعداء الدين وأعداء الوطن، قام على الإثر غبطة البطريرك واستأذن فخامة الرئيس وارتجل خطابًا شكر فيه رئيس البلاد على دعوته الكريمة إلى هذا اللقاء الأخوي، وأضاف ما ملخصه: «من زمن بعيد أحس بثقل على صدري، وأتوقع فرصة ملائمة لأريح ضميري. إنها كلمة صراحة غايتها مصلحة الأمة والوطن. نحن النصارى أبناء هذا الوطن، ونبذل الذات في خدمته وافتدائه، حتى ببذل الدم نفسه. ولكن فيما نحن على هذا الاستعداد الصادق، لا ننفك نسمع من حين إلى آخر، صوتًا من هنا وصوتًا من هناك، ينعتنا بالكفر ويعزو إلينا الشرك. فنحن المسيحيين لسنا كذلك، بل نحن قد سبقناكم إلى التوحيد الخالص ونشرناه في العالم كله، ومات في سبيل =

ـ هذه ـ يجب أن تكون قد صدرت في الثاني من تشرين الأول 1982.

ويتجاوز الأستاذ متري نعمان[1] الصفحتين: الثّانية والثّالثة ليريني قصيدته التي هي على الوجه الآخر من البطاقة. وبما أن موقفَتنا جاءت

= التوحيد ربوات من شهدائنا، ويا حبذا لو يعلم المسلمون مفهوم عقيدتنا بتثليث الأقانيم في الذات الإلهية الواحدة، لما وجدوا سبيلاً إلى اتهامنا بالشرك الذي نحن براء منه...». ويقول الارشمندريت الحاج: «إن خطاب غبطته كان له أحسن وقع وتأثير في نفوس الحاضرين، فصفقوا له، وصافحه رئيس الجمهورية شاكرًا، وأكد له الشيخ كفتارو شكر العلماء لغبطته واستعداد المسلمين لوضع يدهم بيد النصارى في خدمة الله والوطن. (الرهبانية الباسيلية الشويرية، الجزء الثاني، 1978، ص626).

(1) من مواليد 26 تشرين الأول عام 1912. أنجز دراسته الابتدائية في المدرسة البطريركية بدمشق، والتكميلية والثانوية في معهد «الصلاحية» ـ بيت المقدس (1926 ـ 1932) حيث أتقن، إلى جانب العربية والفرنسية، اليونانية واللاتينية ودرس الإنكليزية على نفسه. انتقل إلى الرسالة البولسية ـ حريصا ـ حيث تابع تثقيف نفسه بنفسه، وكان منذ العام 1933، أحد القيمين على الشؤون الإدارية في المؤسسة البولسية امة والمطبعة البولسية خاصة. من منجزاته النثرية والشعرية: (1) مؤلفات مطبوعة: التلاقي بعد الفراق: مسرحية شعرية من ثلاثة فصول (ألفت في سن الرابعة عشرة وطبعت عام 1930) / في سبيل النار: مسرحية شعرية من خمسة فصول، 1938 / هينمات: ضمة شعر 1952 / من الجحيم إلى النعيم: قصة 1952 / أنقذوني من أهلي: نقد لغوي 1979 (2) ترجمات مطبوعة: شركة الكهرباء بدمشق، 1933 / قوانين الرهبانيات الباسيلية الملكية (عن اللاتينية) 1933 /الأمان: مسرحية نثرية من فصل واحد، 1940 (وطبعة ثانية 1955) / الخوف من الدير: مسرحية نثرية (للبنين) من خمسة فصول، 1944 (وطبعة ثانية 1955) / الفتاة الظليم: مسرحية نثرية من ثلاثة فصول 1946 / محاورات الكرمليات لجورج برنانوس (الثورة الفرنسية) 1963/ الأمل لاندره ملرو (الثورة الإسبانية) 1964 /دفاع سقراط لأفلاطون باللغة اللبنانية، 1968 / بريطانيا في عهد الملكة فكتوريا (سيرة دزرائيلي) لاندره موروا 1969 / العلاقات الإنسانية لفرنسيس بو، 1972. وله مؤلفات مخطوطة منها: نعمانيات: ديوان شعر.

في عرض الطريق، أعاد الأستاذ متري البطاقة إلى المغلف وقال: إنها لك. وأرجو منك أن تقرأ هذه القصيدة، ففيها حزني ووجعي على أخي المطران الذي توفي ولم أدْركه.

ناولني الملف ومشى كأنه في أرض لا يعمرها أحد.

دموع الأستاذ متري لست أدري هل هي جفّت أم احترقت. في نفسه، كما بدا لي، شوقٌ إلى البكاء، وإلى الدموع تتفجّر من عينيه، ولكن عبثًا. فلقد بكى الأستاذ وانتحب عندما جاءه النبأ الشؤم، ولا ريب في ذلك. فهذه هي قصيدته التي إن حكَت فعن قلق رهيب افترسه مذ رحَلَ فقيدُه الغالي وأخوه الذي «بذل الروح قبل المال» «حتى تداعى جسمه واستعصى عليه الشفاء أو كما يقول هو:

أخي، يا نور عيني، أيّ لحْدٍ
حوى جثمانكَ الزّاهي نقاءَ
هبطت إلى الثرى عملاقَ خيرٍ
ومثلَ النّسرِ قد ملَّ العلاءَ
قضيتَ النّحب منزويًا وحيدًا
وكمْ أحيَيْتَ من فقدوا الرجاءَ
صرفتَ حياتك المِعطاءَ تسدي
ومَن جاراك في الدنيا عطاءَ
بذلتَ الروحَ قبل المال حتى
تداعى الجسمُ واستعصى شفاءَ»

فكيف لا يبكي وينتحب من كان أخوه «عملاق خير» و«نسرًا معطاء» إذ أعطى وبذل لا من أجل الشهرة بل من أجل العطاء وحسب؟

بل كيف لا يشعر بالهزيمة شاعر طوى الموتُ أخًا له، مرسَلاً بولسيًّا، نشر الأقوال الجميلة والعظات الرائعة التي منها:

- مهمة النخبة الحياة والتقدّم، وبدونها الانحطاط والخراب.

- لا نبلغ قِمَمَ الفضيلة والقداسةِ إلاّ بسلوكنا الطرق الوعرة والطويلة.

- تبدأ الإرادة القوية بالتأمل، فتُسكت كلّ ما لا يحقّ له أن يتكلم، وتصغي إلى العقل فتقرّر: «إنني أريد».

- علامَ نتغلّب؟ على أشدّ وألدّ أعدائنا: الجسد.

- القلبُ قوة عمياء وعلى العقل أن يسيّرها.

- من يُكرم والديه يكرم نفسه.

- خسارة الثروة جسيمة ولكنها تعوَّض، وخسارة الوظيفة مجلبةٌ للضيق ولكنها تُعوَّض أيضًا، أما خسارة النَّفس فلا سبيل إلى تعويضها.

- يُعرف رجل العمل بثلاث ميزات أساسية: حبّ العمل، والحزم في القرار، والتفاؤل.

- الإخلاص يقوم بأن يبذل المرء كل ما لديه حتى ذاته نفسها في سبيل الآخرين، وأن يبذل وهو متهلل[1].

اللقاء اليتيم

لقد عرفتُ المطران الراحل عن كثب، وكان ذلك ذات مساء في دير الآباء البولسيين[2] في حريصا ذي الكنيسة الصفراء التي تشبه التاج الكبير على رأس الملك العادل العظيم.

(1) من أقوال المثلث الرحمة، بتوقيع مرسل بولسيّ.

(2) البولسيون أو جمعية المرسلين البولسيين: جمعية ملكية كاثوليكية أسسها المطران جرمانوس معقَّد في حريصا (لبنان) 1903. يدير رهبانها المطبعة البولسية ومجلة المسرة. رئيسها الحالي سيادة المتروبوليت حبيب باشا.

المطران نعمان وأنا كنا نزور ذلك الدير، وفي صالون الدير تلاقينا. الأب العام الأرشمندريت بطرس المعلّم عرّف بكل منا، ثم أخذ عنه الكلام الصديق الأب ميشال رحال. صالون الدير، في تلك العشية، غصّ بالضيوف القادمين أو الهاربين من بيروت وبعلبك وزحلة. امتدّ بنا الحديث حتى شمل المحنة اللبنانية، والحوار المسيحي ـ الإسلامي، ثم انعرج إلى تاريخ النصارى في حوران وبصرى وما لهم من أديار وبِيَع وكنائس كان محطات للمسلمين العرب في ارتحالاتهم بين الجزيرة وبلاد سوريا والعراق من جهة وبين الجزيرة وعربستان وكل فارس من جهة أخرى. ولما وصلنا إلى الكلام عن جبل الدروز، التفتُّ إلى المطران نعمان، فإذا هو في بحر من الرضا يسبح ويغوص، لأن له في ذلك الجبل معقل الشهامة والعنفوان وجبل السخاء والكرم أصدقاء يحاسن بهم الناس. ولا عجب إذا ما قال الأستاذ متري في رثائه للفقيد الراحل:

«بنو معروفَ والعظماءُ هبّوا ... يجلّونَ الفضيلة والوفاءَ»

فالصديق يُعرف في الملمات كما يُعرف عند الامتحان. وأي ملمة أشد من الموت؟ وأي امتحان مثل امتحان الموت؟ الصديق، إن هو وقف إلى جانب ذوي صديقه، فإنما يكون قد سقاهم سلوة من نفسه، وساعدهم على العزاء والصبر. وإن هذا لمن صفات الفقيد المطران نعمان الذي جعل الحوارنيين وجميع عارفيه في بصرى وجبل الدروز يشاركون البكاء عليه والتحسّر والتفجّع، وعند الأستاذ متري أخبارها الصريحة والصادقة إذ يقول مخاطبًا شقيقه المطران:

«عَريتَ، أجل عريتَ لكسوِ عُري ... وجعتَ لتطعمَ المَعِدَ الخواءَ
طبيبًا كنتَ للأجساد أيضًا ... فما وفرتَ جهدًا أو عناءَ
وكم شيّدتَ من مبنًى منيفٍ ... لربِّ الكون يختال ازدهاءَ
وكم حقّقتَ من أعمال برٍّ ... وقد ظلّتْ بمعظمها خَفاءَ

أعدتَ إلى بني حوران عزًّا ومِنْ لا شيءَ زيّنْتَ العراءَ
إذا حُمَّ القضاءُ ولا شفيعٌ... قضيتَ وليس من يسقيكَ ماءَ
كذا الأبطالُ في الهيجا ضحايا وقد وهبوا بلادَهُمُ الرخاءَ»

لعلّ الحزن المستبدّ بالأستاذ متري مردّه إلى أن أخاه قد قضى وهو عنه بعيد. و«ليس من يسقيك ماء»، لا يعني أن الفقيد قد أهمله أصدقاؤه أو معاونوه، بل قصد الشاعر غيابه هو بالذات عن المطران، وربما اعتقد أن لو كان معه لما تغلّبت عليه المنية. طبعًا، أنا لا أقول بذلك، وإنما للشاعر متري نعمان حق في أن يعتقد كما يشاء ويتصور مثلما يحب ويرغب، إذ هو المحزون الأول والمجروح الأول، فاسألوا الجواهري وقصيدته المؤثرة «أخي جعفر»، واسألوا نسيب نمر وكلمته في أخيه المحامي حسيب، ثم اسألوا كل شاعر وكل أديب فقد أخاه.

تحت وطأة هذا الحزن وهذا الجرح يقول الأستاذ متري أيضًا:

«ونحن اللاحقون نعيش ذكرى جهادك منهُ نلتمس العزاءَ
نرُودُكَ في بزغ الفجر صبحًا وفي شفق يسامرنا مساءَ
ورُوحُكَ في ندى الأسحار تُحيي مواتَ الأرض ترفدنا سخاءَ
وإنك في جنان الوردِ مِسكٌ يبلسم قلب من يشكو البلاءَ»

ماذا نقول للأستاذ متري وقد لفّه الحزن حتى أنامله؟ ماذا نقول له وقد قطع على نفسه عهدًا لا يمكن التراجع عنه حسبما يقول:

«أبا المحروم، ثِقْ في الخلد أنّا

هنا باقون نمحضكَ الولاءَ

سنرعى العهدَ عهدَك ما حيينا

ونفتقدُ الشهامة والإباءَ»

هذا الشاعر المجروح المكلوم والمغمور بالحزن نقول له إن جاء حوران: عليك بصاحبك جرير حيث يقول:

هَبّتْ شمالاً، فذكرى ما ذكرتكُمُ
عند الصفاةِ التي شرقيّ حورانا
هل يرجِعَنْ، وليس الدّهرُ مرتجعا
عيشٌ بها طال ما احلولى وما لانا؟»

ونقول له إن جاء بُصرى، وهي قصبة كورة حوران، ومشهورة عند العرب قديمًا وحديثًا، ليس لك غنى عن الأمير امرئ القيس القائل:

«ولما بدَت حورانُ والآلُ دونها
نظرتَ فلم تنظر بعينيك منظرا»

ولا غنى له أيضًا عن الصمّة بن عبد الله القشيري القائل:

«نظرتُ، وطرْفُ العينِ يَتّبع الهوى
بشرقيّ بُصرى نظرة المتطاولِ
لأبْصر نارًا أُوقِدَتْ بعد هجعةٍ
لرَيّا بذات الرّمثِ من بطن حائلِ»

وأما إذا جاء شاعرنا جبلَ الدروز فلن نقول له شيئًا. الأمر هناك متروك للشاعر وحسب. فالجبل هو الملهِم، وهو المحرّض على الشعر والغناء والنثر. على أن النثر الذي يوحي به مثل جبل الدروز يحاكي الشعر جمالاً وصفاء ومعنى. فهلا زار الشاعر الجبل وبُصرى وحوران قبل أن يستفحل الحزن ويتسع الجرح؟

صحيح أن «خسارة الثروة جسيمة ولكنها تعوّض، وخسارة الوظيفة مجلبة للضيق ولكنها تعوّض أيضًا (بينما) خسارة النفس لا سبيل إلى تعويضها» حسبما يقول المطران الراحل.

وصحيح أيضًا أن حزن الشعراء والأدباء ليس مثله حزن المؤرخين

والكيميائيين وأساتذة الرياضيات والجغرافيا والعلوم الطبيعية. ولكن هل لنا أن نجعل الحزن، مهما يكن شديدًا لئيمًا، مناسبة للرقص والابتهاج، ما دام الإخلاص لا يقوم إلا «بأن يبذل المرء كل ما لديه حتى ذاته نفسها في سبيل الآخرين، وأن يبذل وهو متهلل» على حد قول الفقيد نفسه؟

نطالب بأن نسترق من الحزن فرحًا، رحمة بأولئك الذين إنْ نزل عليهم الحزنُ سكنهم واحتلّهم، وإن أتاهم الفرحُ نشروه على المعذّبين في الأرض ومنهم اليتامى والمساكين.

فما قولكم وقد غدَت مساحةُ الحزن، في هذا العصر، أكبرَ وأوسعَ من مساحة القلب ومساحة المسَرَّة؟

الفصل التاسع

الرّوم الكاثوليك:
مِلَّةٌ وكنيسَة بطريَركيّة

«ما ذنبُ مغدوشة، البلدة الوديعة الآمنة والمنفتحة والمتفاعلة مع بيئتها وجيرانها أن تصبح موطئ قدم على خريطة أهل السياسة على حساب أهلها والقيم، ما ذنبُ الناس الطيّبين الآمنين تضرب لهم الوعود وتكال لهم المدائح، ثمّ تشعل النار في ثيابهم وتهدم السقوف على رؤوسهم فيرعون مع أطفالهم في ظلمة الليل يطرقون باب المجهول؟!» «لن أكون شاهد زور وناطور بيوت وقرى مهدّمة وفصول مسرحية جديدة».

الأرشمندريت سليم غزال
المدبّر البطريَركي لأبرشية صيدا ودير القمر
جريدة «النهار» 23/12/1986

الرّوم الكاثوليك

لمن نؤرّخ وكيف؟

هل التلميح يغني عن التصريح؟ والرمزُ عن التبصُّر؟

لأن التاريخ رحلة في الحدث متأنية ومدققة، فالرجوع من بعد الإتمام شرط لا نزاع فيه، بل واجب وحق. ومن سافر ولم يعد، فهو مفقود أو فقيد حتى تأتي أخباره الثابتة والواضحة.

ومهما نأت المسافة وطال الزمن، فلا بد من اليقين الذي يزيح الشك ويحقق الأمر. ولا بد أيضًا من العلم الحاصل عن النظر والاستدلال. ذلك لأن غاية الأمر التأكيد على صدقه ووضوحه، وغاية التأريخ الاستكشاف والاستنتاج. وبين هاتين الغايتين علاقة يدركها المؤرخ بحسه وعقله، فيعمل لما يتفق وإياهما، أو هو يعمل لهما، بما لديه ومن موقعه الخاص. وهنا نجد سر التباين بين المؤرخين (...) وليس باستطاعتنا القول بأن هؤلاء، ولو كانوا من عصر واحد وبيئة مشتركة، هم على مسافة واحدة من الخطأ أو الصواب.

لنتفهم الكنيسة الملكية الكاثوليكية

نسوق هذا التمهيد إيجابًا لحق الارشمندريت اغناطيوس الديك، الداعي في ختام كتابه: «الروم الملكيون الكاثوليك»[1]، إلى الانفتاح

(1) 110 صفحات، من القياس الوسط، المطبعة البولسية، بيروت، طبعة 1986. ظهر هذا الكتاب أولاً بالفرنسية في المجلة البطريركية (Le Lienالسنة 1985، الأعداد: 2، 3، 4، 5) تحت عنوان:
=

على الكنيسة الملكية الكاثوليكية لأنها «بحاجة إلى من يتفهمها ويقدرها ويساندها»[1]، ولأنها «ليست خطرًا على أحد بل هي في خدمة الجميع»[2].

ولكي تتفهم الكنيسة الكاثوليكية، حسبما يريد الارشمندريت الديك، ومترجم الكتاب المطران حبيب باشا إلى العربية كما لو أنه المؤلف نفسه، ينبغي لنا أن نتعرف على ماضيها وحاضرها، وعلى رسالتها أيضًا. ومَن أَوْلى من أبناء الكنيسة، أية كنيسة بكتابة تاريخها والدفاع عن حقوقها وقضاياها والرد على أعدائها وخصومها، ولا سيما منهم الذين تمردوا عليها ورموها بالانتقادات الجائرة الحادة وحرموها، إذ حكموا عليها بالهرطقة وإحداث عقائد غير مسبوقة بمادة ولا زمان؟

على أن كتابة التاريخ، في أي وقت وأي مكان، تتطلب الموضوعية والصدق والأمانة. وكل عمل تأريخي لا يستند إلى هذه المعطيات والثوابت، هو ضعيف وقاصر ومشوّه، ومن الممكن أن يجلب على المؤسسة الضرر، فينفّر منها حتى دعاتها وأنصارها (...) كأن يجعلهم يأنفون منها ويكرهونها، بدلاً من التمسك بالولاء لها ومساعدتها وعضدها كي تحافظ على شخصيتها وحريتها ومواصلة تراثها.

= Le Greck Melkite Catholipeues, Identié et Mission, par L'Archimandrite Ignace Dick.

وقام بترجمته إلى العربية المطران حبيب باشا، بأسلوب شيق ومتين، مما يجعلك تعتقد أنه هو المؤلف. والجدير ذكره هو أن هذه المجلة Le Lien قد ظهرت، سنة 1936، في القاهرة، على يد الكاهن جورج حكيم، وهو البطريرك مكسيموس الخامس حكيم، وشاءها مؤسسها أداة وصل ليس فقط بين أبناء الطائفة في مصر، بل أيضًا بين البطريركية الملكية الكاثوليكية وسائر العالم الكاثوليكي. وهي تصدر اليوم في لبنان (ص88).

(1) نفسه، ص: 110.

(2) نفسه، ص: 110.

لقد عرّفنا المؤلف، وإن تلميحًا، بالكنيسة الملكية الكاثوليكية، فعرض لأبواب ثلاثة هي: «جذور الهوية الملكية» و«الكنيسة الملكية: مصيرها التاريخي» و«الكنيسة الملكية: حاضرها ورسالتها»، فحمّل كل صفحة من كتابه، بل كل مقطع وسطر، حبه لكنيسته وإعجابه برجالاتها الذين صبروا على القهر والاضطهاد، واحتملوا التشرّد والعوز حتى «سيطروا على عوامل الزوال»[1] و«استقرت كنيستهم الموزعة اليوم على خمس دول: سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ومصر»[2]، ولها ممثلون في عدد من العواصم والمدن الأوروبية والأميركية.

إن الأحداث التي ضمّها كتاب «الروم الملكيون الكاثوليك» هي مثل قطف الورد، من كل مسكبة - إن لم يكن من كل شتلة - قمر. وقد أحكم المؤلف جمعها وتنسيقها وعالجها بدراية وإتقان، كما لو أنه في كنيسته يعظ ويوجه ويرشد، أو يتهيأ ليناول المصلّين القربان. وتكاد تنسى أنك تقرأ تاريخ كنيسة وطائفة، حتى يفاجئك - في هذه الصفحة أو تلك - رقم أو رقمان، بين قوسين، وعندئذٍ تتذكر أن الكتاب الذي تقرأ إنما هو تأريخي فعلاً ولكنه مكثَّف مجمّع (Concentrated) يحتاج إلى تحليل وتكثير. وهكذا المقدمة التي بلغت ثلاث صفحات ونصف الصفحة فقط، فهي بمثابة إنذار من المسيحيين الشرقيين - على اختلاف عقائدهم - إلى المسيحيين الغربيين، يحذرونهم من الخطر الذي أوشك أن يقضي على المسيحية في مهدها ومسقط رأسها.

ورثة الكنائس الكبرى

يقول المؤلف أو المترجم:

«منذ أن اندلعت أحداث الحرب في لبنان، أخذ المسيحيون في

---

(1) انظر المقدمة، ص: 7.

(2) ص 98.

الشرق العربي يتصدّرون واجهة الإسلام، وكان الغربيون ـ من قبل ـ في سوادهم الأعظم، لا يعلمون إلا القليل عن وجودهم.

وبينما الجماعات المسيحية في شمالي أفريقيا قد انقرضت، ولم يبق في بلاد المغرب اليوم سوى وجود كنسي مستورَد، نرى الحضور المسيحي في الشرق لا يزال مستمرًّا ضمن جماعات حية متأصلة في أوطانها، لم تفلح التقلبات ولا المضايقات في زعزعة ولائها البطولي بجذورها».

ويقول أيضًا:

«إنهم ـ على ضآلة عددهم ـ يمثلون واقعًا تاريخيًّا وحضاريًّا على جانب كبير من الأهمية. فهم ـ في أيامنا هذه ـ ورثة الكنائس الكبرى في سورية ومصر، وما تعنيه هذه الكنائس من علاقة ذات بال بالجذور المسيحية. ولا شك أن أنفَسَ ما لدينا من إرث لاهوتي وليترجي وروحي قد نَبت في هذه الأرض».

تكون المسيحية الشرقية أو لا تكون.

الغرب حمل إلينا «مسيحيته» فظلت «غريبة» و«مرتبكة» و«متشوفة». وكنا نأمل أن تتعلّم كيف تشرب من ينابيعنا وكيف تقرأ نبوءاتنا وأناشيدنا وحِكَمنا وأمثالَها، وكيف تفسر أحلامَنا ورواياتنا وصراعاتنا وانفعالاتنا، وكيف تفهم تسامحنا وسحرنا وغضبنا وكرمنا. وأيضًا كيف تفكك ألغازنا وأساطيرنا وخرافاتنا ومثالياتنا. ولكن أيًّا من هذه الآمال والأماني لم يتحقق، فبقي الغرب غربًا والشرق شرقًا، في حين ظلت المسيحية الشرقية مثل شجرة الزيتون العتيقة التي يستضيئون بزيتها في الليل ويرشقونها بالحجارة والنبال في النهار.

لذلك يقول المترجم على لسان المؤلف:

«والواقع أن أشد الحقب ادلهمامًا لم تفلح في كبح ما اتصف به المسيحيون الشرقيون من إرادة البقاء».

ويتساءل:

«أفيجب أن يوفِّق القرن العشرون في إبادتهم بمشهد من أوروبا اللامبالية، المزعومة مسيحية وذائدة عن الحريات وحقوق الإنسان؟ وهذه آسيا الصغرى (تركيا اليوم) التي كانت تحضن الملايين من المسيحيين في مطلع هذا القرن، لم يبق فيها منهم سوى بضعة آلاف يعيشون ـ بالجهد ـ في هامش الحياة الوطنية».

ويرفض المتروبوليت باشا[1]، كما نرفض نحن، أن يتصور شرقًا بدون المسيحية، أو مسيحية بدون الشرق، فيقول:

«ثمة أصوات انهزامية تعلو أحيانًا لتزعم أن المسيحيين ليس لهم غد» في الشرق. وثمة أصوات أخرى قد ارتفعت مطالبة بتصفيتهم أو بترحيلهم. ولكن المسيحيين مقتنعون من ضرورة بقائهم حيث هم، مصرّون على التمسك بماضيهم الديني والحضاري، حفاظًا على إيمانهم ورسالتهم، وتحقيقًا لمصلحة وطنهم الحقيقية، وذودًا عما أؤتمنوا عليه من قيم جوهرية في نظر البشرية، وهي حرية الضمير، وإمكان التعايش والتآلف بين مختلف الأديان التوحيدية، ضمن الوحدة الوطنية. ومن حق المسيحيين الشرقيين أن يعوّلوا على الدعم والتفهم، سواء من مواطنيهم الواعين أم من إخوتهم في الغرب»[2].

وينعم المتروبوليت باشا في التشريق[3] فيقول:

«معظم الغربيين يجهل كل شيء من أحوال الشرق ومعضلاته المعقدة. وما عُني بالشرق المسيحي ـ حتى اليوم ـ سوى بعض الجهابذة؛

(1) ودائمًا على لسان المؤلف الأرشمندريت أغناطيوس الديك.

(2) الروم الملكيون الكاثوليك: ص8.

(3) التشريق: الأخذ في ناحية المشرق.

فالأوساط الدبلوماسية والسياسية في مختلف الدول الأوروبية توسّمت في مسيحيي الشرق نقطة ارتكاز لنفوذها، بيادق تحركها على رقعة الشطرنج الدولية. أما العلماء المستشرقون فيجدون فيهم مادة لبحوثهم، ويعنون بمخطوطاتهم أكثر من عنايتهم بالكنيسة الحيّة. وأما المحسنون الأتقياء في «مبرّة الشرق» وغيرها، فالمسيحيون الشرقيون في نظرهم، متسولون بحاجة دائمًا إلى مال، وهم يهتمون «للمرسلين» الأجانب العاملين في ما بينهم أكثر من اهتمامهم لازدهار الكنائس المحلية»[1].

دور الغرب المسيحي:

لماذا يبالغ المتروبوليت باشا في التشريق والعالم ـ اليوم ـ بات كأنه «القرية الكبيرة» على قول «نبي الواسطة» مارشال ماكلوين (Marchall Mcluhan)[2]؟

هل المطلوب من الغرب أن يصبح شرقيًّا ليتفهم معضلاتنا وكيف؟

أي غرب ينشد المتروبوليت باشا في ندائه التالي:

«لقد آن الأوان للجماهير المسيحية في الغرب أن تقف على أحوال المسيحيين في الشرق العربي وتمحضهم المودة لأجل ذاتهم ولأجل القيم التي يمثلونها، وتساندهم بحدبها ودعمها ليستمروا في ولائهم لرسالتهم»؟!

ألم نتأخر في ندائنا هذا؟ أم طالما كررناه حتى كدنا ننساه؟

الجماهير المسيحية في الغرب ماذا عساها تقدم اليوم للمسيحيين في الشرق؟

---

(1) ص: 8.

(2) انظر كتابنا: نحن وصنمية التاريخ، ط: 1986، ص: 622 ـ 623.

لا أظن أن المتروبوليت باشا نسي الأعباء والمصائب التي ألقتها «الحضارة» على هذه الجماهير، فجعلتها قلقة على مصيرها، وخائفة من حاضرها، وقد أصبح الحاضر الغربي مدجّجًا بأحدث وأسرع أدوات الموت الجماعي والدمار الأممي.

لنسأل دوَل الغرب عن مشاريعها المستقبلية!

إن مستقبل الغرب ـ كما يبدو ـ أصبحت معالمه محددة ومعروفة، وهي: الفضاء والتكنولوجيا والسلاح النووي. معنى القول: إنه مستقبل عامودي تصاعدي يسابق الضوء وذو اتجاه واحد. فهو لا يلتفت إلى الوراء، ولا ينظر يمينًا أو شمالاً. إنه فوقي فحسب، بينما مستقبل المسيحية الشرقية مسكون بالهواجس والأحزان التاريخية والانشقاقات المذهبية. ومسكون أيضًا بالخوف من السياسات التي تقررها المصالح الدولية والإقليمية، ومن الإرهاب الذي يمارسه «الأصوليون»، فهل من لقاء بين غربي صاعد مجنون وبين شرقي تقليدي مسكون؟!

وعلى قول المتروبوليت باشا نفسه، فإن «أحوال الشرق (اليوم) على جانب كبير من التعقد»، و«المسيحيون ـ على أقليتهم ـ موزعون طوائف خضعت على مر التاريخ للمصير ذاته بالرغم من الفوارق القائمة بينها». كما وأن «حدود الدول الحديثة لا تنطبق على حدود البطريركيات التي تمثل كيانات إثنية وحضارية أشد أصالة وأكثر تشابكًا». أما بالنسبة إلى الكثلكة في هذا الشرق فإن «مجالس البطاركة والمطارنة التي تتمثل فيها الطوائف الكاثوليكية المختلفة ضمن الوطن الوحيد، لا تملك سوى صلاحية استشارية». بيد أن السلطة هي «بيد السينودسات التي تضم مطارنة كل طائفة حول بطريركها، بالرغم من انتمائهم إلى بلدان مختلفة».

ويلقي المتروبوليت باشا ضوءًا على تاريخ الشرق القديم فيقول:

«ويضم الشرق القديم أربع مناطق جغرافية حضارية: آسيا الصغرى، العراق وإيران، مصر، منطقة أنطاكية (سورية الطبيعية)».

أضاف:

«المسيحيون في آسيا الصغرى (تركيا) هم اليوم في حكم المنقرضين، ولا يدخلون في نطاق الشرق العربي».

ويقول:

«الكنيسة الكلدانية هي الوريثة التاريخية لكنيسة الفرس، ومعظم أتباعها يقطن العراق وإيران. وتضم الكنيسة القبطية السواد الأعظم من مسيحيي مصر. وأما قطاع إنطاكية فهو الأكثر تفتتًا: ثمة خمسة بطاركة ينتسبون إلى كرسي إنطاكية: بطريرك الموارنة، والسريان الأرثوذكس، والسريان الكاثوليك، والروم الملكيين الكاثوليك، والروم الأرثوذكس».

ويتابع قائلاً:

«ويعتبر الروم الملكيون الكاثوليك انفصالهم عن الروم الأرثوذكس، منذ قرنين ونصف القرن تقريبًا، تدبيرًا مؤقتًا. فتاريخهم، حتى مطلع القرن الثامن عشر، تاريخ مشترك، وحتى في الحقبة المعاصرة، لا تزال بين أبناء الكنيستين أمور كثيرة تقربهم بعضهم من بعض. ويكوّنون معًا طائفة تاريخية واحدة هي طائفة الملكيين».

ويرى المتروبوليت باشا أن الملكيين «لا ينحصرون في بطريركية واحدة، بل يتوزعون على بطريركيات ثلاث: الاسكندرية وإنطاكية وأورشليم»، مما يجعلهم «أقل الطوائف ارتباطًا بالرقعة السورية، وأكثرها انفتاحًا على البعد الشمولي الذي تميزت به الكنيسة السورية».

ويعود المتروبوليت باشا ليؤكد على أن هؤلاء (الملكيون) «هم الطائفة التي استمرت أكثر من غيرها على اتصال بسورية الآباء اليونانيين

وظلّت، بفضل ولائها للمجمع الخلقيدوني، متحدة بالكنيستين العظميين: رومة والقسطنطينية».

الكنيسة التوفيقية

والذي يجب أن يعرفه الجميع هو أن تمسك الكنيسة الملكية بماضيها الديني «لم يحل بينها وبين الانفتاح على الأوضاع الجديدة الناجمة عن الاحتلال الغربي». فهي كانت «السبّاقة في تعريف ليترجيتها ومعالم ثقافتها تعريبًا كاملاً». «ويعتبر الملكيون الكاثوليك أنفسهم - من غير أن يذهلوا عن طابعهم السوري الإنطاكي - جزءًا من العالم العربي والعالم البيزنطي والعالم الكاثوليكي. وهم يجمعون الكتل الكبرى الثلاث الناجمة عن تصدّع العالم اليوناني - الروماني القديم، في مطلع القرن الوسيط».

ولأن الملكيين الكاثوليك هم خلاصة العلاقات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية المزمنة والتي سادت المنطقة قرونًا وأجيالاً فربطتها بالغرب، فلا عجب إذا ما أبى هؤلاء (الملكيون) - في تمسكهم بدعوتهم المسكونية - «كل أشكال التطيف». والأصح هو أنهم «ما وُجدوا ضمن طائفة معينة، إلا لأنهم رفضوا التطيف» والعزلة والانفراد، أيًّا كانت الظروف والأسباب والإغراءات المشجعة.

من الثابت أن الكنيسة الملكية الكاثوليكية وُجدت بعد صراع طويل بين الشرق والغرب، وبين الغرب والغرب، والشرق والشرق. ولا نكون قد خرجنا عن جادة الصواب إذا ما قلنا: إنها كنيسة توفيقية تأخذ من الكل لتعطي الكل. عقلها روماني وقلبها شرقي - عربي. ولعلها أكثر الكنائس الشرقية حاجة إلى الوفاق الدولي، لأن ولاءها لروما أمر شاق وكلوف، ولا سيما في الحروب والفتن. ولطالما دفعت هذه الكنيسة من كيانها وحريتها ثمن «طموحات» بعض الباباوات وممارسات الملوك

والرؤساء الغربيين الذين ما انفكوا يحسبون الشرق سلعة أو متاعًا يتاجَر به.

إذا تنازع الشرق والغرب، فأولى الضحايا تكون الكنيسة الملكية الكاثوليكية. وإذا اندلعت الفتن الطائفية بين الشرقيين أنفسهم، فإن هذه الكنيسة تكون هي المستهدَفة من الجميع: المسلمون يدعونها صليبية استعمارية. والمسيحيون المشرقيون ـ أي الذين لم يوالوا روما ـ يعتبرونها انفصالية، بل منشقة عن الكنيسة الأم وخارجة منها. حتى إن اللاتين ما كانوا أرحم بالملكيين الكاثوليك من سواهم، مع أنهم «إخوة في الإيمان» حسبما كان يعتقد الفريقان.

وإن أبلغ دليل على ما نقول هو سقوط بلدة مغدوشة الكاثوليكية الواقعة على كتف صيدا الشرقي بعدما آمنت بالعيش المشترك والوحدة الوطنية إيمانها بالعذراء والمصلوب!

لقد فضح مصرع مغدوشة «الأسرار» كلها و«النيات» كلها، وبتنا وإياها في بحرة من الدم يخشى أن تتمدد حتى تتصل بتلك التي حول البصرة، حيث يهرق الإيرانيون والعراقيون الدم بعضهم على بعض.

إن الضغوط المتعددة مصادرها وأبعادها لم تكن لتقصد القضاء على الكنيسة لملكية فحسب، بل هي تريد تصفية الوجود المسيحي الشرقي بعلاماته كافة. ولكن الحياة المسيحية في الشرق استمرت، فكان استمرارها «شبه معجزة معنوية»، و«استطاعت الكنيسة أن تثبت (هنا) وهي قد اضمحلت في أفريقيا». والسبب ـ كما يراه المتروبوليت أو المؤلف ـ هو «أن العرب كانوا أكثر تسامحًا من برابرة أفريقيا»، و«أن جذور الإيمان في الشرق باتت أعمق وأمتن منها في غيره من الأقطار». على أن المؤلف نفسه قد ميّز بين الفتح العربي والحكم الإسلامي التيوقراطي، إذ يقول:

«لم يقضِ الفتح العربي على وجود الكنيسة الشرقية كما قضى على الوجود المسيحي في شمالي أفريقيا، بيد أن ثلاثة عشر قرنًا من الحكم التيوقراطي الإسلامي قضَمت شيئًا فشيئًا ثروتها البشرية، وأخمدت ازدهارها الثقافي والروحي».

ومن جهة أخرى، يتفق المؤرخون على أن النظام البطريركي «وفّر للمسيحيين إطارًا فعالاً جدًّا وبنية دينية شبه قومية»، إذ باتت «الخلافة الرسولية مؤمَّنة من دون اللجوء إلى مرجع كنسي أعلى مقيم خارج البلاد»، مما وحّد بين الكنيسة القومية كما عند الآشوريين والسريان والأرمن والأقباط والكلدان. ولشدة الالتحام الذي حصل بين الكنيسة والقومية، نهضت في الشرق أفكار وآراء تحذر من خطر التنازل عن سيادة الكنيسة لأنه ـ في معناه ـ تنازل عن القومية بكل عناصر تكوينها المادية منها والإنسانية.

إلى هذه الأسباب، «الأديرة» التي «حافظت على التراث المسيحي عدة أجيال في مستوى جدير بالاعتبار» و«الليترجية» باللغة الحية وما تتضمنه من تعاليم وشعائر «بليغة» قد «ساهمت في تغذية التقوى عند المؤمنين». وأيضًا «عادة الكنيسة الشرقية في اعتماد خدمة الكهنة المتزوجين المنتخبين من بين الشعب»، وقد «ضمنت استمرار الحياة الليترجية وإقامة الأسرار في أقصى الأماكن».

وعن واقع المسيحيين منذ الفتح العربي وحتى القرن الحادي عشر، يقول المتروبوليت باشا:

«بسبب الحكم التيوقراطي الإسلامي، لم يكن من الممكن أن يخضع المسيحيون لقوانين الدولة كلها؛ فالطوائف المسيحية المختلفة كانت تنعم باعتراف شرعي واستقلالية إدارية داخلية في كل ما له صلة بالأحوال الشخصية بموجب قوانينها الخاصة، وفي رعاية البطاركة

القيمين عليها والمعترف بهم رسميًا بأمر من الخليفة. ولكن هذا الوضع قد ساهم - في المقابل - في تثبيت الخلافات المسيحية وأضفى على مختلف الكنائس صورة الجماعات شبه القومية وزاد في تعقيد معضلة الوحدة المسيحية في الشرق العربي».

أضاف:

«حتى القرن الحادي عشر، وطوال الحقبة الذهبية العربية، ظل المسيحيون هم الأكثرية مدة خضوعهم مباشرة سواء للحكم المركزي الأموي ثم العباسي، أم بطريقة غير مباشرة، للسلالات المحلية المختلفة التي تعاقبت على الحكم في مصر وسورية (الطولونيين والأخشيديين والفاطميين والحمدانيين والمرداسيين)، ولبثوا بمعزل عن الصراعات السياسية، موالين للسلطات القائمة».

وجاء دور القسطنطينية، الذي رافقه دور الصليبيين كما هو معروف. وتتابعت الأدوار فتغيرت وجوه، وبدلت أحكام، كان من نتائجها أن تقلّص عدد المسيحيين (...) وانهارت أديار وبيع، ثم انقسمت البطريركية الملكية إلى فرعين: بطريركية الروم الأرثوذكس وبطريركية الروم الكاثوليك، وكان ذلك في أواخر الربع الأول من القرن السابع عشر.

الانقسام الملكي

لماذا انقسمت البطريركية الملكية؟ لا شك أن الجواب عن هذا السؤال يحتاج إلى المزيد من التروي والمراجعة والتحقيق والتدقيق، مع تمنياتنا أن تعود الكنيسة الشرقية واحدة موحّدة. وإلى كثرة المصادر والمراجع، فإن كثيرين قد مالوا بهواهم إلى هذه الجماعة أو تلك، فجاءت أحكامهم غير دقيقة تمامًا وغير عادلة كليةً.

وعلى كل، فإن الكنيسة الملكية انقسمت على نفسها، ففقدت الكثير الكثير من وهجها وأملاكها الوسيعة والغنية. ومن ينظر إلى الحواضر المسيحية الكبرى كيف تلاشت لن يكفيه المؤرخون مهما تعمقوا في أبحاثهم، عما يدور في خلده!

يقول المتروبوليت باشا في وصفه الهيمنة البيزنطية ما يلي:

«وقعت إنطاكية ثانية تحت الحكم البيزنطي مدة قرن وربع القرن (969 ـ 1084) فأصبحت البطريركية الملكية قمرًا يدور في فلك البطريركية المسكونية وكان الامبراطور البيزنطي هو المقرّر في قضية انتخاب البطاركة، ينتقي معظمهم من بين إكليروس العاصمة. وقد اضطر يوحنا الثالث (996 ـ 1021) إلى التنازل عن استقلالية أنطاكية الكنسية، وقبول الرسامة من يد بطريرك القسطنطينية، وليس من يد مطارنة البطريركية الأنطاكية، كما تقضي الأعراف. وأما بطرس الثالث (1052 ـ 1056) ـ وكان أنطاكي المنشأ قسطنطيني التنشئة ـ فقد دافع عن حريات كرسيه الرسولي وأبى الانحياز إلى البطريرك كيرولاريوس في نزاعه مع الكرسي الروماني. لقد بات معروفًا موقفه الشجاع والوحدوي، ولكن خلفاءه لم يجاروه في هذه المواقف الجريئة».

طبعًا، إن هذا القول له في المقْلب الآخر ما يخالفه بشدة وعنف. وعلى سبيل المثل فإن المؤرخ الأرثوذكسي (الروسي) أفغراف سميرنوف يصف الحياة المسيحية في الكنيسة الغربية في العصور من التاسع إلى الحادي عشر، بأنها «كانت في حالة محزنة» إذ إن «شعوب الغرب الجديدة الخارجة حديثًا من حالة الهمجية واعتنقت المسيحية وكانت تتم الناحية الطقسية ليس دائمًا ولو بدون اكتراث (...) ظلت كالسابق بمفهومها الوثني عن الآداب والعادات». «فالجرائم المختلفة، النهب والقتل وما أشبه عند الجميع ولا سيما عند ذوي إقطاع العصور

المتوسطة، كانت عملاً عاديًّا تمامًا». وكذلك «الخرافات الوثنية بقيت أيضًا في قوتها ولكن قبلت شكلاً مسيحيًّا».

ويمضي افيغراف سميرنوف في وصفه هذا قائلاً:

«هكذا صار الكتاب المقدس عرّافًا للمريدين معرفة القدر (المصير)». فإذا «إنسان عزم على المباشرة بمهمة أو مشروع مهم وخطِر يأخذ الكتاب المقدس وأول مكان يقع منه يعدّه نبوءة لنفسه. فالعادة الوثنية الخرافية، عند الشعوب الجرمانية في تمييز الجهة الحقيقية من الباطلة في قضية مختلف عليها بواسطة الامتحان بالنار والماء الغالي والبارد وما أشبه بقيت في كل قوّتها» و«لكن هذا من الامتحان صار اسمه حكومة الله».

ويقول أيضًا:

«وأما بشأن الرهبنة الغربية، فإن الفساد الأدبي المسيطر في كل أجواء الحياة الكنسية قد مسّها أيضًا، فأهملت قوانين بيندكت نورسيسك، والأديار ورئاستها نظير الأساقفة صارت في علاقات إقطاعية مع الملوك والأمراء، حصّلت أملاكًا متسعة وبواسطتها الغنى، وألغي الاشتراك بالمتنيات وأخذ الرهبان يعيشون عيشة ترف وتسيّب، ولم يبق ذكر للاجتهاد العقلي والطبيعي، واشتغل رؤساء الأديار بالصيد نظير الإقطاعيين العلمانيين وذهبوا إلى الحرب مع إقطاعييهم وما أشبه. وبسبب إفساد الحياة الدينية ظهرت محاولات لإعادة قانون بيندكت نورسيسك القديم»، إلا إنها أخفقت.«ولكن في بدء القرن الحادي عشر كانت محاولات لإعادة الحياة النسكية الشرقية الانفرادية القديمة» وهي التي نجحت، فيما بعد. وتميزت الحياة الرهبانية، آنذاك، «بصرامة العيشة».

ومن الذين انتقدوا الكنيسة الغربية بعنف غير محدود أيضًا الكاتبة المجيئية (Advantiest) آلن هوايت، (E.G.White) في سلسلة كتبها

الروحية، ولا سيما منها الصراع العظيم The Triumph of Gods Love) وفيه حملت المؤلفة على الكنيسة الرومانية حملة لا مثيل لها إلا في منشورات «شهود يهوه» ربما. ويمكننا القول إن هوايت في كتابها هذا قد واصلت طعن جسد الكنيسة الرومانية حتى انتهت إلى قلبها، ومن ثم بالغت في تمزيقه من دون أن ننسى ولادة فجر البروتستانتية التي ولّدت الحريات الدينية والكنائس الوطنية والقومية.

وسواء اختلف المؤرخون أو اتفقوا، فإن الصراع على الرئاسة في القسطنطينية، كما تجلى في النزاع الرهيب بين فوثيوس وأغناطيوس حوالى عشرين سنة (861 ـ 879)، كان هو الذي عجَّل على انحدار المسيحية الشرقية وعلى انفصال الكنيستين التام.

إن أحدًا من الأقطاب المتصارعين في القسطنطينية لم يخطر بباله أن حركة وحدوية سوف تولد في سوريا، وتحديدًا في حلب. وقد طالت القطيعة «المطابقة إجمالاً للحقبة البيزنطية» إذ استمرت زهاء ستة قرون، مع العلم أن «الكنيسة الملكية لم يكن بينها وبين رومة من خلاف مبدئي» كما أن أيّ إجراء رسمي لقطع العلاقات بين الكنيستين «لم يتم» وهو أمر ملفت للنظر على كل حال.

العودة إلى رومة

صحيح أن «نشاط المرسَلين الغربيين المتقاطرين على الشرق هو الذي مهّد للعودة إلى الشراكة مع رومة». ولكن الصحيح أيضًا هو أن من بين المسيحيين السوريين الذين أرهقتهم الانقسامات والصراعات والمناقشات اللاهوتية مَن يرى فعلاً إلى الوحدة المسيحية والكنيسة الجامعة. وليس مصادفة أن تكون حلب عاصمة دعاة الكثلكة ومنطلقهم، وهي أخت أنطاكية وأورشليم (القدس)، بل هي بنت سوريا الحضارات والأديان.

يقول المتروبوليت باشا:

«عندما وصل المرسَلون الأولون إلى حلب، وجدوا فيها، على رأس الأبرشية الملكية، أسقفًا نشيطًا من أصحاب العلم والفضيلة هو ملاتيوس كرمة. هذا الأسقف القديس الذي كان قد أعاد النظر في الترجمة العربية لأهم الكتب الليترجية، كان منذ بعض الوقت، على تفاوض مع رومة في شأن طبع هذه الكتب المنقحة».

وتابع يقول:

«فاستضاف (ملاتيوس) اليسوعيين في داره الأسقفية حيث أنشأوا مدرستهم الأولى. ولما أصبح ملاتيوس بطريركًا سنة 1634، أوفد بعثة سرية إلى رومة لتبرم معاهدة وحدة رسمية بين البطريركية الإنطاكية وروما بموجب الاتفاقات المعقودة في مجمع فلورنسا. ولكنه توفي في أثناء المفاوضات. وشاع الخبر بأنه مات مسمومًا بسبب آرائه الوحدوية».

كم كان المخاض عسيرًا إذًا؟!

لقد ظلت الدعوة إلى الكثلكة بين الأخذ والرد، والغَلَيان والفتور، والإقدام والتراجع، فعاش الكاثوليك «في الخفية في المناطق الخاضعة مباشرة للسلطان (العثماني). ونُكبوا في أرزاقهم وممتلكاتهم، ودفعوا أحيانًا من دمهم ثمن تعلقهم بالكثلكة، حتى إن كثيرًا من الأسَر الكاثوليكية «التجأوا إلى لبنان حيث أصابوا قسطًا كبيرًا من الحرية في رعاية الأمراء الشهابيين، وفي منطقة كسروان المارونية».

و«لما توفي (البطريرك) إثناسيوس الثالث (دباس) سنة 1724، شغر الكرسي البطريركي الأنطاكي، فعمد أهل دمشق إلى انتخاب سيرافيم طناس ابن أخت المطران افتيموس الصيفي، وتلميذ «مجمع نشر الإيمان» في رومة. وسيم بطريركًا في دمشق في 20 أيلول، واتخذ اسم كيرلس السادس».

وكان من الطبيعي أن يردّ سينودس القسطنطينية على الدمشقيين بانتخاب بطريركه هو، فكان سلفستروس القبرصي تلميذ البطريرك الراحل اثناسيوس الثالث. وسيم بطريركًا في القسطنطينية في الأحد التالي، 27 أيلول 1724. وهكذا احتدم النزاع بين منتخَب دمشق ومنتخب القسطنطينية، فأباح السلطان دم كيرلس الذي هرب إلى دير المخلّص.

والغريب هو أن رومة «لم تعترف رسمياً بكيرلس السادس ناطاس إلا سنة 1729، بعد أن أبرم الوعد بألا يبدل شيئاً من الأنظمة الشرقية».

إذاً، مع كيرلس ناطاس انطلقت المسيرة لبطريركية الأنطاكية الكاثوليكية، فلمعت في سماء عين تراز (قضاء عاليه) التي أصبحت منذ سنة 1811 مقرًّا بطريركيًّا خاصًّا، أسماء تجاوزت الجبل اللبناني إلى دمشق، ومن هناك إلى العالم الكاثوليكي عبر الشرق الأوسط. من هذه الأسماء: مكسيموس مظلوم (1833 ـ 1855) وغريغوريوس يوسف (1864 ـ 1897) ومكسيموس الرابع الصائغ (1878 ـ 1967)، والبطريرك مكسيموس الخامس حكيم الذي بنى صرحًا بطريركيًّا جديدًا بالطرز الحديث، في الربوة ـ شرقي إنطلياس. ومن أسف أن هذا الصرح قد «احتله» بع النازحين من مغدوشة، مما جعل البطريرك حكيم في حيرة من أمره، فدعا غلى معالجة هذه القضية الناشئة عن سقوط مغدوشة وتهجير أهلها، بوسائل أفضل وأحسن. إلا أنه لم يلق آذانًا صاغية، بل أخذوا يضيقون عليه كما لو انه هو المسؤول عن نكبة مغدوشة، فكان لا بد من أن يغادر الصرح الذي بناه ورعاه بقلب كبير ونفس كريمة إلى دمشق في ظل صمت المسؤولين والقيادين المسيحيين ممن كانوا يزورونه في الصرح نفسه لاستشارته والوقوف على رايه، فيظهرون له الود والاحترام والتقدير؟!.

قلة ولكنها فعالة

لا يتجاوز عدد الملكيين الكاثوليك المليون نسمة[1] وبالرغم من ذلك شاركوا الشرق العربي في التجدد الثقافي والروحي. ومن أعلامهم: ملاتيوس كرمة متروبوليت حلب، والايقونوموس ميخائيل بجع، والبطريرك مكاريوس الثالث الحلبي، وابنه الارشيدياكون بولس، ومكسيموس الثاني حكيم رئيس دير القديس يوحنا الصايغ في الشوير، ثم متروبوليت حلب وبطريرك أنطاكية، والأب نقولاوس صايغ المؤسس الحقيقي للرهبنة الشويرية، والشماس عبد الله الزاخر، والشيخ ناصيف اليازجي وابنه الشيخ إبراهيم، وعيسى اسكندر المعلوف ودوحة المعالفة، والشاعر خليل مطران، وسليم تقلا مؤسس «الأهرام» المصرية. وأيضًا المطران جرمانوس معقّد مؤسس جمعية المرسلين

(1) يقول الأرشمندريت ديك أو المتروبوليت باشا: إن «نصفهم على الأقل خارج الشرق الأدنى. منهم، على وجه التقريب 250,000 نسمة في لبنان و150,000 في سورية، و100,000 موزعة على سائر بلدان الشرق الأدنى، وبالتحديد في فلسطين والأردن ومصر. والملكيون الكاثوليك هم الطائفة الأكثر عددًا، بمقدار كبير، في سورية والجليل، وهم، بين الكاثوليك في المنزلة الثانية في لبنان والقدس والأردن ومصر. ولكنهم يلعبون دورًا هامًا وفاعلاً باعتبار المؤهلات التي تتميز بها صفوتهم» (ص101). ويقول أيضًا: «في لبنان كان الملكيون - في فرعيهم الكاثوليكي والأرثوذكسي - يكوّنون قرابة نصف السكان المسيحيين. ولكنهم كانوا خصوصًا من سكان المدن، ولا ينتمون إلى الارستقراطية الملاكة كالموارنة. ولما كان معظم تجمعاتهم في المدن الباقية تحت السيطرة المباشرة للباشاوات العثمانيين فقد بات لهم أثر أضعف في الحياة السياسية في الجبل اللبناني، مع اضطلاعهم بدور بارز في المجالين الاقتصادي والثقافي. هذا، ولا ننسى أن معظم الملكيين كانوا من أصل سوري، قدموا إلى لبنان من مناطق حوران ودمشق وحمص وحماة، طمعًا بالحرية السائدة فيه. وهناك أيضًا موارنة كثيرون تعود جذورهم إلى أسر ملكية سورية قديمة، انتقلوا إلى المارونية بسبب ابتعادهم عن أوساطهم الملكية» (ص91).

البولسيين (حريصا - لبنان)، والأب قسطنطين باشا المخلّصي، والأستاذ حبيب الزيات، والمونسنيور جوزف نصر الله واضع الموسوعة: «تاريخ الحركة الأدبية في الكنيسة الملكية»، والمطران ناوفيطوس ادلبي متروبوليت حلب، الذي يصدر سلسلة «التراث العربي المسيحي» بالتعاون مع الأب سمير خليل اليسوعي، والمطران حبيب باشا، والمطران يوحنا منصور، والأب حنا فاخوري، والأب جورج فاخوري، والكاردينال إكاكيوس كوسى الذي عُيِّن رئيسًا للمجمع الشرقي في رومة، والمطران بطرس كامل مدوّر، والأب الياس كويتر، والأب إميل الحاج، والأب أوريست كرامه، والأرشمندريت أغناطيوس الديك، والأب ادريانوس شكور، والأرشمندريت سمعان نصر، والمطران غريغوار حداد، والمطران الياس الزغبي، والأرشمندريت بطرس المعلم، والارشمندريت ساروفيم قصبجي، والمطران عادل ايليا، والمطران يوسف ريّا، والمطران إبراهيم نعمة، والمطران فرنسوا أبو مخ، والنائب الأسقفي العام في بيروت الارشمندريت الياس الهبر، والنائب الأسقفي العام في زحلة الأرشمندريت سمعان عبد الأحد، ورئيس عام الرهبانية الشويرية الأرشمندريت بولس عبده، والنائب الأسقفي في صيدا الأرشمندريت سليم غزال، والأرشمندريت بطرس حداد والأب يوسف يارد، رئيس مدرسة البطريركية - بيروت، والأب جوزف هلّيط، رئيس دير القيامة فاريا - كسروان، والأب إليان حلبي، والأب يوسف كلاس مدير المكتبة البولسية، والأب ريمون جهامي، مدير معهد العناية التقني، والأب سليم بسترس، والأب انطوان مهنا، والأستاذ متري نعمان وأولاده: عبد الله وجهاد وناجي. كما لا يسعنا إلا أن نذكر أيضًا الوزير جوزف سكاف، والنائب والوزير يوسف سالم، والنائب نديم سلام، والوزير جوزف أبو خاطر، والنائب المحامي نصري المعلوف، والصحافي جورج سكاف، والأستاذ سليم الحاج،

رئيس مجلس إدارة بنك التجارة الخارجية، والأستاذ بشارة مطر أحد مدراء بنك الاعتماد المصرفي، والمهندس الشيخ رامز الكفوري، والأستاذ غسان حداد، مؤسس مجمّع SAMAYA السياحي بالاشتراك مع الأستاذ سليمان التنوري، أحد مؤسسيْ مجمّع SOLEMAR السياحي أيضًا، والأستاذ جورج صايغ مدير بنك عبر الشرق، والأستاذ إبراهيم داغر مدير غلوب بنك، والأستاذ الياس الحجة مدير شركة «وارنر آدامس»، والأستاذ ألبير طنوس أحد مدراء أدكوم بنك، والأستاذ إبراهيم المنذر أحد مدراء بنك البحر المتوسط، وآل فتّال، وآل عبجي، وسواهم كثيرون ممن لهم مساهمات جليلة في حقول شتى مثل التربية والتعليم والنشر والإعلام والصحافة والحقوق والقضاء.

والحقيقة هي أن الطائفة الملكية، بفرعيها: الأرثوذكسي والكاثوليكي، ليست مجرد كنيسة بطريركية، بل «ملّة» لها جذور قومية ممتدة في أعماق الشرق العربي، من خلال «الاندماج القومي» الذي حققته بفضل المستنيرين من أبنائها، وهؤلاء تعاونوا مع غيرهم من المسيحيين والمسلمين، في بعث القوميتين: السورية والعربية، إدراكًا منهم أن المصير هو واحد، والتعايش المشترك لا مفرّ منه، وأن العدالة حاجة إنسانية بدونها لا تستقيم الحياة، ولا تستقر الممالك والدول.

هل يعود الملكيون إلى ما كانوا عليه متحدين متضامنين، أم أن فوتيوس واغناطيوس قد تنازعا ليظل الملكيون طائفتين وكنيستين، إلى الأبد؟!

إنّ الاستجابة الصحيحة والمطلوبة لدعوة الأرشمندريت الديك والمتروبوليت باشا هي توحيد الملكيين ملّة وكنيسة، إذ لا شيء ينفع غير ذلك وقد ضاعت القسطنطينية وأنطاكية والاسكندرية وأورشليم في مجاهل الحروب الدينية والسياسية والاقتصادية التي غطّت الشرق من أقصاه إلى أقصاه!

الفصل العاشر

السّريَان: شعبٌ ومَواقِف

«السريان ولبنان توأمان لا يفترقان وصنوان لا يختلفان، مصيرهما واحد. فمنذ خلق الله الكون وأتحف العالم بهذه الشَّريحة الجميلة الرائعة من الأرض حطّت عليها أقدام السريان. فارتبط اسم لبنان بتاريخهم بل هم أطلقوا عليه اسمه السامي (لبنان) تعبيرًا عن جماله وحفظًا لِنعَمِه العظمى التي خصّه الله بها».

تاوفيلوس جُورج صليبا
مطران جبَل لُبنان للسرَيان الأرثوذكس
من محَاضرة له ألقاها مسَاء الأحد 17 شباط 1980
في «النادي السرياني اللبناني». انظر «العمل» 20 شباط 1980

بيَان الزيارة(*)

صاحب الغبطة مار أغناطيوس زكّا الأول عيواص

أصحاب السيادة

أيها الحفل الكريم

البيان، في اللغة العربية، هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ. وقيل: إنه من الفهم وذكاء القلب، وأصله الكشف والظّهور[1].

صاحب الغبطة،

حريٌّ بنا أن نعْرِفَ أن لهذا البيان، عند الأصوليين، أنواعًا هي: بيان التقرير وبيان التغيير وبيان التبديل وبيان التفسير، ويضيف البعض: بيان الضرورة[2].

ها أنذا، اليوم، أكتشف بيانًا خامسًا، أو سادسًا، فكأنه وحيٌّ أو نداءٌ من مكان غير منظور.

من هنا،

---

(1) انظر كتاب «تفسير النصوص في الفقه الإسلامي» للدكتور محمد أمين صالح، المكتب الإسلامي، بيروت لصاحبه الشيخ زهير الشاويش، طبعة ثالثة 1404هـ/ 1984م، المجلد الأول (ص23). وقال الجاحظ: «والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير». وقال الإمام الشافعي: «والبيان اسم جامع لمعاني مجتمعة الأصول متشعبة الفروع».

(2) المصدر نفسه.

من هذا الصرح «اليعقوبي ـ السّروجي»[1] أطلق بياني وما هو بجديد.

عهدي به أنه من قبلِ أنْ وُلدتُ...

ولطالما غنّت له الأرض في مواسم الهجرة إلى الشمال والغرب، فكان النشيد، يومذاك، مثلما الجرح في الخاصرة أو الصدر... ولم تتهيّج الذاكرة برغم الغناء الحزين. إني أسميه: بيان الزيارة... وهو محفور، في اللوح المسطور، بأحرف من نور.

صاحب الغبطة،

لأن زيارتكم لبيروت قد أتت في الوقت المناسب، إلى المكان المناسب، فهي البيانُ، وإن من البيانِ لسحرًا.

أيها المسيحي البولسي البطرسي اليعقوبي ـ السرياني[2]، أيها المشرقي الأصيل، لبنان يسأل عنكم ذوي الوجوه «السّريانية» التي أرْهقتْها «الهجرات» والحروب والنكبات.

فامسحْ، بكفك، ما شقّ عليهم ومنعَهم عن مرادهم! علّمْهم كيف يصبر القديسون على القهر والجوع والحرمان!

---

(1) كاتدرائية مار يعقوب السروجي، بناها سيادة المطران جورج صليبا.

(2) نسبة إلى مار يعقوب السروجي الملفان (ت 521) القائل فيه المثلث الرحمة العلامة البطريرك أفرام الأول برصوم في كتابه «اللؤلؤ المنثور»، الطبعة الثالثة. وقد قدم لها قداسة البطريرك زكا الأولا عيواص عندما كان مطرانًا على بغداد والبصرة، ونائب رئيس مجمع اللغة السريانية، 27/ 5/ 1976 مايلي: «عالم نحرير، أوحد زمانه وواحد قطره، وشاعر مفلق مطبوع لا يلحق غباره ولا تدرك آثاره، ومترسل من أمراء الكلام يتأنق ويبدع، تحفزه الفطرة وتمده السجية. غلب عليه الشعر، فسارت قصائده سير الرياح، وطارت في الآفاق بغير جناح» (للمزيد: انظر: اللؤلؤ المنثور، ص: 219، 220، 221، 222).

ذكّرْهم بشهداء كنيستكم، شهداء الحق! صلِّ لهم! أعطِهمْ يدَك المبارَكة!

لقد أوشكت القافلة المحمَّلة بالمسك والبخور والميامر والأناشيد أن تُضِلَّها أرضُنا التَّيْهاء.

هلْ لِعَصاكَ أن تفجِّرَ صحراءَ الخوف أمنًا واستقرارًا وسلامًا!

إني لأرفضُ أنْ أتصوّر شرقًا بدون السريان. ويؤلمني أن أرى الغربَ يَستدْرج هؤلاء، فكأنهم الجياد المهزومة أو الغزلان تطاردها الإبل، التي أصابها داءُ الصَّادِ، فسالت أنوفُها وسَمَت برؤوسها بسبب هذا المرضِ اللَّعين.

صاحب الغبطة،

كنتُ أسمع، وأنا فتى صغير، مثلاً تعرفه العامة، يقول: «كلٌّ صليبه على قدِّه»، فلم أدرك، آنذاك، ما معناه، إنما اعتقدتُ أن صليب الفقير هو غير صليب الغنيّ، فإن كان الأول من خشب أو حديد، فالثاني (يجب) أن يكون من ذهب أو ماسٍ.

وظلَّت كلمات أحمد شوقي «ليس الصَّليب حديدًا كان بل خشبا» كأنها قد نُزِّلت تنزيلاً، حتى طالعتُ تاريخ الكنيسة الشَّرقية، فبان لي الصَّليب رمزًا للعذاب والتَّضحيات، ورمزًا أيضًا للنضال في سبيل الإيمان والمحبة حتى الاستشهاد[1]! وهكذا صرتُ أنظرُ إلى المسيحي كما أنظرُ إلى الصَّليب.

---

(1) ولطالما حدَّثني سيادة الأسقف نرساي دي باز، مطران الآشوريين في لبنان، عن معاناياتهم في بلاد كردستان. حتى إن صمودهم في تلك المناطق الوعرة هو نوع من الاستشهاد، إذ كان غالي الثمن. وما أكثر الذين شاركوا في قهر هذه الطائفة وتبديد شملها وتدمير بلادها ومعالمها وكنيستها.

وكبر إعجابي أكثر فأكثر عندما قرأتُ لمحاتٍ من تاريخ شعبكم العظيم، وما قدّمْته كنيستكم الخالدة من اللاّهوت والعلم والأدب والفلسفة والتاريخ، وكذلك ازدادت ثقتي بمن خرّجتْهم مدارسكم ومساكن رهبانكم المنتشرة في الرّها ونصيبين وديار بكر وديار مُضَر؛ فلا عجب إذا ما امتدَّ هذا النُّور إلى بلاد الهند، حيث تكثر المذاهب والأديان والمعتقدات.

وفي ذات يوم، بينما البلاد تشهد المجازر الطائفية والويلات، أعلنتُ، على السّريان، حبي، في دراسة متواضعة ستبقى تحتفظ بالفضل والتقدير لسيادة المطران ثاوفيلوس جورج صليبا، يومة كان لا يزال راهبًا، ولأصدقاء كرام، أساقفة ورهبانًا، في دير الشرفة، وبطريركية السريان الكاثوليك، حيث يجلس سعيدًا مار أنطون الثاني حائك، إذ فتحوا لي خزائن الكتب والمخطوطات في ذلك الدّير الذي يشبه التاج على رأس درعون ـ كسروان، ولكن عتبي كان كبيرًا وأنا أراجع سيرة أولئك الأساقفة الأحبار، ممن بلغ الصراع بينهم حدًّا عظيمًا، حتى انقسمت الكنيسة السّريانية على نفسها، فانقسم معها الشّعب السّرياني، ليبدأ مرحلة أخرى من الشّتاتِ والتمزّقِ والانهيار.

صاحب الغبطة،

يوم انتُخبتُم رئيسًا أعلى للكنيسة السريانية الأرثوذكسية في العالم، اجتاحني فرح كبير، فآمنت بأن مستقبلاً سريانيًا عظيمًا سيتحقق على أيديكم، وأن الوحدة السّريانية لا بد أن تُبعث في عهدكم، ليعود مشرقنا الحبيب إلى أبنائه الأصليين وإلى اعتزازه بهذه الكنيسة الصّامدة الصابرة، فأرجو أن يكون ذلك هيّنًا عليكم.

صاحب الغبطة،

في منزل الصَّديق الكريم سيادة الحبر المطران جورج صليبا، كان لي، غير مرة، شرف اللّقاء ببعض أساقفتكم ورهبانكم، أتوا زائرين من

حلب وحمص والجزيرة والشّام والعراق والهند وأوروبا وأميركا، على الأخص سيادة المطران الجيل جرجس بهنام، وسيادة الحبر الكريم اثناسيوسيشوع صموئيل مطران الولايات المتحدة وكندا، صاحب كتاب «كنز قمران ـ مدارج البحر الميت» الشّهير، فإذا أنا أمام أحبار وعلماء صالحين يجاهدون الجهاد الحسن، لكي ينقذوا أمتهم من العثرات والأزمات التاريخية الممتدة، بعنف وشراسة، إلى عصرنا هذا الضّارب لونه إلى السواد.

وممن عرفتُ أيضًا المناضل الكبير والحبر الجليل اثناسيوس أفرام برصوم، مطران بيروت وزحلة، الذي له عندي منزلة عظيمة جدًّا، بمثلها احتفظ لمساعديه الكهنة ولأولئك القيمين على ثانوية مار سويريوس في المصيطبة ـ بيروت، مديرًا وأساتذة، السّاهرين على مجد ثانويتهم وسمعتها وكرامتها ووطنيتها بأمانة فائقة وإخلاص لا حدود له.

كذلك، اتصلتُ بسائر مجالسكم ومؤسساتكم وجمعياتكم في لبنان، مسؤولين وأفرادًا، لا سيما المطران متى شمعون، الذي يرعى، في العطشانة، شؤون أطفال قست عليهم الحياة وظروف العيش.

جميع هؤلاء أولئك على خلق كريم، وقد عَمَرت قلوبُهم ونفوسهم بالحب والإيمان، وما تراجعوا عن المصاعب ولا هم لانوا، وإنّ ثقتي بهم لكبيرة.

صاحب الغبطة،

إن كان لا بد من كلمة أخيرة، فهي للثّناء على كل السّريان الذين التقيتُهم أو مررتُ بهم، لما أظهروا ويُظهرون من سمات حميدة، وصفات كريمة، وتفهم، امتدادًا لما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، واحترامًا منهم لتاريخهم المجيد ومبادئهم العالية والراقية التي لن يتنازلوا عنها أبدًا مهما يتآمر المتآمرون.

صاحب الغبطة،

مرة أخرى أقول: إن زيارتكم الرسولية الأولى إلى لبنان، هي، في نظري، بيان رائع، سيتوّج، حتمًا، تاريخ الكنيسة السريانية المعاصر بأعظم الانتصارات وأهم الإنجازات.

صاحب الغبطة،

تحيةٌ مني إلى دمشق ـ الشّام، عاصمة كنيستكم المقدّسة، وإلى كل مدينة وقرية حضنت وتحتضن سريانيًا بالعطف والحنان والتكريم.

لمحات من تاريخ السّريان

إن الذي يعرف تاريخ السريان وما جرى لهم في سوريا وبلاد ما بين النهرين، لا بد أن يتذكر، كلما التقى سريانيًّا، أخبار الاضطهادات الدينية والسياسية والاقتصادية، التي لقيها هؤلاء، منذ بدأت المجادلات اللاهوتية حول طبيعة المسيح وحتى الثلث الأول من القرن العشرين الحالي.

فعلى وجه كل سرياني، كما في عينيه، حكايات عن سياط الجلادين، التي أكلت من أجسادهم وأفئدتهم وحريتهم. أما أيديهم وأرجلهم فعليها آثار للأحقاد الفولاذية، البيزنطية والفارسية والعثمانية، ما زالت تدوي أخبارهم في أقبية التعذيب وقلاع الأباطرة والأمراء والسلاطين والولاة.

أولئك كانوا يُداهَمون في بيوتهم ومحلاتهم وحقولهم، ليُسحبوا جماعات، رجالاً ونساء، فتيانًا وشيوخًا، وأطفالاً في بعض الأحايين، إلى حيث كان يجري عليهم الحساب الشديد، وتنفَّذ فيهم شتى أنواع العقوبات، فمنهم من قضى حرقًا، ومنهم من قُتل بالسيف، وآخرون

ماتوا إما قهرًا وإما جوعًا، أو خوفًا، أو إثر مرض حلّ بهم من بعد التّحقيق والتّرهيب والتّحقير.

من السّاحات العامة كانوا يُساقون كما الأغنام، والويل ثم الويل لمن قاوم أو احتج. وترى النار تشتعل في المنازل والمتاجر، ومنها كانت أَلْسِنَة هذه النار تمتد إلى بساتين النخل والزيتون والرمّان، لتشمل حقول الأرزّ والقمح والقطن والحنطة. ويدخل الأوباش، زبانية الأمبراطور أو الأمير أو السلطان، بخناجرهم على المواشي ليبْقروها، فتمتلئ السماء دخانًا، والأرض يختلط فيها دم الإنسان بدم الحيوان، وقد كان يرخص سعر الآدمي عن سعر البهيمة.

ذنْبُ هؤلاء أنهم يريدون أن يَشْبوا على عقيدتهم، فكنائسُهم يجب أن تبقى كنائسَهم، وأديارهم وجدت لتظل شامخة على القمم، ولهؤلاء شعائر وطقوس ولغة وتراث وتاريخ، لا يتنازلون عنها لأحد، بل يتمسكون بها، ويحافظون عليها، فإما الحياة وإما الفناء.

لقد ملأ السّريان أرض المشرق طولاً وعرضًا، وكانوا يُعَدّون بالملايين. فمن أدنة (أطنة)[1] إلى أورفا (الرّها)[2]، إلى ديار بكر، على دجلة الأيسر، إلى طور عبدين، إلى ماردين. ومن القامشلي إلى حلب إلى أنطاكية، وإلى حماه وحمص والنّبْك والشّام والقدس، حتى بغداد والموصل، وأبواب بلاد فارس. على هذه المساحة الواسعة نشر السّريان أروع الأعمال. فالأناشيد الخالدة هي أناشيدهم، والقصص الساحرة هي

(1) أدنة أو أطنة (Adana) مدينة تركية، قاعدة مقاطعة سيهان في كيليكيا.

(2) أورفا أو الرّها (Urfa, Edesse) مدينة بين النهرين في تركيا، اشتهرت بمدرستها اللاهوتية التي انتقلت إليها من نصيبين 363م. بعد فتح الفرس لهذه المدينة. فأصبحت الرها عاصمة الآداب السريانية حتى القرن السابع. من أشهر أساتذتها أفرام السرياني ورابولا. فتحها العرب 639م.

لهم ومنهم، والفناقيث (الصلوات الفرضية)[1] من أعمالهم. كذلك الصّلوات والتسابيح والمواعظ والميامر والإرشادات، وكتب التاريخ والطب والصرف والنحو والفلك والهيئة والحساب، والمباحث المختلفة، كلها من عندهم. لولا هذه المحفوظات لضاع قسم كبير من تاريخ الشعوب المشرقية في مواخير الذين أفْسَدوا في هذه الأرض وكانوا من الضالين.

حاولوا إبادتهم

كم حاولوا إبادة هذا الشَّعب الجبار الصابر على المذابح والمجازر والسحْل والتنكيل!

أإلى هذا الحدّ تكون القلوب قاسية والعواطف متحجرة والأحقاد ثابتة؟!

كيف استطاع الفرس والبيزنطيون والعرب والصليبيون والعثمانيون أنْ يُعملوا سيوفهم وسكاكينهم في نحور رجال السِّريان وأطفالهم ونسائهم؟

(1) الفنقيث، ج: فناقيث: لفظ سرياني يراد به اللوح والدفتر ومجلد كتاب. ثم أطلق على جزء من الكتب القانونية البيعية. وقد ضمت منها دار المخطوطات السريانية في دير الشرفة عدة مجلدات ضخمة أكل عليها الدهر وشرب وأصبح بعضها لكثرة الأيدي التي تداولتها تنقصه بضع أوراق خصوصًا في أوله أو آخره. ومن ثم فنكاد لا نرى فيها تواريخ نسخها. وكان العلامة السيد اقليميس يوسف داود مطران دمشق الطيب الذكر قد طلب جانبًا منها إلى دمشق مستعينًا بها على ضبط الطقوس الفرضية وبعد أن صرف في هذا السبيل عشرة أعام كاملة أعادها إلى مركزها. وقد ألغي استعمالها بظهور الفناقيث المطبوعة منذ السنة 1886. انظر كتاب: «الطرفة في مخطوطات دير الشرفة» تأليف الخورفسقفوس إسحق أرملة السرياني، مطبعة الآباء المرسلين اللبنانيين - جونية 1936، ص109.

لماذا الإنسان عندما يتعرى من إنسانيته يصبح وحشًا، بل أخطر، على أخيه الإنسان، من وحوش الأرض جميعها؟

لقد أكلت هندُ كبدِ الحمزة فُضرب بها المثل: «آكلةُ الأكباد». وكأني بهم قد فاتهم أن هندًا هذه هي بنت المآسي والنَّكبات التي حلت بقومها وأهلها، قبل أن أصبحت «آكلة الأكباد» ثم الصحابيّة العالية الشهرة.

ومهما يكن، فماذا عسانا ندعو أولئك الذين كانوا يتفرّجون من نوافذ قصورهم البائدة، على السَّريان يُذبَحون في السَّاحات كالخراف؟!

هبْ أنهم كانوا عصاة برابرة أو قُطّاع طرق، بينما هم ليسوا كذلك، فمن الذي أجاز ذبحَهم وتشريدهم من بلادهم ومطاردهم وتفقيرهم؟

مخطوطاتُهم، التي تفخر مكتبات العالم أن تحتويها، تشهد لهم بأنهم أهل حضارة وثقافة وتُقى ومجد. فكيف نسكت عن المظالم التي حلّت بهم فأذلتهم بعد أن كانوا هم النّجوم والكواكب في سماء هذا المشرق، وهم الذين أناروا ظلمات الغرب وأقاصي الشَّرق، بالعلوم والفلسفة والفن والأدب؟!

ألا قلنا لمغتصبي حقوق السّريان: إذا كنتم تريدون أن تكونوا رواد السَّماء، فالأفعال الهمجية التي بادرتم بها هؤلاء تؤكد أنكم لا تستحقون هذا الشَّرف، حتى إن الأرض التي سقيتموها من دماء السّريان تعيّركم، بل هي ترفضكم موتى ثم ترابًا.

من الذي قال لكم إن السماء تستقبل الظالمين والمستبدين والسفّاحين؟

كلا! السَّماء هي ميدان للشّهب والشّمس والقمر، وليست ميدانًا لذئاب اللّيل وثعالبه الغادرة.

أي حياد تطلبون؟

هل عرفتم لماذا قاتَل السّريانُ في لبنان؟

ماذا كنتم تنتظرون من هؤلاء الذين شرّدتهم الأطماع والعصبيات (...) ورمت بهم هنا، في هذه الأرض التي كأنها البركان؟

تطالبونهم بالحياد؟

من الذي حدّثكم هكذا؟

ألم يقل المثل: «من زرع الرِّيح حصدته العاصفة؟».

اقرأوا جيدًا تاريخ هذا الشّعب وتاريخكم، قبل أن تحكموا عليه وترجموه وتحمّلوه الأوزار والآثام!

لقد قاتَل السّريانُ، في لبنان، دفاعًا عن وطن منحهم المأوى والحرية، ودفاعًا عن وجودهم. فما أروعهم أوفياء للبنان الذي فتح لهم قلبه عندما لجأوا إليه هاربين من جَوْر لا يوصف وظلم لا يُطاق واستبداد جاهل وخبيث!

قد يسأل البعض، وهو على حق: لماذا الذّبح على الهوية؟

حقاً نقول إن النّزاع، لا يكون إلا كما يمارس اليوم على أرضنا وأجسادنا، عندما تسود المجتعات، أو بعضها، شريعةُ الغاب، وتتحكم فيها الأهواء والشّهوات والطائفية العمياء اللّئيمة. ولسنا بعيدين عن هذه المعايب والمصائب، بل هي فينا ونحن فيها، منذ تلك العهود التي خوَت.

كيف نفهم الحياد؟

إذا كان «كلُّ وعاء ينضح بما فيه» حقًّا، فإن هذا الشّرق، الذي زرعناه ظلمًا ورعبًا وخوفًا وبؤسًا وشقاء وقلقًا، لا بدّ أن تكون «مواسم

القطاف» فيه، هي مواسم الذّبح على الهوية، فيا ليتنا ندرك ما نحن فاعلون!

... ونغازل الله

ما أغبانا وما أقلّ حياءنا!

نغازل الله آناء الليل وأطراف النهار غزلاً إباحيًّا. وكلما فرغت رؤوسنا حشوناها بالخرافات والادّعاءات الكاذبة الباطلة، لنتنادى إلى المبارزة، فكأن الله عَلَمٌ على جبل يستحقه من وصل إليه قبل غيره، ولو على الجماجم.

صديق يأكل أُذُنَ صديقه؟ طفل يخنق ثعبانًا؟ أُمّ تقْتُل أطفالها؟ شاب، في مقتبل عمره، ينتحر برصاصة مسدّسه؟ صبيّة كاعب حسناء تلْعق السم؟ مدينةٌ تقفل على نفسها الأبواب لتتحول رمادًا وجثثًا! كاتب أو شاعر أو فيلسوف ينتقم من مطبوعاته ومخطوطاته فيقذفها إلى النار ويجلس ليغشّي بصرَه بدخانها وقد هيأ حُبوبَ الأبدية؟ عصابةٌ أبطالها مراهقون تخطف طفلاً لتبتزّ من ذويه المال، وقبل أن يتعانق عقربا الساعة، ساعة الوعد، تطرحه صريعًا وترفق طيّه رسالة موجزة جداً تقول: «لم نكن لنرغب بقتله، وإنما هو القرار فحسب»؟

قائد جماعة يقيمُ وليمةً مميتة لأعضاء فرقته وعائلاتهم وأطفالهم وذويهم، وإذا ما اطمأن إلى نجاح «العملية» تبسّم وانتحر؟

الكبار المُتخَمون يسرقون مال الوطن ويعاقبون الصّغار الجياع الذين يسرقون ليأكلوا؟!

أسئلتنا، هذه، الكثيرة المتزاحمة، متى تلقى الجواب؟

ربما لا جواب، ولا حلّ، ولا سعادة، ما دمنا نغازل الله ونكذب عليه.

كلما جئتُ صديقي الربّان (المطران) جورج صليبا، وجدتُ منزله (انتقل مكتبه إلى المطرانية) في السبتية - المتن، يغصّ بالبائسين من أبناء طائفته ممن أتوا يكاشفونه بقضاياهم المتعددة وبخاصة الاجتماعية. هذا من القامشلي، وذاك من ماردين، وذلك من طور عبدين، وآخرون من دمشق، أو الرَّها أو الحسكة أو حلب أو العراق، يبدو عليهم ما يحرّض على الاستفسار عن أوضعهم ومشكلاتهم، ولطالما راودني السؤال: لماذا حالُ هؤلاء هكذا؟

غير مرة قلتُ لسيادة المطران صليبا الودود، الذي يستقبل ضيوفه، معانقًا: إن في طائفتكم، يا سيدي، بائسين لو كنا سنبحث عن مثلهم بين فقراء الشِّيعة، إن في لبنان وإن في البلاد العربية أو إيران، على ضوء قنديل «ديوجين»، ربما لن يصادفنا «النَّجاح».

وكلما ذكّرتُه بهذا القول يحتلّ الحزنُ وجهه الممتلئ حيوية وعافية ليقول لي ودائمًا: «إنها حصيلة أكثر من ألف وخمسمائة عام من الحروب الدينية والسياسية التي جرت على أرضنا». ويتابع قائلاً: «وليس لك إلا أن تعود إلى تاريخنا إن كنت تريد الباب القاطع والحاسم».

الخلافات السريانية:

عزمتُ على قراءة ما أمكنني من تاريخ السِّريان، فقادتني الطَّريق إلى غبطة البطريرك أنطون الثاني حائك، في مقره الش!توي ببيروت - طريق الشام - قرب المتحف، لأجد عنده خزائن الكتب النَّفيسة والمراجع المختصة.

كرّرتُ الزيارة للبطريركية.. ثم لدير الشَّرفة، فأخذت معرفتي بغبطته تنمو وتكبر. وهكذا مع الأسقفين: فلابيانوس زكريا ملكي وغريغوريوس أفرام جرجور، والآباء: يوسف ملكي وجبرائيل كاتو (كلاهما من ماردين - بلاد الشهداء)، وميشال الخوري (من حلب)، وجورج

المصري (من دمشق)[1]، والمونسنيور ميخائيل الجميل (من العراق). هؤلاء جمعتهم المسيحية فإذا هم إخوان في المسيح والعقيدة، وقد نذروا أنفسهم لله والكنيسة.

لا أستطيع أن أخفي ذلك الوجع الذي انتابني وأنا أطالع «تاريخ دير سيدة النَّجاة، أي دير الشرفة»[2] لمؤلفه الخورفسقفوس إسحاق أرملة السرياني، و«عناية الرحمن في هداية السّريان»[3] و«السلاسل التاريخية في أساقفة الأبرشيات السريانية»[4] و«المجلة البطريركية السريانية»[5] وبعض الأعداد من مجلة «الكرمة»[6] وكتبًا أخرى. فهنا قدّح بالسريان

---

(1) كان آنذاك رئيس دير الشرفة. وعلى أثر التشكيلات الأخيرة انتقل إلى منطقة سد البوشرية - جديدة المتن، فيما أخذ محله الأب يوسف ملكي إذ عُيِّن رئيسًا للدير.

(2) (626) صفحة من القياس الوسط، مطبعة الآباء المرسلين اللبنانيين - جونية - لبنان 1946.

(3) (668) صفحة من القياس الوسط، جمعه العبد الفقير إلى ربه تعالى ديونوسيوس أفرام نقاشة، رئيس أساقفة حلب على السريان الكاثوليك، طبع بمطبعة صبرا في بيروت 1910.

(4) (482) صفحة، من القياس الوسط، بقلم الفيكنت فيليب دي طرازي، عفي عنه. المطبعة الأدبية في بيروت 1910.

(5) السنة السابعة 1940، العدد الثالث. صادرة عن البطريركية السريانية في دير مرقس للسريان بالقدس - صاحب امتيازها الأب الراهب يشوع صموئيل (هو نفسه الحبر الجيل اثناسيوس يشوع صموئيل مطران الولايات المتحدة وكنده للسريان الأرثوذكس) ما زالت هذه المجلة تصدر، ولكن عن بطريركية إنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس، دمشق - سورية، مديرها الحالي ورئيس تحريرها سعيد عبد النور، ويتولى الشؤون الإدارية نيافة المطران سويريوس إسحاق ساكا النائب البطريركي العام.

(6) نشرة فصلية إخبارية مصورة، تصدر عن مؤسسة الراهبات الافراميات ببيروت، صدر العدد الأول منها في كانون الثاني 1971.

الأرثوذكس من قِبل إخوانهم السريان الكاثوليكيين، وهناك رد مثله من السريان الأرثوذكسيين على السريان الكاثوليكيين. تمامًا كما هو بين السنّة والشيعة، والشافعيين والمالكيين، والحنابلة والحنفيين، والعلويين والإسماعيليين، أو قل بين أي فريق من هؤلاء والآخر، وعلى مدى قرنين أو أكثر، استمرت الانتقادات اللاذعة والقاسية التي يسودها الانفعال والغضب. فإذا بُعدٌ بعيد بين أبناء الطائفة السّريانية الواحدة. فريق يرفض مبايعة الباب رئيسًا على كل المسيحيين في العالم ويعتبر أن الأصالة هي لديه وفي مشرقيته وعقيدته المستقيمة الرأي، وفريق يأبى إلا أن تكون الكنيسة الرومانية أم الكنائس العالمية، وكل منهما يتهم الآخر بـ «الانحراف» و«الهرطقة»!!

إن هذه النزّاعات الحادة هي، بكل تأكيد، حصيلة المؤامرة على السّريان وتراثهم.

ففي بداية القرن الثامن عشر استطاع خصوم السّريان(...) والطامِعون في تفتيتهم وتهجيرهم أن يؤلبوا بعضهم على بعض، فإذا هم في صراع سرياني - سرياني رهيب.

لقد كان الوالي التّركي وزبانيته، من جهة، والقناصلة الإفرنج، في حلب وسائر العواصم المشرقية من جهة أخرى، هم الذين حرّضوا على هذا الصّراع وشجّعوه بما أنفقوا عليه من أموال طائلة في زمن أسْود لئيم، فتواصلت الفتن، وتفاقم الخلاف الغامض - الواضح، ما سبّب بالانشقاقات التي ستبقى من معانيات الكنيسة السّريانية ما بقيت قائمة.

يقول المطران نقاشة:

«ولبث مسيحيو حلب منقسمين إلى الفرقتين اللّتين انتشرتا في بلاد سوريا وما بين النّهرين منذ القرن السادس أعني: الملَكية وهي التابعة لتعليم المجمع الخلقيدوني، واليعقوبية وهي القائلة بالطبيعة الواحدة في

المسيح. وكان لكل منهما كنائس وأساقفة خصوصيون بحلب يترأسون كلاً من الطّائفتين على حدة الواحد بعد الآخر».

أضاف:

«وورد في الفهرست الذي ألحقه ميخائيل الكبير بكتابه التاريخ المطوّل[1] أسماء أساقفة حلب السّريان اليعقوبيين منذ عهد البطريرك قرياقوس (793 - 817) إلى أيامه أعني إلى آخر القرن الثاني عشر». وفي «سنة 727 تشعبت في مدينة حلب من الفرقة الملكية شعبة ثانية انحازت إلى الضّلالة المنوثلية (المونوثيلية)[2] وطال الخصام بين الفريقين ثم أذعنت الفرقة المنوثلية للملكيين».

وقال أيضًا:

«وكان الملكيون مستولين على الكنيسة الكبرى وقد وصفها بعض المؤرخين بقوله: (إن موقعها كان اتجاه الجامع الغربي المعروف بالجامع الكبير، وهي الكنيسة التي ابتنتها هيلانة أم قسطنطين وكانت معظَّمة عند النصارى حتى قيل إنه كان يقف على بابها يوم الأحد كذا وكذا بغلة لرؤساء النَّصارى من الكتاب والمتصرفين)».

و«من أهم الأخبار ما ورد في كتاب تاريخ ابن الشحنة - نشره

(1) هو «كتاب الحوليات في تاريخ الكنيسة والشرق». أو «كتاب التاريخ الديني المدني العام» المستفيضة شهرته من أول الخلقة حتى سنة 1193 (كما يصفه أفرام برصوم في «اللؤلؤ المنثور» ص394).

(2) المونوثيلية: أصحاب المشيئة الواحدة. ظهرت في القرن السابع. حرمها المجمع القسطنطيني الثاني (681م) وكان قد سبق هذه الفرقة جماعة قالت بطبيعة واحدة في المسيح، وهي (المونوفيزية)، ظهرت في القرن الخامس. للمزيد من المعلومات، انظر: «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية»، الجزء الثاني 1957 ، ص99، 100.

يوسف أفندي إليان سركيس السّرياني[1] ـ عن كنائس الفرق الثلاث ما تعريبه: (في سنة 1121 مسيحية لما أقبل غوسلين (جوسلين)[2] يحاصر مدينة حلب أولاً في جبل جوشن غربي حلب وأخرب الجامعين اللذين فيه. وبعد أن خمدت الحرب، استدعى أبو الحسن حاكم حلب مطرانيها، أعني: غريغوريوس شمشون مطران السّريان، ومطران الملكيين مع جملة من المسيحيين وأمرهم ببناء الجامعين. فلما عادا لمشاورة وكلاء الكنائس قرّ رأيهم على أن لا يجيبوا إلى ذلك الطلب لئلا يفتحوا على المسيحيين بابًا جديدًا وهو القيام برم الجوامع كلما خربت، فلما سمع الحاكم ذلك أمر ألوفًا من المسلمين فأسرعوا يوم الجمعة إلى الكنائس ودمروها ودخلوا كنيسة مار يعقوب وكانت للسّريان وكسروا البيم وكاروبي المذبح ومزقوا الصّور وفتحوا في الجهة الجنوبية محرابًا صلوا فيه وصنعوا كذلك ببيعة والدة الله وكانت للملكيين وبكنيسة النّساطرة، ونهبوا الكنائس وقلايتي المطرانيين فهرب مطران الخلقيدونيين إلى أنطاكية ومطران السّريان إلى قلعة جعبر»[3].

وهل أوجع من أن نقرأ أيضًا:

«... وكان مفريان اليعاقبة منذ بلغه صدور الفرمان في حق

(1) يوسف اليان سركيس (1856 ـ 1932): وُلد في دمشق. استوطن القاهرة ونشر «الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب» لابن الشحنة، له «معجم المطبوعات العربية والمعربة».

(2) جوسلين: (Josselin) اسم ثلاثة زعماء من الإفرنج ذكروا في الحرب الصليبية. أولهم أمير طبرية صاحب الرّها توفي 1131. هو نفسه الذي ذكره ابن الشحنة.

(3) عناية الرحمان في هداية السريان (ص28، 29). أما عن قلعة جعبر، فهي قديمة سماها العرب دوسر. وتقع على الفرات بين الرقه وبالس. احتلها الصليبيون 1168م ثم استرجعها نور الدين ولا تزال قائمة وفيها قبر سليمان جد العثمانيين وولديه أرطغرل ودوندار.

الكاثوليكيين قد سارع إلى العاصمة وشرع يترقب الفرص الموافقة لينتقم من الكاثوليكيين. فبينما هو كذلك، إذا بكتب من قسوسه الحلبيين يخبرونه فيها بما جرى لهم في المحكمة. وكان السفير النمساوي الذي أبرم مسألة الصلح مع الدولة العلية قد عاد إلى فيينّا. فاغتنم الخصم هذه الفرصة وشكا الكاثوليكيين وقاضي حلب مساعدهم إلى فضل الله شيخ الإسلام فهيجوا إلى الغضب، فأمر بإعادة الدعوى والحكم، وكتب إلى قاضي حلب يوبخه قائلاً:

«كيف جاز لك أن تعطي البطريرك بطرس إعلانًا أنه ليس بفرنجي وقد جاء برفقة سفير النمسا من فيينا إلى دار السعادة فلا بد أنه شاطرك المال الذي أخذه من السفير حتى أثبت له الدعوى. فأعِدْ الفحص عاجلاً وعاقبْ الإفرنج بما يمكنك من الشدّة».

«ولم يبطء أنصار الكاثوليكيين أن أوصلوا الخبر إلى قنصل حلب فأراد أن يهزم البطريرك إلى لبنان، ولكن حال دون ذلك وصول أوامر شيخ الإسلام الجديدة إلى القاضي في 14 آب 1700م، فألقى القبض على البطريرك بطرس فزج في سجن عميق عند باب قنسرين. والحجة، في ذلك، أن أربعمائة شخص اشتكوا عليه أنه يذكر البابا في صلواته ولا يذكر اسم السلطان، وأنه يبذل المجهود مع المرسلين الفرنج ليؤلف حزبًا سياسيًّا مضادًّا للسلطان. وطرح معه أيضًا في السجن المطران رزق الله أمين خان، والقس نعمة الله قدسي، والقس عبد الأحد بن سفر أخي البطريرك، والقس سلمان بن سفر خور، وأخاه القس ارسان، والربّان سفر بن عبد النور، والمطران يشوع بن عبد الأحد، ويوحنا أخا المطران رزق الله من العوام.

«وكان قد أقبل في اليوم نفسه الربّان عبد النور بن شكر الآمدي بكتب من يوسف الأول بطريرك الكلدان يقول فيها للبطريرك بطرس: (إن

حامل كتابنا الربّان عبد النور كاثوليكي حقيقي فأقمه مطرانًا على ديار بكر) وكان وكيل البيعة يشوع بن صنيعة رجلاً شرسًا منافقًا قد تزوج في حلب، وزوجته الشرعية في الحيوه بماردين. فلما وصل عبد النور إلى دار البيعة وهو لا يدري بما جرى، هجم عليه يشوع وأخذه إلى المحكمة سحبًا حيث فتشوه واطلعوا على ما معه من الرَّسائل فسجن مع الآخرين»[1].

إن الشعب الذي يُسحب أساقفته وقسوسه إلى السجن ليُهانوا ويُعذَّبوا لا يعرف الاستقرار ولا الأمن ولا الحرية. «فالاضطهاد دفع الحلبيين (المسيحيين) إلى الالتجاء إلى لبنان» ومنه إلى أوروبا وأميركا. وكما الحلبيون كما غيرهم ممن يسكن الجزيرة والشام وحمص والعراق.

إن هؤلاء وأولئك قد سيموا أقسى العذاب من احتقار وإهانة وضرْب بالفَلَق وجوع. ومن الأساقفة والقسوس أيضًا من «حَكَم عليهم في 1 تشرين الثاني سنة 1701 فضلُ الله شيخ الإسلام في اسطنبول بنفيْهم إلى أدنة وطرْحِهم في سجن قلعتها الرهيب المظلم» . ولولا الإيمان الذي كان يملأ صدور من ذكرنا من الأساقفة والقسوس لقدموا الطاعة والولاء للدولة المستبدة وممثليها. وإنه لمن دواعي الاعتزاز التذكير بأن «مرارة الوحشة وفداحة العذابات (كذا)»[2] التي قاساها المسجونون، في سجن أدنة، قد فتقت عندهم عبقرية الصمود والصبر. حتى إن أحدهم القس نعمة الله قدسي ألّف، داخل السجن، كتابه: «شرح الأجرومية للملة النصرانية»[3]، «سابقًا بذلك المطران جرمانوس فرحات، العلامة

---

(1) المصدر نفسه: ص112، 113.

(2) نفسه.

(3) جاء في «الطرفة في مخطوطات دير الشرفة» ما يلي: «ألف هذا الكتاب عام 1701م السيد غريغوريوس نعمة قدسي مطران دمشق الشام (1730 ـ 1745) =

الماروني الحلبي، واضع قواعد التصريف والنَّحو في العربية»[1].

= والرئيس على دير مار يعقوب ومار أفرام الكائن في مدينة رومية العظمى لطائفة السريان...» كذا ورد عنوان هذا المخطوط النفيس الذي ألفه ناسخه نفسه يوم كان مسجونًا في قلعة أدنه مع السيد مار اغناطيوس بطرس شاهبادين (1678 ـ 1702) بطريرك السريان الأنطاكي ومع المطران رزق الله أمين خان وسبعة قسان سريان كاثوليك. وإليك ما بته المصنف عينه في المقدمة إذ قال ما ملخصه: «... ولما بقي ثلاثمائة لتمام الألفين من تاريخ سني سيد الكونين، أوقدوا نار هواهم اعتصموا بالدولة السلطانية، وأتوا بشهادات باطلة مزيفة، ليأسروا كل من اعتقد في سيد البرية بوتر قنومه الروحاني وشفع كيانيه الإلهي والإنساني. فشرعوا في هذا الطلب مجدين.. وأسلموا البعض للجلد والأسر في الحبس والهوان، والبعض للنفي والقتل والكفران. حتى إنهم أقاموا البطريك بطرس السعيد وكهنته أمام القضاة والموالي والعبيد، وأسلموهم للجلد والسجن المظلم، ثم أوثقوهم إلى حصن مدينة أدنه منفيين. وفي تلك الليلة نفسها توفي المطران رزق الله. وبعد مدة انتقل إلى رحمة ربه البطريك المنتخب. فأضحينا نحن رعية بغير راشد يرعانا. ومن شدة الملل والضجر، سألني بعض إخواني المأسورين أن نصرف مدتنا في النحو شارعين، فأخذنا في شرح الأجرومية، وأتينا بشواهد الكلام من الألفاظ الإلهية الإنجيلية والرسولية والنبوية...» (ص436).

(1) مجلة الكرمة، المصدر نفسه، ص87. ويضيف كتاب «الطرفة في مخطوطات دير الشرفة» فيقول: «ويستنتج من ذلك أن السيد غريغوريوس نعمة قدسي صنف كتابه هذا في قلعة أدنه عام (1701 ـ 1704) إذ كان بعد قسيسًا. وأنه هو أول من طرق هذا الباب من أيمّة المسيحيين. على أن السيد جرمانوس فرحات لم يؤلف كتابه «بحث المطالب» إلا ست سنوات بعد تأليف السيد نعمة قدسي. وقد انتشر كتاب السيد نعمة هذا في أوائل القرن الثامن عشر انتشارًا عظيمًا كما يتضح من النسخ العديدة المصونة إلى اليوم في دور الكتب ومن جملتها خمس نسخ كتبت إحداها عام 1731 محفوظة في دير المخلص لروم الكاثوليك نسخها اكليمنضوس الحلبي مطران صيدنايا الملكي. ونسخة في مكتبة المطرانية بحلب ونسخة في مكتبة الآباء اليسوعيين ببيروت. أما نسخة الشرفة التي نصفها فمكتوبة بخط مؤلفها عينه كما ذكرنا أعلاه»، ص437.

ألا راجعنا حساب الربح والخسارة، إذا كنا سنعرف أين أصبح السريان اليوم... وما الذي يجب أن يفعلوه من أجل مستقبل سرياني أفضل؟

البطريرك ميخائيل جَرْوَة

استمر السريان الكاثوليكيون يصارعون إخوانهم الأرثوذكسيين من جهة، والأتراك من جهة أخرى، فكانت النواة التي بذَرَها البطريرك اغناطيوس اندراوس أخيجان المارديني[1]، وتولاها، بعده بالعناية والاهتمام، خليفته البطريرك بطرس الرهاوي [شاهبادين - كما مرّ ذكره في شرح الأجرومية للملة النصرانية (1678 - 1701)]، الذي قضى أثر التعذيب في سجن أدنة، فصارت غرسة، إلا أنها أخذت تقاوم وتعاند، بينما بقيت البطريركية الأنطاكية للسريان الأرثوكس مستمرة رغم الضغوط المادية والسياسية التي مارستها عليها فرنسا والنمسا وإسبانيا وغيرها، في حلب والجزيرة السورية. ومن بين رؤسائها العظماء الحبر الكبير اغناطيوس جرجس الثالث[2]، الذي لم يعر اهتمامًا للمحرضات التي استقطبت، باتجاه رومه، أساقفة وقسوسًا وشعبًا، بل استمر على إخلاصه لعقيدة آبائه وأجداده. وفي عهده «تمت عمارة دير مار مرقس بأورشليم ورممت بيعة مار إيليا في قرية جفتلك بقرب ماردين سنة 1762»[3]،

(1) أخيجان (اندراوس) (1622 - 1677): أول بطريرك للسريان الكاثوليك 1659. ولد في ماردين،اعتنق الكثلكة 1645. رقّاه البطريك الماروني إلى الدرجة الأسقفية 1656 في دير قنوبين.

(2) جلس على الكرسي الرسولي في بيعة آمد - ديار بكر - الأحد في 13 تشرين الأول 1745 وتوفي سنة 1768.

(3) المجلة البطريركية السريانية، العدد الثالث (ص25). ويُعرف دير مار مرقس بدير السريان، وهو دير قديم ترقى عمارته إلى المئة الخامسة أو السادسة، يشهد بهذا أكثر من سرياني اسطرنجيلي ظهر في بيعته عام 1940 وهو كرسي مطرانية السريان الأرثوذكس ومسكن رهبانهم من سنة 1472 وفيه خزانة كتب نفيسة ومطبعة ونشأ منه سبعة مطارنة، عنه كانت تصدر مجلة «البطريركية».

مع أن «قحطًا شديدًا وغلاء فاحشًا قد أصابا في السنتين 1757 - 1759، بلاد ما بين النهرين وسوريا فأعقبا وباء هائلاً هلك فيه خلق كبير»، حتى إن «أشجار التين والزيتون والرمان قد يبست ثم جاء الجراد وأكل الزروع فهاج الناس من الجوع».

وكان أغناطيوس جرجس الثالث «تقيًّا معروفًا بصلاحه، وقد سام بعض القسوس والشمامسة ثم قدس الميرون في دير الزعفران» الكبير، شرقي ماردين، الذي يرتقي عهده إلى القرن الثامن، وفيه آثار قديمة ومقبرة لبطاركة السريان، و«سام اثني عشر مطرانًا وأسقفًا منهم مفريانان لكرسي المشرق ولملبار الهند»[1].

ولكن المطران ديونسيوس ميخائيل جروة[2] هو الذي قلب الأمور جميعها وأحدث ذلك الزلزال العنيف، إذ تمكن من ترسيخ قواعد الكاثوليكية في الكنيسة السريانية. وإليه يعود الفضل الأكبر، في الفاتيكان، كلما ذُكر تاريخ الشرق الجديد.

لعلّ الخلاف الشديد والانقسام الأبدي، بين السريان الأرثوذكسيين والسريان الكاثوليكيين، قد بدأ يتفاقمان، منذ سيم ميخائيل جرورة مطرانًا على حلب؛ ففي مذكراته المحفوظة في دير الشرفة، والتي نشر قسمًا كبيرًا منها الخورفسقفوس إسحاق أرملة في كتابه: «تاريخ سيدة النجاة - أي دير الشرفة»، يسرد لنا بالتفصيل الوقائع التي حصلت له مع البطريركين جرجس الثالث وكوركيس (جرجس الرابع)[3]، الذي هو أيضًا قاوم الاتحاد مع روما والوالي العثماني، والأخطار التي كانت

(1) المصدر نفسه.

(2) سيم مطرانًا في 23 شباط 1766 في كنيسة آمد - ديار بكر.

(3) جرجس (عبد الكريم بن شمعون) هو اغناطيوس الرابع بطريرك السريان الأرثوذكس (1768 - 1781).

تحيطه قبل إعلان الإيمان الكاثوليكي وبعده. ولقد جاهر المطران جروة بكاثوليكيته، بعد مضي ما يقرب من ثماني سنوات، وذلك بين يدي السيد اغناطيوس كريوس (جربوع) مطران الروم الكاثوليك، في 16 كانون الأول 1774، بحضور الأب أنطون رئيس الكبوشيين وجملة من الإكليروس والشعب». وجاء المطران جروة، من البابا بيوس السادس (1775 ـ 1799)، «التولية الرسولية والإنعامات الحبرية ذات القوة والسلطان والشركة المقدسة»، فشَكَر له «أنعام الله الذي أفاض مواهبه على ضعفه بكل سخاء»[1].

إذ ذاك انطلق جروة شق الطريق لتعزيز كيان طائفته الجديدة وتحقيق ثقة الكنيسة الرومانية ورضاها.

وبما أن دراستنا هذه تتناول السريان الكاثوليك في انفصالهم عن الكنيسة السريانية الأم، وانضمامهم إلى روما في القرن الثامن عشر، لن نتكلم مفصلاً عن السريان الأرثوذكس، ويكفينا أن نستلهم أحد أكبر أعلام الكنيسة السريانية المؤرخ الحجة والعلامة المثلّث الرحمة البطريرك أفرام الأول برصوم، ونعرض رأيه في البطريرك جروة حيث يقول:

«... وإذ كان رهبان اللاتين في حلب لا يزالون ينصبون شباكهم لاصطياد السذّج من سائر الملل الشرقية لاتباع مذهبهم، متذرعين إلى ذلك بعادات طقسية مستحدثة لاتينية المصدر وصادفت عند أكثر الحلبيين منزلاً رحبًا وكان القنصل الإفرنسي بطرس ديبيير دريو يساعدهم بكل جهودهم ويمنيهم باسم دولته بأطيب الأماني، وكانوا يحرّضون السريان على إقامة بطرك خاص بهم في حلب، علق المطران جروة بفخهم فأفسدت معاشرتهم عليه مذهبه فكتب إليه البطريركجرجس الرابع مرشدًا

(1) تاريخ دير سيدة النجاة، ص15.

وناصحًا، ثم استقدمه إلى دير الزعفران لإصلاحه فأقام فيه زمانًا مديدًا لم ينجح فيه نصح ولم تقنعه حجة فهرب راجعًا إلى حلب وخرج من التذبذب إلى الغدر فمرق من الكنيسة الأرثوذكسية المقدّسة وجاهر باتباعه مذهب اللاتين الغربي سنة 1774 لأن معظم الشعب والإكليروس السرياني الحلبي تبعوا ذلك جهلاً واعتباطًا لخميرة عتيقة بقيت في قلوبهم منذ زمن أخيجان الماردينى وبطرس بيدين (شاهبادين) الرهاوي في النصف الثاني من القرن الماضي. وناهيك قعود همة القوم عن طلب العلم الديني وجهلهم لغة الآباء في هاتيك العصور المتأخرة فتلاعبت بهم الأغراض فأمسوا طعمة لكل طالب».

وقال أيضًا:

«فلما رأى البطريرك الخطر الذي أحدق بالأبرشية توجه إلى حلب يصحبه بعض المطارنة والرهبان ودخلها في 22 من شهر أيار عام 1775 واستولى على الكنيسة وعاقب المطران وحزبه. وتكلف في هذا السبيل ثلاثين كيسًا أو خمسة عشر ألف غرش ما يعادل ألفًا وخمسمائة ليرة ذهبًا. ولكن الخصوم استعادوها بما بذلوه من النفوذ الأجنبي والرشى للحكام. ولما عاد البطريرك إلى كرسيه أوقف المطران عن الخدمة وحرمه. وقدم إلى حلب في تلك الأثناء، أي سنة 1776، زميل لميخائيل يقال له يوسف قدسي كان زعيم الفئة المنشقة الضئيلة، فأنكر عليه مراوغته ونازعه الأمر ولكن القنصل الإفرنسي عضد المطران جروة ونفى من ناهضه من رهبان اللاتين. أما البطريرك فاستصدر من الدولة فرمانًا ينفي المذنب وبعض أتباعه فلاذ بالفرار على عادته وصار إلى اللاذقية فقبرص فمصر.

وفي أواخر سنة 1777 سام البطريرك المطران ديونوسيوس عبد الله شدياق الحلبي ثم قلده كرسي حلب. وفي سنة 1778 عاد ميخائيل إلى حلب وتمكن من التخلص من المنفى بمبلغ كبير من المال أداه إلى

الوالي وكانت آفة الرشوة عند الحكام العثمانيين ودولتهم يومئذٍ في أسوأ الأحوال، تقلب الأحكام رأسًا على عقب»[1].

وبما أن الفوضى، في السلطنة العثمانية، كانت قد بلغت منتهى حدها في عهد مصطفى الثالث (1757 ـ 1773) كما في عهد عبد الحميد الأول (1773 ـ 1787)، بل تجاوزت أقصى حد يتصوره العقل، تمادى السريان في النزاع بعضهم ضد بعض. ولما خلا الكرسي البطريركي بوفاة البطريرك جرجس الرابع في 21 تموز 1781 عاد الأساقفة والرهبان إلى الانقسام على أنفسهم، حيث لعبت الرشى الكبيرة أدوارها. ويقال إن الأساقفة والرهبان، من الفريقين، أخذوا يجمعون الأقراط والعقود والأساور من نساء أبرشياتهم كي يقدموها هدايا للحكام العثمانيين، في ديار بكر وماردين وبغداد والموصل وسائر أنحاء البلاد السريانية، لاجتلاب ودّهم ورضاهم، على ما روى لي الصديق الجليل سيادة الحبر الجليل مار ديونوسيوس جرجس بهنام المطران السابق على حلب للسريان الأرثوذكس.

في هذه الأثناء، وكانت الظروف المؤاتية في قبضة المطران ميخائيل جروة، فنُصّب بطريركًا «يوم الثلاثاء 25 كانون الثاني 1782»، بل من ذلك اليوم تكرس النزاع «العقائدي» بين أبناء الشعب الواحد، فصار لأنطاكية كرسيان سريانيان واحد أرثوذكسي، والآخر كاثوليكي.

وهكذا ارتفع عدد كراسي أنطاكية، في حين أن تلك المدينة العظيمة بدأت بالتقهقر منذ وقعت في أيدي العثمانيين (1517) وظلت تتراجع وتتقلص، حتى هجرتها الكراسي جميعها، فلم يبقَ لأنطاكية سوى ذلك الاسم الجميل والذكريات الرائعة.

(1) المجلة البطريركية السريانية، المذكورة سابقًا، ص192، 193.

على أن المنافسة في تزعّم أمور القيادة الدينية المسيحية هي قديمة العهد. وليست أنطاكية وحدها ضحية الصراع المسيحي ـ المسيحي، بل هنالك أيضًا كنيسة الاسكندرية وكنيسة القسطنطينية وكنيسة روما وكنيسة القدس وكنيسة روسيا. جميع هذه الكنائس ضربها الشقاق حتى تناثرت وتفرقت، ولم تنقذها لا المجامع ولا النداءات التي طالما أطلقها أصحاب النيات الحسنة.

ورحل إلى لبنان

لما عادت الأمور تنقلب على البطريرك ميخائيل جروة هرب إلى بغداد متخفيًا، ومنها إلى تدمر والشام، ومن هناك إلى قرية «العدرى» وضَيْعة «المازة»، وكما يروي البطريرك نفسه حيث يقول:

«... ولما وصلنا إلى بلدة تدمر، سمع العرب الذين معنا أخبارًا عن والي الشام خوّفتهم جدًّا، فامتنعوا عن مواصلة السفر معنا وأخذوا مالهم وتركونا هناك. فآيسنا من الحياة بالكليّة وسلمنا الإرادة إلى الله القدير الرحيم واستغثنا بمريم البتول سيدة النجاة لتنقذنا من هذا الحادث المخطر كما أنقذتنا وحفظتنا في سيرنا إذ كنا نلتجئ إليها دائمًا».

وتابع يقول:

«ويا لوفور مراحم الرب الإله ومساعدة هذه البتول العجيبة التي حنّنت قلب أحد العرب علينا، فأركبني جمله وخاطر بنفسه وذهب بي من تدمر إلى القريتين. ومن هناك ركبنا الحمير وأخذنا معًا أناسًا مسلمين ليوصلونا إلى قرب الشام. وبعدما قاسينا المرائر يومين وصلنا ليلة أحد الشعانين إلى قرية بعيدة عن الشام سبع ساعات تُدعى قرية «العدرى» سكانها جميعهم مسلمون، فلم يقبل أحد منهم أن يحوينا عنده. والتزمنا أن نبقى فيها يومين مختفين مع العربي الذي معنا ودفعنا له ما أراده».

وقال أيضًا:

«ومن قرية العدرى أرسلنا ساعيًا إلى الكاهن السرياني القس يعقوب قدسي وإلى جماعتنا في الشام وأخبرناهم سرًّا بوصولنا، فخافوا خوفًا شديدًا وردوا الساعي فارغًا وكتبوا لنا بأنهم يخافون أن يتظاهروا بكونهم من جماعتي. وبعد يومين حصّلنا مركوبًا ومررنا خارج الشام ليلاً ووصلنا إلى ضيعة أخرى اسمها «المازة». وبقينا فيها كذلك يومين مختفين حتى حصلنا على مكاري يوصلنا إلى جبل كسروان حسب مرغوبنا»[1].

وكان يوم وصوله، إلى «بيت شباب» ـ المتن، السبت ليلة أحد القيامة سنة 1784، حيث أقام في دير مار أنطونيوس النبع، ومن هناك أخذ البطريرك جروة ينشئ الصداقات مع الأمير يوسف شهاب، فاستأجر من آل الخازن حارة «الشرفة» وكانت بيتًا وضيعًا مؤلفًا من حجرة وغرفة واحدة، استأجرها البطريرك لمدة سنتين بمبلغ عشرين قرشًا. وقبل أن تمضي مدة الإيجار، أي في 15 أيلول 1786 ـ اشترى حارة «الشرفة» بقيمة ألفين وخمسمائة غرش ذهبًا، سدّدها بالكمال والتمام، بمساعدة المحسنين الذين من أبرزهم المغفور له الشيخ غندور سعد الخوري، أمين سر الأمير يوسف، إلى جانب المساعدات الكثيرة المتعددة، التي وردته من الدولة الإسبانية ومن محسنين إسبانيين، لا سيما «الكونتيسا» مريم دي هرموزا وزوجها يوحنا بولس ونجليها الدوق يوسف والدوق يوحنا، و«الكونتيسا» دونينا أنطونيا روموروزا، بالإضافة طبعًا إلى

(1) من رسالة البطريرك ميخائيل جروة إلى السيد يوسف بطريرك الكلدان بديار بكر بتاريخ 1 كانون الثاني 1721، انظر: «تاريخ دير سيدة النجاة»، ص26، 27.

المعونة التي أرسلها إليه الحبر الأعظم قداسة البابا بيوس السادس[1].

مَن المستفيد؟

يؤلمني أن أرى السريان يزدادون تفرقًا وتمزقًا. ويؤلمني أكثر أن أراهم يمعنون في الهجرة إلى البلاد «الاسكندينافية» وكل أوروبا وأميركا. فليس أحوج من هذا الشعب، الذي تعاقبت عليه النكبات، إلى قياديين روحيين وزمنيين يكونون قادرين على إنقاذه من المؤامرات والدسائس التي تحاك ضده، ومن الهجرة المستمرة.

عندما صمم البطريرك ميخائيل جروة، على إنشاء دير «الشرفة» قال:

«وأخيرًا اعتبرت أن أعمالي كلها تذهب باطلة فارغة إن كنت لا أشتري محلاً وأعمره وأجمع إليه أناسًا أعلمهم وأربيهم بمخافة الله ثم أرسلهم لإسعاف رعيتي. ولذلك فإني بإسعاف بعض المسيحيين اشتريت محلاً في كسروان وسميته «دير سيدة النجاة»، وأنا الآن مقيم فيه، وعندي بعض أولاد أهتم بتدريسهم لأرسلهم إلى خراف المسيح. غير أن رغبتي لم تكتمل لأني عاجز عن ابتناء مساكن كافية لسكناهم وعن القيام بمعاشهم. ولولا خسارتي مالي الخصوصي، لأمكنني سد بعض حاجاتي».

وقال أيضًا:

«نعم إني وفيت بعض الديون بحسنات مجمع انتشار الإيمان المقدس، ولكن مع ذلك لا يزال عليَّ جانب عظيم من الديون. فأتوسل إلى المسيحيين الأعزاء أن ينظروا إلى شدتي ويسعفوني في تكميل

(1) المصدر نفسه، من ص18 إلى ص55.

وظيفتي وتعزيز ديري. وألتمس منه تعالى أن يكافئهم (كذا) في الحياة الزمنية وفي السعادة الأبدية. وألتمس من المراحم الإلهية أن تمنَّ علي بالصبر والاحتمال وتعينني على نشر الإيمان المقدّس مضحيًا بذاتي حبًّا للنفوس أمين»[1].

نحن أيضًا نقول: نعم لقد حقق البطريرك جروة ما كان يصبو إليه ويحب، ولكن انقسام الشعب السرياني على نفسه وتوزيع خواطره بين شيع وأحزاب، إنما هو، في نظري، أمر خطير، نتائجه غير محمودة، ولسوف تزداد سوءًا وتتفاقم، وربما قضت على مَن تبقى من هذا الشعب الذي يستحق منا الإكبار والتأييد.

لذلك نسأل: من المستفيد؟ وربما بقي سؤالنا هذا ينتظر جواباً عنه ليس موجوداً.

ومهما يكن، فإنني لا أحب أن يأتي الردّ عليّ من تلك الأيام الآتية الخبيثة، التي منها أنا خائف على السّريان وتراثهم العظيم.

في البطريركيّة

هناك حوالى مائة ألف من السّريان الكاثوليكيين (مع اعتقادنا أن هذا رقم مبالغ به) وهم منتشرون في لبنان وبلاد المشرق والمهجر، ولهم أبرشيات في بيروت ودمشق وحمص وحماه والنبْك وحلب والحسكة وبغداد والموصل والقاهرة، ونيابة بطريركية في ماردين وفلسطين - المملكة الأردنية الهاشمية، والسودان، ومعتمد بطريركي في روما هو المطران أغناطيوس منصوراتي[2].

---

(1) المصدر نفسه، ص: 30، 31.

(2) توفي في دير يسوع الملك، يوم 11 آب 1982، ودفن في مقبرة الكهنة في دير الشرفة. أخذ مكانه الأب جورجو أوريولي الإيطالياني.

يرعى هذه الأبرشية البطريرك أغناطيوس أنطون الثاني حائك[1]، الذي يستقبلك في مقره الكائن قرب المتحف ببسمة تشبه بسمة الطّفل. تنظر إلى وجهه الأبيض، ونظارته ذات الزجاجات البيض، خلفها عيناه الخضراوان، فتحسبُه من بلاد المحيط المتجمد الشمالي. ولولا معرفتي بحلب وطبيعتها وسكانها لاستبعدتُ أن يكون البطريرك حائك حلبيًّا. فهو، في جبّته السوداء، وزناره الليلكي، يجمع، على صغر حجمه، ثلاثة أضداد: الأبيض والأسود والليلكي. فأين هو ذلك الشاعر «المغدور» صاحب «القصيدة اليتيمة» القائل: «ضدان لما استجمعا حسنا والضّدُّ يظهر حسنه الضّدُّ»، بل أين هو اليوم ليقول في غبطته الذي اجتمعت عنده الأضداد الثلاثة؟

الصالونات، في البطريركية، كثيرة ومكتظة من المفروشات الخشبية الأنيقة التي ترقى إلى ما قبل عام 1929. أما السجاد، فمعظمه من العجمي القديم.

عندما تدخل هذا المقرّ - الصرح، يستوقفك، على اليمين، تمثال نصفي من الحجر الأبيض، فوق قاعدة رخامية، هو للمثلث الرحمة

---

(1) وُلد في حلب 1910 ودرس في مدارسها. التحق بدير الشرفة 1921 حيث مكث حتى عام 1926 يدرس اللاهوت والعلوم الشرقية والكنسية. ومن دير الشرفة سافر إلى روما وبقي فيها زهاء تسع سنوات. نال ليسانس في اللاهوت ودكتوراه في العلوم الشرقية والكنسية عن أطروحة قدمها إلى «المعهد الشرقي» بعنوان: «علاقات الطائفة السريانية اليعقوبية مع الكرسي الرسولي، من 1143 إلى 1656» استحق عنها التقدير، وهي باللغة الإيطالية (نرجو منه أن يترجمها إلى العربية). عين رئيسًا للأساقفة في أبرشية حلب عام 1959 فكانت علاقاته حميدة مع جميع رؤساء الطوائف الحلبية، الإسلامية منها والمسيحية. انتخب بطريركًا عام 1968.

الكاردينال جبرائيل التبّوني[1]. سألت عن النحّات، صانع هذا التمثال، فقيل لي: «إنه أرمني». إلا أن أحدًا لم يعرف اسمه تمامًا؟! كُتِب على هذا التمثال، وهو غير ناجح على كل حال: «تذكار من السادة مخيائيل وجبرائيل وروفائيل حنا الشيخ، من العراق، عام 1968».

خلف التمثال، لوحة رخامية نقش عليها ستة أبيات من الشعر العربي الكلاسيكي الضَّعيف، نظمها المغفور له الفيكنت فيليب دي طرّازي[2] عام 1930، يمدح فيهما المؤسس البطريرك التبّوني فيقول:

«كرسي أنطاكية أمسى هنا   طورًا يكلّلهُ وقار الهيبةِ
جبريل جدد عصره الميمون في   بيروت مثل الأعصر الذهبيَّةِ
جبريل تسلسلَ من بطاركة سموا   خلفًا لبطرس في سرير البيعةِ
ولهُ بنو آرام طرًّا فاخروا   لما تقلّد صولجان السلطةِ
شاد هذا الصّرح جانب معبد   ترعاهُ عين العزّةِ الصَّمديةِ
صرح لسريان هو مرجع   يبقى مدى تاريخهِ كذخيرةِ»

(1) هو أغناطيوس جبرائيل الأول (1879 ـ 1968) ولد في الموصل وتوفي في بيروت. بطريرك السريان الكاثوليك 1929 وكاردينال 1935. اشترك في لجنة رئاسة المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني 1962 ـ 1965.

(2) فيليب دي طرازي (1865 ـ 1956) مؤرخ وأديب لبناني. أسس المكتبة الوطنية في بيروت. له «تاريخ الصحافة العربية» ومكاتيب جمعت في مجلد يحوي اثنتين وثلاثين رسالة، كتبها الفيكنت فيليب بخط يده من 10 حزيران 1898 حتى 12 آب 1902 وجهها إلى بعض رؤساء الطائفة السريانية، يعثر فيها المطالع على ما عرض في تلك الحقبة للملة السريانية وما نهض به آل طرازي من الجهود لتحقيق أماني طائفتهم وتوحيد كلمة مطارنتها يلمس الباحث في آخرها ما دعا الطيب الذكر مار أغناطيوس الثاني (رحماني) إلى الاستقالة عن البطريركية في 10 آب .1902 ومجمل القول إن هذه الرسائل تبرهن عن شغف كاتبها وشغف أسرته النبيلة بتعزيز الملة السريانية. وقد وقفه الفيكنت الهمام عينه على مكتبة دير الشرفة في 10 أيار 1936. «الطرفة»، ص512.

ليت الفيكنت فيليب دي طرّازي قال ما أراد بلغته النثرية الجميلة التي اشتهر بها، لكان أفضل له وللصرح والبطريرك المؤسس، من هذا الشِّعر.

على يسارك، وفي الزوايا، صُور تاريخية، أهمها صورة للكاردينال التبّوني مع المفوّض السامي الفرنسي لسوريا ولبنان، الكونت شار دي مارتل (1933 ـ 1938). وأخرى للكاردينال نفسه مع الجنرال شارل دي غول ورفاقه مأخوذة في كنيسة السريان بباريس.

وفي الصالون الذي على يمينك، وأنت داخل، صُوَر للبطاركة، جميعها من مشغل بشارة وسمرة بالشام، ما عدا صورة للكاردينال وهي تتصدر الصالون، رسمها نديم بخاش 1940.

نتقدم من بعض هذه الصور لنتعرف إلى أصحابها البطاركة:

1 ـ أغناطيوس نعمة الله الأول أصفر (1557 ـ 1576).

2 ـ أغناطيوس اندراوس الأول أخيجان (1659 ـ 1677).

3 ـ أغناطيوس بطرس السادس شاهبادين (1678 ـ 1702).

4 ـ أغناطيوس ميخائيل الثالث جروة (1782 ـ 1800)[1].

(1) إثر وفاة البطريرك ميخائيل جروة، وقع اختيار مطران دمشق وراشيا، السيد ايونيس نعمة الله والقاصد الرسولي على السيد قرلس بهنام بشارة أسقف الموصل بطريركًا إلا أنه اعتذر، ثم وقع الاختيار على الخوري ميخائيل ضاهر، فرفض، لكنه عاد وقبل مرغمًا. وسيم الخوري ميخائيل بطريركًا يوم 4 أيار 1802، وحصل سنة 1805 خلاف بينه وبين بعض الأساقفة والرهبان مما جعله يستقيل يوم 10 أيلول 1810 وفي 13 شباط 1811 عاد إلى حلب مطرانًا: «تاريخ دير سيدة النجاة»، ص: 149 ـ 154.

5 ـ أغناطيوس ميخائيل الرابع ضاهر (1802 ـ 1810)[1].

6 ـ أغناطيوس سمعان الأول زورا (1814 ـ 1818).

7 ـ أغناطيوس بطرس السابع جروة (1830 ـ 1851).

8 ـ أغناطيوس أنطون الأول سمحيري (1853 ـ 1864).

9 ـ أغناطيوس فيليبس الأول عركوس (1866 ـ 1874).

10 ـ أغناطيوس جرجس الخامس شلحت (1874 ـ 1891)[2].

11 ـ أغناطيوس بهنام الثاني بُنّي (1893 ـ 1897)[3].

12 ـ أغناطيوس أفرام الثاني رحماني (1898 ـ 1929)[4].

وصورة الكاردينال تبوني الذي استمرت ولايته من 1929 إلى 1968.

بين هذه الصور أيضًا رسم للأسقف اقليميس يوسف داود، مطران دمشق (1879 ـ 1890)[5].

---

(1) من الواضح أن زمنًا بعيدًا، حوالى ثمانين سنة، يفصل بين البطريرك الثالث والرابع، وهذا مرده إلى الأحداث والظروف القاسية التي عرفتها الكنيسة السريانية الكاثوليكية كما مر معنا.

(2) وُلد في حلب سنة 1818. سيم مطرانًا سنة 1862. انتخب بطريركًا سنة 1874. جدّد رهبانية مار أفرام. التأم في عهده مجمع الشرفة 1888.

(3) وُلد في الموصل سنة 1831. انتخب بطريركًا عام 1893. أتقن لغات عديدة واشتهر بمبرّاته في مجاعة الموصل 1880.

(4) وُلد بالموصل 1848. انتخب بطريركًا 1898. نقل الكرسي الرسولي من ماردين إلى بيروت. له مؤلفات تاريخية وكنسية أهمها: «الليترجيات الشرقية» و«الآثار الشرقية» وهي مجلة شهرية.

(5) وُلد في العمادية قرب الموصل 1829. سيم اسقفًا على دمشق 1878. تعلّم في روما. له «القصارى» في حل مسائل تاريخية تتعلق ببلاد الشام وأبحاث في اللغة الدارجة في أورشليم على عهد المسيح و«نبذة في مختصر تاريخ الطائفة السريانية الكاثوليكية وعلمائها وطقسها». يقال إن المسيح قد ظهر لهذا القديس وقال له: «أنا هو ذلك الفقير».

هذا، ويوجد في إحدى الغرف لوحتان زيتيتان يُعتقد أنهما من أعمال القرن الخامس عشر. الأولى تمثل إنزال المسيح عن الصليب ووضعه في القبر، وهي تقدمة من السيد أفرام رزق الله معمار باشي عن نفس والدته ماري جنانجي، في أول كانون الثاني 1958، والثانية تمثّل بشارة العذراء.

وما يلفت النظر، في أحد الصالونات، لوحة زيتية للقديس مارتان، الفارس، على حصانه، يشطر رداءه ليكسو فقيرًا. وفي زاوية هذا الصالون نفسه صورة للجنرال دي غول مع رسالة بخطه، مؤرخة في 10/9/ 1942، يقول فيها: «إلى أمير الكنيسة المقدسة رسول الصداقة بين الشرق وفرنسا الكاردينال جبرائيل تبوني».

في الكنيسة

عند تمام الساعة السابعة مساء قرع الجرس يدعو إلى العشاء ألحّ عليّ المطرانان جرجور وملكي أن أرافقهما إلى المائدة فاعتذرت. دخلت مع الشماس طانيوس صبحًا إلى الكنيسة لكي ألقي نظرة على مذبحها الجميل والصور التي تزين جدرانها والموجودات مثل: الصلبان الكبيرة والكتب والميامر وعرش البطريرك.

ولما فرغ البطريرك والأسقفان ملكي وجرجور والكاهنان ميخائيل الجميل ويوسف ملكي من العشاء، دخلوا جميعًا، الكنيسة لإقامة الصلاة. قال غبطة البطريرك حائك: «اللهم اجعل السنة القادمة (1980) سنة خير وسلام على اللبنانيين، جميع اللبنانيين، وعلى العالم، شرقه وغربه، اللهم ثبّت الإيمان في قلوب بني البشر، اللهم أعِنّا على مناصرة الحق!».

بينما كنا نغادر الكنيسة قلت للمطران جرجور: «علمتُ أن غبطة البطريرك حائك كان من تلامذتك، أليس كذلك؟» فأجاب بتواضع قائلاً: بلى. وإني لسعيد جدًا أن يكون هو رئيسي وبطريركي.

رآني البطريرك أهم بالخروج فقال لي: «لا تنسَ دير الشرفة! هناك أشياء كثيرة جديرة بالكتابة عنها والتحقيق. رئيس الدير هو الأب جورج المصري، سجّلْ عندك، سيكون باستقبالك».

فتح لي باب البطريركية وإذا عاصفة قد هبّت، ثم هاجت السماء فمُطِرْنا. فتخيّلتُني أقف أمام أحد الأديار السريانية في ماردين أو طور عبدين، وعندئذٍ قلت: إن المسيحية بإمكانها أن تطبع الأماكن والمواقع بطابع واحد، أما بنو البشر فأمرهم مختلف تمامًا.

في دير الشّرفَة

إن دير الشّرفة هو واحد من الأديار الخمسة التي أنشأها السريان في لبنان، ومنها «دير الأم المحزونة»[1] في ذوق مصبح، و«دير الرّاهبات الأفراميات»[2]، و«دير سيدة الرحمة»[3].

أما أقدم الأديرة السريانية في لبنان فهو «دير مار أفرام الرغم»، وهو كما يصفه البطريرك حائك فيقول:

«على رابية في سفح قرية الشبانية من قضاء المتن تقوم بقايا دير مار أفرام الرغم، أقدم أديرة لبنان، وأقدم الأديرة الخمسة التي أنشأها السريان في لبنان، ويقال إنه قد سُمّي بالرغم لأنه واقع قرب عين ماء

---

(1) شاده عام 1769 المطران غريغوريوس شكر الله جروة، وباعه خليفته المطران يوسف قدسي.

(2) أقامه في 29 حزيران 1903 البطريرك أفرام الثاني رحماني على جبل البياض في بطحا. جعله البطريرك أغناطيوس أنطون الثاني حائك مدرسة دعاها «مدرسة مار يوسف» وتديرها الراهبات الأفراميات.

(3) هو الدير الأم لمؤسسة «الراهبات الأفراميات» التي أحياها الكاردينال جبرائيل الأول التبوني. ود دشن عام 1966. انظر سلسلة مقالات غبطة البطريرك حائك حول دير مار أفرام الرغم، في مجلة «الكرمة» المذكورة سابقًا.

تدعى عين الرغم، منها كان يشرب سكان الدير ويسقون الأراضي المجاورة. والدير مشيّد وسط غابات من الصنوبر وكروم العنب والتين. وشاده سريان جاؤوا لبنان من حلب»[1] في سنة 1708 وقد عرف أيضاً: «باسم افرام كنّارة الروح القدس»[2].

على أن للسريان كذلك «في سالف الأعصار أديارًا جمة في قمم لبنان المبارك وفي سواحله وأريافه حفظت الصحف السريانية الثمينة أسماءها. نذكر منها:

(1) دير الحدَث (في الجبّة) (الشمال)، وقد ورد ذكره في مخطوطة لندن 1454 السريانية المنسوخة عام 509م (2) دير ربولا السميساطي (3) دير القديسة مطرونا (4) دير العمودي. وهذه الأديار الثلاثة ابتناها الرهبان والراهبات السريان في ضواحي بيروت منذ القرن الخامس (5) دير الفلسفة الحقيقية بطرابلس وقد أورد ذكره زكريا البليغ في سيرة سويرا زميله في جامعة بيروت الفقهية [مجموعة الآباء الشرقيين 2: 81] (6) دير والدة الله وهو دير البلمند الذي شاده رهبان مار برنردس الصليبيون ثم سلّموه عام 1289 إلى الرهبان السريان (7) دير مار يوحنا وقد جاء ذكره في مخطوطة باريس السريانية رقم 171 (8) دير مار سركيس في حردين (البترون) أثبت ذكره ناسخ مخطوطة دير الشرفة [3 ـ 25] (9) دير مار يعقوب في إهدن (10) دير مار جرجس في حدشيت ـ بشري (11) دير الغوبة في بقوفا»[3].

والمعروف عن هذه الأديار وغيرها الكثير من أديار السريان

---

(1) المصدر نفسه.

(2) تاريخ دير سيدة النجاة، المصدر نفسه، ص: 7.

(3) المصدر نفسه. نلفت أن العلامة الكبير البطريرك اسطفان الدويهي قد ذكر الأديار الثلاثة: مار سركيس ومار يعقوب ومار جرجس، في تاريخه (129 ـ 412 و441).

«القديمة العهد» أن أثرها «قد عفا» و«انطمس مع كرور الزمان ذكرُها وغابت عنا تفاصيل أخبار مؤسسيها ورهبانها»[1].

لكن دير «الشرفة» يُعتبر الدير الرئيسي عند السريان الكاثوليكيين. ففيه حققت هذه الطائفة، برغم قلة عدد أبنائها، نجاحًا كبيرًا أثار انتباه الدول الأوروبية لا سيما الكاثوليكية منها.

---

(1) أحصى لنا البطريرك أفرام الأول برصوم حوالى ثلاثة وثمانين ديرًا للسريان، كانت منتشرة في بلادهم، التقط أخبارها «من مصاحف وتعليق شتى».. إلا «أن أكثر هذه الأديار أقوى على مر السنين وهي بين رسوم ماثلة وأطلال تنكرت معارفها ولم يُبقِ الدهر منها إلا النزر القليل» نذكر منها: دير مار ابحاي (أو دير السلالم)، دير مار إبراهيم وهابيل، دير ابن جاجي، دير أبو غالب (أو دير مائدة الملك في كركر)، دير اسفوليس، دير مار أوجين (في سفح جبل الأزل المطل على نصيبين)، شيد بناؤه أواخر المئة الرابعة أو صدر الخامسة، لم يزل عامرًا يقطنه راهب واحد)، دير مار أوسيبونا، دير البارد، دير مار باسوس، دير باعوث أو بني باعوث (ذكر سنة 1057، فيه تخرج أربعة أساقفة نهبته طائفة من المسلمين عام 1290 ثم اغتصبوه حوالى 1311)، دير باقسماط أو فقسماط، دير مار برصوم (ظل عامرًا آهلاً حتى أواسط القرن السابع عشر ثم عصف الدهر بأهله)، دير مار بهنام (يقال له دير الجب، جنوب شرقي الموصل، أنشئ صدر القرن الخامس عشر تخرج فيه مفريانان وسبعة أساقفة وسنة 1819 تولته الفرقة المتكثلكة وأمسى خاليًا نيفًا وستين سنة وهو الآن آهل)، دير الزعفران أو (دير مار حنانيا، لا يزال عامرًا)، دير مار زكي (بالرقة، نزل به هارون الرشيد فاستطابه وبر أهله)، دير السريان (باسم السيدة العذراء في برية الأسقيط بمصر، يظن بناؤه في القرن الخامس، يسكنه في هذا الوقت رهبان أقباط)، دير مار شربيل (في كفر شامع)، دير شيرو (ظل عامرًا حتى أوائل المئة السابعة عشرة)، دير الصليب (في مرعش، لا تزال بيعته عامرة)، دير قرتمين وأشهر أديار طور عبدين، بناه الناسكان مار صموئيل ومار شمعون عام 397، لا يزال عامرًا آهلاً)، دير القطرة أو الناطف (منقور في الصخر خلا من أهله حوالى سنة 1927)، دير مار يعقوب الحبيس (بجانب قرية صلح في طور عبدين لا يزال عامرًا) إلخ. إلخ. «اللؤلؤ المنثور»، ص: 507، 516.

كان الجبل يرتدي عباءة رمادية، لما كنت أدخل دير «الشرفة». الجو يسوده الصمت، وشجيرات الأرز والشربين، التي غرسها المطران زكريا ملكي، ترمق الكنيسة فكأنها تقول: غدًا يأتي الصيف وغبطة البطريرك ومعاونوه، فتعود الحركة إليكِ يا كنيسة الرَّب، فلا أريدك حزينة. الذي يودع الصَّيف يستقبل الشتاء.

أينما وقفتَ تجد الطبيعة حولك، بغضبها وهدوئها، بألوانها القاتمة والزاهية. فأنت هناك على رأس درعون، تحيطك الأديار من كل جانب. وعلى مقربة منك تقع مؤسسة المثلث الرحمة المونسنيور أنطوان قرطباوي، الكائنة في ملك دير «الشرفة»، القسم الجديد، وهو بناء ضخم من الحجر الصخري الأبيض. تحتها بقليل، على شمالك، مؤسسة باسيل إخوان التي تمدّ لبنان والبلاد العربية بأجمل المفكّرات والسجلات التجارية والدفاتر.

الأفكار تتكاثر عليك وتتسابق، ولكن هيهات أن تحصرها، فبين الأمس واليوم ما يقرب من مائتي عام. هذا البناء الكبير كان في الماضي غرفتين صغيرتين، تعهدته الأيدي لكريمة المخلصة، ومع السنين صار ديرًا واسع الأرجاء. غبطة البطريرك حائك كان هناك. هو مدعوّ، من قبل السفير البابوي، إلى الغداء. مرّ بدير «الشرفة» يسلّم على الأب الرئيس جورج المصري وجمهور الدير. عرّفني بهم واحدًا فواحدًا. رئيس الدير دمشقي، حديث العهد، معتدل السمرة والقامة، شعره كستنائي، عريض الفم والجبهة، صافي الوجه، والبسمة على شفتيه دائمًا. في عينيه قرأت فصولاً من تاريخ الشام، فتذكرت أحياء النصارى واليهود و«المتاولة» والطريق التي تؤدي إلى «قبر السيدة» (زينب بنت الحسين بن علي بن أبي طالب). وتذكرت أيضًا الأمير - الإنسان - المغفور له عبد القادر الجزائري، الذي فتح بيته للمسيحيين الهاربين من الذبح الطائفي أيام مجزرة 1860. وقبل أن أدقق في وجهَيْ الماردينيين: الأب جبرائيل كاتو

والأب يوسف ملكي، قال الأب الرئيس: «نذهب إلى الغداء أولاً، فالساعة الآن تقترب من الواحدة».

بارك المائدة الأب جبرائيل كاتو المارديني، أكبر كهنة الدير سنًّا. أحاديث شتى دارت بيننا. وإذ طال الجلوس في غرفة الطعام، أرسل غبطة البطريرك حائك سائقه ليقول: «سيدنا يريد أن يخرج»، فنهض الجميع، وتلا الأب كاتو صلاة الشكر لله «الذي أنعم عليهم بهذه المائدة»، ثم سلّم البطريرك مفاتيح غرف المخطوطات إلى الأب المصري، وودّعنا وهو يقول: «دعوا الأستاذ يدخل المتحف وغرفة المخطوطات الكنسية»، فقال الجميع: «أمرك سيدنا».

المتحف

هو غرفة صغيرة تحتوي على بدلات للقداس. واحدة قدمتها «الكونتيسا» ماريو هرموزا الإسبانية سنة 1893 إلى البطريرك المؤسس جروة، وهي من الحرير المقصّب بالذهب. وأخرى تقدمة من الخوري باسيل أيوب الحلبي، والثالثة من الهند، لبسها الكاردينال تيسران بمناسبة قدومه إلى الشرفة عام 1939.

في المتحف أيضًا، المِصْنَفَة التي يلبسها الأساقفة قبل التاج، وهي مطرّزةٌ، وتبدو وكأنها جديدة. وقد توج بها الكاردينال تيسران رأسه. وفيه خزانة فيها بدلة الأب ميخائيل الأزرق، رئيس الدير (1856 ـ 1889)، الصديق الخاص للمثلث الرحمة المطران يوحنا حبيب، مؤسس جمعية المُرسلين اللبنانيين الموارنة، كما سيمر معنا في فصل «أسقف ورسالة». وإلى جانب البدلات أيقونتان تمثلان العذراء والطفل يسوع، يُعتقَد أنهما من روسيا، وصلبان، ومحجرات، وكؤوس قديمة وثمينة، وعملات، وآلتان للكتابة، ومراوح، ومباخر، وعكاكيز، وصنوج، وذخائر قديسين، ومزهريات ومذيع ذو أسطوانة يدوية، وأختام بابلية، وحِقّ بخور، وحِقّ

قربان، وموازين بريد من القرن التاسع عشر، وتماثيل فرعونية صغيرة، و«سطاتيقون» أي الصك الذي كان يسلمه البطريرك إلى الأسقف الجديد(1).

وترى في المتحف لوحات زيتية، إيطالية وإسبانية، بدا عليها القِدم وهي تستدعي الإصلاح، فنرجو من الرئيس الحالي، الأب يوسف ملكي، أن ينظر إليها بعين العطف، قبل أن تتأكّل.

المخطوطات

إن مخطوطات دير الشرفة موزعة إلى ثلاث مجموعات:

1 ـ المجموعة السريانية والكرشونية.

2 ـ المجموعة العربية.

3 ـ المجموعة التي وردت الدير بعد نشر كتاب: «الطرفة في مخطوطات دير الشرفة»، الذي مرّ ذكره.

أسس مكتبة المخطوطات المثلث الرحمة البطريرك أغناطيوس أفرام الثاني رحماني، وهي اليوم تضم ما يزيد عن ألفيّ مخطوطة تبحث في مختلف الموضوعات، نظّمها الأب إسحاق أرملة وأنشأ لها فهرسًا بعد أن انتدبه إلى هذا العمل رئيس الدير القس اقليميس ميخائيل بخاش. ويُعدّ الفيكنت فيليب دي طرّازي «المحسن الكبير إلى دير الشرفة» مما دعا القيّمين على الدير إلى الاحتفاظ بصورته، في المكتبة، عرفانًا لجميله وإحسانه.

---

(1) و«السطاتيقون» أو سوسطاثيقون أيضًا هو الصك الذي كان يأتي من السلطان العثماني، الباب العالي، إلى كل بطريرك، إثر انتخابه. وفي «اللؤلؤ المنثور»: هو كتاب العهد أي تقليد الولاية للأسقف يكتبه البطريرك.

في القسم السرياني والكرشوني مخطوطات، منها للعهد القديم، ومنها للعهد الجديد، وهي مجلّدة بإتقان، وبعضها منسوخ على ورق الرق. ومخطوطات في الليترجية أو النافور[1]. وشرح الأسرار البيعية وقوانين المجامع[2] (Explication des Sacrements de l'Eglise et du droit ecclésiastique). والبيثكازات[3] (Betghazo - Recueil de Chants) والصلوات الفرضية (Livres des Offices Religieux) «الفنقيث»، وطقوس الرسامات الكهنوتية وتقديس الميرون والطباليث[4] والكنائس وجناز الموتى والمعيّدات (Pontifical. Consécration du Saint Chrème des autels, des églises. Offices de Morts et diverses Cérémonies Liturgiques) والخدم الكهنوتية (Le Rituel) واللاهوت والجدل (Théologie et Polémique)، نذكر منها: «كتاب

---

(1) المراد بالليترجية (Les Liturgies) أو النافورا وأصلها آنافورا: جميع الصحف المشتملة على رتبة القداس الإلهي وما يتعلق بها. وكلتا اللفظتين يونانيتان اصطلح عليهما كتبة السريان لامتزاج لغتهم باليونانية في عصور الكنيسة الأولى واختلاطهم مع إخوانهم السريان الملكيين خصوصًا في القرون المتوسطة «الطرفة في مخطوطات دير الشرفة»، ص: 41. وقد أفاض السريان في تصنيفها إلى حد الإغراق «اللؤلؤ المنثور»، ص: 63.

(2) خصص هذا الرقم بجميع مصاحف دير الشرفة التي اشتملت على شروح الأسرار المقدسة وعلى الخطب والمقالات الدينية وعلى القوانين البيعية والأدبية والمدنية ككتاب «الهدى» لمؤلفه المفريان غريغوريوس ابن العبري وعلى قوانين المجامع المسكونية. المصدر نفسه، ص: 70.

(3) يراد بلفظ بيثكار أي الكنز أو المخزن مجموعة الأناشيد والصلوات والقوانين التي يتلوها الأكليروس السرياني على مدار السنة في الآحاد والمواسم والاحتفالات والتذكارات ملتقطة من تصانيف الأيّمة ولا سيما من تآليف مار أفرام ملفان البيعة الجامعة.

(4) الطبليث: لفظ سرياني منقول عن اللاتيني يراد به لوحة أو رخامة تجعل تحت الكأس والطبق أثناء إقامة الذبيحة الإلهية بحيث لا يتاح للكاهن أن يقدس بدونها. وتتخذ الطباليث من الخشب المختار أو الحجارة المختارة.

الرؤوس في إثبات أقانيم الثالوث»[1]، و«كتاب الكنوز» وهو في علم اللاهوت النظري ويبحث «عن وجود الله تعالى وعن صفاته، وعن السيد المسيح والتجسد». وقد ألّفه يعقوب البرطلّي، مطران دير مار متّى وأسقف أذربيجان 1241م[2]، و«دحض آراء البرتستان» لمؤلفه المعلم نقولا عبد النور الآمدي 1755. وكتب في المنطق والفلسفة (Logique et Philosophie) ومنها «حديث الحكمة» لابن العبري، وكتب في سير القديسين (Hogiographie) منها: «البستان في أخبار الرهبان» الذي أنشأه القديس صفرونيوس بطريرك أورشليم المكنّى بفم المسيح[3].

ومن المخطوطات أيضًا المعاجم (Dictionnaires) منها: معجم حسن بربهلول الذي اشتهر في السنة 936م، وكتبٌ في قواعد اللغة السريانية، منها: «المدخل واللمع» لابن العبري، والتاريخ، مثل: «تاريخ ابن العبري البيعي»، و«تاريخ ابن العميد» (جرجس ابن المكين المعروف بابن العميد 1273م)، و«سلسلة بطاركة السريان الأنطاكيين»، و«تاريخ الرومي العجيب من عهد أبينا آدم إلى أيام قسطنطين السعيد»

---

(1) هذا المخطوط الكرشوني يشتمل على 580 صفحة طوله 21س وعرضه 16س مجلد بجلد وخشب. وهو ثلاثة وثلاثون رأسًا أثبت فيها المؤلف حقائق التثليث والتجسد وشرح الأسرار «كمل بيد فرج باسم قس سنة 1870 ـ 1559م في سابع نيسان» و«كتبه فضل الله بن يعقوب الحكيم المكنّى بالسرياني من مدينة القدس، في سنة 1872 ـ 1561م».

(2) المصدر نفسه ص: 193.

(3) صفرونيوس (ت حوالى 638): وُلد في دمشق وتنسّك في فلسطين. بطريرك القدس. حارب مذهب المونوثيلية (المشيئة الواحدة). في عهده فتح العرب القدس (638)، وهو نفسه الذي فوض عمر بن الخطاب في شروط الاستسلام، كما جاء في «تاريخ الكنيسة الشرقية القديمة» تأليف الأب ميشيل يتيم والأب إغناطيوس ديك، مطبعة الإحسان ـ حلب، طبعة ثانية منقحة، 1963، ص: 135. ويحمل هذا الاسم أيضًا بطريرك أورشليم الملكي (1771 ـ 1775) صاحب كتاب «قضاء الحق ونقل الصدق».

[مخطوط كرشوني]، والطب، (Médecine) وعلم الفلك والهيئة والحساب، ومجموعة نبذ وميامر بعضها لمار أفرام وبعضها لعبد يشوع الصوباوي[1].

وتضم المجموعة العربية بعض الأناجيل والرسائل وشرح الأناجيل، وكتبًا عن المجامع المسكونية، وتآليف تَقَوِيَّة، وكتبًا إسلامية منها: «دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار»، وهو خال من التاريخ ومن اسم الناسخ، و«فيض الكركي»، ويرقى عمره إلى القرن الخامس عشر، ويشتمل على مباحث في الشرح الحنفي، و: «الحمائل»، وهو أدعية وصلوات، و«رسائل في مذهب الدروز»، و«الرسالة الدامغة في الرد على الفاسق النصيري»، و: «صحيح البخاري».

أما مكتبة المطبوعات، فهي جناح كبير يضم ما يزيد عن ثلاثين ألف مطبوعة وكتاب في مختلف الموضوعات، وهي تشكل مرجعًا كبيرًا للذين يرغبون في الاطلاع.

على أن هذا كلّه إنما هو جزء قليل جدًا مما في خزائن الكتب السريانية، بحسب ما اتصل بنا علمه أو مثلما ذكر لنا البطريرك أفرام الأول برصوم في «اللؤلؤ المنثور»، حيث خصص لهذه الخزائن بابًا هو الأول في مؤلّفه الثمين، وقد بلغ مداه الصفحة الخامسة والثمانين بعد المئة.

---

(1) عبد يشوع الصوباوي أو عبد يشوع بن بريخا: أسقف سنجار ثم نصيبين النسطوري (1290 1318). له عدة مؤلفات بالسريانية وبعضها بالعربية منها: «الفرائد والفوائد في أصول الدين والعقائد»، وترجمة مسجعة للأناجيل، وهي بعنوان: «فردوس عدن» التي نشرها الأب جبرائيل قرداحي، صاحب «اللباب»، الذي سيأتي ذكره في فصل «مدينة ليست من العالم الثالث». جاء ذكر عبد يشوع الصوباوي في «اللؤلؤ المنثور»، ص: 32، 35، 61، 171، 453.

جاء إلى دير «الشرفة» مستشرقون سمعوا أخباره، ليتعلموا ويطلعوا، منهم: المستشرق «أوكريلان»، الذي وصل الدير عام 1786، والأب يوحنا باريزو البندكتي (1897)، والأب جوليوس جنان البندكتي 1896م، والأب بروسلان شيدلاك النمساوي (1897)، والأب أنطون الدومينيكي (1899)، والأب فلينجر النمساوي (1900)، والأستاذ لويس ديلابورث الفرنسي (1905)، والأب يوليان بوياد البندكتي (1909)، والأبّاتي انسلمس شبيباس لاسال (1909)، والأب يونونتور أوبك الإسباني (1908)، والأب أوغسطين ميابه الفرنسي (1911)، والأب ديموند الفرنسيسي (1911 ـ 1912).

وهؤلاء كتبوا أبحاثًا ودراسات ومذكرات كان لدير «الشرفة» منها نصيب كبير من الثناء والإطراء والإعجاب.

كنيسة دير الشرفة

فوق باب الكنيسة بيتان من الشعر العربي مؤرخان في 1787 يقولان:

«يا حسنها بيعةً قد شادها
البطريرك جرجس خير راع قد رعى
لما ازدهرت أرختها بنشأتها
وعلى الصليب الذي يتصدر المدخل»

تحت هذين البيتين: «بوخ نداقر لبلعلدبويين» معناها: بك نناطح أعداءنا.

ندخل الكنيسة فإذا هي تبعث على الخشوع والتأمل. بسيطة، فيها لوحات زيتية وصوَر لا تزال تحتفظ برونقها. استوقفتني لوحة «سيدة النجاة» وفيها المسيح، والعذراء تسحق رأس الأفعى، وإلى يمين العذراء مار أغناطيوس النوراني، ومار أفرام السرياني. وقد كُتب على هذه

اللوحة بالخط السرياني السترانجيلي المنمّق ما معناه: «السلام عليك يا مريم يا ممتلئة النعمة».

ركع الأب الرئيس فركع الجميع. وبصوت واحد قالوا: «يا سيدة النجاة، يا أم الله دعي نورك يشعّ على العالم سلامًا في العام الجديد». شجيرات الأرز ضحكت عندما فتح باب الكنيسة، وكأني بها تقول: حبذا لو تعودون.

الرؤساء العامون

صُور البطاركة تزين صالون الدير. الأثاث قديم، والغرفة صغيرة. في الدير قناطر ودهاليز وأشياء في كل مكان. على الجدران، في الردهة الكبيرة الطويلة، وجوه تشدك إليها، تفتح معها حديثًا صامتًا. تعرفها من العناوين، وتمضي أنت بسلام دون أن تلقي عليك الأسئلة التي تقابلك على الحواجز: من أنت؟ ما دينك؟ ما هو معتقدك السياسي؟ إلخ.. إلخ.

أولئك، أصحاب الصُوَر، جاؤوا إلى هنا من أماكن بعيدة، فمنهم من علّم، ومنهم من تعلم. صاروا رؤساء عامين، وخدموا الدير بأمانة وإخلاص، ثم مضوا لتبقى صورهم.

1 ـ المطرن يوليوس أنطون ـ الديار بكري (1800 ـ 1812).

2 ـ الخورفسقفوس[1] ميخائيل الصائح ـ الموصلي (1812 ـ 1814).

3 ـ المطران باسيليوس ميخائيل هداية ـ الحلبي (1816 .1818).

4 ـ المطران غريغوريوس بطرس جروة ـ الحلبي (1818 ـ 1821).

(1) الخورفسقفوس أو خورابسقوبوس، أصلها يوناني، معناها: أسقف الكورة، خفف فقيل فيه خوري، ج: خوارنة. يراد به اليوم مقدم كهنة البيعة عند قوم وعند قوم آخرين في بلاد الشام الكاهن على الإطلاق. «اللؤلؤ المنثور»، ص: 498.

5 ـ المطران اثناسيوس جبرائيل حمصي ـ الحلبي (1821 .1828).

6 ـ القس اندراوس يغمور ـ الحلبي (1828 ـ 1842).

7 ـ المطران إقليميس بولس صعب ـ الحلبي (1842 ـ 1849).

8 ـ الخورفسقفوس ميخائيل الأزرق ـ الحلبي (1849 ـ 1851، و1856 ـ 1879).

9 ـ المطران قورطيس يوسف حائك ـ الحلبي (1851 ـ 1854).

10 ـ المطران غريغوريوس يعقوب حلياني ـ الحلبي (1854 ـ 1856).

11 ـ الخورفسقفوس يوسف معمار باشي ـ المارديني (1879 ـ 1885).

12 ـ القس أفرام أبيض ـ الحلبي ـ نائب الرئيس (1880 ـ 1882).

13 ـ الخورفسقفوس باسيل قندلفت ـ الحلبي (1885 ـ 1886) صار مطراناً فجددت له الرئاسة (1893 ـ 1895).

14 ـ الخورفسقفوس بطرس بوصيك ـ المارديني (1886 ـ 1887).

15 ـ الخورفسقفوس موسى سركيس ـ الدمشقي (1887 ـ 1893 و1903 ـ 1912).

16 ـ لخورفسقفوس بولس هبرة ـ الدمشقي (1895 ـ 1902).

17 ـ القس جاورجيوس دلال ـ الدمشقي (1903 ـ 1903).

18 ـ الخورفسقفوس أفرام حيقاري ـ من سعرت[1] ـ ماردين (1912 ـ 1921).

19 ـ الخورفسقفوس جرجس ستيته ـ من زبدل ـ حمص (1921 ـ 1922 و1929 ـ 1933).

(1) سعِرت أو إسعرد: بلدة على حدود أرمينيا وكردستان. اشتهرت سابقًا بصناعة الأسلحة والأقمشة، وكانت كرسيًا أسقفيًا للكلدان. جاء ذكرها في «اللؤلؤ المنثور» أنها «مدينة جنوبي بدليس»، ص: 516.

20 ـ المطران اقليميس ميخائيل بخاش ـ الحلبي (1922 ـ 1926).

21 ـ القس بطرس هندية ـ الحلبي (1927 ـ 1928).

22 ـ المطران يوليوس بهنام قليان ـ الموصلي (1928 ـ 1929).

23 ـ الخورفسقفوس زكريا ملكي ـ من قلعة المرأة[1] ـ ماردين ـ (1933 ـ 1963)، وقد صار مطرانًا.

24 ـ القس يوحنا تولجان ـ المارديني (1963 ـ 1969).

25 ـ الخورفسقفوس يعقوب نعوم ـ المارديني (1970 ـ 1971).

26 ـ القس يوسف ملكي ـ الحسكة (1971 ـ 1973).

27 ـ المطران يوسف المنيّر ـ قطنة ـ الشام (1974 ـ 1976).

... وتركت الدير

تركتُ الدير الذي ينتظر الاحتفال بيوبيله المئوي الثاني[2] في صمته، والآباء إلى صلاتهم وعباداتهم فيما كان الضباب يهبط من الجبل باتجاه الساحل.

لن أضيف شيئًا بعد، لكنني سأنقل عن كتاب «تاريخ بعبدات وأسرها» لمؤلفه الخوري نعمة الله ملْكي البعبداتي[3] ما يلي:

---

(1) أو قلعة الامرأة، وهي قرية شرقي ماردين بينها وبين دير الزعفران «اللؤلؤ المنثور»، ص: 518.

(2) في زيارة للمونسنيور ميخائيل الجميل، سكرتير البطريرك حائك، تمت يوم الأحد 10/ 3/ 1985، أخبرني أنه قدم مسودة مشروع الاحتفال باليوبيل المئوي الثاني لتأسيس دير الشرفة، أو المئوي الأول لمجمع الشرفة الشهير، على أن يقام هذا الاحتفال السنة القادمة 1986.

(3) نقل هذا الكتاب ونسقه ولده حنا الخوري الملكي في سنة 1947.

«... وأصل عائلة الملْكي في بعبدات من قرية معاد (من أعمال جبيل). أصلهم روم أرثوذكس، جاء منهم فريق إلى الشوير ويُعرفون ببيت «قربان»، وأقام فريق منهم بالمنصورية ويُعرفون ببيت «الحامشو»، وظلوا على مذهبهم الأول، والذين في بعبدات حكاية حالهم، أن جدّهم كان بمرضه الأخير طلب كاهنًا من الشوير (أرثوذكسيًّا) فتخلف عن الحضور إليه (ربما بسبب الثلوج ـ يومذاك)، فاستدعوا إليه كاهنًا مارونيًّا من بعبدات، فاعترف عنده، وقام الكاهن الماروني بالواجبات اللازمة فمات مارونيًّا، ومن هذه العائلة بيت «عويس»»[1].

ويبقى لي أن أسأل، كما سأل الخوري موسى داود، بمناسبة الذكرى المئوية السادسة عشرة لوفاة مار أفرام، إذ قال: «سبع كنائس سريانية لماذا؟»[2].

وقال الخوري داود إذ نقول معه أيضًا:

«ما نخرته المطامع الأنانية وصدّعته المصالح السياسية المتضاربة، وما زعزعته الخلافات اللاهوتية والنظريات الفلسفية المتشعبة، هل يرأبه نبي السريان (مار أفرام) وترمِّه ذكرى وفاته المئوية السادسة عشرة»[3]؟

فماذا تقول هذه الكنائس جميعها، وماذا يقول الأحبار والعلماء والباحثون المسيحيون المشرقيون؟

---

(1) ص: 152.

(2) على أن الكنائس التي تعتمد اللغة السريانية في طقوسها هي: الكنيسة الآشورية، الكنيسة السريانية الأرثوذكسية، الكنيسة السريانية الكاثوليكية، الكنيسة الكلدانية، الكنيسة المارونية، الكنيسة الملبارية، الكنيسة الملنكارية.

(3) مجلة «الكرمة»: السنة الرابعة، العدد 13، كانون الثاني: 1974.

البطريرك يعقوب الثّالث

غيّب الموتُ وجهَ البطريرك مار أغناطيوس يعقوب الثالث[1]، الرئيس الأعلى للكنيسة السريانية في العالم، وبموته فقدت المنابر محاضرًا ولغويًّا ولاهوتيًّا ومؤرّخًا وأديبًا ومترجمًا وناقدًا قوي الحجة، واضحًا في معالجاته الفكرية والتاريخية والأدبية واللغوية والروحية، جريئًا حتى درجة التصادم والاقتحام، مخلصًا لعقيدته وكنيسته.

وُلد البطريرك يعقوب الثالث في قرية برطلي جوار الموصل في العراق، يوم الثاني عشر من شهر تشرين الأول 1912. وفي السادسة من عمره توفي والده توما ماري. ولما تجاوز السنة العاشرة التحق بدير مار متى، الذي أنشئ أواخر القرن الرابع وعُدّ «أشمخ صرح ديني علمي بل أقدم أثر للنصرانية في وادي الرافدين». وفيه درَس العلوم الدينية واللغات السريانية والعربية والإنكليزية[2].

في 1931 أوفدهُ رئيس الدير الربّان إسحاق الثاني البرطلي، إلى الميتم السرياني في بيروت، أستاذًا للغة السريانية والدينيات، ولبس

(1) توفي الساعة العاشرة من مساء يوم الأربعاء 25 حزيران 1980. وجرت مراسم الدفن في دمشق، يوم السبت 28 حزيران.

(2) دفقات الطيب في تاريخ دير القديس مار متى العجيب، للبطريرك يعقوب الثالث، ص: 3. جاء ذكره أيضًا في «اللؤلؤ المنثور»، ص: 514 كما يلي: «دير عظيم رفع بناؤه أواخر المئة الرابعة وصار كرسيًّا مطرانيًّا وهو كذلك إلى وقتنا هذا. حوى في حقبته الأولى جمًّا من الرهبان غفيرًا وتقلبت به الأحوال حتى جدد عام 1845. أنجب بطريركين وستة مفارنة وثلاثة وثلاثين أسقفًا». والمفريان (أصلها سرياني) معناها: المثمر، وهو اسم لصاحب رتبة كنسية خاصة بالكنيسة السريانية مرادفة للجاثليق، فهو دون البطريرك وفوق الأسقف (المطران) وكان كرسيه في تكريت ثم نقل إلى دير مار متى فالموصل. «اللؤلؤ المنثور» ص: 502.

الاسكيم الرهباني في 30 تموز 1933، في كنيسة «أم الزنّار» في حمص[1]، على يد المثلث الرحمة البطريرك مار أغناطيوس أفرام الأول

(1) لهذه الكنيسة حكاية ذكرها البطريرك يعقوب في الجزء الأول، من كتابه «تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية» [من ص40 إلى ص43] مفادها أن العذراء لما دنت ساعة خروجها من هذا العالم، أوعز الروح القدس إلى الرسل الأصفياء، فركبوا متن الهواء، واجتمعوا كلهم مع البرق إلى أورشليم ما عدا توما. وفي اليوم الثالث من دفنها وصل هذا الرسول من الهند إلى أورشليم، فرأى مأتمًا علويًّا مجيدًا ومشهدًا خارقًا يخطف الأبصار والعقول، فإذا العذراء مسجاة على ملاءة بيضاء تطير بها الملائكة إلى السماء. فتردد حائرًا، ثم التمس منها ذخيرة، فرأى وإذا بنطاق العذراء المقدس يهبط من علٍ ويسقط بين يديه، فيستيقظ من إغفاءة الشك، ويأخذه إلى الرسل مدللاً به على انتقال والدة الإله إلى العلاء نفسًا وجسدًا، ثم يعود إلى الهند يشفي به المرضى وذوي العاهات ويبارك المؤمنين. وبعد مدة نقل إلى الرها فحمص حيث أودع كنيسة السيدة ذخيرة ثمينة للمؤمنين، كما نقل رأس القديس يوحنا المعمدان وبعض رفاته من فلسطين إلى كنائس دمشق وحمص وحلب الكبرى، ومنذئذٍ عيدت له الكنيسة. وهنالك ثلاثة عشر كلندارًا (لائحة الفصول والشهور والأيام وأعياد السنة) حوت عيد «وضع زنار والدة الإله» أو «تزنير أبويها إياها» تتراوح بين المئة الثامنة والرابعة عشرة، أولها كلندار القديس يعقوب الرهاوي (708م). وقد ذكر في بعضها في 30 آب، وفي البعض الآخر في 31 منه. ولما كان موعد عيد الزنار قريبًا من عيد انتقال العذراء في 15 آب: فقد أهمل على تراخي السنين مثلما أهملت أعياد وذكرانات كثيرة تخفيفًا على المؤمنين. وفي نيسان سنة 1953 كان قداسة الحبر مار أغناطيوس أفرام الأول بطريرك إنطاكية وسائر المشرق يتصفح بعض مخطوطات تخص المرحوم يوسف عسكر الحمصي المتوفى عام 1916 فلفت نظره كتاب ظهر أن غلافه مؤلف من أوراق ألصق بعضها ببعض. ولما فكّها وجد ستًّا وأربعين رسالة كرشونية وعربية، وبينها رسالة أنفذها وجهاء السريان في حمص وحماه ودمشق وصدد وغيرها من قرى حمص إلى وجهاء مدينة ماردين يعلمونهم بها أنهم في أثناء هدم كنيستهم في حمص قصد تجديدها وتوسيعها، وجدوا فيها الزنار المريمي الشريف موضوعًا في مائدة التقديس، فتبركوا به دون أن يفتحوا الوعاء الذي حواه، ووضعوه ضمن مائدة التقديس في مذبحها الجديد بالحالة التي وجدوه فيها، وكان ذلك سنة 1852. فَسُرَّ قداسته بذلك =

برصوم. ومن هناك سافر إلى الهند، بأمر من البطريرك نفسه، حيث رسمه المثلث الرحمة مار يوليوس الياس توروس في 19 كانون الثاني 1934 شماسًا إنجيليًّا.

= واهتم بالبحث عن هذا الأثر الديني العظيم، وأمر بنقب المذبح الأوسط، فظهر الزنار المريمي وتبرك به الحاضرون، ثم كتب قداسته إلى مديرية الآثار الدمشقية يخبرها بالأمر، فأوفدت إلى حمص لجنة قوامها الدكتور جوزيف سبع محافظ متحف دمشق والأستاذ الخبير في البحث رئيف الحافظ. وبعد دراسة الزنار الشريف وكل ما تعلق به درسًا كافيًا، كتبت تقريرًا في 6 آب 1953 يشتمل على أوصاف الزنار وهي كما يلي:

«جرن من الحجر البركاني، وقوص نحاسي مزين بدوائر متّحدة المركز يغطي حفرة نصف بيضوية تقريبًا ضمنها علبة أسطوانية الشكل من المعدن المتأكسد لدرجة أنه لم يبق من المعدن شيء. وقد حفظ التأكسد شكل العلبة الأصلي، وعلى الأرجح أنها من الفضة الممزوجة بمعدن آخر، بقي قعر العلبة لاصقًا في حفرة الجرن فأخرجه غبطة البطريرك محطمًا إلى عدة قطع، ووجد ضمن العلبة زنارًا ملفوفًا حوله قطع من الخيطان والقماش. طول الزنار 74سم وعرضه 5سم وسمكه 2سم. لونه بيج فاتح وهو مصنوع من خيوط صوفية طولانية في الداخل (أو خيوط كتان) نسج عليها خيوط من الحرير. وطرز الزنار بخيوط من الذهب (المسماة قصبًا) على سطحه الخارجي. وقد تآكل من أطرافه وظهرت عليه ملامح وتأثر بتأكسد العلبة المعدنية. وكان معلق في جانب العلبة المذكورة من الأعلى أسطوانة نحاسية طولها 5، 6سم فتحت فظهر ضمنها قطعة عظمية من ساعد إنسان بنفس الطول. وظهر ضمن القطعة العظمية ما يشبه رقًّا ملفوفًا يتطلب إخراجه معالجة خاصة دقيقة. إن الزنار يعود إلى العهد الروماني، والجرن والقرص النحاسي يعودان إلى العهد البيزنطي. ويظهر أن العلبة المحتوية على الزنار كانت موضوعة في مذبح الكنيسة السابقة منذ زمن بعيد ربما يبدأ مع البيعة السابقة كما يدل على ذلك تأكسد العلبة الشديد الناجم حتمًا عن وجودها في أرض رطبة مدة طويلة وتآكل الزنار أثناء وجوده ضمن العلبة وحالة العظمة والرق الموضوع ضمنها. ومنذ اكتشاف الزنار المقدس، أصبحت الكنيسة هدفًا للزائرين من جميع الأديان والمذاهب».

مكث الشمّاس يعقوب في الهند ثلاث عشرة سنة يدرس ويخدم ويكتب ويعلم. فتمكن، إلى العربية والسريانية والإنكليزية، من اللغة الملبارية، نطقًا وكتابة، وكأنه من أبنائها.

وعاد من الهند إلى العراق، فعيَّنه البطريرك برصوم معلمًا للسريانية واللاهوت في إكليريكية مار أفرام في الموصل. وكان المطران الذي سرعان ما أعاد إلى أبناء الطائفة ثقتهم بكنيستهم ورؤسائهم الروحيين، إذ رسمه البطريرك برصوم أسقفًا لبيروت ودمشق في 7 كانون الأول 1950، وسماه: سويريروس يعقوب.

ونظرًا إلى ما للفقيد من خدمات في سبيل الكنيسة السريانية الأرثوذكسية وشعبها، وكفايات علمية متعددة الوجوه، انتخبه المجمع السرياني عام 1957 بطريركًا، فخلف البطريرك برصوم الذي كان هو أيضًا عالمًا ومؤرخًا وشاعرًا وبحاثة[1]، فنقل، مباشرة، مركز البطريركية في حمص إلى دمشق، وانفتح على الفاتيكان عهد البابا بولس السادس، ثم على «مجلس الكنائس العالمي» الذي انتسب إليه. وزار البطريرك يعقوب في 14 أيار 1980 البابا يوحنا بولس الثاني مع وفد من المطارنة، وبحثا في تعاون الكنيستين من أجل مسيحية موحّدة وكنيسة جامعة.

هذا وفي عهده، الذي كاد يبلغ ربع قرن، انتشر السريان الأرثوذكس في مختلف أنحاء أوروبا الغربية وأميركا، تجارًا وصناعيين مهرة ومعلمين وعمالاً، فنجحوا نجاحًا بارزًا، عادبالخير والمنفعة على أبناء الطائفة ومؤسساتها الخيرية الإنسانية، وبخاصة الذين هم في لبنان، خلال سنوات الضائقة ـ الحرب.

---

(1) توفي في حزيران 1957.

آخر أعماله الثقافية

لعلّ آخر ما كتبه البطريرك مار أغناطيوس يعقوب الثالث ذلك البحث اللغوي الذي نشرته مجلة «العربي» في عددها 256 آذار 1980: «لماذا الإنكار؟ اللغة السريانية هي الأم» ردًّا منه على الدكتور إبراهيم السامرائي في مقال له بعنوان: «العربية بين العبرية والسريانية»، المنشور في «العربي»[1] أيضًا.

في هذه المقالة (البحث) دافع البطريرك يعقوب عن السريانية بأسلوب علمي دقيق لم يخلُ من العنف. وتلك كانت عادته في معظم محاضراته واجتماعاته وردوده على الآخرين، لا سيما في القضايا التاريخية واللغوية. وكم سخر من الدكتور السامرائي القائل عن كتاب «الألفاظ السريانية في المعاجم العربية» لمؤلفه البطريرك مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم ما يلي:

«ولقد وجدتُ صاحب الكتاب المشار إليه (برصوم) قد جار عن السنن الواضح فتخبط خبط عشواء فكان كحاطب ليل».

ومما قاله البطريرك يعقوب:

«... وفيه تجنٍّ سافرٌ على بعض الذين كتبوا عن تأصيل الألفاظ العربية، ومنهم سَلَفُنا الطيب الذكر مار أغناطيوس أفرام الأول برصوم»(...) مع أن الدكتور السامرائي لم يستطع أن ينقض لفظة واحدة مما ورد فيه».

وتابع يقول:

«ولم نستغرب هذا المقال إذ كنا قد استمعنا إلى صاحبه يلقيه سنة

(1) العربي، الكويت، العدد 249، آب: 1979.

1973 في مهرجان أفرام حنين الذي أعدّه مجمع اللغة السريانية في بغداد. ومع أننا كنا قد انتقدناه في حينه، فقد عاد الآن ينشره في «مجلة العربي» الوضّاءة. غير أنه حذف منه العبارة التالية: (إن الكوفة والحيرة لفظتان عربيتان لأنهما تنتهيان بالتاء المربوطة)».

أضاف: «إننا بعد أن استمعنا إلى خطابه ذاك سألناه: وكيف تكون العبرية أقدم من السريانية الآرامية، في حين أن التوراة أكدت أن الجد الأعلى لأصحابها العبرانيين كان آراميًّا، كقوله تعالى لموسى الكليم: قل لشعبي ليقول: «كان أبي آراميًّا تائهًا فهبط مصر...»؟ [تثنية 26: 5][1].

«فإذا كان إبراهيم آراميًّا، ألم تكن لغته أيضًا السريانية الآرامية؟ أجل، وقد احتفظت التوراة نفسها بنص سرياني من زمن يعقوب أبي العبرانيين، أطلقه خاله لابان الآرامي على حجر أقاماه نصبًا مع كومة من الحجارة ليكون شاهدًا بينهما. والنصب هو «يَجَرَسْهدوتا» أي نصب الشهادة (تكوين 31: 45 ـ 47)[2] وهو أقدم جميع الكتابات التي اكتشفت حتى الآن».

وقال أيضًا:

«أما العبرية فهي في الأصل آرامية احتكّت بالمصرية مدة إقامة

(1) رجعنا إلى سفر تثنية الاشتراع ف26: 5. وهنا نص الآية كاملاً: «ثم تجيء وتقول بين يدي الرب إلهك إن أبي كان آراميًّا تائهًا فهبط مصر ونزل هناك في رجال قلائل فصار ثمّ أمّة عظيمة شديدة كثيرة».

(2) ورجعنا أيضًا إلى سفر التكوين الفصل 31: هنا الآيات 44، 45، 46، 47، 48: «والآن فهلمَّ نقطع عهدًا أنا وأنت ويكون هو شاهدًا بيني وبينك. فأخذ يعقوب حجرًا وأقامه نصبًا. وقال يعقوب لإخوته: أجمعوا حجارة فجمعوا حجارة وجعلوها كومة وأكلوا طعامًا فوق الكومة. وسمَّاها لابَان يَجَرَ سَهْدُوتا وسمّاها يعقوب جِلْعاد. وقال لابان هذه الكومة تكون شاهدًا بيني وبينك اليوم. ولذلك سمِّيت جلعاد».

أولاد يعقوب في مصر كما أيّد الباحثون، فنسبت من ثم إلى أولاد يعقوب الذين تمردوا على المصريين بقيادة موسى النبي، فسمّوهم عبريين من فعل (EBAR) أي متعدّين، عصاة، مذنبين ومخالفين. فأجاب الدكتور السامرائي: هكذا يقول بروكلمان. فقلنا له: ولكن التوراة التي شهد لصحتها الإنجيل الشريف والقرآن الكريم هي أصدق من بروكلمان».

واستمر البطريرك ساخرًا من الدكتور السامرائي إذ روى قائلاً:

«والأنكى أننا حين سألناه عن معنى «الكوفة والحيرة» اللتين قال إنهما لفظتان عربيتان لأنهما تنتهيان بالتاء المربوطة، أجاب أنه لا يعرف معناهما. فسألناه: هل كان للكوفة اسم آخر؟ فأجاب، لا يدري. فقلنا له: ألم تسمع باسم «عاقولا»؟ فقال: بلى، فسألناه عن معناه فقال: «شوكة». فقلنا إنه اسم مرادف للفظة «الكوفة» التي تعني هي الأخرى في السريانية «شوكة»، على أن فاءها في العربية ليست فاء في الأصل، لكنها (V) أي (Kouva) وقد استُعمِلت كذلك كما استُعملت لكتابة «فيينا وجنيف» لعدم وجود حرف الـ (V) في العربية كما في السريانية. فلفظة «الكوفة» إذًا سريانية بحتة. ثمّ بيّنا له أن لفظة «الحيرة» أيضًا سريانية معناها «القصر» أي قصر النعمان. وأخبرناه بأنه كان في بصرى (اسكي الشام) عاصمة الغساسنة أيضًا «حيرة» أخرى تعرف بـ «حيرة ابن جبلة» كما أكدت الوثائق السريانية في النصف الأول من القرن السادس للميلاد، تشهد على ذلك لوحة معلقة في طريق دمشق - بيروت مكتوب عليها «قصر الحير» أي إنها تذكر الاسم السرياني الأصلي وإلى جانبه معناه العربي».

وقال البطريرك:

«ثم قلنا له: أما قولكم إن اللفظتين المشار إليهما عربيتان لأنهما

تنتهيان بالتاء المربوطة، فليس من العلم والمنطق في شيء. فما قولكم في لفظة «سورية» مثلاً التي نكتبها اليوم بالتاء المربوطة، فهل هي عربية لأننا نكتبها كذلك؟ على أن الكوفة والحيرة كانتا تكتبان سابقًا بألف الإطلاق «كوفا» و«حيرتا» كما كانت سورية أيضًا تُكتب «سوريا»[1].

ونحن إذ نشير إلى العنف الطاغي على بحث البطريرك يعقوب فإنما لنؤكد أنه ما كان إلا لرد «العنف» الظاهر في كلمة الدكتور السامرائي الذي لم يتردد ولم يتمهل، كما يبدو، فضلاً عن خطئه، خصوصًا في ما يتعلق بالبطريرك برصوم، الذي شهد له عارفوه بالعلم والحجة الصادقة والبرهان القاطع والأخلاق الرفيعة.

ما تركه الفقيد

توفي البطريرك يعقوب الثالث عن أربعين كتابًا في شتى الموضوعات الدينية والتاريخية والأدبية. عندنا منها: «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية»[2]، و«دفقات الطيب في تاريخ دير القديس مار متى العجيب» (طبعة 1961)، و«الكندي السرياني»، بحثٌ ألقاه في الاحتفالات الألفية لبغداد والكندي في السادس من شهر كانون الأول 1962 (طبعة 1963)، و«الآلئ المنثورة في الأقوال المأثورة»[3] وهذا يتضمن منتخبات من الأدب السرياني (طبعة 1969)، و«صدى المنابر»، ويحوي أربعين موعظة دينية تفسيرية تهذيبية (طبعة 1969)، و«البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية»، وهو بحث لغوي في العلاقات الوثيقة بين السريانية والعربية، وقد ذكّر المؤلف به الدكتور السامرائي،

---

(1) العربي: العدد 256 آذار (مارس) 1980، ص: 53، 54.

(2) الجزء الأول طبعة 1953، الجزء الثاني طبعة 1957.

(3) هو غير كتاب «اللؤلؤ المنثور» للبطريرك مار أفرام برصوم.

حيث قال: «ومن العجيب الغريب أنه - السامرائي - لم يشر إلى كتابنا الموسوم بـ «البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية» مع أننا كنا قد أهدينا إليه نسخة منه فور انتهائه من إلقاء كلمته. ألم نعلّل في هذا الكتاب ما يفي بالمرام، كيف تسرّب كثير من الألفاظ السريانية إلى العربية»[(1)]؟

ومن مؤلفات الفقيد أيضًا: «تفتّح العبير أو سيرة البطريرك مار سويريوس الكبير[(2)] (طبعة 1980) و«هيبة الإيمان أو الملفانِ مار يعقوب

(1) العربي، المصدر نفسه، ص55. إلا أن البطريرك يقول: «وعلى سبيل المثال نثبت هنا ثلاثة ألفاظ لم ترد في هذا الكتاب وهي: زار، تحيَّل ونحِف. إن هذه الألفاظ ليست عربية في الأصل لكنها سريانية دخلت العربية محرّفة، أصلها: سُعَر اتحيّل ونحف (NHEV) (هزل). فاللفظتان الأوليان تحرَّفتا بلسان الناطقين بالسريانية العامية الشرقية. أما الثالثة فبلسان الناطقين باللهجة الغربية. ذلك أن حرف الحاء في السريانية العامية الشرقية الدارجة في العراق، يكون غالبًا «خاء»، وحرف العين يذوب فيها غالبًا. والحروف «الاسلية» وهي في السريانية: الزاي، السين، الصاد، والشين، اختلف لفظ كثير منها في اللغتين السريانية والعربية اختلاف لهجات الشعوب الناطقة بهما، بحيث أضحت الزاي في اللغة الواحدة سينًا أو شينًا أو صادًا في اللغة الأخرى وبالعكس. ولذلك انقلبت السين في لفظة «سُعَر» إلى زاي وذابت العين حتى أضحت اللفظة «زار»، كما انقلبت في لفظة «اتحيل» إلى خاء حتى أضحت اللفظة «تخيّل». أما الفاء في «نحف» فهي في الأصل السرياني (V) الفرنجية (NHEV) فانقلبت إلى فاء لعدم وجود هذا الحرف في العربية كما أسلفنا».

(2) ترجم له أيضًا البطريرك برصوم في «اللؤلؤ المنثور» من ص: 237 - 250. ولد في سوزوبليس من ولاية بيسيدية في حدود سنة 459، وكان جده لأبيه أحد أساقفة مجمع أفسس المسكوني الذي عقد في أوائل حزيران سنة 431 حسمًا للشقاق، وكان قد دعا إلى عقده القيصر ثاودوسيوس الثاني. قرأ سويريوس النحو والبيان في الاسكندرية باليونانية واللاتينية، ثم درس عِلميّ الفقه والفلسفة في مدرسة الفقه الروماني ببيروت فبرز في الفلسفة ونبغ في الشرائع واعتمد في بيعة طرابلس سنة 488، ثم اختار لنفسه طريقة =

السروجي أسقف بطنان» (طبعة 1971)، و«العصارة النقيّة في تاريخ الكنيسة السريانية الهندية» (طبعة 1973)، و«أعجوبة الزّمان أو مار أفرام نبي السّريان» (طبعة 1974)، و«الكنيسة السريانية الأنطاكية الأرثوذكسية» محاضرة ألقاها بالإنكليزية في جامعة غوتنغن، ألمانيا الغربية، يوم 8 تشرين الأول 1971، و«خطب المهرجانات» (طبعة 1977)، و«المجاهد الرسولي الأكبر، مار يعقوب البرادعي» (طبعة 1978).

= الزهد فترهب في دير مار رومانس في بلدة مايوما بفلسطين ورسمه الأسقف ابيفانيوس قسًّا. ثم أنشأ ديرًا وأقام أربعًا وعشرين سنة متعبدًا لله متروضًا في فضائل النسك، منصبًّا على حرث كتاب الله ودرس تآليف اللاهوتيين. واشتغل بالتصنيف نصرة للمعتقد القويم فذاعت شهرته وبعد صوته. وعام 508 رحل مع مئتي راهب إلى القسطنطينية في سبيل الدفاع عن المعتقد، ومكث فيها زهاء ثلاث سنوات حتى سنة 511 . وبعد سنة وبضع شهور عزل فلبيانوس الثاني بطريرك إنطاكية فانتخب سويريوس بالصوت الحي ليخلفه في الكرسي الرسولي، وسيم بطريركًا في إنطاكية في 16 تشرين 512 ففتح ثم كنوز علمه، وانبرى يلقي الخطب الرنانة بيانًا لحقائق الإيمان وتقويمًا للأخلاق. ولم يحد إبان رئاسته عن سنن نسكه وزهادته، فأزال من القصر البطريركي أسباب الترف في المعيشة، وانصرف إلى إصلاح الأمور وتدبير الكنيسة متفقدًا الأبرشيات والأديار المجاورة بنفسه وبرسائله الجليلة. وفي سنة 518 تولى يسطينس الأول الخلقيدوني المذهب خلفًا لأنسطاس، فنفى جمهرة من الأساقفة الأرثوذكسية متنمرًا لسويريوس فخرج في 25 أيلول إلى مصر حيث أقام زهاء عشرين سنة وهو يدبر البيعة بنوابه ومراسلته، ويحبّر الكتاب إثر الكتاب نقضًا للبدع ودحضًا للمضللين بهمة لا تعرف الملل ولا تتعثر بأذيال الكلل... ووافاه الأجل في بلدة سخا (مصر) في 8 شباط 538 في أصح الروايات وعمره نحو من تسع وسبعين سنة. له مصنفات جدلية وطقسية وتفسير وخطب ورسال، فحق فيه القول إنه «حبر خطير شمس الأئمة وحجة البلغاء وسيد العلماء البعيد الهمة، أوحد عصره وعين وقته ونضار زمانه، تاج السريان، وفخر البطاركة الإنطاكيين، من جهابذة اللاهوتيين وفحول الكتّاب المتبحرين». «اللؤلؤ المنثور»، ص: 238.

ولعلّ أهم هذه الكتب، التي بين أيدينا: «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية»، و«الكندي والسريانية»، و«البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية»، والمحاضرة التي ألقاها بالإنكليزية في جامعة غوتنغن حسبما تقدم.

ولنا أن نتوقف، ولو قليلاً، عند بحثه عن الكندي، وهو دحْضٌ لما ادّعاه الأستاذ أحمد فؤاد الأهواني القائل: «إن الغموض والتواء التعبير ومجافاة روح العربية الغالب على أدب الكندي، مرجعها إلى طول النظر في الكتب اليونانية والسريانية»[1].

وهو دحْض أيضًا لما قاله الأستاذ محمد لطفي جمعة في كتابه «تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب» حيث يقول:

«إنه كان ـ الكندي ـ ملمًّا بإحدى هاتين اللغتين: السريانية واليونانية، الذائعتين لذلك العهد».

يرى البطريرك يعقوب أن الدروس اليونانية «كانت خملت في بلاد المشرق منذ النصف الثاني من المئة السابعة للميلاد»[2] بل «إن اليونانية كانت مهجورة منها (بلاد المشرق) في المئة التاسعة عصر الكندي»، ومن كان يرغب في هذه اللغة (اليونانية) فعليه «أن يشخص إلى بلاد الروم ويحكمها على أصحابها، كما فعل حنين بن إسحاق، وقسطا بن لوقا، المعاصران للكندي»، و«لم يذكر أحد من مؤرخي العرب كابن النديم وابن أبي أصيبعة والقفطي، أن الكندي فعل ذلك»[3].

---

(1) من مقدمة الاهواني لكتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى. نقلاً عن «الكندي والسريانية».

(2) نقلاً عن «الكندي والسريانية».

(3) المصدر نفسه.

لقد استند البطريرك يعقوب، في كتابه هذا، إلى «اللؤلؤ المنثور» للبطريرك مار أفرام برصوم، و«زبدة الصحائف» لنوفل نوفل، و«تاريخ مختصر الدول» لابن العبري. وهكذا نفى فقيدنا أن يكون الكندي متمكنًا من السريانية حسبما زعم غير مؤرخ. ومما قاله في ها المجال:

«وأصدق ما يقال في الكندي، من هذه الناحية، إنه لخص ترجمات غامضة وأوضحها كما فعل مثلاً بكتاب «اتولوجيا» أي الربوبية المنحول لأرسطو، تفسير برفيريوس الصوري[1]، الذي ترجمه عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي سنة 226هـ، ثم أرجعه الكندي وأصلحه لأحمد بن المعتصم بالله»[2].

إلا أن البطريرك أنصف الكندي مبينًا فضله على السريانية قائلاً:

«وإذا كان الكندي تأثر بالسريانية وترجماتها، فالسريانية أيضًا بدورها تأثرت بمصنفاته. ولا بدع، فإن الناس تعير وتستعير، والأمم تأخذ وتعطي في كل زمان. ومن أهم آراء الكندي التي اصطبغت بها السريانية، نظريته في مركز النفس الأصلي قبل اتحادها بالبدن»[3].

---

(1) برفيريوس (Porphurios) أو فورفوريوس (333 ـ 304) وُلد في صور. أحد فلاسفة الافلاطونية الجديدة. تتلمذ على أفلوطين، وشرح فلسفته، ونشر كتابه «التاسوعات». أهم آثاره كتاب «ايساغوجي» الذي اشتهر عند المسلمين، ورد به مقولات ارسطو العشر إلى محمولات خمس: الجنس، والنوع، والفصل، والخاصة، والعرض العام «الموسوعة العربية» [2/ 1332]. وقد ذكره برصوم في «اللؤلؤ المنثور» ، ص: 157، 158، 159، 236، 289.

(2) نفسه.

(3) نفسه. المصدر نفسه. حَرِيّ بنا، هنا، أن نتذكر أن من النَّقلَة من السريانية إلى العربية عبد المسيح بن عبد الله بن ناعمة الحمصي، وهلال ابن أبي هلال الحمصي، وزروبا الناعمي الحمصي في القرن العاشر، وعيسى الرقي المعروف بالتفليسي من أطباء سيف الدولة ابن حمدان، والأطباء: =

فالضرورة تقضي، في رأينا، ووب إعادة نشر هذا البحث، الذي لا يتجاوز الثلاثين صفحة، من الحجم الصغير، لكونه نظرة علمية موضوعية إلى فيلسوف اختلف حوله الباحثون.

أما «البراهين الحسية على تقارض السريانية والعربية»[1]، فمن الأهمية بمقدار، إذ إن فيه إحصاء شبه متكامل للألفاظ المتشابهة في السريانية والعربية، ما يؤكد أواصر الأخوّة بين هاتين اللغتين وضرورة السريانية للطالب العربي. على أن «الكنيسة السريانية الأنطاكية الأثوذكسية» موضوع آخر[2]، فهو بحث في مكانة هذه الكنيسة في التاريخ الكنسي العام، إذ هي عنده «تحتل مكان الصَّدارة في تاريخ المسيحية»، وهي «الكنيسة الأولى التي تأسست في أورشليم مؤلفةً من الرسل والمبشرين وغيرهم من اليهود المتنصرين، والتي تطعّمت بعدئذٍ في أنطاكية بالذين تنصروا من الآراميين والعناصر الأممية الأخرى»[3].

كما يبحث هذا الكتيّب في لغة الكنيسة الطقسيّة واسمها السرياني «المشتق من سرويس أو كورش ملك فارس (559 ـ 529 ق.م) الذي أخضع بابل سنة 538ق.م. وحرّر اليهود، آذنًا لهم في العودة إلى اليهودية وذكر اسمه إشعيا النبي مقروناً إلى اسم المسيح».

= أبو إسحاق إبراهيم ابن بكوس، وابنه أبو الحسن علي ابن بكوس، وعيسى بن علي بن إبراهيم بن هلال الكاتب بن بكوس المعاصر لأبي الفرج بن الطيب (1043م)، وجميعهم يحسبهم البطريرك برصوم «سريانًا أرثوذكسيين» «اللؤلؤ المنثور» [ص159 حاشية رقم1]. فلا يستبعد أن يكون هؤلاء النقلة قد ترجموا أيضًا إلى السريانية بعض الأعمال العربية أو «أنهم أعاروا واستعاروا»، كما يقول البطريرك يعقوب.

(1) (128) صفحة من الحجم الكبير.

(2) (34) صفحة.

(3) «الكنيسة السريانية الانطاكية الأرثوذكسية)، ص: 5.

و«الاسم السرياني هو الاسم المسيحي الذي دعي به التلاميذ في أنطاكية أولاً، ذلك أن أولئك اليهود والمتنصرين، أيقنوا أن كورش، محرر سبيهم، كان رمزًا إلى المسيح مقرونًا إلى اسمه اعتزازًا وإجلالاً، كما فعل أجدادهم بعد عودتهم إلى اليهودية. فلما طرق ذلك مسامع العناصر الأممية في أنطاكية، دعتهم «سريان» أو «كريستيان» نسبة إلى الملك سيروس أو كورش، وهي تعني: «مسيحيين»[1].

رجاء...

إن المثلث الرحمة البطريرك مار أغناطيوس يعقوب الثالث، الرئيس الأعلى للكنيسة السريانية الأرثوذكسية، هو فقيد العلم وفقيد «مجمع اللغة العربية في دمشق» وفقيد غير منبر وغير كنيسة. فهلا تمخّضت الكنيسة السريانية الأرثوذكسية عن بطريرك جديد له ما لمار أفرام برصوم ويعقوب الثالث من مزايا علمية وأدبية؟

من المؤكد أن ذلك ليس بعسير على السريان والكنيسة السريانية[2]. إلا أن القضية الكبرى هي الكنيسة الجامعة والمسيحية الموحّدة، ولطالما دعا فقيدنا إليهما بحماس منظور وإخلاص شديد.

(1) نفسه.

(2) لقد تحقق ذلك فعلاً في انتخاب زكا الأول عيواص خليفة للبطريرك الفقيد. راجع: «بيان الزيارة».

الفصل الحادي عشر

المسألة الأرمنية ما لها وما عليها

حقًا: إن مجرى حياتي الأرضية يشبه كثيرًا بحرا صاخبًا فيه ضربات الأمواج الغفيرة»

الشاعر اللاهوتي غريغوار ناريكاتسي(944 - 1010)
من كتاب «الصلوات» نقله عن الأرمنية الأب إسحاق كيشيشيان اليسوعي ثم قام الأب جورج عقل بترجمة الصلاة الخامسة والعشرين منه، ذكر أربعة مقاطع منها الأستاذ مروان المدور في كتابه: الأرمن عبر التاريخ.

المسألة الأرمنية
ما لها وما عليها

يحسب الكثيرون منا أن الشعب الأرمني هو مثل قلعة ذات بابٍ واحد، لا يدخلها غريب إلا بإذْنٍ مسبق، فمتى قُضيت حاجتُه وجَبَ رحيله. وحجَّة هؤلاء هي أن لسان الأرمن غير لساننا، وأعيادهم لا تتفق وأعيادنا، وقضيتهم مستقلة عن قضايانا، وعاداتهم تختلف عن عاداتنا وتقاليدهم لاتشبه تقاليدنا، ومأكلهم ليس مأكلنا.

وغالبًا ما سمعت وأسمع من يقول بأن الأرمني لا يحب أحدًا سوى الأرمني مثله، ولا يتعامل مع غير أبناء جنسه إلا مرغمًا. وسمعت أيضًا أن الأرمن قد نسجوا لأنفسهم في الهجرة «استقلالاً» يغنيهم إلى حد بعيد عن مخالطتنا ومعاشرتنا، فهم في «برج حمود» - مثلاً - دولة ضمن الدولة، فإلى هناك حملوا أسماء بعض مدنهم وأنهارهم وجبالهم وسهولهم وملوكهم وقادتهم وشهدائهم ليسمعوا بها أحياء «برج حمود» وشوارعها ومؤسساتها، فبتنا نسمع بـ «مرعش» و«سيس» و«أراكس» و«نورسيس» و«شيراك» و«هاجين» و«أرارات» و«امانوس» و«فان» و«نوبار» و«ساكو» و«اتنرانيك» و«غارو» و«آني» و«لوري» و«زافاريان» و«هامسكايان» و«هايكازيان» و«تكيان» و«نظاريان» و«أورفاليان» و«كشيشيان» و«طوروسيان» و«مسروبيان» و«آراميان» و«موسيسيان» و«قصارجيان» و«هاراتش» و«مارديكيان» و«خريميان» و«بالكجيان» و«كيليكيان» و«اهرامجيان» و«بوغوصيان» و«ابليكاتيان» و«سركيسيان»...

إلخ. وللأرمن مدارسهم ومعاهدهم وكلياتهم ومجالسهم وجمعياتهم وأحزابهم، ولهم أيضًا جرائدهم ومجلاتهم ومطابعهم، وكل المظاهر التي توحي المفارقة عنا والمباينة والانفصال.

لم أشأ في الماضي البعيد أن أسأل صديق الطفولة: «ميساك» عما يقال عن الأرمن. وكيف أسأله وهو - بالنسبة إليّ - ليس صديقاً فحسب، بل أخ وزميل في الدراسة، لطيف المعشر، طيب القلب، وصادق، ومخلص لرفقائه، ولا يتصرف بما يدعو إلى الحذر أو الارتياب؟! لذلك احتفظتُ لنفسي بالسؤال عن حقيقة ما يشاع عن الأرمن، بانتظار الجواب القاطع يأتيني من غير «ميساك» ووالده «أبو خاتشيك» الذي كنت أجلّه واحترمه.

ولكن المشوار مع «ميساك» لم يكن طويلاً. فكلانا أخذ باكرًا طريقه نأيًا عن الآخر، وما عدنا نتلاقى إلا مصادفة. وكدت أنسى ما في خاطري لولا بعض الأخبار التي كانت تطرق أسماعنا من وقت إلى آخر عن أحداث ومشاغب كانت تقع في «برج حمّود» إما بين أرمن بعضهم ضد بعض، أو بين أرمن ولبنانيين، أو أرمن ورجال من «الدرك اللبناني».

وجاءت الحرب (1975) لينهض ذلك السؤال القديم المخبوء أو المكبوت، ولكن بقوة هذه المرة: من هم الأرمن؟ وما هي المسألة الأرمنية؟ فرحت أبحث عن الجواب برغبة عنيفة، بعدما اطلعتُ على تاريخ السريان والكلدان والآشوريين والأكراد، ووقفت على أحوالهم وصفاتهم وأخلاقهم ومتاعبهم وأحزانهم وآلامهم، وأدركتُ قضاياهم القومية والدينية، وبانت لي آمالهم وأمانيهم ومشاعرهم وتطلعاتهم ورغباتهم، فصرت أتردد إلى «برج حمود» و«الدورة» و«انطلياس» و«الزلقا»، وحيثما يوجد الأرمن، لأرى كيف يبيع الأرمن ويشترون، ويصنعون ويفبركون، ويصوغون الذهب ويسبكون الفضة، ويصرّفون العملات الأجنبية، ويستوردون ويصدّرون. ولأرى أيضًا كيف يمشون في

الأسواق، وكيف يأكلون ويتخاطبون، فنشأت علاقة بين بعضهم وبيني تطورت حتى غدت صداقة سأبقى أعتز بها بكل تأكيد.

إن هذا حرّضني على الاستمرار في الكشف عن جوهر الواقع الأرمني وحقيقته، فقصدت مدارسهم ومعاهدهم، ثم أديارهم وكنائسهم، وكنت في كل مرة أزداد ثقة واطمئنانًا. وبين الأشرفية - حيث مقر بطريركية الأرمن الكاثوليك - وبين دير بزمار في كسروان، أخذت أنقّب عن منابض المسألة الأرمنية، فألفيتها حية ولها قلب نبْض في مركز كيليكيا في انطلياس وهو المقر الروحي للأرمن الأرثوذكس، كما في كنيسة بشارة العذراء (الجعيتاوي)، وسائر الكنائس الأرمنية: الأرثوذكسية والكاثوليكية والإنجيلية. وألْفيتها كذلك في المدارس والجمعيات الخيرية وملاجئ الأيتام ودور العجزة، في «برج حمود» مثلما في «سد البوشرية» و«انطلياس» و«الدكوانة» و«الفنار» و«الحازمية» و«الأشرفية». ورأيت المسألة الأرمنية تحيا قوية هدارة في مكتبة معهد «هايكازيان» التي يديرها ويشرف عليها الأستاذ جيرار تانليان، كما في الصحف الأرمنية: «أزتاك» التي يصدرها حزب «الطشناق»، و«آرارات» لسان حال حزب «الهنشاك»، و«زارتونك» الناطقة بلسان حزب «الرمكافار»، وأيضًا في كتب ودواوين الأدباء والشعراء والمفكرين الأرمن في لبنان، وهي لا تكف عن الصدور على الرغم من المصاعب والعراقيل التي أحدثتها الحرب اللبنانية. على ألا ننسى إذاعة «راديو فان» (Radio van) [1] ومديرها الأستاذ فاتشي بروديان. أما «المجلس الشعبي الأرمني» (Armenian National Council) الذي تأسس عام 1976 لكي يخفف من وطأة الحرب وثقلها على الشعب الأرمني

(1) وللأرمن في لبنان خمس إذاعات أيضًا هي: Radio Paradiso, Radio Libano, Radio Sevano,Radio Melody, Armenian Radio of Lebanon وجميعها تعمل على F. M

اللبناني، فيعتبر بفضل مديره النشيط الصديق الأستاذ هاروت كلايجيان، من أبرز المؤسسات الأرمنية التي تساهم في تأمين التعليم والخدمات الصحية والاجتماعية والمساكن للذين جلبت الحرب عليهم الويلات والخسائر من الأرمن. وينظر هذا «المجلس» في بعض المشكلات ولا سيما منها الاجتماعية (Social affairs)ويسعى في تأمين الوظائف للعاطلين عن العمل وتشغيلهم، ويشجع الجمعيات التعاونية الاستهلاكية منها والتسليفية. وكذلك انبثقت منه مؤسسات عديدة خيرية وعمرانية ومالية تعمل في سبيل تطوير وضع الأرمن وتحسينه ودعمهم لمواجهة الأزمات الاقتصادية وغيرها.

وقادني البحث إلى زيارة عدد من الأصدقاء الأرمن في منازلهم، لأجد عندهم ما يرضي الذوق ويبعث في النفس البهجة والارتياح، حتى ليكاد يضيع من الذاكرة أن الأرمن قد وصلوا إلى هنا بعدما قطعوا، خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، طريقًا مليئًا بالجثث[1]؛ فإحياء المجزرة الأرمنية التي ذهب ضحيتها ما يزيد على مليون وربع المليون شهيد، ما عادت كـ «مناحة أورفة (The Elegy on the Fall of Odessa) للكاثوليكوس نيرسيس، بل صبرٌ على الواقع عظيم، وإيمان عميق وراسخٌ بأن الحق، أيًّا كان مغتصبه، لا بد أن يعود إلى صاحبه الشرعي. وعلى هذا يستمر الأرمن هنا في «هجرتهم» مواطنين أوفياء، يحترمون النظام الذي يرعاهم، ويخضعون له، كما يرفضون أن يغلِّبوا المسيحيين على المسلمين، أو بالعكس، وإنما همَّهم أن يتحقق السلام العادل للبنانيين وجميع الأمم والشعوب.

ولعلّ أروع وأعظم تعبير عن حب الأرمن للوطن ـ الأم والأمل

(1) كرسام أهارونيان: القضية الأرمنية أمام الرأي العام العربي، ملخص ترجمة كتاب «على طريق الأحلام الكبرى» بالأرمنية، للكاتب نفسه، رئيس تحرير جريدة «زارتونك» اليومية. بيروت ـ نيسان 1965 ص31.

بالعودة، هو عيد الشهداء، الذي يقام في 24 نيسان من كل عام. ففي هذا العيد الوطني يتوقف الأرمن عن العمل ويغلقون متاجرهم ومحلاتهم ومكاتبهم ومدارسهم، ويؤبنون شهداءهم بإلقاء المحاضرات والخطب والقصائد، ويزورون القبور ليجددوا العهد والوعد.

إن زيارة الأرمن للمقابر في عيد الشهداء، هي لوحة شعبية أرمنية يعجز الأديب والشاعر عن وصفها وتحليلها مثلما يعجز الفنان عن بلوغ كنهها وحقيقتها. وكلما رأيت الأرمن عند المقابر أو على الطريق إليها، يتخيل إلي أننا في يوم القيامة، فيراودني السؤال: متى يعود الأرمن إلى بلادهم فتنتهي الزيارة للقبور بينما يظل السؤال معلقًا حتى يأتي يوم القيامة الفعلية!

ما هي المسألة الأرمنية؟

بعد كل هذه السنين من البحث والدرس والمراجعة والتحقيق كانت هذه الدراسة، التي أهديها إلى أصدقائي الأرمن في لبنان والعالم.

أرمينيا:

جاء في كتاب «الأرمن عبر التاريخ»[1] لمؤلفه الأستاذ مروان المدوّر[2]:

(1) 616 صفحة من القياس الكبير مجلدًا، إلى الفهرس، وكلمات شكر وعرفان، ولوحات الكتاب (عددها ثمانون)، وشرح لوحات الكتاب، والأبجدية الأرمنية، وملخص باللغة الأرمنية. منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت، الطبعة الأولى 1982. ويتضمن الكتاب كلمة من الأديب والكاتب الأرمني المرموق الدكتور طوروس طورانيان.

(2) مروان طه المدور: سوري من مواليد دمشق. درس الحقوق في جامعة دمشق. عمل سنتين كقاض في السويداء، ثم رحل إلى بودابست والولايات المتحدة. نال دبلوم من جامعة كولورادو في تطوير التجارة الخارجية للمنتجات الزراعية، ودبلوم في تطوير التجارة العالمية.

«كانت أرمينيا منذ نشوئها وحتى آخر يوم من عمرها، موضع اهتمام الدول التي جاورتها؛ فمنذ سنوات ما قبل الميلاد، اهتم بها أولاً الآشوريون ثم الميديون والبارثيون والفرْس، والإغريق والرومان. وخلال السنوات التي تلت الميلاد امتد هذا الاهتمام إلى الامبراطوريات الفارسية والبيزنطية والعثمانية، ثم إلى روسيا القيصرية وإيران العجمية، مما شكل اهتمامًا سياسيًّا ـ عسكريًّا واسعًا «بالدولة»، «الامبراطورية»، «المملكة»، «الممالك»، «الإمارات» الأرمنية ككل».

وتابع يقول:

«وكما هو الأمر في يومنا هذا، فقد سعَت كل واحدة من هذه الدول، وبطرقها الخاصة، إلى بسط نفوذها السياسي القومي على أرمينيا وجذبها إلى صفها، سواء أقيم هذا الجذْب وديًّا أم عسكريًّا، سلْماً أم حربًا، فإن المهم هنا هو كسْب هذه الدولة (الأرمنية)، وجعْلها مواكبة ضد الدول الأخرى، باعتبار أن هذا الجذْب، يكفل للدولة المغْنيَّة جملة من الفوائد»[1].

إنّ هذا القول لصحيح وواقعي، يبرّره كون أرمينيا أرمينيتين، بل ثلاث أرمينيات. وعند بعض المؤرخين هي أربع، فالأولى: بيْلقان، وقَلة، وشِروان، وما انضم إليها عُدَّ منها، والثانية: جُرْزان، وصُغدبيل، وباب فيروز قُباذ، واللَّكز. والثالثة: البُسْفُرْجان، ودَبيل، وسراج طيْر، وبغْرَوَنْد والنّشوَي، والرابعة وبها قبر صفوان بن المعطّل صاحب محمد (النبي)، وهو قرب حصن زياد عليه شجرة نابتة لا يعرف أحد من الناس ما هي، ولها حَمْل يشبه اللوز يؤكل بقشره وهو طيِّب جدًا. فمن الرابعة: شمشاط وقاليقلا وأرجيش وباجُنيس. وكانت كُور أرّان والسيسجان

(1) الأرمن عبر التاريخ: الباب الرابع، الفصل الأول، ص: 373 / 374.

ودَبيل والنشوى وسراج طير وبغروند وخلاط وباجنيس في مملكة الروم، فافتتحها الفرْس وضموها إلى ملك شروان التي فيها صخرة موسى (النبي) التي بقرب عين الحيوان[1].

وأرمينيا ـ على العموم ـ «اسم لصُقْع عظيم واسع من جهة الشمال»[2]، وهي كانت تمتد نحو جبال القوقاس وتتصل بها من الجهة الشمالية، وإلى بحر قزوين أو قريبًا منه إلى الجهة الشرقية داخلاً فيها، على رأي البعض، بحيرة أرمية من جهة الجنوب الشرقي، وقسم من قبادوقية من جهة الجنوب الغربي والغرب. وشملت (أرمينيا) من الشرق: سهول بحر قزوين ومنطقة أتروياتين أو بلاد الألبان، وهي آذربيجان القديمة، ممتدة من الغرب حتى سهول الأناضول، وسلسلة جبال طوروس، محدودة في الشمال ببلاد إيبيرية، أو جيورجية، أو كرجستان وسلسلة الجبال النُّبطية. ومن الجنوب كان يحدّها جبال كردستان وما بين النهرين. وفي أقصى امتدادها، بلغت مساحتها نحو / 000 300/ كلم2، ثم أخذت تتقلّص حقبة تلو حقبة، وعصرًا إثر عصر، حتى انحصرت إلغاء في أرمينية السوفيتية في مساحة أرمينيا الكبرى[3].

المسألة الأرمنية شرقية:

ليست المسألة الأرمنية التي «يرجع نشوؤها إلى تلك الحقبة التاريخية التي أضاع فيها الشعب الأرمني هويته وكيانه المستقل كدولة، وذلك في سنة 1236م عند دك الزحف المغولي حكم الأمراء الزكْريين

(1) ياقوت الحموي: معجم البلدان، المجلد الأول ص160. أيضًا: دائرة المعارف (البستاني) المجلد العاشر، ص294.

(2) ياقوت الحموي: المصدر نفسه. وأيضًا: دائرة المعارف (البستاني) المجلد العاشر، ص: 294.

(3) دائرة المعارف (البستاني): نفسه، ص: 205.

وفرض المغول سلطتهم الغاشمة على أرمينيا»[1]، في منأى عن مسائل الشرقين: الأوسط والأدنى. فهي مثل المسألة الكردية، والمسألة الآشورية، والمسألة السريانية، والمسألة الكلدانية، والمسألة التترية، والمسألة الشركسية، وأيضًا مثل المسألة القبرصية. وأرجو أن لا يكون لبنان في عداد هذه القضايا الشرقية الصعبة والمعقّدة.

على أن هذين الشرقين: الأوسط والأدنى، هما توأمان عبثت بهما المصالح الدولية والسياسات والتحالفات حتى تمزّقا فتحوّلا إلى دول وكيانات بعضها عدوٌّ لبعض، وبعضها يغدر ببعض، الأمر الذي كرّس واقعًا أليمًا ومريرًا لا أظنُّه سيتغيَّر نحو الأحسن، والعالم مأزوم أخلاقيًّا ونفسيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا ودينيًّا وفكريًّا. وإذ يقول الدكتور زين نور الدين زين: «ليس في الدنيا مناطق كثيرة كمنطقة الشرق الأدنى حيث كان للموقع الجغرافي وما يترتب عليه من خطورة استراتيجية، دور في تقرير مصائر الشعوب التي تتوطنها»[2] ـ وهذا صحيح تمامًا ـ فإنما يقصد بذلك الشرق الأوسط أيضًا، لأن «الشريان الرئيس» للمواصلات بين أوروبا وآسيا هو في الحقيقة مجموعة شرايين أو روافد، إن توقف أحدها لسبب أو آخر، فإن ضائقة لا بد أن تصيب «الجسْرَ» كله والعابرين (...) وجميع الذين خلفه. وبهذا المعنى يقول الدكتور زين نفسه في مكان آخر من كتابه المذكور:

«إن موقع الشرق الأدنى الجغرافي شديد الارتباط بأهميته الاستراتيجية، ولا يمكن الفصل بينهما، فإن العبارات التي كانت

(1) كرسام أهارونيان: القضية الأرمنية، نفسه، ص8.

(2) الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان: دار النهار للنشر، الطبعة الثانية: 1977، ص68. الأرمن عبر التاريخ: ص9.

تطلق في القرن التاسع عشر وصفًا لهذه المنطقة، كقولهم: «إنه جسْر إلى آسيا»، وإنه «طريق حيوي للامبراطورية البريطانية»، و«الشريان الرئيس للمواصلات بين أوروبا وآسيا»، أصبحت عبارات متداولَة ومألوفة. نعم، إن نظرة على خريطة العالم السياسية تظهر لنا أن هناك بقاعًا أخرى يمكن اعتبارها «جسورًا» و«خطوطًا حيوية» و«شرايين للمواصلات».

ويقول أيضًا:

«ولكن ربما ليس هناك من بقعة أخرى في الدنيا كلها وقعت حروب على أرضها وعبَرت شعوب ثم عادت لتعبر ثانية فوق أرضها كمنطقة الشرق الأدنى؛ فهذه المنطقة كانت أبدًا ساحة معركة للجيوش، كما أنها كانت معتركًا للفكر»[1].

ولا نستغرب أن تكون تركيا «طلبت من الهيئة التنفيذية لشؤون القوقاز (سايم) أن تقطع علاقاتها مع روسيا، وذلك لتتمكن من إضعاف تلك الهيئة للقضاء عليها فيما بعد. (فـ) بعد مناورات ومداورات وأمام ضغط الجيش التركي الزاحف، نزلت الهيئة التنفيذية (القوقازية) عند طلب تركيا، فانفصلت عن روسيا السوفياتية بإعلانها القوقاز «جمهورية اتحادية ديمقراطية»، كما أنها اعترفت في آخر المطاف بمعاهدة برست ـ ليتوفسك، فتشجعت تركيا بذلك (...) خصوصًا بعد أن احتل جيشها مدينة قارص المحصّنة. ولكن ما كانت تركيا لتكتفي بما حصلت عليه، إنما كانت ترمي إلى أبعد من ذلك، إلى تصفية «سايم» نهائيًّا واحتلال القوقاز بكاملها، وذلك ابتداء من أرمينيا الشرقية»[2].

(1) المصدر نفسه: ص13.

(2) القضية الأرمنية: المصدر نفسه ص40 ـ 41.

إن الدكتور زين نفسه قد توّج بحثه «المسألة الشرقية ـ المرحلة الأولى»[1] بنصٍّ استعاره من كتاب (John Morley) [2] وترجمته كما يلي:

«... ذلك التشابك المتقلب الوعد من مصالح متضاربة ومن شعوب متنافسة ومن أديان متنابذة، نقنّعها بقناع شفّاف ونطلق عليها اسمًا يسيرًا: المسألة الشرقية، كما يعرفها كل امرئ حق المعرفة، هي وجود الأتراك العثمانيين في أوروبا، واستيلاؤهم على مدينة القسطنطينية، وذلك الموقع الفريد الملوكي المنيع الرابض على الأرض الأوروبية، ووجهه ناحية آسيا، وسيطرتهم كمسلمين أسياد، على شعوب مسيحية».

أقول: استعار الدكتور زين، من جون مورلي، هذا النص ليبرهن على صحة استنتاجه وهو القائل:

«وما دامت تركيا دولة قوية، وأعداؤها دولاً ضعيفة فإن جميع الخطط الأوروبية لتقسيمها كانت تبوء بالفشل. ولكن عندما تبدّلت الحال في القرن الثامن عشر ولم تعد تركيا تشكّل خطرًا على أوروبا، فإن الدول الأوروبية لم تعد هي أيضًا تكترث بقضية إزالتها من الوجود، لأن الامبراطورية العثمانية أصبحت إذ ذاك أحد حجارة الزاوية في سياسة توازن القوى بين الدول، وأصبح الحفاظ على كيان الامبراطورية العثمانية ضمانة لتوازن القوى»[3].

---

(1) عنوان الفصل الثاني من كتاب «الصراع الدولي في الشرق الأوسط» (من ص22 إلى ص37).

(2) John Morely (1838 - 1923) Viscount of Blackburn England (فيكونت) Statesman and Writer.

وكتابه هو:

The Life of Williiam Ewart Gladstone, Vol. I, (1809 - 1853) London, 1903.

(3) زين نور الدين زين: المصدر نفسه ص24.

والواقع هو أنه عندما كانت تركيا متزنة ومطمئنة، كانت أرمينيا (خصوصًا أرمينيا) وآذربيجان وجيورجيا وكردستان وكل سوريا على حال شبه واحدة، وبخاصة خلال الربعين الأول والثاني من القرن التاسع عشر، حيث شهدت البلاد حركة إصلاحية قام بها على التوالي السلاطين: محمود الثاني وعبد المجيد وعبد العزيز. ففي ظل هؤلاء تأمنت سلامة الأرواح والأملاك، ووزِّعت الضرائب توزيعًا يكاد يكون عادلاً. وعلى الرغم من بعض رجال الدين المتعصبين والباشاوات الرجعيين والفئات الحاكمة، استطاع الأرمن إحداث بعض التغييرات في حياتهم، إذ قام نخبة من الشباب المثقفين مثل: أوديان وروسينيان وسيروفيشيان وأوتوجيان وغيرهم من وجوه الجيل المسمى بـ «جيل النهضة» ينشرون الأفكار الحرة في أوساط الشعب، مما أدى إلى وضع دستور خاص ـ لأول مرة ـ بأحوال الأرمن، أقرّه السلطان رسميًّا بفرمان خاص سنة 1863، فكان سببًا لنهضة اجتماعية وثقافية واسعة خصوصًا في استانبول، تجسّدت بفتح المدارس وتأسيس الجمعيات وإصدار الجرائد وتطوير الآداب والعلوم الأرمنية[1].

ولما بدأت «الدولة العظمى» تتراجع أو تتقلص، تفجرت التناقضات المتراكمة منذ أمد بعيد، والتي كانت نائمة نوعًا ما، فإذا هناك صراع أوروبي ـ أوروبي على التركة الواسعة والغنية بدا كأنه شرقي ـ غربي، بينما الواقع هو أن الشرق وحده الذي أخذ يغلي ليفتَّت من جديد بأصابع جد غربية، وتُوزع شرائحه على الذين شاركوا ـ بشكل أو آخر ـ في الحرب على الامبراطورية المريضة والمتداعية. وعلى قول لوتسكي، فإن عهد الحكم العثماني في الأقطار العربية قد صادف «فترة انتعاش في التجارة العالمية ونموها السريع. وكانت الصناعة الأوروبية

---

(1) القضية الأرمنية، ص: 16.

آنذاك بحاجة إلى المزيد من الأسواق، الأمر الذي كانت توفره لها الامبراطورية العثمانية المترامية الأطراف. فابتاع الإقطاعيون العرب والأتراك الأقمشة الصوفية الإنكليزية والهولندية، والحرير والنبيذ الفرنسيين، والفراء الروسي، والزجاج من البندقية، والبلور البوهيمي، كما صدّروا إلى أوروبا الحبوب والحرير الخام والجلود والصوف الخام والفواكه والجوز وزيت الزيتون والمنسوجات والأقمشة البيتية»[1].

وكما هو معلوم، فإن التجار الذين لعبوا هذا الدور الرئيسي في هذه التجارة لم يكونوا أتراكًا مثلما يقول فريدريك انجلس[2]، بيد أن الأسلوب الذي اتبعه أولئك التجار الأجانب للقيام بالتجارة هو «نهب القوافل، وقد أصبحوا أكثر تمدنًا، (إذ) قامت تجارتهم على أساس مختلف أنواع الضرائب القسرية والتعسفية. و(هكذا) رسَّخ اليونانيون والأرمن والسلاف والأوروبيون الغربيون أقدامهم في المرافئ البحرية الكبيرة قابضين في أيديهم على كل التجارة، وليس لديهم ما يبرر إطلاقًا شكر البكوات والباشاوات الأتراك على إتاحة الفرصة لهم لممارستها». وبالنسبة إلى أوروبا فإن القول: «ولو تخلصنا من جميع الأتراك في أوروبا لما قاست التجارة من ذلك على الإطلاق» يعكس الواقع الذي كان سائدًا آنذاك.

يعزز رأينا هذا أيضًا الأستاذ مروان المدوّر حيث يقول:

«وجاءت معاهدة السلام التي وقَّعتها تركيا في سيفر بتاريخ 10 آب

(1) لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمتها عن الروسية الدكتور عفيفة البستاني، وراجعها يوري روشين دار الفارابي، الطبعة السابعة 1980، الطبعة الثامنة ، 1985 ص18 ـ 19.

(2) فريدريك انجلس: القضية التركية، كارل ماركس وفريدريك انجلس، المؤلفات، الطبعة الروسية الثانية، المجلد 9، ص25، عن: تاريخ الأقطار العربية الحديث، نفسه، ص19.

1920، بمثابة الدواء الناجع لحل مشكلة الانتداب ـ الحماية أو الوصاية (...) إذ اعترفت تركيا بموجب هذه المعاهدة ـ التي اشتركت الجمهورية الأرمنية في التوقيع عليها ـ باستقلال الدولة الأرمنية. كما خوّل الرئيس الأميركي ولسون (بموافقة أرمينيا وتركيا على المعاهدة) صلاحية تعيين حدود الجمهورية الأرمنية وتحديد خطوط ونقاط الفصل بين الجمهورية الأرمنية وتركيا بالنسبة للولايات الأرمنية: فان (Van) أرزروم (أرضروم)، ترويبزند، بتليس، على أن تقبل هاتان الدولتان قرارات الرئيس ولسون الصادرة بهذا الشأن».

ثم يعود فيقول بأسى وحزن عميقين:

وكالعادة، كان يمكن لمعاهدة سيفر، لو قُيِّض لها البقاء، أن تهيء أسباب وجود الدولة الأرمنية المستقلة حتى هذا اليوم، إلا أن نمو القومية التركية وظهور النزعة الكمالية في تركيا أفسد كل شيء».

أضاف:

«فقد قامت القوات التركية الكمالية، بعد شهر ونصف تقريبًا من التوقيع على معاهدة سيفر، وبالتحديد بعد 43 يومًا، أي بتاريخ 24 أيلول 1920، بفسخ هذه المعاهدة عندما هاجمت تحت قيادة قاظم (كذا) قره بكير، ثم احتلت قبرص وأزْدهان والكسندر وبول وأولتي.. ثم طلب الطرفان الهدنة ووقف القتال».

وقال أيضًا:

«والطريف في الأمر، أن الدول كافة وقفت إزاء هذه العمليات الحربية المنافية لمعاهدة سيفر، التي لم يجف حبرها بعد، لا تحرك ساكنًا[1]».

(1) الأرمن عبر التاريخ: ص419 ـ 420.

وعندئذٍ أخذت الحكومة الأرمنية - وهي بعد في دور الطفولة - تتردى يومًا فيومًا، حتى «وجدت نفسها مضطرة لتوقيع معاهدة الكسندربول بتاريخ 22/ 12/ 1920 مع حكومة الجمعية الوطنية الكبرى في تركيا الكمالية في أضنة[1]»[2] ومن أسف أن الأحداث بعد ذلك

---

(1) المصدر نفسه: ص421.

(2) جاءت في هذه المعاهدة (سيفر) المواد التالية الخاصة بالأرمن:

«المادة 88 - تعلن تركيا أنها تعترف بأرمينيا كدولة حرة مستقلة، كما سبق واعترفت بذلك الدول الحليفة.

المادة 89 - تعترف كل من تركيا وأرمينيا، وكذلك الأطراف المعنية بقرار الرئيس الأميركي فيما يتعلق بتحديد حدود تركيا وأرمينيا في ولايات أرضروم وطرابزون ووان وبتليس، كما أنهما تخضعان لقراره الخاص بجميع الترتيبات.

المادة 90 - عند تحديد الحدود بموجب المادة 89، تتحول جميع أراضي الولايات المذكورة أعلاه، أو قسم منها إلى أرمينيا، وتعلن تركيا، حال صدور القرار بهذا الخصوص، تخليها عن جميع حقوقها في تلك الأراضي المنقولة ملكيتها.

المادة 91 - عند تحويل قسم من الأراضي المذكورة في المادة 89 إلى أرمينيا، تتألف خلال الأشهر الثلاثة التالية لذلك لجنة لتحديد الدود تعمل على تخطيطها في المكان نفسه. أما طريقة تأليف هذه اللجنة، فيبت بأمرها فيما بعد.

المادة 92 - يجري تحديد الحدود بين أرمينيا وجيورجيا وآذربيجان باتفاق جماعي بين الحكومات المعنية. وإذا أخفقت الدول المعنية في الوصول إلى اتفاق جماعي فيما بينها حول تحديد حدود كل واحدة منها، عندئذٍ يحق للدول الحليفة الكبرى تعيين تلك الحدود وخطيطها في المكان ذاته.

المادة 93 - تقبل أرمينيا نصوص اتفاق يعقد بينها وبين الدول الحليفة وتنفذ منها ما تراه تلك الدول ضروريًا لحماية مصالح الشعوب القاطنة في أرمينيا والتي تشكل أقلية من حيث الجنس واللغة والدين.

«تجدر الإشارة إلى صدور خريطة لأرمينيا - بتاريخ 22 - 11 - 1920 - وضعت حسب تخطيط الرئيس ولسون مساحة قدرها 68500كلم، تشمل ولايات وان وبتليس وأرضروم وطرابيزون، مع اعتبار مرفأ طرابيزون مرفأ أرمينيًا. =

تتالت على الجمهورية الأرمنية، وبدأ «الضغط الروسي، فضلاً عن تحركات القوات التركية، يشكل تهديدًا خطيرًا لاستقلال هذه الدولة»[1]، مما أضاع الحدود السياسية للدولة الأرمنية والمعاهدات التي وقَّعتها مع الروس والأتراك.

«وعندما هاجمت الجيوش التركية الجمهورية الأرمنية وأجبرتها على توقيع معاهدة الكسندربول المجحفة، قامت روسيا بدورها بالدخول إلى الجمهورية الأرمنية، وسكتت انكلترا وفرنسا عمليًا ولم تتداخلا لمنع سقوط هذه الجمهورية التي اعترفتا باستقلالها[2]»[3].

= ولكن هذه القرارات الطيبة الوقع في قلوب الأرمن بقيت هي أيضًا حبرًا على ورق نتيجة ظهور حركة مصطفى كمال» [القضية الأرمنية: ص: 48، 49، 50].

(1) الأرمن عبر التاريخ: ص421.

(2) المصدر نفسه: ص429.

(3) عن معاهدة الكسندر بول يقول كرسام أهارونيان: «إن قيادة الجيش التركي المنتصر، بعد أن أوقفت إطلاق النار على الجبهة، نزولاً لطلب حكومة اريفان، لم تقبل المباشرة بمحادثات الصلح إلا إذا أعلنت الجبهة الأرمنية تخليها عن معاهدة سيفر. فقبلت حكومة أريفان المعزولة والمحرومة من أي مساعدة خارجية، بذلك الشرط»... «وبعد مفاوضات أسبوع في مدينة الكسندر بول، فرض كاظم قرابكير، في 2 كانون الأول من عام 1920 شروطه القاسية التي بموجبها سلخت تركيا من أرمينيا الشرقية مساحة تبلغ عشرة آلاف كيلو متر مربع». أما أهم ما جاء في هذه المعاهدة من شروط مذلة، فهو:

1 - يسحب الأرمن اعترافهم بمعاهدة سيفر ويستدعون جميع ممثليهم ولجانهم العاملة في أوروبا ولا يعترفون بأي تمثيل للحلفاء في بلادهم، إلى أن تعقد تركيا معاهدة صلح معهم.

2 - يحق لأرمينيا إنشاء جيش وطني، شريطة ألا يتعدى عدد جنوده الـ 1500 نفر، مع صف ضابط مناسب.. وتلغى الخدمة الإجبارية..

3 - عند وقوع اعتداء على أرمينيا، تقوم تركيا بالدفاع عنها تلبية لطلب من حكومة أرمينيا. =

المسألة في أسباب وجود الدولة:

إن المسألة - إذن - هي في أسباب وجود الدولة فحسب. وحيث يكون للدولة، أية دولة، البقاء الطويل والسيادة المحترمة، يجب أن تكون قوية ومتماسكة وذات شخصية واضحة ومستقلة. ومن الثابت أن التاريخ يحفظ بين دفتيه أسماء دول وممالك وامبراطوريات شتى انقرضت أو زالت لأنها ولدت إن لم يكن مصادفة، ففي ظروف غير عادية. ومعظم هذه الدول تضخمت من دون هضم، واتسعت رقعة نفوذها من دون أن تكون واعية لما يجري لها، فلما سقطت سقط معها كل شيء، فكانت المآسي والانهيارات التي تخللتها المذابح والمجازر، وكانت أيضًا الفظائع والأهوال وما تلاها من تهجير قسري وتشرد وشتات من جهة، وتسلط واغتصاب واحتلال من جهة أخرى. من المؤكد أن أرمينيا هي واحدة من تلك الدول التي تجرعت كأس المر والغيظ، وأن الأرمن هم من بين الشعوب التي عرفت القهر والويلات والنكبات وطُردت من بلادها أو من جزء منها، فيما «العالم المتمدن» يرد على المستغيثين بالبيانات والنداءات العقيمة.

والحقيقة هي أن بين الزحف المغولي على أرمينيا وبين الاحتلال العثماني غير نكبة وغير بلية، وكما يقول الأستاذ كرسام أهارونيان:

= 4 - جميع الاتفاقات التي وقعتها أرمينيا ضد تركيا تعتبر ملغاة.

5 - لكل من تركيا وأرمينيا حق الترانزيت الحر المتبادل عبر أراضيهما باستعمال السكك الحديدية والطرقات.. إلخ.

ويقول أهارونيان: «وكان بإمكان الوفد الأرمني ألا يوقع هذه الاتفاقية، إذ كانت الحكومة التي أوفدته قد استقالت قبل يوم من توقيعها وانتقلت السلطات في أرمينيا من يد حكومة حزب الطشناق إلى «اللجنة العسكرية الثورية المؤقتة» الممثلة لسلطة سوفياتية في أرمينيا، وذلك على أساس اتفاق وقع بين حكومة اريفان وروسيا السوفياتية» [القضية الأرمنية: ص55 - 56].

«وبعد قرن ونصف القرن (على الزحف المغولي) بلي الأرمن بمصيبة جديدة دهماء هي احتلال المماليك مدينة «سيس» في سنة 1375م وتصفيتهم المملكة الأرمنية المستقلة في كيليكيا».

ويتابع قائلاً:

«لسنا نبالغ في التقدير إذا قلنا إن عدد الأرمن في القرن الحادي عشر - أي عشية غزو السلوقيين - كان يبلغ ستة ملايين على وجه التقريب، في حين كان عدد سكان المملكة الإنكليزية حوالى مليوني نسمة. أما مساحة الوطن الأرمني البالغة ثلاث ماية ألف كلم، فكان معظمها تحت حكم المماليك والإمارات الأرمنية وكانت غالبية سكان تلك البقاع من الأرمن. وبالإضافة إلى هؤلاء، كانت تجمعات أرمنية كبيرة قائمة في بلدان آسيا الصغرى وكيليكيا»[1].

ويذهب أهارونيان بتاريخ القضية الأرمنية بعيدًا حتى يصل إلى أواسط القرن الحادي عشر فيقول: «إن في جملة المصائب والبلايا التي حلت بالأرمن، سياسة بيزنطة الماكرة الغادرة والمعادية للأرمن. ففي سنة 1045 وقعت أرمينيا تحت حكم البيزنطيين الذين نسفوا سلطة ملوك البكرادونيين وغيرهم من ممالك الأرمن. لقد بلغ من إهمال البيزنطيين ولا مبالاتهم بحماية سلامة أرمينيا درجة تمكن معها الغزاة السلجوقيون في أواسط القرن الحادي عشر من احتلال أرمينيا بكل سهولة، ففي سنة 1064م، دخل ألب أصلان مدينة آني - وهي أكبر مركز حضاري للأرمن - ونهبها ودمرها هي وغيرها من المدن الآهلة المزدهرة كـ «توين» و«ارزن» و«وان»... إلخ.

ويقول: «في الربع الثاني من القرن الثالث عشر، طرقت أبواب

---

(1) القضية الأرمنية: ص8 - 9.

أرمينيا عاصفة هوجاء مروعة لم يسبق لتاريخ ذلك الزمان أن رأى مثيلاً لها من حيث عنفها في التخريب والتهديم كان ذلك عهد تدفقت غزوات جنكيز خان وخلفائه».

ويقول أيضًا:

«لقد قاست أرمينيا قرنًا ونصف القرن تحت حكم الهولاكيين الوحوش، الذين استنزفوا كل مقدرات الشعب بضرائب لا حصر لها، إلى أن جاء تيمورلنك في سنة 1387 ليستكمل تخريب وتهديم ما تبقى».

وبذلك «أصبحت أرمينيا ممرًّا لكل غاز ومزرعة للنهب، وتوالى صراعها مع الغزاة من المغول والسلجوقيين والقبائل الطورانية والفرس والأتراك العثمانيين الذين تعاقبوا على أرض أرمينيا».

وبتأثير هذه الوقائع والأحداث تلاشت قوى الشعب الأرمني حتى بلغ شفير القلق، وقد خربت دياره وتضاءل عدده إلى ثلاثة ملايين وشل نشاطه العمراني. «وأما الهجرة فكانت بلية أخرى نزلت به، إذ أخذ عشرات الألوف من أبنائه ينزحون مرغمين عن ديارهم المهدمة ويغتربون، الأمر الذي أدى إلى إحداث تغيير في طبيعة التركيب القومي للبلاد الأرمنية، إذ أخذ الأكراد والأتراك وغيرهم من القوميات يملأون الفراغ الجغرافي الناجم عن نزوح الأرمن المتلاحق عن ديارهم الأصلية»[1].

لا استقلال للضعفاء

إن ما تقدم من تاريخ أرمينيا والمسألة الأرمنية يطرح سؤالاً كبيرًا وجوهريًّا: ما هو الاستقلال وما معناه؟ فنقول:

(1) المصدر نفسه.

الاستقلال حالة لا تكون إلا حيث الشدة والقوة والثقة بالنفس.

وهو أيضًا صفة للكيان ـ أي كيان يُعرف بها وتُعرف به، كأن نقول: الكيان المستقل واستقلال الكيان. على أن الضعيف والقاصر والمحبوس لا يُعد مستقلاً.

ولذلك قيل: «الاستقلال يؤخذ ولا يعطى». ومن علامات هذا الاستقلال: الحرية، والعكس صحيح؛ فما لا حرية بدون استقلال، كذلك لا استقلال بدون حرية.

وبما أن الاستقلال «يؤخذ ولا يعطى»، فإن الذي يطلب الاستقلال ينبغي له أن يكون قويًّا ومتمكنًا ومقتدرًا، ومطلبه يجب أن يكون حقيقًا بل جديرًا بالاحترام ونفاذًا لا يقبل التراجع والتسامح ولا يرضى بالغموض والتسويف والمماحكة والتأجيل. ومن لا يستطيع انتزاع استقلاله والمحافظة عليه، فهو تبعي، يُؤمر فيطيع، ويدعى فيجيب، وتختلس منه حقوقه ممتلكاته فلا يعترض ولا يحتج، بل يغمض عينيه ويعقد لسانه، فإذا ما عاتبه أحد، قال: إنها من شدائد الدهر، و«ليس المخاطر بمحمود ولو سلم».

قال ابن منظور:

«... واستقل الطائر في طيرانه: نهض للطيران وارتفع في الهواء. واستقل النبات: أناف»[1].

يستفاد من هذا القول أن الاستقلال إنما هو ارتفاع وإنافة وإشراف.

فالطائر لكي يطير ويحلِّق يجب أن يكون ذا جناحين متساويين أولاً، وقويين ثانيًا. والنبات لا يثمر إلا إذا ارتفع وتكامل. كذلك الأمم

(1) لسان العرب.

والشعوب. وكل أمة لا ترتفع إلى صف الأمم الكبرى لا تعد مستقلة، بل تابعة وضعيفة ومهددة بالزوال. وكما في الهواء ما يعوق الطير عن الطيران والنبات عن النضوج، كذلك في السياسة الدولية: لا حق إلا للقوة، ولا اعتبار إلا لمن له القدرة والسلطان.

هل يكفي الأرمن التغني بالمجد الذي أحرزه ملك آسيا العظيم، وأعظم ملوك الأرمن قاطبة، ديكران الثاني (94 ـ 55ق.م) الكبير؟

إلى متى سيظل صلاح الدين الأيوبي أمل الأكراد الأوحد وسفينة نجاتهم؟ ومتى سيكف الآشوريون والتتار والشركس والمماليك عن قراءة التاريخ على ضوء زيت العُتْم[1]؟

أما آن لهذه الشعوب (...) أن تدرك خطر الواقع وعجز التاريخ؟!

بين أرمينيا السوفياتية الحمراء وأرمينيا التركية الإسلامية أسداد لا تخرقها الصواريخ عابرة القارات ولا «الإشعاعات الذرية».

يرى الأستاذ أهارونيان أن القبول بالحكم السوفياتي الذي أذاعته «اللجنة الثورية في أرمينيا» في 29 ـ 11 ـ 1920 «كان لا بد منه بالنسبة إلى أرمينيا، إذ كان بإمكان ذلك الحكم وحده أن يوقف المتدخلين الأتراك عند حدهم، بل أن يدحرهم ويضمن السلام والطمأنينة للشعب الأرمني المنهار القوي والواصل إلى شفير الهاوية»[2].

ويرى أيضًا أنه «بإقامة الحكم السوفياتي في ربوع أرمينيا بدأت مرحلة جديدة في حياة الشعب، مرحلة التنظيم والنهوض والعمل من

(1) العُتم والعَتم: شجرة الزيتون البري.

(2) القضية الأرمنية، ص: 59.

أجل البناء والتصنيع، على أن الذي استلم زمام الحكومة آنذاك، هو الكسندر مياسنيكيان وقد عد «أكثر رجالات الأرمن السياسيين كفاءة في ذلك الزمان»[1].

ـ جاثيليقية سيس (بيت كيليكيا) انتقلت إلى انطلياس ـ لبنان، فصارت «منارة على البحر المتويط، وثاني بيت ـ بعد بزمار والمنشآت الأرمنية الكاثوليكية في بيروت ـ للأرمن اللبنانيين، منذ ما يزيد على خمسين سنة[2].

ـ يريفان شيوعية حمراء لا تُمس. وفيها ممنوع «إثارة قضية الأراضي الأرمنية المغتصبة في أرمينيا التركية»[3] وممنوع التطلع نحو الغرب، بل دائمًا إلى «الشرق» فحسب[4].

(1) المصدر نفسه.

(2) جاء في دائرة المعارف «البستاني»: «... وفي سنة 1920م انتخب ساهاق الثاني جنايان من رهبان أورشليم، فتابع أعمال التنظيم والإنشاء، وفتح مدرسة إكليريكية. إلا أن ما مني به الأرمن في هذا العهد من نكبات ومذابح وهجرات متتابعة كان منها تخريب مركز الجاثليقية في سيس (عاصمة كيليكيا) دفعه إلى مرافقة شعبه المضطهد في طريق الجلاء، على رغم سنه العالية، فجال معه مدة حتى لجأ أخيرًا إلى لبنان، فأقر مركز الجاثليقية في انطلياس (المتن) منذ سنة 1930». «وكانت الجاثليقية قد استقرت أولاً في بناء استأجرته من «جمعية الشرق الأدنى» الأميركية تستعمله ميتمًا للأرمن في انطلياس. ثم اشترته سنة 1937. وأقامت بنايات جديدة للمدارس الاكليريكية والتعليمية في سبيل تخريج الكهنة والمعلمين للاهتمام باللاجئين تثقيفًا وتربية. ثم أنشأت مكتبة ومطبعة سنة 1932 وباشرت نشر مجلة خاصة سميت «هاسك» أي «السنبلة» [دائرة المعارف ـ البستاني، المجلد العاشر ص327].

(3) القضية الأرمنية، ص: 60.

(4) في عام 1922 أصبحت أرمينيا الشرقية إحدى جمهوريات اتحاد ما وراء القوقاز الاشتراكية السوفياتية الذي ضم أيضًا كلاً من جمهوريتي أذربيجان وجيورجيا». «وعندما قامت حكومة الاتحاد السوفياتي بتعديل =

ـ العالم كله اليوم وطن للأرمن، ولكن في القلب ما هو أكبر من ذلك «الفرح»، لأن الوطن ـ الأم أكبر من الدنيا بكل أرجائها[1].

ونسأل ثانية: الأرمن، إذن، ماذا لهم؟ وماذا عليهم؟

= الصيغة الدستورية لكيانها الإداري، تناول هذا التعديل دول الاتحاد المذكورة حيث أصبحت أرمينيا الشرقية بموجب القانون الأساسي (الدستور) للدولة السوفياتية الصادر عام 1926 جمهورية مستقلة ضمن جمهوريات الاتحاد السوفياتي الخمس عشرة التي تألف منها وقتذاك وحملت اسم جمهورية أرمينيا السوفياتية الاشتراكية وعاصمتها يريفان. «يبلغ عدد سكان أرمينيا السوفياتية (حسب إحصاء 1979) 3,031000 نسمة يشكل الأرمن منهم ما نسبته 89,4 في المئة، أما ما تبقى فتتوع نسبته (وحسب الترتيب) على الأذربيجانيين والروس والأكراد والسريان (الآشوريين) ويقطن ثلث السكان في العاصمة يريفان، وإن ما تبقى فيتوزع على المدن والقرى الأخرى». ([الأرمن عبر التاريخ ص575 ـ 576]، مع العلم أن عدد سكان هذه الجمهورية، قد نزل إثر الحرب العالمية الأولى، من مليون إلى 720 ألف نسمة على قول أهارونيان: (القضية الأرمنية) ص59.

(1) استنادًا إلى إحصاءات عام 1970 (وتقديرات عام 1972) بلغ عدد الأرمن ستة ملايين ومئة ألف نسمة تقريبًا، وهم موزعون على الشكل التالي: ـ جمهورية أرمينيا السوفياتية 2,600,000، الاتحاد السوفياتي (آذربيجان وجيورجيا وموسكو واستراخان والقرم إلخ...) 1,400,000 ـ الدول العربية (في لبنان 330,000، في سوريا 150,000، في مصر 50,000، في العراق 50,000) ـ أميركا 350,000، كندا 250,000 ـ فرنسا 350,000 ـ تركيا 200,000 ـ دول العالم 500,000 (الهند، إيران، بولونيا، بلجيكا، دول أميركا اللاتينية، أوروبا الغربية).

ومما يجب ذكره هو أن عدد الأرمن، في عام 1950، حسب الموسوعة العلمية السوفياتية، كان 3,245000. وبهذا يكون الشعب الأرمني قد حقق خلال ربع قرن زيادة قدرها حوالى ثلاثة ملايين إنسان. ويتوقع خبراء علم الإسكان أن يصبح عدد الأرمن في العالم سنة 2000 بحدود عشرة ملايين موزعين على دول العالم، هذا إذا استمرت معدلات نموهم الحالية.

خصائص الشعب الأرمني:

يقول الأستاذ مروان المدور:

«على مدى التاريخ عُرف عن الشعب الأرمني ثلاث خصائص: إنه فرد مقاتل وعنيد. يلعب الموقع الجغرافي (وهكذا نرى هذا العنصر يبرز أمامنا دائماً) لأرمينيا، وكذلك طبيعتها ومناخها، دوراً بارزاً في تحديد طبائع الشعب الذي يعيش فيها. فهم أشداء، ككل شعب يقطن الجبال، أما مناخها فهو شديد البرودة في الشتاء وشديد الحرارة في الصيف، مما يوفر للأرمن المزايا والصفات التي تجعل منها محاربين أقوياء أشداء البأس».

ولكن الأرض المفتوحة والطبع الصلب (Rigid) مشروعان خاسران، بل إلى زوال، مهما طال بهما الزمن. ويمكننا القول إن الواحد منهما هو عدو للآخر، تماماً مثلما الزيت والنار، واللحم والأسيد، والملح والعسل. فالذي أرضه سائبة أوْ لا حفاظ عليها يجب أن يكون مرناً وليِّن العريكة، وهادئاً وحكيماً. وإلا ضاع وضاعت معه أرضه وكل حقوقه. وربما لهذا السبب حدد حزب (الرامكافار) سلوكه منذ مؤتمره الأول المنعقد في سنة 1922، كما يلي:

«بالنظر إلى أن كيان الشعب الأرمني في أرمينيا السوفياتية مرهون بالعلاقات السياسية لحكومته القائمة، فإن مؤتمر الحزب يقرر: (1) مواصلة الاهتمام بقضية أرمينيا الغربية عن طريق هيئة مستقلة مؤيدًا، في الوقت نفسه، جهود حكومة أرمينيا الهادفة إلى إنهاض البلاد الاقتصادي والمعنوي والحفاظ على كيان الشعب الأرمني (2) تجنب كل عمل قد يعود بالضرر على كيان الشعب والدولة ومنعه»[1].

(1) القضية الأرمنية.

وكأني بهذا الحزب يقول مع المثل القائل: «اليد التي لا تستطيع عضَّها قبِّلْها وادع لها بالكسر». وليس من الضرورة أن يعني هذا الموقف «الرامكافاري» تخطئة حزب «الطاشناق» المناوئ لأرمينيا السوفياتية، ولا استصابة موقف حزب «الهنشاق» الممالئ لها، وفي كل الأحوال يهمنا أن نرى الأرمن والأحزاب الأرمنية في موقع واحد موحد لا يتأثر بالعوامل الخارجية الآتية غالبًا من الدول ذات المطامع والمصالح المعروفة منها وغير المعروفة.

و«الفرد الأرمني على مدى تاريخه الطويل يخوض دائمًا حروبًا ثقيلة»[1]، «وإذا ما تيسَّرت له القيادة الحكيمة فإنه كان جنديًا صلبًا، وأكبر دليل، الامبراطورية التي أنشأها ديكران الكبير بجنوده الأرمن، حتى شملت أرمينيا بحدودها الطبيعية وكيليكيا، وامتدت من بحر قزوين إلى المتوسط، باسطة جناحيها أيضًا على القفقاس وكبدوكية وكردستان الجنوبية والموصل وآذربيجان ونصيبين والرها وولاية صوفين (الأرمنية) وأنطاكية»[2].

نسارع إلى القول: ليس المهم أن نجتاح أراضي الغير ونوسّع حدودنا ومناطق نفوذنا، وإنما المهم - بل الأهم - أن نكون استقلاليين نصون أرضنا ونحميها، ونحترم حق الغير ونشاركه الدفاع عنه ضد الغازين أيًّا كانوا. وما فعله ديكران الكبير فعل مثله أو أكثر ملوك الآشوريين، والاسكندر، وملوك الفرْس، وأباطرة الرومان، والعرب، والصليبيون، والأكراد، والمماليك، والأتراك، ونابليون، ومحمد علي باشا، ثم انكلترا، وهولندا، وفرنسا، وإيطاليا، وإسبانيا، والبرتغال، وحاليًّا: الولايات المتحدة الأميركية، ونحن لا نعلم من الذي سيخلف، غدًا هذا العملاق العالمي.

(1) الأرمن عبر التاريخ.
(2) المصدر نفسه.

وعندما انهارت هذه الأمبراطورية (الديكرانية الأرمنية) أخذت الامبراطوريات الأخرى تستعين بالجيوش الأرمنية وتستخدمها لمقاتلة الدول المجاورة»[1]. الفرْس والرومان استنجدوا في حروبهم بالفِرَق الخيَّالة الأرمنية. المغول أرغموا الملوك الأرمن على القتال إلى صفهم. وكذلك فعل الصليبيون في أرمينيا الصغرى - كيليكيا. وفي كل عهد كان الأرمن وما زالوا فِرقًا وأحزابًا لا يجمع بينها - يا للأسف - سوى الأرض التي لم يبق لهم منها إلا الاسم: أرمينيا، فحسب.

والأخطر من كل ما تقدم هو أن الأرمن كانوا «ينخرطون ويجنَّدون في هذا الجيش أو ذاك، ويحاربون مع هذه الدولة أو تلك، ويفقدون أرواحهم دون قضية يدافعون عنها، أو هدف، بل تبعًا لرعويتهم للدولة المعنية»[2].

ويتحدث الأستاذ أهارونيان عن مساهمة الأرمن في الحرب ضد ألمانيا الهتلرية فيقول:

«إن الشعب الأرمني - رغم صغر عدده - ساهم مساهمة فعَّالة مشرّفة في الحرب الوطنية الكبرى وفي الانتصار على الغزاة الهتلريين. إذ قاتل زهاء 300 ألف من أبنائه في صفوف الجيش الأحمر وسقط منهم خمسون ألفًا في مختلف قطاعات الجبهة. وقد رُقِّي سبعون من العسكريين الأرمن إلى رتب عالية بين قائد جيش وقائد بحرية ومريشال للاتحاد السوفياتي، كما نال مئة وستة مقاتلين لقب «بطل الاتحاد السوفياتي» وحاز آخرون (قُدِّر عددهم بالآلاف) على أوسمة حربية مختلفة».

(1) المصدر نفسه.
(2) نفسه.

أضاف:

«وقد اشترك المقاتلون الأرمن في الدفاع عن مدن أوديسا وسيفاستابول وموسكو ولينينغراد. فخلال المعارك في جوار موسكو، برز القادة كينوسيان وهايك مرديروسيان وسركيس مرديروسيان وغيرهم. أما في معارك الدفاع عن لينينغراد وتحريرها فاشتهر القائد كالوستيان وغيره من العسكريين الأرمن».

ويقول أيضًا:

«وقد أظهر أبناء الشعب الأرمني بطولات خارقة، خصوصًا في معارك القوقاز وستالينغراد التي اشتركت فيها الفرق الأرمنية 89، 390، 408، 409. وكانت أشهر هذه الفرق: الفرقة 89 المسماة «بطامانيان» التي لعبت دورًا بارزًا في الدفاع عن شبه جزيرة القرم وتحريرها. وتابعت هذه الفرقة سيرها المظفر حتى برلين، فنال 7333 من جنودها البواسل أوسمة عسكرية عالمية، كما استحق تسعة منهم لقب «بطل الاتحاد السوفياتي» وكان من أشهر قواد هذه الفرقة: سافاريان، كسباريان، كرابتيان، باباجانيان»[1].

ومن القادة العسكريين الذين استحقوا تنويه مؤرخي الحرب العالمية الأولى: المريشال أوهانس بغراميان، قائد القوات البرية، والمريشال أرميناك خانبريان قائد أركان القوات الجوية: وايساكوف القائد في الأسطول البحري السوفياتي.

ومن جهة أخرى، كان لنساء جمهورية أرمينيا وشيوخها أيضًا دور كبير في تأمين «حاجات الجيش (الأحمر) والجبهة». وفي الوقت عينه انضم عشرات الألوف من الأرمن «المهاجرين» و«المهجَّرين» - ولا سيما في أوروبا - إلى صفوف القوات الحليفة ومنهم من عمل في جمع

(1) القضية الأرمنية.

التبرعات لإنشاء فرقتين للدبابات، الأولى باسم «بغراميان» والثانية باسم البطل الأسطوري الأرمني: «ساسونشي تافيد». وكان أن ردّت جمهورية أرمينيا على هذه «المبادرة الطيبة»، بقبول عودة زهاء 100 ألف من أبنائها المهجَّرين، وقد تم ذلك في العامين 1946 - 1947[1].

ومهما قيل فإن الأرمن - مقيمين ومهجّرين - هم «فرْس» و«رومان» في آن معًا، و«أكراد» و«صليبيون» و«سوفياتيون» و«أميركيون» و«إيرانيون» و«عراقيون» و«بغداديون» و«دمشقيون» و«لبنانيون» و«فلسطينيون» و«طشناق» و«طشناقسوتيون» و«اشتراكيون ديموقراطيون» (هنشاق) و«معتدلون» (رامكافار)[2]. على أن «فرقهم وجيوشهم كانت تدخل

(1) المصدر نفسه.

(2) عن نشوء الأحزاب الأرمنية يقول الأستاذ كرسام أهارنيان: «وكان الحزب المسمى «حزب أرميناكان» أول منظمة ذات طابع سياسي، وقد تأسس في مدينة «وان» سنة 1885. واتخذ هذا الحزب (مؤسسه: مكرديج ديرآويد ميسيان) جريدة «أرمينيا» الصادرة باللغة الأرمنية في مرسيليا لسان حاله. وكان من أهداف هذا الحزب تربية النشء الطالع تربية وطنية و(تنظيمه) و(تدريبه) وجمع السلاح وتخزينه في مختلف أماكن أرمينيا لاستعماله عند توفر الظروف للقيام بانتفاضة عامة. «وفي سنة 1887 تألف في مدينة جنيف، بمبادرة من الطالب أو يديس نازار بك وبعض رفاقه «حزب الهنشاق الاشتراكي الديمقراطي» الذي إلى جانب هدفه التحرري الوطني، اعتنق الفكرة الاشتراكية. وكانت صحيفة «الهنشاق» (ناقوس) الصادرة في جنيف لسان حال هذا الحزب، الذي أخذ ينظم فرقًا في المدن الرئيسية من أرمينيا. « وفي سنة 1890 تألف حزب ثالث، هو «اتحاد الثوريين الأرمن»، (أي حزب الطاشناق) بزعامة كريستابو مكايليان. وما لبث أن نقل هذا الحزب من مركزه من مدينة تفليس في جيورجيا حيث تأسس، إلى مدينة جنيف فأخذ يصدر هناك صحيفة «تروشاك» (العلم). وحزب الطشناق كحزب الهنشاق انتحل هو الآخر المبدأ الاشتراكي فانضم إلى الأممية الاشتراكية الثانية وقام ينظم فرقًا من الفدائيين وفروعف له في أنحاء أرمينيا» [القضية الأرمنية: ص21/ 22]. =

المعارك المستمرة وتنزل بها الخسائر البشرية الفادحة تحت أطماع الدول الأخرى»[1] مما لا يراه الذين يميلون إلى هذه الدولة أو تلك من المؤرخين والمحلِّلين.

الشخصية الأرمنية:

والأرمني ـ منذ كان ـ هو مثل القهوة التي يشربها الغني والفقير، والأبيض والأسود، والعدو والصديق، والمالك والأجير، والحاكم والمجرم، والقائد والمجنَّد، والسياسي والشاعر، والنحّات والحلاق، والمصوِّر والطبيب، والكاتب والحفّار، والرسّام والحذّاء، والحدّاد والخبّاز، والصوفي والعبثي، وسائر الطبقات والهيئات، في كل زمان ومكان. وإذا ما وجِد من لا يرغب التعامل مع الأرمني أو يؤثر الابتعاد عنه، فيكون مثله مثل ذلك الذي يكفّ عن القهوة لاعتقاده أنها تُحدث قلقًا وتُتعِب القلب وتقلِّل من قبول الطعام وارتياح النفس إليه، بينما هي في بيته سيّدة لها مكانتها عند الأب والأم والزوجة والأخوة والأبناء والضيوف. فالكل يسأل عنها، وهي مطلب الجميع. وأي لقاء إن لم يكن حول فنجان قهوة لا يُعدّ «لقاءً سعيدًا». هكذا الأرمني الذي لا تجارة بدونه ولا صناعة ولا فن ولا سياسة ولا مغامرة ولا إبداع ولا جنون ولا مهارة ولا عمران. وبدونه أيضًا لا تشتعل حرب، وإن اشتعلت لا تستمر طويلاً ولا تُبرم معاهدة سلام أو صلح. فهو شرس إذا قاتل، وأمين إذا عاهد، ومدمِّر إذا حُشِر، وإرهابي إذا اعتدي عليه (الجيش الأرمني

= وبالنسبة إلى الحزب الجمهوري (الرمكافار) فقد تأسس عام 1908 في القاهرة. ومن مؤسسيه: ناظريان وبوزيكيان وهو يشرف على مؤسسات عديدة منها: الجمعية الخيرية الأرمنية، مركز موسيسيان. وقد طالب في البدء باستقلال أرمينيا ثم عاد وحصر همه في المحافظة على كيان الشعب الأرمني [الأرمن عبر التاريخ: ص50].

(1) الأرمن عبر التاريخ، ص: 384.

السري ـ مثلاً ـ وتهديداته المتكررة لفرنسا وتركيا وغيرهما) وكريم إذا اطمأن، ومُقِل حتى البخل إذا خان أو ارتاب.

لا يستعجل الأرمني الوصول، ولكنه لا يتراجع ولا يستسلم؛ فهو مثابر على عمله، وصَبور، وعنيد، وشجاع، وانتهازي، وبارد، وحار. يعيش شتاءه والصيفُ في عينيه، وإذا ما أتى الصيف لا يرزّ له الأوتاد بل يستمر في الأخذ منه حتى يرحل. وقلَّما يبكي الأرمني على شيء ذهب منه. فالخسارة ـ عنده ـ غير مستغرَبة ولا مستهجنة، إذ هي ـ في رأيه ـ موجودة بوجود الربح، والذي لا يخسر لا يربح.

لذلك نرى الأرمني يميل إلى الصيرفة والإتجار بالذهب والماس والحجارة الكريمة. ويعشق الأرمني الأنتيكا» (Antiqué) والأشغال الدقيقة، والميكانيك، والتصوير، والترميم، والحفْر، والرصْع، والرصْف، والنسج، والخرْط، والدبْغ، والخلْط، والحياكة، والزخرفة، والدبْج، والنقْش، والهمْس، والغمز، والجَس، والكَبْس باليد، واللّمز.

إذا ضحك الأرمني ارتجّ وارتجَّت معه الأرض، وإن هو بكى فوحيدًا، كما لو أنه لا يعرف كيف يكون البكاء. دموع الأرمني باردة لأنه يُشغل عينيه ويديه أكثر من اللزوم. وعلى الرغم من قصره، فهو يحب «الفضفضة» و«الفلفشة»، وقد بنى القصور وأنشأ الحدائق والمنتزهات. ويحب أيضًا الرقص والغناء والطرب والمجون والعربدة والسير في المنعطفات والطرق الملتوية. وأما في الشدائد وأيام الحاجة والعوز، فهو يرتد إلى نفسه ويتقبَّض ويحني رأسه إلى أن «يفرجها الله عليه». وعنده ما يشبه الحاسة السادسة، ولهذا «يكوّع» ـ ولو في منتصف الطريق ـ مهما يكن ضيِّقًا هذا الطريق. ونادرًا ما يباغَت الأرمني أو يفاجأ إلا إذا كان قد أخذ فيه الشراب مأخذًا كبيرًا.

من أين للأرمني كل هذه التناقضات؟

قد يكون فاتنا الكلام عن تاريخ الشعب الأرمني وأصوله العرقية

وأوصافه الفيزيولوجية ومصدره الأساسي، فهذا الموضوع تركناه لعلماء السلالات البشرية الذين أثبتوا عقب دراسات مفصَّلة ودقيقة أن الأرمن ينتمون إلى فصيلة الشعوب الهندو ـ أوربية، سواء من الناحية اللغوية أو العرقية، مع اعترافهم بتأثر هذا الشعب ـ ولو بحدود ـ بالشعوب القديمة التي خالطوها من حثيين وآشوريين ومثيانيين وغيرهم، وإن كانا قد بقوا (الأرمن) محتفظين بنقاوتهم الأصلية.

ألا يكون هذا هو السبب الرئيس في تكوين الشخصية الأرمنية كما بيّناها؟

وماذا لو عرفنا أن متوسط ارتفاع الهضبة الأرمنية يتراوح بين 2500 و5500 قدم (أي ما يعادل 850 ـ 1850م) فوق مستوى سطح البحر، وأن ثمة مناطق في أرمينيا ينخفض ارتفاعها عن 3000 قدم، كما هو الأمر بالنسبة إلى سهل آراكس، في حين أن بعض مناطقها الشمالية (ديبيداشن((Debedashen) ـ على الحدود الجغرافية ـ تهبط ارتفاعاتها إلى 1200 قدم[1].

أليس هذا سببًا آخر يضاف إلى ما قبله؟

ولنا أن نؤكد على وجود عامل آخر لا يقل أهمية عما سبقه، وهو أن أرمينيا ـ في الحقيقة ـ تعتبر أكثر علوًّا وارتفاعًا من البلدان التي تجاورها. بل هي تبدو للناظر إليها من بعيد وكأنها «جزيرة» من الكتل البركانية تنهض من بين البلدان التي تحيط بها.

ولماذا لا يكون الأرمني ـ إذن ـ مثله مثل بلاده، أو هو بعض منها؟ وكما حافظت أرمينيا على «مميزاتها» الطبيعية، كذلك احتفظ الأرمني لنفسه بهذه «النوعية» التي تبدو غريبة عن محيطها وربما أبعد منه.

---

(1) نفسه.

كيف يتعامل الأرمني مع مسألته:

إن الأرمني والمسألة الأرمنية هما واحد لا ينقسم ولا يتجزأ، فهي منه مثلما هو منها. يعطيها من لحمه ودمه، وتعطيه من روحيتها وجوهرها. فإنْ شرَّق شرَّقتْ معه، وإنْ غرّب غرّبتْ معه. يدعو لها بكل الوسائل المادية وغير المادية، في الأعياد الوطنية والدينية ينشد لها ويغنّي ويجدد الميثاق ـ ميثاق الشرف. يصدّرها إلى كل جهات الدنيا مع العقود والأساور والخواتم والأقراط ومع السُّبَح والنياشين والساعات والجلد المدبوغ، بل مع كل ما صنعت وتصنع يداه.

من «برج حمود» و«انطلياس» و«بزمّار» و«عنجر» (في البقاع اللبناني) و«دمشق» و«حلب» والجزيرة السورية وسائر بلاد العرب، ومن أوروبا وأميركا وأفريقيا وكل الشرق الأقصى، يبعث الأرمن إلى تركيا وإيران، يوميًّا، بالرسائل والمذكَّرات والتقارير، يطالبون فيها بالرجوع إلى ديارهم وأرضهم، فهل يسمع «العالم الحر»؟ أم أن ما حدَث قد حدث؟ وهل غضبُ الأرمن كغضب الأكراد والآشوريين والسريان «لا يُنتفع به»؟

أليس الحق على الأرمن؟

بحث على الجذور الأولى

قبل الأبجدية الأرمنية «كانت الطقوس الدينية والتراتيل الكنسية والمؤلفات المسيحية تُكتب (في أول دولة مسيحية في العالم)[1]

---

(1) لقد اختلف المؤرخون حول تحديد السنة التي أعلن فيها الملك ورطاد الثالث تنصر أرمينيا رسميًّا. فمن قائل إن ذلك حصل عام 301 ميلادية، ومنهم من قال إنه جرى عام 314 ميلادية. والثابت أنه لم يكن بعد النصف الثاني من العقد الثاني من القرن الرابع (314).

بالحروف الفارسية أو السريانية أو اليونانية، حسب المناطق والأقاليم الأرمنية الخاضعة لنفوذ إحدى الدول صاحبة هذه اللغات»[1].

وقبل التاريخ الأرمني - باللغة الأرمنية - أطلقت أسطورة آرا (ARA) الأرمني وسميراميس ملكة آشور، فصدّقها الأرمن أنفسهم، وما علموا أن هذه الأسطورة قد اخترعها البعض ليبرروا قتل الأرمن والقضاء عليهم.

تقول الأسطورة:

«وخلَف آرام، ثاني ملوك الأرمن الكبار، ابنُه آرا المشهور بجماله، سنة 1769ق.م. وفي أيامه ظهرت شميرانه (سميراميس) ملكة آشور التي يسميها الأرمن شميرام. فأرادت التزوج به فامتنع، فحاربته، فقُتل. وأخذت المملكة، ودخلتها سنة 1743ق.م. ثم حبًّا منها لآرا وحفظًا لذكراه، أجلست مكانه ابنه كارطوس، وسمَّتْه باسم أبيه، وبنتْ مدينة «شميرا مكرد» التي دُعيت - فيما بعد - «وان». فخضعت الدولة الأرمنية للسريان (الآشوريين)، ثم صارت دولة سريانية (آشورية محضة، بعد ذلك، لما قَتل نينوس بن شميرانة أمه، وكارطوس بن آرا».

وتقول الأسطورة أيضًا:

«وملك نينوس البلاد مدة. إلى أن شبّ قانو شافان بن كارطوس، فحكَّمه نينوس على قسم من أرمينية بشرط دفع الجزية، وذلك سنة 1725ق.م، فأخذ يدبّر الأمور بمهارة وحذق حتى استرجع ملك أرمينية، وصار ملكًا مطلقًا، وملك 63 سنة ومات ولم يعقب»[2].

هكذا بدأ العالم يتعرف إلى أرمينيا وهكذا بدأ الأرمن يقرأون

---

(1) الأرمن عبر التاريخ.

(2) دائرة المعارف - البستاني، المجلد العاشر، ص297.

تاريخهم[1]، ومن ثَمّ أخذت المآسي تتكرر وتتجدّد حتى أُلغيت الدولة الأرمنية من الوجود.

ونسأل الأرمن:

ماذا بين الأمس واليوم؟

هل الحقّ على الأرمن أم على الشرقين: الأوسط والأدنى أم على الغرب؟

هل نحْتكم إلى القانون الدولي؟ وماذا عساه يفعل هذا القانون؟

ثلاثة ملايين أرمني باعهم «العالم الحر» - «العالم المتمدن» - إلى تركيا والاتحاد السوفياتي؟!

«إن المصالح الدولية - لا القانون الدولي هي التي تملي على الدول مواقفها السياسية النهائية، سواء بالنسبة للأرمن أو العرب أو غيرهما»[2].

والأصح هو أن اعتراف الدول العظمى بحرية الأقليات وعْد لا يتحقق، وعهد مولود ميتًا. وعلى قول خريميان هايريك: «لقد طُبخت الحرية في برلين[3] ولكننا لم نتمكن من أكلها بملعقة من الورق. لا

---

(1) لم يذكر المؤرخون شيئًا مهمًّا عن دولة الأرمن خلال القرنين السابقين على ملك آرام، والد آرا (شهيد سميراميس)، لأن ملوكها (من سنة 2026 إلى سنة 1827 ق.م.) كانوا قليلي الهمة، فلبثت مملكتهم لا أهمية لها ولا سلطة قوية. ولذلك طمعت إليها عيون الأعداء وامتدت إليها الأيدي فكانت فريسة بين ذئاب يأخذ كل منهم ما أمكنه بدون معارض ولا ممانع، حتى استولوا على أكثر أقطار البلاد [دائرة المعارف - المصدر نفسه ص297].

(2) الأرمن عبر التاريخ، ص: 471.

(3) «بعد عام من جلوس السلطان عبد الحميد على العرش، وعلى أثر الاضطهادات التي قام بها الأتراك في بلغاريا، سارع الروس إلى =

ترجوا يا أولادي أي أمل من الأجانب واعتمدوا على أنفسكم بأنفسكم»[1].

وطُبخت الحرية أيضًا في غير برلين والنتيجة هي هي. وكما حرية الأرمن كذلك حرية الشعوب الشرقية كافة. حصل هذا في الأمس القريب، وحصل مثله في الأمس البعيد والأبعد ثم الأبعد.

واليوم، تأبى المأساة إلا أن تلاحق الأرمن أينما كانوا، وخصوصًا في لبنان. وفوق هذا يتبادل «اتحاد ثوار الأرمن» - «طشناقسوتيون» و«الطاشناق» ـ الحركة الثورية» من جهة، و«حزب الطاشناق» من جهة أخرى، التهم والتهديدات. فالفريق الأول يصف

= إعلان الحرب على تركيا عام 1877 وانتصروا عليها في غضون ثمانية شهور (1878) حيث تم التوقيع على معاهدة الصلح في سان ستيفانو (في القصر الصيفي لثري أرمني هو «دادايان»)، والتي كرست استقلال بلغاريا ومنحت روسيا بعض الأراضي التركية (أعيدت فيما بعد إلى تركيا) كما نصت المادة 16 منها. «وفي هذا الوقت بالذات كانت بريطانيا تنظر بقلق إلى توسع الروس القيصريين وتقدم سيطرتهم على المضائق ووصولهم إلى البحار الدافئة، فخشيت أن تؤدي معاهدة سان استيفانو إلى زوال الامبراطورية العثمانية وظهور العملاق القيصري الروسي كقوة جديدة... فكان أن سارعت إلى عقد معاهدة سرية مع تركيا نالت بموبها جزيرة قبرص مقابل تعديل شروط المعاهدة المذكورة. وبالفعل، فقد دعت بريطانيا إلى التخفيف من قيود معاهدة سان استيفانو واستطاعت إقناع القيصر الروسي بذلك، فكان أن عقد مؤتمر برلين في العام نفسه، حيث جر التوقيع عليها بتاريخ 713 واستعيض عن المادة 16 بالمادة 61 التي تنص على: «يتعهد الباب العالي دون أي تأخير، بتحقيق الإصلاحات وإدخال التحسينات التي تقتضيها ظروف المقاطعات التي يقطنها الأرمن، وبضمان سلامتهم، وسيقدم الباب العالي ـ دوريًا ـ بيانًا بالخطوات التي يتخذها بهذا الصدد إلى الدول المعنية بمراقبة عملية تنفيذ هذه الطلبات» [الأرمن عبر التاريخ: ص396/ 397].

(1) الأرمن عبر التاريخ، ص56، عن كتاب «تاريخ الأمة الأرمنية» لمؤلفه: ك.ل. استارجيان.

الفريق الثاني بـ «العميل» ويتوعد بإطلاع الرأي العام العالمي والأرمني على «تفاصيل كاملة حول (دوره) في الاستخبارات الأميركية ضد قضايا الشعوب المضطهَدة، خصوصًا في لبنان»، بينما يرد الثاني (الطاشناق) فيقول بأن هذا الاتحاد ليس سوى منظمة الجيش السري الأرمني[1] ويتهمه بالارتباطات المشبوهة والأعمال التآمرية[2]. كما يرى حزب «الطاشناق» أن ما يفعله «اتحاد الثوار الأرمن ـ الحركة الثورية» هو «حلقة من ضمن المؤامرة التي تستهدف الوطن اللبناني والطائفة الأرمنية عن طريق زرع الشقاق في الطوائف اللبنانية وضربها بعضها ببعض وزجها في أتون الصراعات الطائفية الدموية المدمرة (...)»[3] و«الحقيقة الجلية» في رأي «الطاشناق» هي «أن شن الحملات وتوجيه الضربات (إليه) يرمي إلى تفكيك وحدة الطائفة الأرمنية ويخدم مصالح تركيا صانعة الإبادة الأرمنية»[4]. وكذلك يهم حزب «الطاشناق» أن يؤكد على أنه «يعمل وسيعمل بكل الإمكانات والوسائل مكافحًا لتحرير الأرض الأرمنية السليبة ونيل الحقوق من تركيا الغاصبة»[5].

لقد وقعت هذه «الحرب البيانية» بين الفريقين المذكورين إثر اغتيال ثلاثة من عناصر حزب «الطاشناق» هم: وارتكس دير قره بديان وليفون بربريان ونرسيس خودافرديان وخطْف رابع هو هاكوب برصوميان ـ تمَّ ذلك في أواخر سنة 1985.

وفي لبنان أيضاً، كانت الصحف اللبنانية قد طالعتنا، صباح

(1) جريدة «النهار» 1 ـ 2 ـ 1987.
(2) جريدة «النهار» 31 ـ 1 ـ 1987.
(3) جريدة «النهار» 31 ـ 1 ـ 1987.
(4) نفسه.
(5) نفسه.

الثلاثين من أيام 1986، بالنبأ التالي: «بدأ أمس (الخميس 29 ـ 5 ـ 1986) الأرمن في لبنان إضرابًا عامًّا شمل كل المدارس والمؤسسات التجارية في بيروت والمنطقة الشرقية وجبيل، استنكارًا لاغتيال خمسة مواطنين أرمن في الغربية (الشطر الغربي من بيروت) كان آخرهم طبيب الأسنان فاهي هيكازجاراجيان والمصور كريكور أوهانس.

«وجال عدد من الرؤساء الروحيين للطوائف الأرمنية[1] على المسؤولين والمراجع في المنطقة الغربية الذين دانوا هذه الاعتداءات وأكدوا ضرورة وضع حدٍّ لها».

أضاف النبأ:

وصدر بيان عن رؤساء الطوائف الأرمنية الذين اجتمعوا وتشاوروا في «الموجة المعادية لأبناء الطائفة الأرمنية في بيروت الغربية» جاء فيه:

(إن هذه المحاولات الأليمة ضد أبنائنا الذين يعملون من أجل وحدة لبنان وتقدمه وازدهاره تؤلمنا وتدمي قلوبنا. ونحن واثقون بأنها تؤلم أيضًا قلوب جميع اللبنانيين المخلصين. ونؤكد على تمسّكنا بلبنان وطن المحبة والأخوّة والعيش المشترك بين جميع الأديان السماوية الثقافات المختلفة).

وقال البيان أيضًا:

«وناشد رؤساء الطوائف الأرمنية السلطات اللبنانية والجهات المسؤولة ولا سيما رؤساء الطوائف في المنطقة الغربية من بيروت أخذ

(1) هم المطران آرام كشيشيان عن الطائفة الأرمنية الأرثوذكسية، والمطران اندرياس بدوغليان عن الطائفة الأرمنية الكاثوليكية، والقس ابراهام سركيسيان عن الطائفة الأرمنية الإنجيلية، والنائب سورين خان أميريان وعدد من الفاعليات الأرمنية.

كل الخطوات الفورية والفعالة لوضع حدٍّ لمثل هذه الممارسات الشاذة»[1].

عندما حاولتُ المقارنة بين نداء الرؤساء الروحيين للطوائف الأرمنية، وبياني «الطاشناق» و«اتحاد الثوار الأرمن ـ الحركة الثورية»، تملَّكني الخوف على الأرمن اللبنانيين الذين لي فيهم أصدقاء كرام ونبلاء. فما إن شعرت بالاعتزاز وأنا أنظر إلى الوفد الأرمني الذي شملت جولته القيادات الروحية والسياسية في بيروت الغربية، حتى عاجلتني «الحرب البيانية» ـ التي أشرنا إليها ـ بسهم حاد أصاب مني هذا الشعور الرائع، فقلت حينئذٍ: إن عمليات الإبادة العنصرية (Genocide) التي نفِّذت في الأمة الأرمنية خلال عقدين من السنين (1894 ـ 1915)، ليست غلطة الامبراطورية العثمانية والدولة التركية الكمالية فحسب، بل هي غلطة العالم الحر أيضًا، فضلاً عن غلطة الأرمن أنفسهم.

فهل للأرمن أن يتذكروا مقولة خريميان هايريك، ويدركوا أن هذا العالم قد شُلَّت أخلاقه، وتعطّل ضميره، وقتِلت النزعة الإنسانية التي كانت فيه؟

إنّ أعجب ما في المسألة الأرمنية ـ إذن ـ هو أن البحث عنها لا بد أن ينتهي بسؤال ربما لن نجد جوابًا عنه.

(1) صحف 30/ 5/ 1986، وأيضاً صحف 31/ 5 و1، 2، 3، 4، 6 ـ 1986.

الخاتمة

من الواضح أن عالَمَ الراهب اللبناني قد وَسِع أو أن حدوده تمددت وانبسطت، فلا الأسوار التي ضُربت حول الديْر بقيت تطوف في النفوس مثلما كانت، ولا الراهب ظل على اعتقاده أن الدنيا - بكل ما فيها - من الديْر تبدأ وعند الديْر تنتهي.

لقد جاور الرهبان السماء والحقول، وسكنوا قمم الجبال وبطونها عندما كانت الجبال وعرة والوديان سحيقة والحياة غير معقّدة؛ فكان الدير - آنذاك - عالَمًا قائمًا بذاته، مستقلاً استقلالاً تامًّا ناجزًا تدور فيه الحياة دورة شبه كاملة: من العمل في الحقل، إلى الدراسة، إلى الصلاة، إلى غرفة الطعام، إلى غرف النوم، وإلى الاجتماع في الصالون أو في المكتبة. على أن النظام هو السيد دائمًا أبدًا.

فمَن دخل الدير انسلخ من ثيابه وتجرّد من أهله وأصدقائه وذويه لكي يلتصق بالله ويلتحم بإخوانه الرهبان. فإذا كانت الدنيا الدانية هي تحقيق الرغبات كافة والصراع على المادة ومن أجلها، فإن الرهبانية هي قهر الذات وهي التقشف والوحدة والقضاء على الأهواء والشهوات.

وإذ يقول المسيح: «مَن أتاني ولم يرغب عن أبيه وأمه وامرأته وبنيه وإخوته وأخواته بل عن نفسه أيضًا، لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا، ومن لم يحمل صليبه ويتبعني لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا، ولا يستطيع أحد منكم أن يكون لي تلميذًا إن لم يتخلّ عن جميع أمواله»؛ فالرّهبانية هي العفة والفقر والطاعة، مما يعني أن لا قصور ولا

ترف ولا جشع ولا حسد ولا حقد ولا تقاتل ولا تذابح ولا كذب ولا رياء، مثلما في الحياة العامة. وأنّى لغير الراهب أن يكون تلميذ المسيح؟ فالمدرسة بعيدة، والمعلِّم متطلب.

ويمكننا القول إن المسيحية ـ برغم كونها عقيدة صعبة التّحقيق ـ قد استمرت بفضل الرهبان والراهبات الذين تخلوا فعلاً عن كل ما لديهم، فكانوا للمسيح تلاميذ وتابعين، إذ لولاهم لقضي على المسيحية منذ الفتح الإسلامي، وعمّ الإسلامُ بلاد المشرق كافة. فما بالك لو أن المسيحية بقيت موحّدة، والكنيسة ظلت جامعة؟

صحيح أن انحطاط كنائس أنطاكية والقسطنطينية وأورشليم (القدس) والاسكندرية جعل المسيحيين ينقسمون على أنفسهم حتى أصبحوا فرقًا وطوائف متعددة، إلا أن أيًّا من هذه الفرق والطوائف لم يتخلّ عن المسيحية، وإن اختلفت السبل والمناهج. فهذه ـ على كل حال ـ من الطرق التي تؤدي إلى المسيح، وليس سهلاً اتهام مسيحي أو جماعة من المسيحيين بالهرطقة أو الخروج عن تعاليم المسيح أو التآمر على الكنيسة الأم لمجرد رأي قاله فجاء مختلفًا عن الرأي السائد. فالجميع مسيحيون، لا فضل لهذا على ذاك إلا بما أعطى المسيح والمسيحية، إلا الذين تراجعوا أو ضعفوا أو خدعتهم المادة فانحرفوا إلى غاية أخرى، أولئك هم أعداء الكنيسة وأعداء المسيح، سواء اعتنقوا دينًا آخر أو هم ظلوا يدّعون المسيحية.

نتهم مَن؟

في الحقيقة، الرهبانية لا تتّهم أحدًا ولا هي تحتمل أن يتهمها أحد ما دامت مع المسيح بعقلها وقلبها. ولأن المسيح هو فوق اللاهوت والفلسفة، فإن المسيحي، سواء كان نسطوريًّا أو أرثوذكسيًا أو كاثوليكيًّا أو بروتستانتيًّا أو من شهود يهوه، عندما لا ينحرف بأخلاقه وأعماله عن

الخط الذي رسمه له المسيح، هو أيضًا فوق اللاهوت وفوق الفلسفة؛ فلماذا لا يكون اللاهوت لجمع الشّمل والاتحاد والتماسك والتسامح بدلاً من أن يكون هو الديّان والقهّار والمحاسِب والمُجازي؟

إن جميع الذين عرضْنا لهم في هذا الكتاب هم مسيحيون بكل تأكيد. فما قدّمه الواحد منهم لا يختلف ـ من حيث الجوهر ـ عما قدمه الآخر، بل يتفق معه أو يكمّله، وإن بدت العناوين كأنها تحتفظ بأشكال النزاع والشقاق، وتصر على إقناعنا بأن الأهداف متباعدة متنافرة. وربما ظهرت منّا عاطفة هنا أكثر من هناك أو مَيل إلى هذا دون ذاك، ولكن الحقيقة ليست كذلك تمامًا. الحقيقة هي أننا نرى المسيحية من خلال ما أنجزه أولئك الأشخاص الذين درسْنا بعض أعمالهم وليس من خلال نظريات لا شأن لها إلا تعقيد الأمور وتأزيمها.

فالمسيح هو في دير الشّرفة كما في دير الزعفران، وفي المعهد الأنطوني كما في معهد الرسل وزهرة الإحسان ومدرسة الحكمة ومدرسة البشارة وجامعة الروح القدس وثانوية مار سويروس والمدرسة الإنجيلية ومعهد القديس بولس وسائر المدارس والمعاهد المسيحية. وهو في دير الصليب كما في دير سيدة الدخول ـ الأشرفية، ودير سيدة اللويزة، ودير راهبات المحبة اللعازاريات الأشرفية، ودير مار مارون عنّايا، ودير الكرَيْم، ودير بزمّار، ودير البلمند، ودير مار سابا، ودير مار مرقس، ودير مار متى، ودير مار سمعان، ودير مار الياس، ودير مار موسى، ودير مار أنطونيوس، ودير مار اشعيا، ودير مار يعقوب، وفي كل الأديار وبيوت الرهبان والرواهب.

والمسيح أيضًا هو في الكنيسة السّريانية الأرثوذكسية كما في الكنيسة السريانية الكاثوليكية. وفي كنيسة الروم الأرثوذكس كما في كنيسة الموارنة وكنيسة الروم الكاثوليك، وفي الكنيسة الآشورية النسطورية كما

في الكنيسة الكلدانية، والكنيسة المعمدانية، والكنيسة القبطية، والكنيسة الأرمنية.

ولكنه ليس في النفوس التي لها نزعة إلى التسلط والعداء والخصومة والجدل والمماحكة والاحتكار والاستغلال.

لست أدري ما حاجة المسيح إلى المذاهب والأحزاب.

كلُّنا ينظر إلى المسيح، إلا أن الطريق إليه لا يستطيع أن يسلكها سوى الذي «يتخلى عن كل شيء» كما يقول المسيح نفسه.

ولعل البُعدَ الذي بيننا وبين المسيح هو الذي شجع على قيام الأحزاب والمذاهب المتضاربة، مما أعيا المسيحية وأضعفها حتى في أكثر الأماكن حاجة إليها.

فإذا كانت أجراس الكنائس - أينما وُجدت - تدعو إلى مسيح واحد، فلماذا هذه العناوين والأسماء إذًا؟

تستطيع الإنسانية - اليوم - الادّعاء أنها جرَّبت أفكارًا ونظريات كثيرة، إلا أن أيًّا من هذه الأفكار والنظريات لم يصمد طويلاً. فهل من رجوع إلى الوراء، أم هنالك مفاجآت قد تقلب المفاهيم التي باتت شبه ثابتة؟

في الشرق غليان ديني وثورات وانفجارات كثيرة، وفي الغرب غليان مادي وتسارع إلى احتلال الفضاء، وكلاهما لم يعرف الاستقرار ولا الهدوء.

وترى الأديان والمذاهب والعقائد كلها متورطة وهي تتصرف في الأمور على غير بصيرة. لكن سؤالاً كبيرًا يبرز برغم الاضطرابات التي نعاني، ألا وهو: المسيحية إلى أين؟

وإذ نتلمس الجواب، لا بد لنا من الاعتراف - قبل أي شيء - بأن

المثالية هي كالغيث الهزيم الذي لا يُستمسك؛ فالدليل القاطع على ما نقول هو الخراب أو الدمار الذي حلّ بتلك الأديرة النَّصرانية التي كانت ملء المشرق، على ما جاء في الكتب لا سيما «اللؤلؤ المنثور» لمؤلفه البطريرك أفرام الأول برصوم، حيث يخبرنا أن ثلاثة وثمانين ديْرًا كانت تغطي هذه المساحة الواسعة من الأرض المشرقية قد أزيلت ما عدا النزر القليل منها؟ ولعلّ الضّربة التي أصيبت بها الكنيسة الغربية لا تقل خطورة عن تلك التي نزلت بالكنيسة الشرقية. وكما هنا كما هناك، الكنيسة الواحدة صارت كنائس والمسيحيون تفرّقت بهم الطرق.

كل الأديان والأحزاب المادية تطارد المسيحية. وهي تعمل - منفردة أو متضامنة - على إزالة هذه العقيدة التي لا تبشر بقوة السيف ولا تحمل النَّاس على تصديقها قهرًا.

لذلك، ستبقى المسيحية في دائرة الخطر الدّائم ومواجهة العدو الطَّبيعي ذي الرؤوس المتعددة، وليس لها إلا أن تصمد وتصبر على الآلام والمعانيات والمحن. وكما الغاية العظيمة تتطلب وسيلة عظيمة مثلها، كذلك المسيحية تعتمد المحبّة التي هي في الحقيقة قليلة الوجود.

سلاح المسيحية لا تصنعه الفبارك، ولا هو يخرج من الأرض فيتخذ شكلاً أو حجمًا لونًا معينًا.

سلاحها هو حب الغير والتّجسير بين الإنسان والإنسان حتى لا يكون هنالك واحد بعيد وآخر قريب. وإذا ما استطاع المرء اكتشاف هذا السلاح، فإنما يكون قد اكتشف ذاته أو عرف مكانته التي من خلالها سيتعرف إلى مكانة الغير ويحبها ويحترمها. فمتى عرَف أحَبَّ، ومتى أحَبَّ أعطى، ومتى أعطى اطمأن، ومتى اطمأن استقر، ومتى استقر سلِم من كل عيب وآفة.

على أن السلامة تشمل الجسد والنفس. معنى هذا أنك مسيحي بمقدار ما أنت نقي وطاهر ونظيف وكريم وشجاع ومتواضع.

ليست مصادفة، إذًا، أن تُنقَر الصُّخور وتسوّى الكهوف وتُبنى الأديار على القمم أو في بطون الأودية، فهناك السلامة، وهل ينال هذه النعمة سوى القديسين؟

وليس مصادفة أيضًا أن يهرب إلى لبنان مَن تبقى من المسيحيين المشرقيين لكي يحافظوا على مسيحيتهم. وربما تمّ في لبنان أكبر تجمع مسيحي مشرقي سوف لن يقوم إلا إذا أدرك المسيحيون حاجتهم الماسّة إلى الوحدة التي تفترض التّسامح بل التّنازل عما يحسبه كل فريق منهم حقًّا له مُنزَلاً مقدَّسًا.

المسيح واحد، والمسيحية واحدة.

فلماذا عجز المسيحيون ـ حتى الآن ـ عن تحقيق الكنيسة الجامعة؟!

لا بد أن العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها هي التي حرّضت على قيام هذه الكنائس المتعددة المتضاربة.

فهل أن اجتماعهم في جزء من لبنان ـ إذا ما تمّ ـ سيجعلهم إخوانًا روحًا وعقلاً فيضعون حدًّا لهذا العجز التاريخي القديم، ويبعثون من هنا إلى العالم المسيحية الصّافية الموحّدة، أم أنهم سيوغلون في الشِّقاق والخصومة والخلاف والفُرقةِ ويكتبون على أنفسهم مزيدًا من البؤس والشقاء؟

إنه التَّحدي الكبير الذي يطرحه كتابنا هذا: (رسالتي إلى المسيحيين).

مصطفى

فهرس المحتويات

الإهداء 5

مقدمة 7

حديث مع المسيح 13

الفصل الأول: كاهِن وَرسَالة

الأب يُوسف الشدياق 19

الفصل الثاني: أسقُف ورسَالة

في مَعهد الرّسُل 49

الفصل الثالث: مَدينة ليسَت من العالم الثالِث

مع الأب مَارُون صَدقة 97

الفصل الرابع: نساء الإحسان

عجَلة الزمَان 135

الفصل الخامس: راهبَة ورسَالة

«السيدة» حامِيَة الأشرفيّة 167

الفصل السّادس: شربل الذي انتصر على شربل

شربل الذي انتصر على شربل 195

الفصل السابع: فرنسيس الغزيري

الصّلِيبَان 207

الفصل الثامن: دَمَعَةُ حُزنٍ وبطاقةُ رحْمة

دَمَعَةُ حُزنٍ وبطاقةُ رحْمة 225

الفصل التاسع: الرّوم الكاثوليك

الرّوم الكاثوليك 237

الفصل العاشر: السّريَان: شعبٌ ومَواقِف

بيَان الزيارة 259

الفصل الحادي عشر: المسألة الأرمنية ما لها وما عليها

المسألة الأرمنية ما لها وما عليها 323
الخاتمة 361
فهرس المحتويات 367

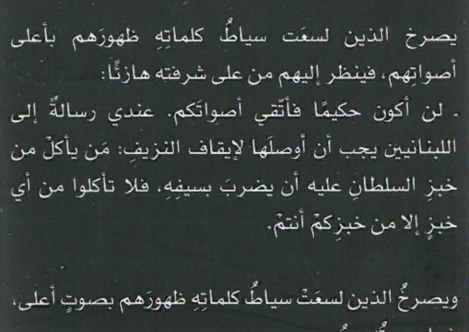


مصطفى جحا

كاتب لبناني جنوبي، من مواليد 1942
تميّز بمواقفه وآرائه الحرة.
ترك منطقة الجنوب بعد ظروف أليمة مرّ بها لينتقل إلى ما كانت تُسمّى حينها «الشرقيّة».
له العديد من المؤلفات بالإضافة إلى مقالات كانت تُنشر في الصحف.

1992
تحوّل الحبر دماً
وسقط القلم من يد مصطفى جحا.

هاتف: 03059543
تلفاكس: 05602798



يصرخ الذين لسعَت سياطُ كلماتِهِ ظهورَهم بأعلى أصواتِهم، فينظر إليهم من على شرفته هازئًا:
- لن أكون حكيمًا فأتّقي أصواتَكم. عندي رسالةٌ إلى اللبنانيين يجب أن أوصلَها لإيقاف النزيفِ: مَن يأكلُ من خبزِ السلطانِ عليه أن يضربَ بسيفِهِ، فلا تأكلوا من أي خبزٍ إلا من خبزِكمْ أنتمْ.

ويصرخُ الذين لسعَتْ سياطُ كلماتِهِ ظهورَهم بصوتٍ أعلى، فيعلو صوتُه بعدُ:
- عندي رسالةٌ إلى اللبنانيينَ: مَنْ جعَلَ نفسَهُ عَظْمًا أكلَتْهُ الكلابُ.

ويصرخُ الذين لسعَتْ سياطُ كلماتِهِ ظهورَهم بصوتٍ أعلى، فيعلو صوتُه بعدُ:
- عندي رسالةٌ إلى اللبنانيينَ: أجناؤها أبناؤها.

ويصرخُ الذين لسعَتْ سياطُ كلماتِهِ ظهورَهم بصوتٍ أعلى، فيعلو صوتُه بعدُ:
- عندي رسالةٌ إلى اللبنانيينَ: لكلِّ جوادٍ كبوةٌ.

ويصرخُ الذين لسعَتْ سياطُ كلماتِهِ ظهورَهم بصوتٍ أعلى، فيعلو صوتُه بعدُ:
- عندي رسالةٌ إلى اللبنانيينَ: لا تجعلوا البُغاثَ بأرضكم يستنسرُ.

ويصرخُ الذين لسعَتْ سياطُ كلماتِهِ ظهورَهم بصوتٍ أعلى، فيعلو صوتُه بعدُ:
- عندي رسالةٌ إلى اللبنانيينَ: ليصالِحِ الشيعةُ ابنَ تيمية، ولتتوحَّدِ الكنائسُ في كنيسةٍ واحدة.

ويصرخُ الذين لسعَتْ سياطُ كلماتِهِ ظهورَهم بصوتٍ أعلى، فيعلو صوتُه بعدُ:
- عندي رسالةٌ إلى اللبنانيينَ: وطنُكُمْ أوّلاً.

وبدل أن يصرخَ الذين لسعَتْ سياطُ كلماتِهِ ظهورَهم بصوتٍ أعلى، فيعلو صوتُه بعدُ، صمتَ هؤلاءِ بعد أن أَصمَتوهُ عام ١٩٩٢.

مصطفى مصطفى جحا